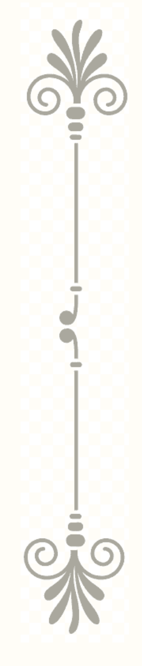


دراسة تحليلية تتناول
(الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما وَلِيَ الأداة، وما وَلِيَ المنادَى)

الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

وقد أضفت إليه فوائد سمعتها من الأستاذ الدكتور العلامة
إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفوائد أخر متفرقة





أساليب النداء

في القرآن الكريم

أساليب النداء

في القرآن الكريم

دراسة تحليلية تتناول

(الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة، وما ولي المنادَى)

الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

وقد أضفت إليه فوائد سمعتها من الأستاذ الدكتور العلامة

إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفوائد أخر متفرقة





الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ٢٠١٠٣/٢٠٢٠

الرقم الدولي: 978-977-6838-54-3



@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 -0502357979



مُقَدِّمَة:

الحمد لله ربِّ العالمين، القريب من عباده التائبين، المجيب دعوة السائلين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وقدوة الخلق أجمعين، ومبين آيات الذكر الحكيم.

أما بعد: فإن القرآن الكريم هو خطاب الخالد المنزل للعالمين، هدى ورحمة وتبيانًا لكلِّ شيء، يهدي للتي هي أقوم، وينير بصائر السالكين.

وهو دستور هذه الأمة، فمنه يستمد المسلمُ عقيدته، وبه يعرف عبادته، وما يرضي ربه عَزَّوَجَلَّ، وفيه ما يحتاج إليه من التوجيهات والإرشادات في الأخلاق والمعاملات. يخاطبُ النَّفس البشريَّة من كلِّ مداخلها، يخاطب الإنسان ويكرِّمه، ففيه: الأمر والنَّهي والاستفهام والعرض والتَّمني، والدعاء، والنِّداء، والتَّرجي، والتَّمني، والنَّفي..الخ.

وفيه: التَّوجيهُ والتَّعليمُ والتَّشخيصُ والقصَّةُ والعبرةُ، والآيةُ الكونيةُ والحجَّةُ والدَّليلُ. يدخلُ قلبَ المؤمن حتَّى يتمكَّن منه فيزيده إيمانًا وطاعة.

ويتميَّزُ النداء من بين أساليب الخطاب القرآني بأنَّه عميقُ التَّأثير، يلامسُ الأحاسيسَ الإنسانيَّة، ويثيرُ الأفكارَ العقليَّة، فيؤسِّسُ فيها القناعة..

كما أنَّه يتنوَّعُ بما يتلاءم مع حال المخاطبين واستجابتهم؛ فإنَّ وجوه المخاطَبات في القرآن الكريم فيها التَّوافق التَّامُّ مع المقام ومقتضى الحال.

ولا يحتاجُ المرءُ لكثيرِ تدبُّرٍ ليلحظَ ذلك التَّنوع، ويتبيَّنُ للباحث من دراسةِ هذه النُّصوصِ أنَّ هذا التَّنوعَ لا يجري عبثًا، بل إنَّه يأتي دائمًا بحيثُ يعبِّرُ بأقصى درجاتِ الدِّقةِ، وبحساسيَّةٍ بالغَةٍ عن تغيُّر المعنى المراد تبعًا للمواقفِ والموضوعات والمخاطَبين، وبما يليقُ بجلالِ ربوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وبما يناسبُ قدر المخاطب أو المخاطَبين. كما أنَّ التَّنوعَ يتلاءمُ مع



مقتضياتِ المعاني والألفاظ، ومع طبيعةِ المخاطَبين، ومكانة المخاطِب -بكسر الطاء المهملة-، والمخاطَب -بفتح الطاء المهملة-.

والإنسان مدنيٌّ بالطبع، لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم لبعض في مصالح الدارين[1]. قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع؛ لأنَّ الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة، حتى أن هذا يحرث، وذلك يطحن، وذلك يخبز، وذلك ينسج، وهذا يخيط. وبالجملة فيكون كل واحدة منهم مشغولًا بمهمٍّ، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع"[2].

واللُّغة جاءت لحاجة المخاطَبين بعضهم لبعض. والأصل عندما تضع اللُّغة كلمةً لإفادة معنى من المعاني أن تضعها لأوَّل حاجة الإنسان المخاطَب، فأوَّل ما يحتاج الإنسان إلى التَّعامل مع الكون المحيط به.

والأصل أن يكون ذلك الوضع للحاجات المحسَّة. ولنفترض أن معنا واحدًا من النَّاس فقط في بيئته، فعندما نريد أن يصبح بيننا وبينه تفاهم، ولنفترض أنَّنا نخاف عليه من حيوانٍ مفترسٍ واقفٍ أمامنا فإننا نشير له بما يفيد الابتعاد عنه، وعندما نشير له بذلك إنما نشير له على شيءٍ محسوس، فإنَّنا نضع للحيوان اسمًا بحيث لو كان المخاطَب لا يرى إشارتنا يفهم من الكلمة التي سنضعها أنَّ الذي أمامه حيوانٌ مفترس، أو الذي سيأتيه مثلًا: أسدٌ. فأسد؛ لتنبه المخاطَب، فاصطلحنا أنَّ الحيوان المفترس (أسد)، فعندما أقول: (أسد) ينظر إلى هذا الحيوان.

والنِّداءَ وسيلةٌ من وسائلِ الاتِّصال بين البشر، وهو يحقق أهدافًا، كالتحذير والتنبيه والإرشاد.. إلى غير ذلك. وفيه ما يدلُّ على اجتماعيَّة اللُّغة العربيَّة من حيث تنوع أدوات النداء بما يتوافق مع الحال، ويحقق الغاية منه.

والنداء لا يُستغنى عنه؛ لأهميته والحاجة إليه؛ ولذلك كثر استخدامه بين البشر، ولكنه تميز في اللغة العربية بالتنوع، حيث تختلف الأداة والأسلوب بما يتناسب مع الغرض والمقام والحال، وذلك من خصائص اللغة العربية التي أضفت على أساليب الخطاب بُعْدًا وتميزًا عن سائر اللغات الأخرى.

---

(١) انظر: فيض القدير (٦/٢٥٢).

(٢) تفسير الرازي (٢٦/٣٨٦)، وانظر: المقدمة، لابن خلدون (٤١- ٤٣).



واللغة العربية هي لغة القرآن الكريم المنزل، وقد كثر استخدام النداء في القرآن الكريم، وتميز من بين أساليب الخطاب الأخرى بأنَّه عميقُ التَّأثير، يلامسُ الأحاسيسَ الإنسانيَّة، ويثيرُ الأفكارَ العقليَّة، فيؤسِّسُ فيها القناعة، فهو ينبه المخاطَب إلى ما ينفعه، ويصلح أحواله في الدارين، ويؤنسه بالقرب من المنادِي.

كما أنَّه يتنوَّعُ بما يتلاءم مع حال المخاطبين واستجابتهم؛ فإنَّ وجوه المخاطَبات في القرآن الكريم عامة فيها: التَّوافق التَّامُّ مع المقام ومقتضى الحال.

قال الإمام عزُّ الدين بن عبد السَّلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النِّداء تنبيه للمنادى؛ ليسمع ما يلقى إليه بعد النِّداء من الكلام؛ ليعمل بمقتضاه؛ ولذلك كثر النِّداء في القرآن"(١).

إنَّ النِّداء هو من أنواع الخطاب القرآني المباشر، وإنَّ التَّعرف على أساليب الخطاب القرآني المباشر تعرُّفٌ على أبلغ أنواع الخطاب مع الآخر، ينبه المنادَى إلى أهمية الخطاب بأسلوب يناسب حال المنادَى من القرب أو التوسط أو البعد.

ولبلاغة النداء في القرآن الكريم أوجه متنوعة من حيث ما يتضمنه الخطاب من التَّلوين، والتَّناسق، والأمر أو النَّهي، والتَّوجيه والإرشاد، والحوار، والتَّحذير، والتَّرغيب والتَّرهيب، وما في ذلك كله من التَّوافق التَّامُّ مع المقام ومقتضى الحال.

فتبين أن وظيفة النداء تكمن في كونه وسيلة للتَّواصل بين النَّاس؛ إمَّا للحوار بينهم، وإمَّا لأغراض أخرى تفهم من السِّياق أو السِّباق. وافتتاح الكلام بالنِّداء دليل على الاعتناء والتَّنبيه بما سيلقى على المخاطَب —بفتح الطاء المهملة-، وكأنَّه يُعِدُّ نفسه ويهيئها لتلقِّي ما يقال له.

وفيه حَثٌّ على الاهتمام بموضوع الكلام، ودعوةٌ للتَّبصر بما ولي المنادَى، فيكون ما فيه من التَّنبيه، ومعاني الاتِّصال والقرب من المنادِي أدعى إلى استجابة المنادَى، وإلى التنبه والتأمل لما يحويه ذلك الخطاب من المعاني والقيم، وهو متيقِّظ فطن، وعلى بصيرة بالعاقبة والمآل لمن استجاب أو أعرض.

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (ص:٢١٧).

فإذا تقرَّر أنَّ النداء من وسائل الاتصال بين المنادِي والمنادَى، وهو من وسائل التواصل بين البشر فإنَّ اللغة وحدها لا تكفي في تلبيةِ الحاجات؛ لاختلاف الغاياتِ والمصالح بين المخاطَبين، فما يتضمنه الخطاب –والحالة هذه– قد لا يكون مصلحة للمخاطب أو خيرًا له.

فما يميز الخطاب الإلهي أنه خطاب من العالِم بأحوال العباد، وبما فيه خيرٌ ونفع لهم. وتسري مقاصد ذلك الخطاب الإلهي إلى من وفقه الله عَزَّوَجَلَّ للانتفاع بما تضمنه من روعة الأسلوب، وشرف الغاية.

فإذا تحقق الاتصال بين البشر من خلال النداء أو غيره من وسائل الاتصال فلا بدَّ في كل حال من قانون أخلاقي يكون منهجًا متبعًا؛ لأن الاجتماع مظنة التنافس والتنازع والاختلاف. وأهواء الناس متفرقة، ومصالحهم متباينة؛ فلذلك أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لفض النزاع بين البشر، ولإرشاد الناس إلى الحق والخير، ولبيان الباطل والضلال، وللارتقاء والسمو بأساليب الخطاب، من حيث الالتزام بضوابطه وآدابه، بما يحقق من التآلف بين البشر، والتعاون البناء.

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فثبت أن الإنسان مدني بالطبع. وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات. ولا بدَّ من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات، ويفصل تلك الحكومات. وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل. فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس. ثم إن ذلك السلطان –القاهر السائس– إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه، عظم ضرره على الخلق. فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه. وذلك يفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق. وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك. أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية، انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه"[1].

(١) المصدر السابق (٣٨٦/٢٦)، وانظر: المقدمة، لابن خلدون (٤١– ٤٣).



أسباب اختيار الموضوع:

حيث إنني قد أعددت موسوعة في (أساليب الخطاب في القرآن)، فقد رأيت أن أفرد تنوع أساليب النداء بمزيد من العناية والاهتمام، وقد تناولت في هذه الدراسة بيان أداة النداء المستعملة في القرآن الكريم، وبيان المنادَى والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى، والدروس المستفادة.

وقد أضفت إلى هذه الدراسة ما يميزها عن الدراسات السابقة التي تناولت جانبًا من الجوانب، كالاهتمام باللغة فحسب، أو الوعظ والإرشاد، وأغفلت الجوانب الأخرى من التفسير.

وقد أضفت فوائد سمعتها من العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر في القاهرة- مما يثري البحث.

كما أنني عمدت إلى ترتيب النصوص على حسب الترتيب المصحفي؛ ليسهل الرجوع إليها. وكما حرصت على ترتيب آيات النداء فقد حرصت كذلك على تفسيرها تفسيرًا علميًّا تحليليًّا، ولم أغفل الجانب الإرشادي والدروس المستفادة.

وقد مهدت لدراسة النصوص ببيان معنى النِّداء، وتوضيح أهميَّته، وما له من مكانةٍ بارزةٍ في اللُّغة، ودور فعَّال في الحياة البشريَّة، وبيان تنوع أساليبه، وبيان ضوابطه وآدابه.

وكذلك كانت العناية والاهتمام كذلك بدراسة (ما ولي أداة النداء والمنادى)؛ وذلك لأنَّ النِّداء في القرآن الكريم إنما جاء بأداة واحدة، هي (يا) ظاهرةً أو مقدَّرة على الرَّاجح من الأقوال -على ما سيأتي- بخلاف الأمر والنَّهي -مثلًا- من أساليب الخطاب القرآني، والذي يأتي بأدوات وأساليب متعدِّدة، فبينت السبب والحكمة من ذلك.

وفي العناية بدراسة (ما ولي أداة النداء والمنادى) ما فيه من الأهميَّة ولفت المخاطَب إلى ما يعقب النِّداء من الأمر أو النَّهي، أو التَّوجيه أو الإرشاد، أو التَّحذير والإغراء، أو التَّرغيب أو التَّرهيب، وكذلك الإجابة عمَّا يرد على ذهنه من التَّساؤلات. وذلك يدلُّ على أنَّ الاتِّصال مع المخاطِب أو المنادِي ليس مجرَّد ادِّعاءٍ يدَّعيه المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-، وإنَّما هو استجابة لمجموعةٌ من الأوامر والنَّواهي والإرشادات والآداب وتخلق بالصِّفات التي تدلُّ على



تحقُّقِ معنى الإيمان في المخاطَب، وإذعانه وامتثاله لما تضمَّنه الخطاب، والوفاء لنِعَم المخاطِب عليه، وإحسانه إليه....الخ.

وربَّما تقدَّمت (جملةُ الأمر) (جملةَ النِّداء) كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وإذا جاءت (جملةُ الخبر) بعد النِّداء تتبعها (جملة الأمر) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]. وقد تجيءُ معه الجملُ الاستفهاميَّةُ والخبريَّةُ كقوله عَزَّوَجَلَّ في الخبر: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف:٦٨].

وفي الاستفهام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ [مريم:٤٢]، ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

وهنا فائدتان:

إحداهما: كلُّ نداءٍ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يعقبه فهمٌ في الدِّين إمَّا من ناحية الأوامر والنَّواهي التي عقدت بها سعادة الدَّارين، وإمَّا مواعظ وزواجر وقصص لهذا المعنى، كلُّ ذلك راجعٌ إلى الدِّين الذي خلق الخلقُ لأجله، وقامتْ السَّموات والأرضُ به، فكان حق هذه أن تدرك بهذه الصِّيغة البليغة.

الثَّانية: النِّداء إنَّما يكون للبعيد حقيقةً أو حكمًا. وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] لطيفةٌ، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّه كما ناداه ناجاه أيضًا، والنِّداء مخاطبة الأبعد، والمناجاةُ مخاطبةُ الأقرب، ولأجلِ هذه اللَّطيفة أخبرَ عَزَّوَجَلَّ عن مخاطبتة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء عَلَيْهَا السَّلَامُ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥].

وفي موضع: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [الأعراف:١٩]. ثمَّ لما حكى عنهما ملابسة المخالفة قال في وصف خطابه لهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]، فأشعر هذا اللَّفظ بالبعد لأجل المخالفة كما أشعر اللَّفظ الأوَّل بالقرب عند السَّلامة منها[1].

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٣- ٣٢٥)، وانظر: الكشاف (١/٢٢٦).



وبعد بيان أهميَّة النِّداء بـ: (يا)، والحكمةِ من استخدام هذا الحرف دون غيره، أذكرُ هنا ما يتعلَّق بصيغ النِّداء بـ: (يا).

و بادئ ذي بدء أذكر أمرين:

الأول: بيان عدد الآيات التي ذكرت فيها هذه الأداة، وهو: [٣٤٧].

وأمَّا عدد التَّكرار فهو: [٣٤٩].

والثاني: ما يتعلق بالتمثيل، فقد رتبتُ النماذج على حسب الترتيب المصحفي، عدا (نداء الأنبياء) عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ فإنها تأتي مرتَّبة على حسب التَّرتيب الزَّمني.

وبالنِّسبة للتَّمثيل في النِّداء العامِّ، فإن كان هذا العموم من وجه، فإني أذكر اسم السُّورة، ورقم الآية، من غير ذكر المثال نفسه، وذلك لكثرة الأمثلة -وذلك بغرض الاختصار- إلا إذا كان ذكر المثال يزيد الأمر وضوحًا.

وأسأل الله جَلَّ وَعَلَا القبول والإخلاص في القول والعمل، فهو وليُّ ذلك، والقادر عليه.

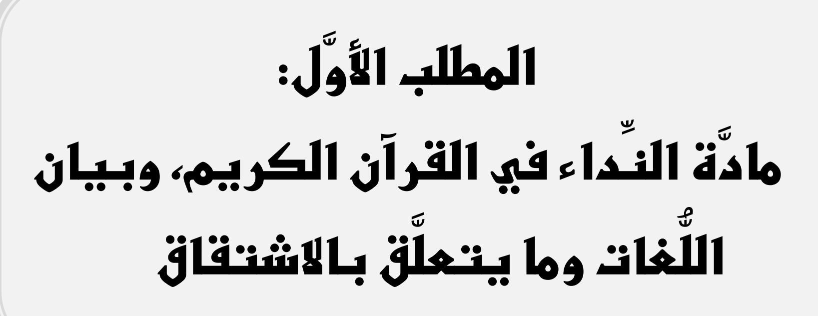
الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الكويت – حرسها الله









المطلب الأوَّل:
مادَّة النِّداء في القرآن الكريم، وبيان اللُّغات وما يتعلَّق بالاشتقاق



ويتضمَّن:

١ – مادَّة النِّداء في القرآن الكريم.

٢ – بيان أوجه النِّداء في القرآن الكريم.

٣ – بيان اللُّغات في لفظ النِّداء، وما يتعلَّق بالاشتقاق.

أوَّلا: مادَّة النِّداء في القرآن الكريم:

وأمَّا مادَّة (النِّداء) في القرآن الكريم فهي على النَّحو التَّالي:

﴿نِدَاء﴾ [البقرة:١٧١]، [مريم:٣].

﴿فَنَادَتْهُ﴾ [آل عمران:٣٩].

﴿مُنَادِيا﴾ [آل عمران:١٩٣].

﴿يُنَادِى﴾ [آل عمران:١٩٣].

﴿نَادَيْتُمْ﴾ [المائدة :٥٨].

﴿نَادَاهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢].

﴿نودوا﴾ [الأعراف:٤٣].

﴿وَنَادَوْا﴾ [الأعراف:٤٦]، [الزُّخرف:٧٧].



﴿نَادَى﴾ [الأعراف:٤٤ – ٤٨ – ٥٠]، [مريم:٣]، [الأنبياء:٧٦ – ٨٣ – ٨٩]، [الشُّعراء:١٠]، [ص:٤١]، [القلم:٤٨].

﴿نَادُوا﴾ [الكهف:٥٢].

﴿فَنَادَاهَا﴾ [مريم:٢٤].

﴿نَادَيْنَاهُ﴾ [مريم:٥٢]، [الصَّافات:١٠٤].

﴿نَدِيّا﴾ [مريم:٧٣][(١)].

﴿نُودِىَ﴾ [طه:١١]، [النَّمل:٨]، [القصص:٣٠]، [الجمعة:٩].

﴿نَادَيْنَا﴾ [القصص:٤٦].

﴿يُنَادِيهِمْ﴾ [القصص:٦٢]، [القصص:٦٥]، [القصص:٧٤]، [فصِّلت:٤٧].

﴿نَادِيكُمُ﴾ [العنكبوت:٢٩].

﴿نَادَانَا﴾ [الصَّافات:٧٥].

﴿فَنَادَوْا﴾ [ص:٣]، [القمر:٢٩].

﴿نَادَاهُ﴾ [النَّازعات:١٦].

﴿يُنَادَوْنَ﴾ [غافر:١٠].

﴿التَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢].

﴿يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات:٤].

﴿يناد﴾ [ق:٤١].

---

(١) النَّدي: المجلس، يقال: نديٌّ وناد، والجمع الأندية، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وتأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق:١٧]، و(النَّادي): المجلس يَنْدُو القوم حواليه، وهو النَدِي، والأندية جمعه. وسميت (دار الندوة) بمكة لبني هاشم؛ لأنهم إذا حزبهم أمر نَدَوْا إليها فاجتمعوا للتشاور. و(ندا فلان الناس): أي: دعاهم يندوهم. وقيل: (دار الندوة): دار الدعوة إلى الطعام. و(نادَيْتُه مناداة)، أي: جالسته. و(تنادى القوم)، جلسوا في ناديهم، وانتدوا: كذلك. انظر: تاج العروس، مادة: (ندا) (٤٠/٥٥)، مختار الصِّحاح، (ص:٦٨٨)، اللباب في علل البناء والإعراب (١/٣٢٨). ويتبين مما سبق الصلة الوثيقة بين النداء الذي هو الدعاء بأيِّ لفظ كان وبين النَّدي أو النَّادي الذي يدعى أو ينادى له.

﴿الْمُنَادِ﴾ [ق:٤١].

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ [الحديد:١٤].

﴿فَتَنَادَوْا﴾ [القلم:٢١].

﴿نَادِيَهُ﴾ [العلق:١٧].

ثانيًا: أوجه النِّداء في القرآن الكريم:

ذكر بعض المفسِّرين أنَّ النِّداء في القرآن على (ستَّة أو سبعة) أوجه:

أحدها: الأذانُ: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

الثَّاني: الدُّعاء: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٧٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:٨٣].

الثَّالث: التَّكليم[1]: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص:٤٦].

الرَّابع: الأمر: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠][2].

---

(١) ومن مراتب الوحي: "التَّكليم من وراء حجاب، كما كلَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ هذا (نداء) و(نجاءً) فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ [طه:١١-١٣]. وهذا التَّكليم مختصٌّ ببعض الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء:١٦٤]". مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٢/٤٠١).

(٢) ومما يستدلُّ به لذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤].



الخامس: النَّفخ في الصُّور: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١][(١)].

السَّادس: الاستغاثة: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٥٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف:٧٧][(٢)].

السَّابع: الوحي: وقد ألحق بعضهم وجهًا سابعًا فقال: و(النِّداء): الوحي: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢][(٣)].

---

(١) المنادي هنا (إسرافيل) عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينفخ في الصُّور. و(النِّداء) نفخه، سمِّي (نداء) من حيث إنَّه جعله علمًا للخروج وللحشر، وإنما يقع ذلك النِّداء كأذان المؤذن، وعلامات الرَّحيل في العساكر. وقيل: هو النِّداء حقيقة، فيقف على الصَّخرة، ويضع إصبعه في أذنيه، وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطِّعة، واللُّحوم المتمزِّقة، والشُّعور المتفرِّقة: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: (إسرافيل) ينفخ و(جبرائيل) ينادي بالحشر. انظر: تفسير الطبري (٣٨٢/٢٢)، ابن كثير (٤١١/٧)، الدر المنثور (٦١١/٧)، تفسير ابن جزي (٦٦/٤)، النَّسفي (٣٧٠/٣)، تفسير الرَّازي (١٥٥/٢٨)، القرطبي (٢٧/١٧)، البيضاوي (١٤٤/٥).

(٢) وقد اختلف المفسِّرون في أنَّ قولهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ على أيِّ الوجوه طلبوه؟ فقال بعضهم: على التَّمني. وقال آخرون: على وجه الاستغاثة، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العقاب. وقيل: لا يبعد أن يقال: إنهم لشدة ما هم فيه نسوا تلك المسألة تذكرة على وجه الطلب. انظر: تفسير ابن عادل (٢٩٥/١٧)، السِّراج المنير (٦٧٩/٣)، تفسير الرَّازي (٦٥١/٢٧). أقول: ثمَّ إنَّ مالكًا عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لهم: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزُّخرف:٧٧]. وليس في القرآن متى أجابهم؟ هل أجابهم في الحال أو بعد ذلك بمدَّة؟ وما مقدارُ المسافة بين المنادِي -بفتح الدال المهملة- والمنادَى -بكسر الدال المهملة-؟ وذلك لأنَّ القرآن لا يُعنى إلَّا بالمقاصد والمهمَّات، ولا علاقة للزمان والمكان والمسافة بالحدث، وكذلك لا يُعنى غالبًا بذكر الأشخاص، فعندما يذكر: فرعون -مثلًا- لا يذكرُ من هو؟ مع أنَّ فرعون لقب لجميع ملوك (مصر) في تلك الحقبة من الزَّمن؛ وذلك لما تقرر من أنَّ القرآن لا يعنى إلا بالمهمَّات والمقاصد الشَّريفة. وما يعنينا هنا ما قيل من أنهم إنما قالوا ذلك على وجه الاستغاثة.

(٣) انظر: نزهة الأعين النَّواظر في علم الوجوه والنَّظائر (ص:٥٩٣-٥٩٤). وفي (البحر): "وقال الجمهور: إنَّ النِّداء كان بواسطة الوحي". البحر المحيط (٢٨/٥). وينظر ذلك المعنى في (التَّحرير والتَّنوير) (٦٠/٨).

ثالثًا: بيان اللُّغات وما يتعلَّق بالاشتقاق:

(النِّداء) فيه ثلاث لغات أشهرها: كسر النُّون مع المدِّ، ثمَّ مع القصر، ثمَّ ضمُّها مع المدِّ، واشتقاقها من (ندى الصَّوت)، وهو بعده. يقال: (فلان أندى صوتًا من فلان) إذا كان أبعد منه صوتًا(١).

وفي (المصباح): "(النِّداء) الدُّعاء، وكسر النُّون أكثر من ضمِّها، والمدُّ فيهما أكثر من القصر"(٢) -وسيأتي مزيدٌ من التَّفصيل في بيان معنى (النِّداء) لغة-.

وفي (حاشية الصَّبان رَحِمَهُ اللَّهُ)(٣) ذكر أنَّ لغاته أربع حيث ذكر ذلك تعليقًا على ما جاء في (ألفيَّة ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ)(٤):

(بالجَرِّ وَالْتَّنْوِينِ وَالنِّدَا وَأَلْ***وَمُسْنَدٍ لِلاِسْمِ تَمْيِيزٌ حَصَلْ)(٥).

"فعلم أنَّ لغاته أربع، وأنَّ القصر في عبارة المصنِّف [يقصد ابن مالك] ليس للضَّرورة، بل على لغة، لكنَّ المكسور الممدود مصدرٌ قياسي، وغيره سماعي؛ لأنَّ قياس مصدر (فاعل) كنادى الفاعل والمفاعلة، وقد وجهت لغة الضمِّ والمدِّ بأنَّه لما انتفت المشاركة في (نادى) -كما لا يخفى- كان في معنى فعل بلا ألف، فمن ضمَّ ومدَّ لم

---

(١) شرح الأشموني على ألفيَّة ابن مالك (١٣٣/٣)، وانظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك (١٠٥١/٢).

(٢) المصباح المنير، مادَّة: (ندا) (٥٩٨/٢).

(٣) هو محمد بن علي الصبان، أبو العرفان، عالم بالعربية والأدب، مصري. مولده ووفاته بالقاهرة [١٢٠٦هـ]. انظر ترجمته في (الأعلام) (٢٩٧/٦)، فهرس الفهارس والأثبات (٧٠٥/٢)، معجم المؤلفين (١٧/١١)، عجائب الآثار، للجبرتي (١٣٧/٢).

(٤) هو محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدِّين، أحد الأئمَّة في علوم العربية. ولد في (جيَّان) بالأندلس، وانتقل إلى (دمشق) فتوفي فيها. أشهر كتبه (الألفية) في النَّحو..[٦٧٢هـ]". الأعلام (٢٣٣/٦)، وانظر: بغية الوعاة (١٣٠/١)، طبقات الشَّافعية الكبرى، للسُّبكي (٦٧/٨)، معجم المؤلفين (٢٣٤/١٠)، تاريخ الإسلام، للذَّهبي (٢٨٣/٥١)، شذرات الذَّهب (٣٣٩/٥)، فوات الوفيات (٤٠٧/٣)، نفح الطِّيب (٢٢٢/٢).

(٥) ألفية ابن مالك (ص:٩).



يراع جهة اللَّفظ المقتضية للكسر والمدِّ، بل راعى جهة المعنى؛ لأنَّ المصدر المقيس للفعل الدَّال على الصَّوت (فعال) كصراخ ونباح. وصَرَّح كثيرٌ بأن المضمومَ اسمٌ لا مصدر"[١].

وقد ناسب أن يعقب بيان اللُّغات في لفظ النِّداء، وما يتعلَّق بالاشتقاق ما يتعلَّق بمعنى النِّداء لغةً واصطلاحًا كأساسٍ لا بُدَّ منه، وبيان اهتمام المفسِّرين في تجلية ذلك المعنى.



(١) بقليل من التَّصرف عن (حاشية الصَّبان على شرح الأشموني) (٣٧/١).



المطلب الثاني
تعريف النِّداء لغة واصطلاحًا

أوَّلا: النِّداء لغة:

هو: الدُّعاء بأيِّ لفظٍ كان، وناداه مناداة ونداء، أي: صاح به. و(النِّداءُ) بالضَّمِّ والكسر.

وفي (الصَّحاح): "(النِّداءُ): الصَّوتُ، وقد يُضَمُّ مِثْلُ الدُّعاءِ والرُّغاء"[1].

وقال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(النِّداء): رفع الصَّوت وظهوره، وقد يقال ذلك للصَّوت المجرَّد، وإيَّاه قصد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً﴾ [البقرة:١٧١]، أَي: لا يعرفُ إلا الصَّوت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تَرْتِيبُ الكلام، ويقالُ للحَرْفِ الذي فُهِمَ منه المعنى ذلكَ. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء:١٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ [المائدة:٥٨]، أي: دعوتم، وكذلك: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

ونداء الصَّلاة مخصوص في الشَّرعِ بالألفاظ المعروفة، وقوله: ﴿أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، فاستعمال النِّداء فيهم تنبيهًا على بعدهم عن الحقِّ في قوله: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ﴾ [النمل:٨]، وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]، فإنَّه أشار بالنِّداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه تصوُّر نفسه بعيدًا منه بذنوبه..

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ندا) (٦/٢٥٠٥).



ثمَّ قال -أي: الرَّاغب-: "وأصل (النِّداء) من النَّدى. أي: الرُّطوبة، يقال: صوت ندي رفيع، واسْتِعارَةُ (النِّداءِ) للصَّوْت مِن حيثُ إنَّ مَنْ تَكْثرُ رُطُوبَة فَمِه حَسُن كَلامُه؛ ولهذا يُوصَفُ الفَصِيحُ بكَثْرة الرِّيق"[1].

و(نادَيْتُه) و(نادَيْتُ به مُنادَاةً ونِداءً): صاحَ به[2].

ثانيًا: النداء اصطلاحًا:

وأمَّا تعريف النِّداء في الاصطلاح فهو: "طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو)[3] ملفوظ به أو مقدَّر[4]. والمراد بالإقبال: ما يشمل الإقبال الحقيقيَّ والمجازي المقصود به الإجابة، كما في نحو: (يا الله)"[5].

والحاصل أنَّ النِّداء هو طلب المنادى بأحد حروف النِّداء.

والنَّحويون يرون في حرف النِّداء والمنادَى بعده جملة مقدَّرة، فقولك: (يا زيد) بمنزلة قولك: (أدعو زيدًا)، وهو من قبيل الإنشاء الوارد بصيغة الخبر. وقد نصَّ على ذلك السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (همع الهوامع)[6].

---

(١) بقليل من التصرف عن (مفردات ألفاظ القرآن)، مادة: (ندا) (ص:٧٩٧).

(٢) وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ندا) (٢٥٠٥/٦)، تاج العروس (٥٨/٤٠-٨٩)، ولسان العرب (٣١٣/١٥)، والمصباح المنير (٥٩٨/٢-٥٩٩)، وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني (١٣٣/٣).

(٣) انظر: المقتضب، للمبرد (٢٠٢/٤)، وانظر: الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (٣٤٠/١).

(٤) وعرَّفه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه "استدعاء المخاطِب المخاطَب إذا كان بعيدًا منه". نزهة الأعين النَّواظر (ص:٥٩٢)، وانظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٣٤/٢- ٣٣٥).

(٥) حاشية الصَّبان (١٣٣/٣).

(٦) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٣٢/٢)، وانظر: الأساليب الإنشائية في النَّحو العربي (ص:١٣٦). وفي (المغني): "حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة، أو حكمًا، وقد ينادى بها القريب توكيدًا. وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد. وقيل: بينهما وبين المتوسط، وهي أكثر أحرف النِّداء استعمالا؛ ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ...﴾ [يوسف:٢٩]". مغني اللَّبيب (ص:٤٨٨). وعند المالقي والمرادي حرف موضوع لنداء البعيد مسافة أو حكمًا. الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٣٥٤)، توضيح المقاصد (١٠٥١/٢). وسيأتي تحقيق ما يترجَّح من حيث المعنى بالنِّسبة لنداءات=



والحرف قد يكون ملحوظًا نحو: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٣]، أو مقدَّرًا نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ [يوسف:٢٩].

وهنا أورد صاحب الحاشية على الأشموني(١) اعتراضين ثمَّ أجاب عنهما:

قال: "ولا يرد: (يا زيد لا تقبل)؛ لأنَّ (يا) لطلب الإقبال لسماع النَّهي، والنَّهي عن الإقبال بعد التَّوجه. واعترض نيابة حرف النِّداء عن (أدعو) بأنَّ (أدعو) خبر، والنِّداء إنشاء، وأجيب بأنَّ (أدعو) نقل إلى الإنشاء"(٢).

ثالثًا: توضيح معنى النِّداء من خلال تفسير الآيات:

تتوجُّه العناية والاهتمام هنا إلى توضيح بعض المعاني المتعلِّقة بالنِّداء من خلال النصوص القرآنية ممَّا لا يُستغني عنه في هذا المجال.

ولعلَّ ممن أفاد وأجاد في التوضيح والبيان العلامة المفسِّر محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّحرير والتَّنوير). وقد رأيت أن أنقل بعض ما ذكره ممَّا يثري هذا الموضوع، وهو بمثابة نماذج تطبيقيَّة لتوضيح معنى النِّداء في الخطاب القرآني، وفيه نظرات رائعة لمعانٍ تتعلَّق بالنِّداء بما يفيد موضوع البحث، ويزيد مفهوم النِّداء حركةً وتألُّقًا وبُعدًا. وهاك بعض النماذج:

١ - يقول مثلًا في بيان معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران:١٩٣]: "أرادوا به النَّبيَّ محمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. و(المنادِي) -بكسر الدال المهملة-:

=القرآن. وقوله: (حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكمًا)، أي: كالنَّائم والغافل والسَّاهي فهو ينزَّل منزلة البعيد. انظر: مصابيح المعاني (ص:٤٢٤)، حاشية الشيخ محمد الأمير على المغني (٢/٤١). وسيأتي أيضًا بيان ذلك مفصَّلًا..

(١) يعني: العلامة الصَّبان، وقد سبق التَّعريف به. والأشموني هو "علي بن محمد بن عيسى بن محمد الأشموني الأصل، ثمَّ القاهري، الشافعي، (نور الدِّين) نحوي، فقيه، فرضي، منطقي، ناظم. ولد في شعبان، وتوفي في [١٧] ذي الحجَّة. [٩١٨هـ]. من آثاره: تعليقه على (الأنوار لعمل الأبرار)، للأردبيلي في فروع الفقه الشَّافعي، نظم (إيساغوجي) في المنطق، وشرح ألفية ابن مالك في النَّحو. معجم المؤلفين (٧/٢٢٥).

(٢) حاشية الصَّبان (٣/١٣٣).



الذي يرفع صوته بالكلام. و(النِّداء): رفع الصَّوت بالكلام رفعًا قويًّا لأجل الإسماع، وهو مشتقٌّ من (النِّداء) -بكسر النون وبضمِّها-، وهو الصَّوت المرتفع. يقال: (هو أندى صوتًا)، أي: أرفعُ، فأصل (النِّداء): (الجهر بالصَّوت والصِّياح به)، ومنه سمِّي دعاء الشَّخص شخصًا ليقبل إليه: (نداء)؛ لأنَّ من شأنه أن يرفع الصَّوت به؛ ولذلك جعلوا له حروفًا ممدودة مثل: (يا) و(آ) و(أيا) و(هيا)[1]. ومنه سمِّي (الأذان): نداء[2]، وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدَّعوة -وإن لم يكن في ذلك رفع صوت-.

ويطلق النِّداء على طلب الإقبال بالذَّات أو بالفَهم بحروف معلومة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصَّافات:١٠٤-١٠٥]. ويجوز أن يكون هو المراد هنا؛ لأنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو النَّاس بنحو: (يأيُّها النَّاس)، و(يا بَني فلان)، و(يا أمَّة محمَّد)، ونحو ذلك"[3].

٢ - وذكر أيضًا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] "أنَّه مستعملٌ في المعنى المشهور: وهو (طلب الإقبال)، على أنَّ الإقبال مجازيٌّ لا محالة، فيكون كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:٨٩]، وهو كثيرٌ في الكلام. ويجوز أن يكون مستعملًا في الكلام بصوت مرتفع كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة:١٧١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:٤٣]، ورفع الصَّوت يكون لأغراض، ومحمله هنا[4] على أنَّه صوت غضب وتوبيخ. وظاهر إسناد النِّداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ناداهما بكلام بدون واسطة مَلك مرسل، مثل الكلام الذي كلَّم الله عَزَّوَجَلَّ به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا واقع قبل

---

(١) سيأتي بيان حروف النِّداء، والمستخدم من ذلك في القرآن الكريم.

(٢) سبق بيان ذلك في أوجه النِّداء.

(٣) يعني: قول الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]. التَّحرير والتَّنوير (١٩٩/٤).

(٤) يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾.



الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أنَّ موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هو أوَّل نبيٍّ كلَّمه الله عَزَّوَجَلَّ بلا واسطة. يجوز أن يكون نداءُ آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بواسطة أحد الملائكة"[1].

٣ – ومن ذلك ما قيل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الذينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف:٥٢] أنَّ (النِّداء): "طلب الإقبال للنُّصرة والشَّفاعة. و(الاستجابة): الكلام الدَّالُّ على سماع النِّداء، والأخذُ في الإقبال على المنادي بنحو قول: (لبيكم). وأمره إيَّاهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه، هو إظهار باطلهم بقرينة فعل الزَّعم؛ ولذلك لم يسعهم إلَّا أن ينادوهم حيث قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لطمعهم، فإذا نادوهم تبيَّن لهم خيبة طمعهم؛ ولذلك عطف فعل الدُّعاء بالفاء الدَّالَّة على التَّعقيب. وأتي به في صيغة المضي للدِّلالة على تعجيل وقوعه حينئذٍ حتى كأنَّه قد انقضى"[2].

---

(١) بقليل من التَّصرُّف عن (المصدر السابق) (٦٦/٨).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٤٥/١٥). وقد جاء معنى (النِّداء) في كتب التَّفسير مع زيادة في الإيضاح والبيان، فمن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣] "أنَّ النِّداء: أصله رفع الصَّوت بطلب الإقبال. ويطلق النِّداء كثيرًا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذَّات لعمل أو إقبال الذِّهن لوعي كلام؛ فلذلك سمِّيت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال: حروف النِّداء. ويطلق على الدُّعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء؛ لأنَّ شأن الدُّعاء في المتعارف أن يكون جهرًا. أي: تضرُّعًا؛ لأنَّه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلام: أنَّ زكريَّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال: (يا رب) بصوتٍ خفيٍّ. وإنما كان خفيًّا؛ لأنَّ زكريَّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ رأى أنَّه أدخل في الإخلاص، مع رجائه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدَّث به النَّاس؛ فلذلك لم يدعه تضرُّعًا، وإن كان التَّضرع أعون على صدق التَّوجه غالبًا، فلعلَّ يقين زكريَّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كافٍ في تقوية التَّوجه، فاختار لدعائه السَّلامة من مخالطة الرِّياء. ولا منافاة بين كونه نداءً، وكونه خفيًّا؛ لأنَّه نداء من يسمع الخفاء". التَّحرير والتَّنوير (٦٣/١٦). وفي موضع آخر: النِّداء: الكلام الدَّالُّ على طلب الإقبال، وأصله: جهر الصَّوت؛ لإسماع البعيد، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازًا مرسلا. ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩]. وهو مشتق من (النَّدى) – بفتح النُّون وبالقصر– وهو بُعد الصَّوت. ولم يسمع فعله إلا بصيغة المفاعلة، وليست بحصول فعل من جانبين بل المفاعلة للمبالغة". بتصرُّف عن (التَّحرير والتَّنوير) (١٢٨/١٦).



ويتبيَّنُ ممَّا سبق أهميَّة مدى اهتمام بعض المفسرين بإبراز ما يتعلق بالنداء من المعاني، وبيان الحكمة من استخدام أداة النِّداء، وكذلك (ما ولي المنادَى) من الأمر أو النَّهي أو الاستفهام أو الخبر؛ لأنَّ القصد من النِّداء دعوة المخاطَب –بفتح الطاء المهملة–؛ ليقُبل على المخاطِب –بكسر الطاء المهملة–، ويتنبَّه إلى مضمون الخطاب، ويعلم فائدة الاستجابة، وليكون على حذر من عاقبة الإعراض. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

وقال حكاية عن نوح عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

رابعًا: بيان من الذي ينادَى؟

وإنما ينادَى المميِّز الذي يعقل الخطاب..

وقد سبقَ بيان أنَّ النِّداء طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) ملفوظ به أو مقدَّر، والإقبال: ما يشمل الإقبال الحقيقي والمجازي المقصود به الإجابة، ولكن من الذي ينادَى؟

إنَّ الذي ينادى إنما هو المميِّز؛ ولذلك وصف الله عَزَّوَجَلَّ الخطاب القرآني بأنَّه منزَّلٌ لقومٍ يعقلونه بعقولهم، ومن يعقل هو الذي يميِّز؛ ولذلك يقع عليه التَّكليف المتفرِّع عن عبوديَّته لله عَزَّوَجَلَّ بما يتضمَّنه الخطاب القرآني، وذلك إذا كان المخاطِب –بكسر الطاء المهملة– هو الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

"وأمَّا نحو: ﴿يَا أَرْضُ﴾ [هود:٤٤]، و﴿يَا جِبَالُ﴾ [سبأ:١٠]، فقيل: إنَّه من باب المجاز؛ لتشبيه ما ذكر بالمميِّز في الانقياد، واستعارته في النَّفس له على طريق الاستعارة

بالكناية[١]، و(يا) تخييل. ولك أن تقول: من الجائز أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لما ذكر حال الخطاب تمييزًا فلم يقع النِّداء إلا لمميِّز، وهمزة النِّداء منقلبة عن واو مثل (كساء)"[٢].

والحاصل أنَّ ذلك من حمل هذا الألفاظ وما كان مثلها في الكتاب والسُّنَّة على المجاز المعروف من لسان العرب، وجَعل قرينة المجاز الخطاب للجماد.

---

(١) وأمَّا الاستعارة بالكناية فهي أن تذكر المشبَّه وتريد المشبَّه به دالًّا على ذلك بإضافة شيء من لوازم المشبَّه به المساوية إلى المشبَّه مثل أن تشبه المنية بالسَّبع، ثمَّ تفردها بالذِّكر مضيفًا إليها الأنياب والمخالب قائلا: (أنياب المنية) أو (مخالب المنية قد نشبت بفلان)، ونحوه: (لسان الحال ناطق بكذا) وهي لا تنفكُّ عن التَّخييليَّة؛ فإنَّ إثبات ذلك الأمر للمشبَّه استعارة تخيليَّة. أمَّا الكناية فلأنَّه لم يصرَّح به، بل إنما دلَّ عليه بذكر خواصِّه ولوازمه، وأمَّا الاستعارة فمجرَّد تسمية خالية عن المناسبة. ويسمَّى إثبات ذلك الأمر المختص بالمشبَّه به للمشبَّه استعارة تخيليَّة؛ لأنَّه قد استعير للمشبَّه ذلك الأمر الذي يختصُّ المشبَّه به، وبه يكون كمال المشبَّه به أو قوامه في وجه الشَّبه ليخيل أنَّ المشبَّه من جنس المشبَّه به. انظر: الكليَّات (ص:١٠٢)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٢٩٠)، التَّعريفات (ص:٣٥)، مختصر المعاني، للسَّعد (ص:٢٢٦).

(٢) حاشية الصَّبان (١٣٣/٣)، وانظر: روح المعاني (٦٤/١٢)،الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٣١٢)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح (ص:٣٨٩–٣٩٠). قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نادَى الأرض والسَّماء بما ينادي به الإنسان المميِّز على لفظ التَّخصيص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾، ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾، ثمَّ أمرهما بما يؤمر به أهل التَّمييز والعقل من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، و﴿أَقْلِعِي﴾ [هود:٤٤]، من الدِّلالة على الاقتدار العظيم، وأن السَّموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميِّزون، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه، وقدرته على كلِّ مقدور، وتبيَّنوا تحتُّم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التَّوقف دون الامتثال له، والنُّزول عن مشيئته على الفور من غير ريب. فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولًا لا حبس ولا إبطاء". الكشاف (٢٧١/٢)، البحر المحيط (١٥٩/٦). أقول: والمعنى أنَّه عَزَّوَجَلَّ إذا أراد تكوين الأشياء لم تمتنع عليه، ووجدت كما أرادها على الفور من غير تأخير في ذلك، كالمأمور المطيع الذي إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع كان المأمور به مفعولًا لا حبس ولا إبطاء، وهو المجاز الذي يسمَّى بالاستعارة التَّمثيليَّة، تمثيلًا لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه. والاستعارة التَّمثيليَّة هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. والقرينة على هذا القول هي خطاب الجماد، ووجه الشَّبه سرعة الاستجابة. هذا على القول الأوَّل، أمَّا على القول الثَّاني فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لها إرادة وتمييزًا فكان الخطاب على حقيقته، وهو الرَّاجح كما سيأتي.



هذا على المذهب الأوَّل.

والمذهب الآخر أنَّ ذلك على سبيل الحقيقة.

ومن حمل هذا على الحقيقة جعل للأرض وللجبال إرادةً يفهمها من شاء الله عَزَّوَجَلَّ له ذلك. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكلِّ شيءٍ تسبيحًا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]. وجعل للسَّموات والأرض بكاءً وقولًا في مثل هذا المعنى صحيحًا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. فخاطبهما وأثبت لهما القول.

وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]؛ فإنَّ العرض –التَّخيير– إنما يكون للمميِّز..

والرَّاجح أنَّ التَّسبيح والاستجابة على سبيل الحقيقة، فكلُّ شيءٍ على العموم يُسبِّحُ الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا تسبيحًا لا يفقهه البشر كما هو منطوق الآية، ولو كان التَّسبيح ما قاله الآخرون من أنَّه أثر الصَّنعة، لكان أمرًا مفهومًا، والآية تنطق بأنَّه لا يُفقه. ولو كان تسبيحها آثار الصَّنعة لما كان لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

والقول بالحقيقة هو القول الرَّاجح –كما أسلفت–، ولكنَّ هذا كلُّه في (الجمادات).



وأمَّا ما يمكن التَّسبيح منه فقول واحد أنَّ تسبيحهم حقيقة(1). وسيأتي مزيد من البيان في (نداء الجمادات).

خامسًا: حذف أداة النِّداء:

وكثيرًا ما تحذف أداة النِّداء، ولا سيَّما في نداء الرَّبِّ ودُعائه، فتكون مقدَّرة ذهنًا، مثل:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة:126](2)، وما كان نحو: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:127]، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:128]، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾ [البقرة:129]، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة:200-201]، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:250]، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 285].....الخ، أي: يا ربَّنا.

ونحو: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ [الأعراف:151](3)، ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:26، 39](4).

ومن ذلك: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:31]، وهو منادى نكرة مقصودة حذف منه حرف النِّداء..-وسيأتي بيان (نداء النَّكرة المقصودة)-..

وممَّا قيل(5): إنه من الحذف مع (اسم الإشارة) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:85]، أي: يا هؤلاء. قال الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في قوله عَزَّوَجَلَّ:

---

(1) انظر: معاني القرآن، للزَّجاج (121/5)، المحرَّر الوجيز (256/5)، تفسير القرطبي (266/10)، تفسير الثَّعالبي (377/5)، زاد المسير (453/4). وانظر: التَّمهيد، لابن عبد البرّ (178/20)، (331/22)، الاستذكار (100/1)، (386/1).

(2) ونحوه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [آل عمران:41]، و[مريم:10]، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:35].

(3) ونحوه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ [المؤمنون:118]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص:35]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح:28].

(4) ونحوه: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:30].

(5) "جوَّز الكوفيُّون حذف (يا) من اسم الإشارة عند النِّداء؛ لأنَّه معرفة قبل النِّداء. وأمَّا البصريُّون فمنعوا هذا الحذف؛ لأنَّ اسم الإشارة وإن كان معرفة قبل النِّداء فهو موضوع في الأصل لما يُشار إليه للمخاطَب،=



﴿ثُـمَّ أَنْـتُمْ هَـؤُلاءِ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون أريد به (ثمَّ أنتم يا هؤلاء)، فترك (يا) استغناء بدلالة الكلام عليه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُوسُـفُ أَعْـرِضْ عَـنْ هَـذَا﴾ [يوسف:٢٩]. وتأويله: (يا يوسف أعرض عن هذا). والوجه الآخر أن يكون معناه: ثمَّ أنتم قوم تقتلون أنفسكم. فيرجع إلى الخبر عن ﴿أَنْتُمْ﴾. وقد اعترض بينهم وبين الخبر عنهم بهؤلاء، كما تقول العرب: (أنا ذا أقوم) و(أنا هذا أجلس)، وإذْ قيل: أنا هذا أجلس كان صحيحًا جائزًا، كذلك: أنت ذاك تقوم ...."(١).

والأداةُ التي تُقدَّرُ عند الحذف هي: (يا) فيما ذكر النُّحاة -كما سيأتي-..

سادسًا: حذفُ المنادَى:

قد يُحذف المنادى بعد (يا)، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا وَيْلَنَـا مَـنْ بَعَثَنَـا مِـنْ مَرْقَـدِنَا﴾ [يس:٥٢]، فإنَّ أداة النِّداء في قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ينادى بها محذوف، وأنَّ ما بعدها مفعول فعل محذوف، والتَّقدير: (يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا)(٢).

وكما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْـجُدُوا﴾ [النمل:٢٥] على تقدير: (ألا يا اسجدوا)، أي: يا هؤلاء -وسيأتي بيان ذلك مفصَّلًا-.

=وبين الاسم مشارًا إليه وكونه منادَى -أي: مخاطبًا- تنافر ظاهر، فلمَّا أُخرج في النِّداء عن ذلك الأصل، وجُعِل مخاطَبًا احتيج إلى علامة ظاهرة تدلُّ على تغييره وجعله مخاطبًا، وهي حرف النِّداء، والكوفيُّون جوَّزوا حذف الحرف من اسم الإشارة، اعتبارًا بكونه معرفة قبل النِّداء، واستشهادًا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾. وليس في الآية دليل؛ لأنَّ ﴿هَؤُلاءِ﴾ خبر المبتدأ، كما يجئ في الحروف، فبقي على هذا من المعارف التي يجوز حذف الحرف منها: العلم والمضاف إلى (أي) معرفة كانت، والموصولات. وأمَّا المضمرات فيشذُّ نداؤها، نحو: يا أنت، ويا إياك..". شرح الرَّضي على الكافية (٤٢٦/١- ٤٢٧)، وانظر: شرح الكافية الشَّافية (ص:١٢٩١)، مغني اللَّبيب (ص:٢٥٧)، وقد اختار رأي الكوفيين ابنُ مالك. انظر: شرح ابن عقيل (٢٥٧/٣)، توضيح المقاصد (١٠٥٤/٢- ١٠٥٦).

(١) بتصرُّف عن (تفسير الطَّبري) (٣٠٣/٢- ٣٠٤). أقول: ولكن ينبغي أن يلاحظ الباحث ما ذكرت آنفًا في الحاشية من اختلاف البصريين والكوفيين في مثل هذا الحذف...وأنَّ الأكثر قد اختار رأي البصريين.

(٢) انظر: البحر المحيط (١٨٨/٧)، روح المعاني (٢٩١/١٥)، أضواء البيان (٢٨٨/٣).

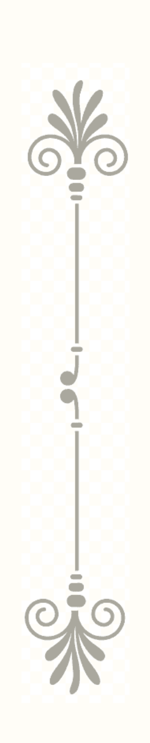


ومن ذلك ما قيل في ﴿يَا لَيْتَ﴾ [القصص:٧٩]، و[يس:٢٦]، و[الزخرف:٣٨]، أو يا هؤلاء. وسيأتي بيانه.






أساليب النداء في القرآن الكريم





المطلب الثالث
أقسام النِّداء في القرآن الكريم في الجملة وبيان ما يصحب النِّداء

والمقصود هنا ذكر ما ورد من أقسام النِّداء في الخطاب القرآني مجملًا، وذلك بتناول ما ذكر في كتب التَّفسير وعلوم القرآن مجملًا، ومتتابعًا غير متفرق..

أولًا: أقسام النِّداء في القرآن الكريم:

أمَّا أقسام النِّداء في القرآن الكريم فهي (سبعة)، وذكر البعض أنها (ستَّة)[(١)]، وهي على النَّحو التَّالي:

١ – نداءُ تنبيهٍ مع مدح: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤][(٢)].

٢ – نداءُ تنبيهٍ مع ذمٍّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧][(٣)]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦].

(١) ذكر الصَّاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على تفسير الجلالين) أنها (سبعة)، تنبيه مع مدح، أو تنبيه مع ذمٍّ، أو تنبيه، أو إضافة، أو نسبة، أو تسمية، أو تخصيص. حاشية الصَّاوي (٢١/١). وذكر السَّمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) المسمَّى: (بحر العلوم) أنَّ النِّداء (ستُّ) مراتب، مدح، أو ذمٌّ، أو تنبيه، أو إضافة، أو نسبة، أو تسمية. تفسير السَّمرقندي (١٠١/١).

(٢) سبق بيان ما يتعلَّق بخطاب المدح.

(٣) سبق بيان ما يتعلَّق بخطاب الذَّم.



٣- نداء تنبيه[١]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ [الانفطار:٦].

٤ – نداء إضافة: ﴿يَا عِبَادِيَ الذِينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:٥٦].

٥ – نداء نسبة: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦]، ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠].

٦ – نداء التَّسمية: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود:٧٦]، ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص:٢٦].

٧ – نداء التَّخصيص: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٦٤][٢].

ثانيًا: بيان ما يصحب النِّداء:

أمَّا ما يصحب النِّداء فقد حقَّق هذه المسألة السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "النِّداء: طلب إقبال المدعو على الدَّاعي بحرف نائب مناب (أدعو)[٣].

ويصحب في الأكثر الأمر والنَّهي والغالب تقدُّمه نحو:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ﴾ [المزمل:١-٢]، ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا﴾ [هود:٥٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا﴾ [الحجرات:١]. وقد يتأخَّر نحو: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١].

وقد يصحب الجملة الخبريَّة فتعقبها جملة الأمر نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]، ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا﴾ [هود:٦٤].

---

(١) أي: نداء مطلق عن قيد كونه مدحًا أو ذمًّا..

(٢) بقليل من التَّصرف عن (حاشية الصَّاوي) (٢١/١)، تفسير السَّمرقندي (١٠١/١).

(٣) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٣٤/٢-٣٣٥).



وقد لا تعقبها نحو: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الزخرف:٦٨][1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]، ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ [مريم:٤٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم:١]، ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ﴾ [غافر:٤١][2].

وسيأتي تحقيق أنَّ النِّداء قد ينفكُّ عن الأمر والنَّهي، ويكثر مجيئه في الخبر والاستفهام مع النِّداء. وما ذكر هنا مجملًا سيأتي بيانه في مواضع متفرِّقة.



(١) سيأتي التَّعقيب على ذلك.

(٢) الإتقان (٢/٢٢٢– ٢٢٣).


أساليب النداء في القرآن الكريم





المطلب الرابع: بيان أدوات النِّداء

أولًا: التَّعريف بأدوات النِّداء:

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفصَّل): "حروف النِّداء هي: (يا) و(أيا) و(هيا) و(أي) و(الهمزة) و(وا). فالثَّلاثة الأول لنداء البعيد أو من هو بمنزلته من نائمٍ أو ساه، فإذا نودي بها من عداهم فلحرص المنادى على إقبال المدعو عليه، ومفاطنته لما يدعوه له. و(أي)، و(الهمزة) للقريب، و(وا) للنُّدبة خاصّة. وقول الدَّاعي: (يا رب) و(يا ألله)؛ استقصار منه لنفسه، وهضم لها واستبعاد عن مظانِّ القبول والاستماع، وإظهار للرَّغبة في الاستجابة بالجؤار"[(1)].

وعلى ذلك فإنَّ أدوات النِّداء متعدِّدة، فـ (الهمزة) للقريب، و(أي) لنداء القريب، أو القريب المحبَّب –كما سيأتي–، و(يا) لنداء البعيد المتوسِّط البعد، و(أيا) و(هيا) لنداء الشَّديد البعد.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وللمنادى النَّاء أو كالنَّاء يا ... وأي وآ كذا أيا ثم هيا

(١) المفصَّل في صنعة الإعراب (٤١٣/١)، وانظر: حاشية الصَّبان على شرح الأشموني (١٣٣/٣) فما بعد. وانظر: الأساليب الإنشائيَّة في النَّحو العربي (ص:١٣٦)، البلاغة العربيَّة، للميداني (٢٤٠/١)، البلاغة فنونها وأفنانها، للدُّكتور فضل حسن عباس (١٦٧/١)، جواهر البلاغة (ص:٦٦– ٦٧)، نزهة الأعين النَّواظر (ص:٥٩٢).

والهمز للدَّاني ووا لمن ندب   أو يا وغير وا لدى اللبس اجتنب[1]

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يخلو المنادى من أن يكون مندوبًا أو غيره؛ فإن كان غير مندوب فإما أن يكون بعيدًا أو في حكم البعيد كالنائم والساهي، أو قريبًا، فإن كان بعيدًا أو في حكمه فله من حروف النداء: (يا) و(أي) و(آ) و(هيا)، وإن كان قريبًا فله: الهمزة، نحو أزيد: أقبل، وإن كان مندوبًا، وهو المتفجع عليه أو المتوجع منه فله: (وا)، نحو: وازيداه وواظهراه، و(يا) أيضًا عند عدم التباسه بغير المندوب، فإن التبس تعينت (وا) وامتنعت (يا)"[2].

فأدوات النِّداء ثمان: (أَ)، (أَيْ)، (يَا)، (آ)، (آي)، (أَيَا)، (هَيَا)، (وَا).

أمَّا الهمزة [أَ] و(أَيْ) فلنِدَاء القريب.

وأمّا (أَيَا) و (هَيَا) و(آ) فلنداء البعيد.

وأمّا (يا) حرف لنداء البعيد حقيقةً أو حكمًا، وهي أكثر أحرفه استعمالًا، ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها نحو: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف:١٥١]، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ [يوسف:٢٩]، ولا ينادى اسم الله عَزَّوَجَلَّ، وأيُّها وأيَّتُها إلا بها[3].

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرَّجل بمن يناديه. وأمَّا نداء القريب فله (أي) و(الهمزة)، ثمَّ استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتَّأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا"[4].

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٤٩).

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٢٥٦).

(٣) انظر: الإتقان (١/ ٥٢٧)، البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤٥)، وانظر: الكليَّات (ص:٩٧٩)، مغني اللَّبيب (ص:٤٨٨)، وانظر: تاج العروس (٤٠/٥٥٥)، والمعجم الوسيط، باب (الياء) (٢/١٠٦٢)، القاموس المحيط (١/١٧٤٨).

(٤) الكشاف (١/٢٢٤)، وانظر أيضًا استعمال حرف النِّداء في (الأساليب الإنشائيَّة في النَّحو العربي) (ص:١٣٦– ١٣٧).

وترد للتَّنبيه فتدخل على الفعل والحرف نحو: ﴿ألا يا اسجدوا﴾ [النمل:٢٥][1]، ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦][2]... -وسيأتي بيان ذلك-.

وتُسْتَعمل (وَا) للنُّدْبة، والنُّدبة هيَ التي يُنَادَى بها المندوبُ الْمُتَفجَّعُ عليه[3]، وتُسْتَعْمَلُ في النُّدْبة أيضًا (يَا) عند أَمْنِ الالتباسِ بالنِّداء الحقيقي، نحو ما جاء من تفسير لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤] أن الألف ألف الندبة والهاء محذوفة، -وسيأتي بيان ذلك في موضعه-.

ثانيًا: تصرُّف البليغ في استعمال أدوات النِّداء:

"١ - قد يستعملُ البليغ أدوات النِّداء التي للقريب فينادي بها البعيد، لمعنىً يُريدُ الإشارة إليه، كأن يُريدَ الإشارَةَ إِلَى أنَّ هذا البعيد في جَسَده هو قريب إلى قلبه ونفسه حاضر في تصوُّره المستمر، وكأن يريد الإشارة إلى أنَّه لشدَّة سمعه وانتباهه وسرعة استجابته، كأنّه قريب، فهو لا يحتاج أن ينادى بأدوات نداءِ البعيد.

٢ - وقد يَسْتَعْمِلُ البليغ أدوات النِّداء التي للبعيد فينادي بها القريب، لمعنى يُريدُ الإشارة إليه، كأنْ يُريدَ أنّه رفيع المنزلة عالي المقام، فهو لارتفاع منزلته وبعد مقامه بمثابة البعيد إلى الأعلى في جسده، فاللاَّئق به أنْ يُنَادَى بأدوات النِّداء التي للبعيد. وكأَنْ يريد أنَّه مُنْحَطُّ المنزلة جدا، فهو لانحطاط منزلته بمثابة البعيد إلى الأسفل في جسده، فاللاَّئق

---

(١) قرأ الكسائي: ﴿أَلا يَا اسْجُدوا﴾.. وقيل: قرأ ابن عباس وعبد الرَّحمن السلمي والحسن وأبو جعفر وحميد الأعرج: ﴿أَلا يَا اسْجُدوا﴾ -وسيأتي بيان ذلك مفصَّلا-. انظر: حجَّة القراءات (١/٥٢٦- ٥٢٧)، النَّشر (٢/٣٣٧)، الإتحاف (ص:٣٢٦)، إبراز المعاني من حرز الأماني (٢/٣٣٥)، معاني القرآن، للنَّحاس (٥/١٢٦)، المحرَّر الوجيز (١/٤٥٠)، تفسير أبي السُّعود (٦/٢٨١)، تفسير ابن جزي (٢/١٠١)، فتح القدير (٤/١٥٤)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢/٥٣٣)، الإتقان (١/٥٢٧).

(٢) انظر: الإتقان (١/٥٢٧).

(٣) تقع (وا) في الندبة، وفيما مددت به صوتك، كما تمده بالندبة، وإنما أصلها للنُّدبة، وهي من الحروف التي تنبه بها المدعو كـ: (يا)، و(أيا)، و(هيا)، و(أي)، و(ألف الاستفهام). انظر: المقتضب، للمبرد (٤/٢٣٣).



به أن يُنَادى بأدَواتِ النِّداءِ التي للبعيد. وكأن يُرِيدَ التَّعبيرَ عن حَالةِ تَلَهُّفِهِ وشدّةِ طلَبِه، فهو بمثابة المستغيث الذي يمدُّ صوته في النِّداء، فيستعمل أدوات النِّداء التي للبعيد لما فيها من مدِّ الصّوْت وَطُول النَّفس معه. فيستعمل أدوات النِّداء التي للبعيد لما فيها من مدِّ الصَّوْت وَطُول النَّفس معه. وكأن يريد أنَّ المنادَى غافل شارد الذِّهن أو غير مستعدٍّ للاستجابة فهو بمثابة البعيد.

٣ - وقد يخرج النِّداء عن المعنى الأصليِّ الموضوع له، فيُسْتَعْمَلُ لدى البلغاء وغيرهم في أغراضٍ أخْرى غير النِّداء، وهذه الأغراضُ تُفْهَمُ من قرائن الحال أو قرائن المقال، فكلُّ حَرَكَةٍ نفسيَّةٍ ذات مشاعِرَ تَدْفَعُ الإنسان إلى التَّعبير عنها بنداء ما بطريقةٍ تلقائيَّة، ولو لم يشعر بأنَّ هذا النِّداء يحقق له مرجوًّا أو مأمولًا أو يدفع عنه مكروها.

كأن يستعمل النِّداء في الزَّجْر واللَّوم، أو التحسُّر والتأسُّف والتَّفجع والنَّدم أو النُّدْبة، أو الإغراء، أو الاستغاثة، أو اليأس وانقطاع الرَّجاء، أو التَّمني، أو التَّذكر وبثِّ الأحزان، أو التَّضجر، أو الاختصاص، أو التَّعجب، إلى غير ذلك"[(١)].

وقد خصَّت (يا) من بين حروف النِّداء بكونها لنداء البعيد المتوسِّط البعد فحسب، وقد ذكر ذلك على سبيل المثال: الصَّبانُ في (حاشيته على الأشموني)[(٢)]، ومن المتأخِّرين المعاصرين شيخ المفسرين الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]. وسيأتي شرح وبيان ذلك، وكذلك ما يتعلَّق بأدوات النِّداء، والمستخدم في الخطاب القرآني من هذه الأدوات شرحًا تحليليًّا ومفصَّلًا.



(١) البلاغة العربيَّة، للميداني (١/٢٤٠-٢٤١).

(٢) حاشية الصَّبان على شرح الأشموني (٣/١٣٤)، وانظر: المقتضب، للمبرد (٤/٢٣٥).

(٣) تفسير سورة النِّساء (ص: ١٠٦).



المطلب الخامس
أداة النِّداء المستخدمة في القرآن الكريم

وأوَّل ما يتقرَّر في هذا المطلب أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل من أدوات النِّداء في نداءاته العديدة ومواضعه الكثيرة غير (يا)(١)، اللهمَّ إلَّا ما كان من دعوى من ادَّعى أنَّ الهمزة في قراءة من قرأ، وهي قراءة سبعيَّة(٢): ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] بالتَّخفيف، وزعم أنَّ الهمزة حرف نداء، وتقدير الكلام: يا من هو قانت...الخ.

(١) (يا) حرف نداء، وهي أمُّ الباب، وزعم بعضهم أنها اسم فعل، معناها: أنادي، وسيأتي رد هذا الزعم. وعلى كثرة وقوع النِّداء في القرآن لم يقع نداءٌ إلا بها، وهي أعمُّ حروف النِّداء؛ إذ ينادي بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب. وقد تحذف نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ [يوسف:٢٩]. انظر: الدر المصون (١٤٤/١)، تفسير ابن عادل (٤٠٦/١)، همع الهوامع (٣٤/٢). وعلى كثرة وقوع النِّداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها. انظر: البحر المحيط (٢٣١/١)، ابن عادل (٤٠٦/١)، التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمَّد الهائم المصري (ص:٦٥). و(يا) أعم حروف النداء؛ لأنها أم الباب؛ فإنها تدخل في كل نداء خالص من الندبة والاستغاثة، أو مصحوبة بهما؛ لأنها أندى حروف النداء وأنفذها. فهي حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وقد تستعمل في نداء القريب لغرض بلاغي، أي: أنها لنداء البعيد حقيقة أو حكما، وقد ينادى بها القريب توكيدًا، أي: إشارة إلي أن الكلام الذي يلقي أو نفس الدعاء معتنى به حتى نزل القريب -وإن كان متنبهًا لذلك- منزلة الغافل؛ لكونه لم يأت بالأكمل المناسب. وكفى بالغفلة بعدًا. وقد ينادي بها القريب؛ لبعده رفعة نحو: يا عظيمًا يرجي لنوائب. حاشية الأمير على مغني اللبيب (٤١/٢). فلا يقدر عند الحذف سوى الياء، ولا ينادي اسم الله عَزَّوَجَلَّ، والاسم المستغاث، وأيها وأيتها إلا بها.

(٢) قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر والكسائيُّ: ﴿أمَّن﴾ مشدَّدة الميم. وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة: ﴿أمَن﴾ خفيفة الميم. السَّبعة في القراءات (٥٦١/١). وفي (زاد المسير): "قرأ ابن كثير ونافع وحمزة وأبو جعفر والمفضل عن عاصم وزيد عن يعقوب ﴿أمَن﴾ -بالتَّخفيف-. وقرأ الباقون بالتَّشديد، فأمَّا المشدَّدة= فمعناها: أهذا



فهناك من ادَّعى أنَّ القرآن استعمل أداةً أخرى غير (يا) ولمرَّة واحدةٍ في نداءاته. وهي (الهمزة) الموضوعة لنداء القريب في قراءة: ﴿أَمَنْ﴾ -بالتَّخفيف-. كأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ينادي نبيَّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيقول له: (يا من هو قانت)..﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعْلَمُونَ وَالذينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]..الخ. لكنَّ الصَّحيح أنَّ الهمزة هنا ليست همزةَ نداء، وإنما هي همزة الاستفهام المحذوفة المعادل، وهو ما رجَّحه الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة في (تفسيره لسورة النِّساء)[1]؛ وذلك لأنَّ همزة الاستفهام تحتاج إلى جملة مفيدة يستفهم عنها سواء كانت اسميَّة أو فعليَّة، المهمُّ أن تدخل على جملة، فنقول مثلًا: (أمحمَّد في الدَّار؟)، ونقول: (أقام محمَّد؟) مثلا، وهمزة الاستفهام كثيرًا ما يكون لها معادلٌ في الذِّكر كقولنا: (أقام محمَّد أم لم يقم؟). وقد يحذف هذا المعادل، ويكون مطويًّا في الضَّمير. فعندما نقول: (أقام محمَّد؟) ويكون في ضمير المخاطب ما هو محذوف، يعني: (أم لم يقم). وأحيانًا يحكم بوجوب أن يكون هناك شيءٌ محذوف، وذلك عندما نرى الهمزة دخلت على ما ليس جملة مفيدة. فقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَايِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعْلَمُونَ وَالذينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. فإنَّ الهمزة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ...﴾ هي همزة الاستفهام محذوفة المعادل..

=الذي ذكرنا خيرٌ أمن هو قانت؟ والأصل في ﴿أَمَّن﴾: (أم من) فأدغمت الميم في الميم. وأمَّا المخفَّفة ففي تقديرها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها بمعنى النِّداء، قال الفرَّاء رَحِمَهُٱللَّهُ (معاني القرآن)، (٢/٤١٦) فسَّرها الذين قرؤوا بها فقالوا: (يا من هو قانت) وهو وجه حسن، والعرب تدعو بالألف كما تدعوا بياء، فيقولون: (يا زيد أقبل) و(أزيد أقبل)، فيكون المعنى: أنَّه ذكر النَّاسي الكافر، ثمَّ قصَّ قصَّة الصَّالح بالنِّداء كما تقول: (فلانٌ لا يصوم ولا يصلي، فيا من يصوم أبشر). والثَّاني أنَّ تقديرها: (أمن هو قانت كمن ليس بقانت)، والثَّالث: (أمن هو قانت كمن جعل لله عَزَّوَجَلَّ أندادًا". زاد المسير (٤/١٠)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/٤١٦)، نظم الدرر (٦/٤٢٧)، (٦/٦٢٩)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/١٥٧-١٥٨)، وسيأتي على بيان وتحقيق ما يترجَّح من هذه الأقوال..

(١) انظر: تفسير سورة النِّساء (ص:٩٦- ٩٧).

وبعد هذا التَّمهيد أعرض تحقيق هذه المسألة لبيان أن القرآن الكريم لم يستعمل في نداءاته المتعدِّدة من حروف النِّداء سوى حرف النِّداء: (يا)، وبيان الحكمة من ذلك.

فقد جاء في (الفريد): "قرئ: ﴿أَمَنْ﴾ -بالتَّخفيف- على إدخال همزة الاستفهام على (مَنْ)، و(مَنْ) موصول في موضع رفع بالابتداء، ﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ صلة صلته، والخبر والمعادل محذوفان، أي: (الذي صفته كيت وكيت خير أم من هو جاحد)، ودلَّ على الكلام شيئان: جرى ذكر الكافر قبله، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى...﴾ الآية. وقيل[1]: الهمزة للنِّدء، وبمعنى (يا)، أي: (يا من نعته كيت وكيت: أبشر فإنَّك من أصحاب الجنَّة). وأنكر على هذا بأنَّه لا وجه للنِّداء هنا؛ لأنَّ هذا في موضع معادلة لدلالة ما قبله وما بعده. وبالتَّشديد على إدخال (أَم) عليه (أَمْ مَنْ)، و(مَنْ) موصول أيضًا مبتدأ، والجملة المعادلة لـ: (أم) مع (خير) كلاهما محذوف، أي: أيهما. وقيل[2]: أم منقطعة، أي: بل أمن هو قانت آناء الليل وكمن هو بضده.."[3].

وتوضيح ذلك أن نقول: الهمزة للاستفهام، و﴿مَنْ﴾ موصولة مبتدأ، و﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ولا يصحُّ أن تكون ﴿مَنْ﴾ للاستفهام؛ لأنَّه لا يصحُّ دخول همزة الاستفهام عليها؛ لأنَّ الاستفهام لا يدخل على استفهام[4]. فعندما نجعل الهمزة للاستفهام فالجملة لم تتم بعد. ويلزم أن يكون الخبر شيئًا محذوفًا؛ لأنَّه لا يوجد

---

(١) قاله الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (معاني القرآن) (٢/٤١٦). انظر ذلك مفصَّلًا في (الدُّر المصون) (٦/٨-٩)، البحر المحيط (٩/١٨٩)، تفسير ابن عادل (١٦/٤٨٢)، روح المعاني (٢٣/٢٤٦)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٣٥٤)، الإتقان (١/٤٢٧)، البرهان في علوم القرآن (٤/٤٤٥)، حجَّة القراءات (١/٦٢٠-٦٢١).

(٢) القرطبي (١٥/٢٣٩)، معاني القرآن، للنَّحاس (٦/١٥٧- ١٥٨)، التَّحرير والتَّنوير (٢٣/٣٤٦)، الدر المصون (٦/٨-٩)، تفسير ابن عادل (١٦/٤٨٣)، السِّراج المنير (٣/٥٢١)، روح المعاني (٢٣/٢٤٦)، التِّبيان في إعراب القرآن (٢/٢١٤).

(٣) الفريد، بقليل من التَّصرُّف (٤/١٨٥-١٨٦)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/٣٤٧)، البيضاوي (٥/٣٨)، ابن عادل (١٦/٤٨٣)، السراج المنير (٣/٤٣٥)، فتح القدير (٤/٥١٩)، تفسير الإيجي (٣/٤٩٥).

(٤) انظر: مشكل إعراب القرآن (٢/٦٣١).



جزء جملة، وإلا كان الكلام غير مفيد(١)، وما دام غير مفيد فلا يحسن السُّكوت عليه، ولا يصحُّ في نظر البلغاء والنَّحويين.

فالخبر محذوف قطعًا، تقديره مثلًا: كمن ليس على هذه الصِّفة، والمعنى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ..﴾ كمن هو على مضادَّةِ تلك الصِّفة أو كأنتَ أيُّها النَّاسي..، ويقدَّر الخبر بمعونة الآية السَّابقة التي تقول: إنَّ الإنسان إذا أنعم عليه ثمَّ مسَّه ضرٌ دعا ربَّه منيبًا إليه، وإذا خوَّله الله عَزَّوَجَلَّ نعمةً منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله عَزَّوَجَلَّ شركاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨]، فعندما نقدِّر الخبر: أمن هو قانت كالنَّاسي لنعمة ربِّه الجاعل له أندادًا ليضلَّ عن سبيله أم الكافر المخاطب بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أم من ليس كذلك؟.

والدَّليل على أنها همزة استفهام أنَّ خير تفسير للقرآن ما كان تفسيرًا بالقرآن نفسه فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ﴾ في قراءة حفص(٢)، فإنَّ (أم) لا تكون حرف نداء، فـ (أم) المعينة للاستفهام إمَّا أن تكون: (أم) المنقطعة بمعنى: (بل والهمزة)، والتي تفيد الإضراب والاستفهام معًا، أو تكون (أم) المتَّصلة، وهي التي تقع عادة في معادلة همزة الاستفهام،

---

(١) قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الألفيَّة): (والخبر الجزءُ المتمُّ الفائده ***كاللهُ برٌّ والأيادي شاهده). وتعقَّبه ابنُ عقيل حيث قال: "عرَّف المصنِّف الخبرَ بأنَّه الجزءُ المكمل للفائدة، ويرد عليه (الفاعل) نحو: (قام زيد)، فإنَّه يصدق على زيد أنَّه الجزء المتمُّ للفائدة. وقيل في تعريفه: إنَّه الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة، ولا يرد الفاعل على هذا التَّعريف؛ لأنَّه لا ينتظم منه مع المبتدأ جملة، بل ينتظم منه مع الفعل جملة، وخلاصة هذا أنَّه عرف الخبر بما يوجد فيه وفي غيره، والتَّعريف ينبغي أن يكون مختصًّا بالمعرَّف دون غيره". شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (١/٢٠١– ٢٠٢). ولكن المرادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٧٤٩هـ] قد تعقب ابنَ عقيل فقال: "ليس مراده بالجزء: جزء الكلام مطلقًا فيلزمه ما ذكرت، وإنما المراد: جزء الجملة الاسمية. وسيأتيك بيان ذلك في المتفرقات.

(٢) أي: بالتَّشديد.

أو في معادلـة همـزة التَّسـوية كقولنـا: (أمحمَّـد قـام أم علـي؟)، أو قولنـا: (أمحمَّـد قـام أم قعد؟)..

وبيان المنقطعة أنَّنا عندما نخبر عن شيءٍ ما، وبعدها نضرب عن هذا الشَّيء، ونستفهم استفهامًا إنكاريًّا يفيد إنكار ما سبق. ومثال ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

فالكفَّار ينكرون البعث، ومقتضى الإنكار أن يكون خلق السَّموات والأرض وما بينهما باطلا ولعبًا وعبثًا، وأن يكون تقوى المتَّقين كشقاوة الأشقياء ما دام الكلُّ إلى زوال، ولم يلقَ أحد جزاءه، بل ربما كانت شقاوة الأشقياء ومعصية العاصين ربما كان ذلك أسعد لأصحابه من تقوى المتَّقين؛ لأنَّه عندما نتصوَّرُ أنَّ الشَّقيَّ قادرٌ على أن يفعل ما يشاء، وما يحلو له من اللَّذائذ، وإن كان على حساب كثيرٍ من الضُّعفاء.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك منافٍ للحكمة، وقال ما قال من خلق السَّموات والأرض..، ومقتضى قولهم بعدم البعث أن يكون هذا باطل، فهذا مقتضى ظنِّهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾، أي: (بل نجعل). والإضراب نوعان:

إضرابٌ إبطاليٌّ: والمراد منه أن نبطل ما سبق، ونأتي بجديد يصحِّحه. ومثال ذلك: الآية التي يحتمل معنى الإضراب فيها أن يكون إبطاليًّا، وأن يكون انتقاليًّا، أمَّا الإبطاليُّ فإنَّا لو تصوَّرنا أنَّه إضراب من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾، يعني: إبطال لضدِّ ما ذكر، أي: لكون خلق السَّموات....باطلًا..

والإضراب الانتقاليُّ، وهو الأظهر. ويكون الانتقال فيه من نفي أن يكون خلق السَّموات والأرض باطلًا، أو يكون من ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾..فكأنَّه انتقل وقال: دعنا من هذا الأمر المفروغ منه، ثمَّ قال: إنَّا سنأتي بما تنكره العقول السَّليمة، أي: بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات كالمفسدين في الأرض، بل أنجعل المتقين كالفجار، فـ:(أم) بمعنى: بل والهمزة.



أمَّا (أم) فقد وردت منقطعةً بمعنى: (بل والهمزة)، ومتَّصلة معادلة لهمزة الاستفهام أو التَّسوية كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

فـ (أم) في قراءة حفص للاستفهام قطعًا. لكن هل هي المتَّصلة أم المنقطعة ؟ يجوز ويجوز.

فيجوز أن نتصوَّرها المتَّصلة، وكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: (قل تمتَّع بكفرك قليلًا أإنك من أصحاب النار أمَّن هو قانت). فإذا جعلناها متَّصلة فإنَّا نقول: همزة الاستفهام حذفت قبل ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، ويكون التَّقدير: (يا أيُّها النَّاسي لنعمة ربِّه عَزَّوَجَلَّ الجاعل له أندادًا أأنت من أصحاب النَّار أم هو قانت آناء الليل).

والمنقطعة تكون بمعنى: (بل والهمزة)، فيكون التَّقدير: (قل تمتع بكفرك...بل أمن هو....).

والخلاصة أنَّ (أم) متعيِّنة للاستفهام، فالأولى أن يفسِّر بها من قرأ بالهمزة على قراءة التَّخفيف حتى لا تختلف القراءتان اختلافًا جذريًّا، أمَّا إذا جعلت (أم) للاستفهام فقد تطابقت القراءتان. وخير تفسيرٍ للقرآن أن يفسَّر بالقرآن نفسه، والقراءة مع أختها، يعني أنَّ القراءة تفسِّر القراءة كما تفسِّر الآيةُ الآية.

وأنتقل بعد ذلك لبيان أصل هذا الحرف (يا)، وسبب استخدامه في نداءات القرآن الكريم.

وبادئ ذي بدءٍ فلا بدَّ من بيان أنَّنا عندما نقول: (يا) حرف فهل نقصد أنَّه حرف مبنى أم حرف معنى؟ وما معنى ذلك؟

أمَّا حرفُ المبنى: فهو حرف الهجاء الذي يكون في مبنى الكلمات. نقول –مثلًا–: (ضَرَبَ)، الضَّاد مثلًا حرف مبنى.

أمَّا قولنا: (مِن) حرف جر، فهذا حرف معنى، وكذلك قولنا: (يا) حرف نداء، و(أم) حرف استفهام، و(إلى) حرف جرٍّ.

والحاصل أنَّه إذا دلَّ الحرف على معنى في غيره يسمَّى حرف المعنى، أو يقال: حرف المعنى مَا يَدُلُّ على مَعْنى غيرِ مُستَقلٍّ بالفَهْمِ مثل: (هَلْ)، (في)، (لِمْ).



أَمَّا حُرُوفُ المبْنَى فهي الحروف التي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا كَلِمةٌ ما.

فيقال: إنَّ ابتناء هذا الحرف على حرفين أو على ثلاثة أحرف، فإنَّ الحرف في الأوَّل حرف مبنى، والثَّاني: حرف مبنى أيضًا.

أمَّا بيان ما وضع له هذا الحرف، فإنَّ أصل وضعه لنداء البعيد متوسِّط البعد -كما سبق-.

وإنَّ لغةَ العرب لغةٌ حكيمة؛ ولكونها على هذا النَّحو تنزَّل بها القرآن الكريم؛ ولأنَّ النِّداء للبعيد يناسبه اختتامه بحرف مدٍّ، من حيث كونه يساعد الصَّوت على الانطلاق.

وعندما نلاحظ ما وضع للقريب كالهمزة في (أمحمَّد) المفروض أنَّه قريب فيسمع بمجرد النُّطق باسمه. فإنَّ مهمَّة حرف النِّداء أنَّنا نميِّز المنادَى، وأنَّنا نريد منه شيئًا؛ لأنَّنا لو قلنا: (محمَّد) فقط فقد نتكلَّم عن محمَّدٍ آخر، فلا يحتاج إلى حرف مدٍّ ينطلقُ به الصَّوت؛ لأنَّه قريب. وقد وضعوا (أَيْ) -بفتحٍ فسكون- للقريب المحبَّب. ونلاحظ أنَّ (أَيْ) فيها السُّكون من غير مدٍّ، ولا يساعد ذلك الصَّوت على الانطلاق، أمَّا لو قلت: (أي) بمدٍّ فإنها تصبح (مدَّ لِيْن) كـ (شيء)، ولم يصبح ساكنًا سكونًا كاملًا[١]، فتخرج بذلك عن كونها حرف نداء. وقد وضعت (أي) لنداء القريب المحبَّب كأن الحرف الأوَّل يشير للقرب، والحرف الثَّاني يشير للمحبَّة، فالهمزة للقريب، والياء الساكنة للحبِّ، وكون (يا) لنداء البعيد يتناسب معه انطلاق الصوت، وكون البعيد متوسِّطَ البعد تناسب معه ابتناء الأداة على حرفين فقط.

أمَّا شديد البعد فأكثر من حرفين كـ (أيا) و(هيا)[٢]؛ لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى غالبًا، فإن فاته الحرفان الأوليان فلن يفوته انطلاق الصَّوت بالمدِّ، فكأني أتي

---

(١) (مد اللِّين) هو مد الواو والياء السَّاكنتين المفتوح ما قبلهما، مثل: خوف، بيت، صيف. وسمِّي (بمدِّ اللين)؛ لأنَّ في النُّطق به سهولة ولين.

(٢) وفي (المقتضب): "وأما (أيا)، و(هيا) فلا يكونان إلا للنَّائم، والمستثقل، والمتراخي عنك؛ لأنهما لمدِّ الصوت". المقتضب (٤/٢٣٥).



له في أوّل الأمر بما يمكن أن يسمعه، فإن فاته سماعه لا يفوته سماع الحرف الأخير الذي ينطلق به الصَّوت لكونه حرف مدٍّ. والموضوع له (يا) بعيد متوسِّط البعد.

واللُّغة جاءت لحاجة المخاطَبين بعضهم لبعض -كما تقدم-.

والأصل عندما تضع اللُّغة كلمةً لإفادة معنى من المعاني أن تضعها لأوَّل حاجة الإنسان المخاطَب، فأوَّل ما يحتاج الإنسان إلى التَّعامل مع الكون المحيط به. والأصل أن يكون ذلك الوضع للحاجات المحسَّة. ولنفترض أن معنا واحدًا من النَّاس فقط في بيئته، فعندما نريد أن يصبح بيننا وبينه تفاهم، ولنفترض أنَّنا نخاف عليه من حيوانٍ مفترسٍ واقفٍ أمامنا فإننا نشير له بما يفيد الابتعاد عنه، وعندما نشير له بذلك إنما نشير له على شيءٍ محسوس، فإنَّنا نضع للحيوان اسمًا بحيث لو كان المخاطَب لا يرى إشارتنا يفهم من الكلمة التي سنضعها أنَّ الذي أمامه حيوانٌ مفترس، أو الذي سيأتيه مثلًا: أسدٌ. فأسد؛ لتنبه المخاطَب، فاصطلحنا أنَّ الحيوان المفترس (أسد) فعندما أقول: (أسد) ينظر إلى هذا الحيوان —كما تقدم-.

ونرى هذا الإنسان يريد ماءً -مثلًا- يرويه ولا يجد. فنقول له: (ماء)..فالأصلُ في الأوضاع أنها للمحسوسات، ثمَّ بعد أن نضع ما نضع للمحسوسات نترقى منها للمعنويَّات بعدما نتخطَّى الحاجات الأوَّليَّة في الكون المحسِّ المشاهد؛ فلذلك فإنَّ الأصل في البعد والقرب أن يكون محسًّا يقاس بالمسافة الحسيَّة كغيره من الموضوع له. وهذا بالنِّسبة لنداءات القرآن غير قائم؛ لسببين:

الأوَّل: **السَّبب الخاصُّ**: وهو أنَّنا نجد أن كثيرًا من نداءات القرآن بين الخالق والمخلوق، سواء كان الطَّرف الخالق هو المنادِي —بكسر الدال المهملة- أو العكس. ومثل هذا النِّداء يلاحظ فيه عدم صلوح المسافة الحسيَّة عقلًا ولا نقلًا؛ لأنَّ الخالق عَزَّوَجَلَّ وهو أحد الطَّرفين ليس جسمًا، ولا عرضًا قائمًا بجسم، وليس مادَّة، ولا تعقل المسافة الحسيَّة إلَّا بين جسمين.

الثَّاني: السَّبب العامُّ: القرآن لا يُعنى إلَّا بالمهمَّات أصلًا، والمكان والمسافة ليس من المهمَّات؛ ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يسوقُ القصص لا يأتي بالمكانِ المحدَّد بالضَّبط.

فمثلًا: أين كان نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ أين كان داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ لا يقول؛ لأنَّه ليس المكان الذي يشكِّلُ الحَدث، وليس الزَّمانُ هو الذي يشكِّلُ الحَدث، وليس اسم الشَّخص يشكِّلُ الحَدث؛ ولذلك لا يصرَّح حتىَّ بذكر اسم الشَّخص، فيقول: (فرعون) مثلًا، وهو لقبٌ لكلِّ ملوك (مصر) القدماء، و(تُبَّع) لكلِّ ملوك (اليمن) مثلًا. القرآن لا يُعني إلا بالمهمَّات، فتحديد المكان فضلًا عن المسافة الدَّقيقة لا دخل له في تشكيل الحدث. فعندما أتصوَّر مثلًا أنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سينادي الكفَّار كما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له مثلًا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، صحيح أن محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ جسم محسوس، والكفَّار أجسام محسوسة، ولكن ما قيمة أن يقال: إنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو ينادي كان بينه وبين الكفَّار الذين يناديهم مسافة كذا؟ فما قيمة هذا حتى يُعنى به القرآن؟ فلمَّا كان ملاحظة المكان الحسيِّ شيءٌ يسقط من قصد القرآن؛ لأنَّه لا صلة له بتشكيل الأحداث، والقرآن إنما يعنى بموطن العبرة والحكمة، وكذلك في النِّداءات التي بين المخلوق والمخلوق لا يلاحظ المسافة الحسيَّة.

والأصلُ في أكثر الألفاظ الموضوعة لمعانٍ أنَّها جاءت موضوعة أصلًا لمحسٍّ مشاهد، وأنَّها لا تصرف إلى ما ليس حسيًّا مشاهدًا إلا بنوعٍ من الإطلاق بعد التَّقييد -كما سيأتي-؛ لأنَّ الأصل أنَّ الواضع عندما يضعُ اللَّفظ يضعه ليكونَ وسيلةَ تفاهمٍ بينه وبين مخاطَبه، ولا بُدَّ من اللَّفظ؛ لأنَّ الإشارة وحدها لا تكفي فقد يكون الشَّخص بعيدًا لا يرى الإشارة..

وملاحظةُ البُعْد الحسيِّ لا تصلح في القرآن الكريم؛ لأنَّنا عندما نحصي نداءات القرآن في الجملة نجدها قسمين:

الأوَّل: أحد الطَّرفين هو الخالق عَزَّ وَجَلَّ.

والثَّاني: ما طرفاه مخلوقان.



أمَّا القسمُ الأوَّل: فلا يصلح ملاحظةُ البعد الحسيِّ بالمسافة؛ لأنَّ البُعْد الحسيَّ لا يتصوَّر إلا بين جوهرين أو جسمين، والله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن ذلك..-كما سبق-.

وأمَّا القسمُ الثَّاني: فإنَّ القرآن لا يُعْنى بأمثال هذه الأغراض، وإنما يعني بالمقاصد الشَّريفة. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على بُعْدٍ أو قرب فإنما يكون لقصد عظيم.

فالقرآن لا يُعني غالبًا بتقريرِ زمانٍ ولا مكان، ولا تحديد أشخاص بدقَّة؛ لأنَّ ذلك ليسَ له شأنٌ في تشكيل الحَدَث -كما سبق-.

فإن قال قائل: لِمَ لَمْ يُسْتَعمل ما وضع لنداء الشَّديد البعد؟

فإنَّ الجواب أنَّه إذا تركَّزَ في النَّفس أنَّ الفرق أجسمُ ما يكون، وأعظمُ ما يكون بين المنادِي -بكسر الدال المهملة- والمنادَى -بفتح الدال المهملة-، وأنَّ الغفلةَ قد بلغتْ حدَّها الأقصى في إبعادِ المنادَى -بفتح الدال المهملة- عن المنادِي -بكسر الدال المهملة-، فكيف يفهم خطابه مع وجود ذلك الفرق؟! فاليأس يجعلُ الإنسانَ لا يسمع الخطاب؛ فذلك مَلِكٌ عظيمٌ بيني وبينه أبعدَ ما يكون من التَّقارب بين المنزلتين، كذلك عندما تكون الغفلةُ بلغت حدَّها الأقصى، أو يقال: إنَّ إنسانا طغت عليه معصيته إلى حدِّ أنَّه لم يصبح عنده أيُّ أملٍ في الخلاص، فذلك يجعله ينهمك في المعصية، فكأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول للخلق مدًّا في بعض أسباب الأمل: كأنَّ بيني وبينكم مسافةً متوسِّطة بحيث لا تشقُّ عليكم، ولا تتقطَّع دونها أعناقكم، فالبعد؛ لبيان تعاظم الفرق، والتَّوسط؛ لبيان أنَّه ينبغي أن لا تنقطع بسبب هذا البعد آمالكم دون الوصول.

وهذا أمرٌ مضَّطردٌ في عادات النَّاس، وسيرًا على هذا الأمر المطَّرد جاء النِّداء بـ: (يا) إشارة إلى أنَّ الأمر الذي يُنادَى من أجله جدير بأن تحتمل من أجله المشاقُّ.

يقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره): "و(يا) حرف لا (اسم فعل) على الصَّحيح وضع لنداء البعيد. وقيل: لمطلق النِّداء أو مشتركة بين أقسامه، وعلى الأوَّل ينادَى بها القريبُ؛ لتنزيله منزلة غيره، إمَّا لعلوِّ مرتبة المنادِي أو المنادَى، وقد ينزَّل غفلة السَّامع وسوء فهمه منزلة بعده، وقد يكون ذلك للاعتناء بأمر المدعوِّ له والحثِّ عليه؛ لأنَّ نداء



البعيد وتكليفه الحضور لأمر يقتضي الاعتناء والحثَّ، فاستعمل في لازم معناه على أنَّه مجازٌ مرسل أو استعارةٌ تبعيَّة في الحرف أو مكنيَّة وتخييليَّة.."[1].

" ثمَّ لم يبيِّن كيفيَّة إجراءِ المجاز أو الاستعارة، وعلى أيِّ الوجهين يكون أحدهما، وعلى أيِّهما يكون الآخر، وكذلك صَنَعَ من قبله الشِّهابُ الخَفَاجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] في (حواشيه على تفسير البيضاوي)"[3].

وقد بيَّن الأستاذُ الدُّكتور إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في شرحٍ وتوضيح لم يسبقه إليه غيره فقد جاء عند الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4] مجملًا، وبحاجة إلى بيان؛ ولذلك كانت العناية والاهتمام بما أورده الأستاذ الدُّكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك –من البيان لكيفيَّة إجراء المجاز أو الاستعارة–؛ لأهميَّته؛ ولانفراده من بين الباحثين في التَّفسير وعلوم القرآن ببيان ذلك سواء في ذلك المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين.

وأوَّل ما يتقرَّر في ذلك أنَّ (يا) صرف عن حقيقة ما وضع له إلى أحد أمرين:

" **الأوَّلُ**: تنزيلُ البعدِ المعنويِّ منزلةَ البعدِ الحسيِّ، سواء أكان هذا التَّنـزيلُ لواحد من الغرضين أم كان لهما، فإنَّ استعمال الحرف في ذلك يكون من (المجاز المرسل) بمرتبتين:

---

(١) روح المعاني (١/١٨١).

(٢) هو أحمد بن محمَّد بن عمر، شهاب الدِّين الخفاجي المصري، قاضي القضاة وصاحب التَّصانيف في الأدب واللُّغة. نسبته إلى قبيلة (خفاجة). ولد ونشأ (بمصر)، ورحل إلى بلاد (الرُّوم)، واتَّصل بالسُّلطان مراد العثماني فولاَّه قضاء (سلانيك)، ثم قضاء (مصر). ثمَّ عزل عنها فرحل إلى (الشَّام) و(حلب) وعاد إلى بلاد (الرُّوم)، فنفي إلى (مصر) وولي قضاء يعيش منه فاستقرَّ إلى أن توفي. [١٠٦٩هـ]، وله كتب كثيرة، منها: حاشية على تفسير البيضاوي. الأعلام (١/٢٣٨)، معجم المؤلفين (٢/١٣٨)، فهرس الفهارس والأثبات (١/٣٧٧).

(٣) تفسير سورة النِّساء (ص:١٠٤)، وانظر: روح المعاني (١/١٨١)، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي (٢/٣).

(٤) انظر: روح المعاني (١/١٨١).



إحداهما: إطلاقُ البُعْد في هذا الحرف عن قيدِ خصوص كونه حسيًّا بالمسافة إلى ما هو مطْلَق بُعْد، أعمَّ من أنْ يكون حسيًّا أو معنويًا مجازًا مرسلا بعلاقة التَّقييد.

والأخرى: تقييد هذا البُعْد المطلق بخصوص كونه معنويًا مجازًا مرسلًا بعلاقة الإطلاق هذه المرَّة. ونكتةُ هذا المجاز: إظهارُ وضوح أمرِ هذا البُعْد وإبرازه في صورة المحسِّ المشاهد المرئيِّ المسافة عيانا. وإمَّا بالاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الحرف، بأن تشبِّه البعدَ المعنويَّ بالحسيِّ كذلك بجامع مطلق البعد في كلٍّ، ثمَّ تحذف المشبَّه به وترمز له بشيءٍ من لوازمه، وهو الحرف الموضوع لذلك البعد (يا) استعارة مكنيَّة. ونكتة الاستعارة بأيٍّ من نوعيها هي عين ما سبق من نكتة المجاز المرسل[1].

الثَّاني: الاهتمامُ بما تدعو المنادَى –بفتح الدال المهملة– من أجله، فإن إرادته من هذا الحرف هي من قبيل المجاز المرسل كذلك، لكن من إطلاق الملزوم الذي هو إفادة البعد الحسيِّ وإرادة لازمه الذي هو إفادة كون الأمر المدعوِّ له مهمًّا جديرًا أن تحمل في تحصيله المشقَّة.

ونكتةُ هذا المجاز: إبرازُ وضوح أهميَّة هذا الأمر، وبيان أنَّه كالمترتِّب على المحسوس، والتَّدليل على حتميَّة ثبوته من حيث إنَّه يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت لازمه.

ويمكن أن تجري في هذا الوجه الاستعارة أيضًا بنوعيها بأن تشبِّه ما وقع النِّداء لأجله في القرآن بما ينادى من أجله الشَّخص البعيد بجامع مطلق الأهميَّة في كلٍّ..الخ، فالكلام هو الكلام"[2].

ولأجل توضيح ذلك يقال: إنَّ أيَّ مجازٍ أو استعارة يطلب له ثلاثة أشياء: القرينة، والعلاقة، والشَّيء الثَّالث بالغ الأهميَّة غَفَلَ عنه من أنكر المجاز، وهو النُّكتة. فمثلًا: عندما أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا عظيم الشَّجاعة أقول مثلًا: (رأيتُ أسدًا رابضًا

---

(١) الاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيهٌ حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائمًا، وهي قسمان: الأوَّل: تصريحيَّة، وهي ما صرِّح فيها بلفظ المشبَّه به. والثَّاني: مكنيَّة، وهي ما حذف فيها المشبَّهُ ورُمِزَ لهُ بشيءٍ من لوازمه.

(٢) تفسير سورة النساء (ص:١٠٤–١٠٦).



خلف مدفعه). فقولنا: (رابضًا خلف مدفعه) هذه القرينة أفادت أنَّني لا أقصد (الحيوان المفترس)، فهذه هي القرينة، والعلاقة المشابهة، ولكن طالما أنني قصدت أن أفيد أني رأيتُ رجلًا شجاعًا فلماذا نبحث عن قرينة؟ ولماذا لم نُعَبِّر بالحقيقة من أوَّل الأمر؟ فبدلًا من إيقاع المخاطَب أوَّلا في اللَّبس، ثمَّ تصحيحُ ذلك بما يأتي من تمام الكلام، ثمَّ تطلب العلاقة. فبدلا من هذه التَّعمية لماذا لا يأتي المتكلِّم من أوَّل الأمر بحقيقة ما يقصده؟ فيقول من أوَّل الأمر: (رأيتُ رجلًا شجاعًا). يلزم وجود نكتة اقتضت عدم التَّعبير بالحقيقة المرادة إلى مجازٍ يراد منه هذه الحقيقة الأخرى. والتَّحقيق أنَّ هناك حقيقتين: حقيقةٌ مرادة من الكلام، وحقيقةٌ مهجورة غير مرادة من الكلام فقولنا: (رأيتُ أسدًا رابضًا) الحقيقة المهجورةُ هي: الحيوان المعروف، والمرادةُ هي: الرَّجل الشُّجاع، فلماذا لا نعبِّر بالحقيقة المرادة من أوَّل الأمر؟ ولماذا نصرف المخاطَب إلى المجاز؟

والجواب: إنَّ الحرفَ مصروفٌ إلى أحد وجهين أو كليهما: الأوَّل: تنزيلُ البعدِ المعنويِّ منزلةَ البعدِ الحسيِّ، والاهتمام بما تدعو المنادَى من أجله لأحدِ الغرضين أو كليهما..وعندما أقصد من الحرف هذه الإرادة -(البعد المعنوي)- هل يكون مجازًا أم حقيقة؟ وإن قلنا: هو مجاز فما نوعه؟ هل هو مرسلٌ أم مجازٌ بالاستعارة؟ الجواب أنَّه يجوز ويجوز. أمَّا إذا كان مجازًا مرسلًا فأينَ العلاقة؟ وأينَ النُّكتة؟ أمَّا القرينة فهي واضحةٌ، وهي استحالةُ إرادةِ البعدِ الحسيِّ بالمسافة. وقد ذكرت من قبل أنَّه مجاز مرسل فيجب أن أُبيِّنَ أوَّلًا أنَّه مجاز مرسل بمرتبتين حتَّى تتبيَّن العلاقة. وإذا كان أصل وضع الحرف هو البعدُ المقيَّد بكونه حسيًّا، فإن أوَّل خطوة في سلوك المجاز المرسل أنَّني أطلق هذا الحرفَ عن قيدِ الوضع فيه -(وهو البعد الحسي)-، فأطلق البُعْد فيه عن قيدِ كونه حسيًّا، وأريد منه (مطْلَقَ بُعْدٍ) أعمَّ من أن يكون هذا البُعْد حسيًّا أو معنويًّا، وعندما أفعل ذلك فما هي العلاقة؟ للبلغاء في تقرير علاقة المجاز المرسل قولان:

القول الأوَّل: أن ينظر في تقرير العلاقة إلى المعنى المنتقل عنه.

القول الثَّاني: أن ينظر في تقرير العلاقة إلى المعنى المنتقل إليه. وربما جمع بين الأمرين. يعني عندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ -مثلًا-: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة:١٩].



أو عندما أقول: (رأيتُ عينًا يتلصَّص)، وأقصد الجاسوس، أو (أعتقت رقبة) وأقصد الشَّخص كلَّه، فالرَّقبة جزءٌ من الشَّخص، فبالنِّسبة للرَّقبة عندما نقرِّر العلاقة هل أنظرُ إلى المعنى المنتقل عنه فأقول: (العلاقة الجزئيَّة)، أو أنظرُ إلى المعنى المنتقل إليه فأقول: (العلاقة الكليَّة)؟ فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ فإنَّ المراد الجزء وليس الكل؛ فالأنامل جزء، فإن نظرنا إلى المعنى المنتقل عنه نقول: (الكليَّة)، وإن نظرنا إلى المعنى المنتقل إليه نقول: (الجزئيَّة). وقد يتسامح البعض فيقول: الكليَّة والجزئيَّة.

أمَّا حرف النِّداء (يا) فهل المعنى الذي انتقلنا عنه هو التَّقيد أو الإطلاق؟ قد علم أن الأصل في وضع حرف النِّداء (يا) هو (البعد المقيَّد بكونه حسيًّا)، ولكنَّا قد انتقلنا عنه إلى إطلاق البعد من قيده الحسيِّ بحيث صار صادقًا على الحسيِّ والمعنوي، وبذلك نكون قد انتقلنا من التَّقييد إلى الإطلاق. فإن نظرنا إلى المنتقل عنه نقول: العلاقة التَّقيد، وإن نظرنا إلى المنتقل إليه نقول: العلاقة الإطلاق. وأصحُّ الوجهين أن تنظر إلى المعنى المنتقل عنه. لكن ماذا نريد من هذا الحرف هل نريد مطلق بُعْد أم خصوص البُعد المعنويِّ؟ طبعًا لا نريد مطلق بعد؛ لأنَّا إن أردنا مطلق بعد فنحن نحتاج إلى ما يقيِّد هذا المطلق. فعندما نقول مثلا: (رأيت رجلًا)، فقد أطلقت لفظ: (الرَّجل) عن كلِّ قيد، فيجوز أن يكون صالحًا أو فاسقًا أو فقيرًا أو غنيًا..الخ، ولكني أفهم حقيقة المراد عندما يذكر القيد، وإلا فإنَّك تجد النَّفس دائرة بين الاحتمالات لهذا المطلق. فإن قلنا: إنَّ المراد من (يا) هو خصوص البعد المعنويِّ فنحن نحتاج نقلةٍ أخرى أو مرتبة أخرى في المجاز. ننتقلُ عن مطلق بعد إلى تقيد هذا البعد بخصوص كونه معنويًّا، فالذي انتقلنا عنه الإطلاق فتكون العلاقة في المرتبة الثَّانية الإطلاق.

والخلاصة أن نقول: إنَّه مجاز مرسل بمرتبتين:

إحداهما: إطلاقُ البعد الحسيِّ عن قيد كونه حسيًّا إلى ما هو مطلق بُعْد أعمَّ من يكون حسيًّا أو معنويًّا بعلاقة التَّقيد، ثمَّ تقيد هذا البُعْد المطلق بكونه معنويًّا مجازًا مرسلًا لكن بعلاقة الإطلاق هذه المرَّة. والنُّكتة: إظهار ووضوح أمر هذا البُعْد. فأوضحُ ما يكون الأمر الواضح عندما يكون محسًّا مشاهدًا، فأطلقنا ما هو موضوع للبعد الحسيِّ



إشارةً إلى أنَّ أمر هذا البُعْد المعنويِّ الذي هو تعاظم الفرق، أو شدَّةُ الغفلة هو من الوضوح بمنزلة المُحَسِّ المشاهد الذي بيننا وبينه مسافة نقيسها.

أمَّا الاستعارة: فإنَّ (المشبَّه) معنويٌّ، و(المشبَّه به) حسيٌّ، يجمع بينهما مطلقُ البُعْد، ثمَّ حُذف المشبَّه، واستعير له لفظُ المشبَّه به، ثمَّ سرى التَّشبيه من الكليَّات إلى الجزئيَّات فأتينا من المشبَّه به بالحرف الذي هو موضوع لذلك البُعْد الحسيِّ (استعارةً تصريحيةً تبعيَّة في الحرف). وذلك كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١]. الأصل (على جذوع النَّخل)، فشبه الاستعلاء على الجذوع بالدُّخول فيها بجامع التَّمكن في كلٍّ، ثمَّ سرى التَّشبيه من الكليَّات إلى الجزئيَّات، وأتي بالحرف الدَّال على الظَّرفية التي هي الدُّخول في الشَّيء (استعارةً تصريحيةً تبعيةً في الحرف). و(النُّكتة): بيان وضوح هذا البُعْد المعنوي وأنَّه بمنزلة البُعْد الحسيِّ، أي: المحس المشاهد المرئي المسافة عيانًا.

الوجه الثَّاني: إن العلماء لما صرفوا (يا) عن إرادة البُعْد الحسيِّ المتوسِّط صرفوها إلى أحد أمرين:

الأول: إلى البُعْد المعنوي تنزيلًا له منزلة البُعْد الحسيِّ لأحد الغرضين أو كليهما.

الثاني: أن ينادى بـ: (يا) للدِّلالة على الاهتمام بأمر المنادَى من أجله فهذا بيان الوجه الأوَّل.

أمَّا الوجه الثَّاني فإننا عندما نريد من (يا) إفادة الاهتمام بالأمر المنادَى من أجله فإنَّ الصَّرفَ إلى هذه الإرادة من قبيل من (المجاز المرسل) كالأوَّل ولكن تختلف العلاقة هنا، فهو مجازٌ مرسلٌ بمرتبة واحدة ومختلفُ العلاقةِ والنُّكتة، وتزيد على النُّكتة هناك، فإنَّه يلزم عادة لمن يكون بعيدًا عنك بعدًا حسيًّا بالمسافة إلا تناديه إلا لأمرٍ مهمٍّ، فمعنا هنا ملزوم ولازم، وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

(نداءُ البعيدِ بعدًا حسيًّا) هو الملزوم. و(كون الأمر المنادَى من أجله مهمٌّ) هو اللَّازم. فهو (مجاز مرسل) من إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم حيث أطلقنا النِّداء للبعيد وأردنا إفادة أهميَّة الأمر. والنُّكتة تتمثَّل في أمرين: الأوَّل: إفادة هذا الوضوح الذي تحدَّثنا



عنه من قبل في الوجهِ السَّابق في المجاز وفي الاستعارة، وهو وضوح أهميَّة الأمر المنادَى من أجله، وأنَّه بمثابة المترتِّب على أمر المحسِّ. الثَّاني: -وهو الجديد- التَّدليل على الأهميَّة، وإقامة البرهان على الأهميَّة، فقولنا: (هذا الأمر مهمٌّ) مجرَّد دعوى، لكن إذا استدللنا على هذه الدَّعوى فقلنا: هذا الأمر مهمٌّ بدليل أنَّه ينادَى من أجله البعيدُ، وتحتملُ في سبيله المشقَّةُ، فكأنَّنا قد أتينا بالدَّعوى وبرهنَّا عليها. ويأتي الدَّليل من القاعدة المنطقيَّة والعقليَّة التي تفيد أنَّ بين الملزوم واللاَّزم تناسبٌ عكسيٌّ بالنِّسبة للوجود والعدم. وتصوير المسألة: أن نقول مثلًا: الشَّمس ملزوم، والضُّوء لازم، فكلَّما وجدت الشَّمس وجد الضُّوء، فيلزم من وجود الملزوم وجود اللاَّزم، وليس كلَّما انعدمت الشَّمس انعدم الضَّوء. كأن يأتي الضُّوء من القمر مثلا أو الكهرباء، فلا يلزم من عدم الملزوم عدم اللاَّزم. والعكس بالنِّسبة للازم. نقول: يلزم من عدم اللاَّزم عدم الملزوم، فيلزم من عدم الضُّوء عدم الشَّمس، ولا يلزم من وجود اللاَّزم وجود الملزوم، فلا يلزم من وجود الضُّوء وجود الشَّمس. ولكن ما معنى التَّعبير بالملزوم وإرادة اللاَّزم؟ نقول: يلزم من النِّداء للبعيد وجود لازمه، وهو أهميَّة الأمر المنادَى من أجله. حيث شبَّه أهميَّة الأمر المنادَى من أجله معنى بما ينادى من أجله البعيدُ بُعْدًا حسيًّا، فإن حذف المشبَّه وذكر المشبَّه به فهي (استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ في الحرف). وإن حذف المشبَّه ورمز له بشيءٍ من لوازمه -وهو الحرف الموضوع لذلك البُعْد (يا)- فهي استعارة مكنيَّة. ونكتةُ الاستعارة بأيٍّ من نوعيها هي عين ما سبق من نكتة المجاز المرسل.

"ثمَّ يقال ما قيل بعينه حين تتمخَّض (يا) للتَّنبيه فتدخل على الفعل في قراءة من قرأ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٢٥] -بتخفيف اللام-، وعلى الحرف كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧]، على القول بأنَّ (يا) في هذين الموطنين وأمثالهما هي حرف تنبيه لا حرف نداء، أمَّا على القول بأنها حرف نداء والمنادى محذوف فلا يعوز حملها على ما يليق بها من الوجهين الآنفين"(١). فـ ﴿أَلَّا﴾ في

---

(١) تفسير سورة النساء، أ.د إبراهيم خليفة (ص:١٠٦).



قراءة التَّشديد تحمل على أنها مركَّبة من (أَنْ)، وقد دخلت عليها (لا) فأدغمت فيها، ﴿يَسْجُدُوا﴾: فعل مضارع منصوب بأن و(لا) نافية، ولكن بالتَّخفيف قراءتها هكذا (ألا يا اسجدوا). وتوجيه ذلك أن يقال: ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح وتنبيه أو يقال للعرض. و(اسجدوا): فعل أمر، فـ (يا) دخلت على فعل الأمر، ودخلت على الحرف في ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾، و(يا) عندما تدخل على الفعل أو على الحرف فيها توجيهين:

التَّوجيه الأوَّل: أن يقال: إن (يا) حرف تنبيه.

والتَّوجيه الثَّاني أن يقال: إنَّ (يا) حرف نداء والمنادى محذوف، ويكون التَّقدير مثلًا: (يا هؤلاء اسجدوا)، و(يا هؤلاء ليتنا نردُّ)، (يا نفس ليتنا نردُّ)، فعندما تكون حرف نداء يجري عليها ما سبق، أمَّا عندما تكون حرف تنبيه فيقال: الكلام أيضًا هو الكلام من حيث إنَّه لا ينبَّه إلا إلى الأمر المهمِّ فيمكن أن تجري المجاز أو الاستعارة عندما تتمحض (يا) للتَّنبيه(١).

(١) وتفصيل الإعراب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ "قُرئ بتشديد ﴿أَلَّا﴾ [قرأ جمهور السَّبعة (ألَّا) –بالتَّشديد-. وبالتَّخفيف قرأ الكسائي. انظر: السبعة في القراءات (ص:٤٨٠)، والحجة في القراءات (٢٧١/١)، وحجة القراءات (٥٢٦/١-٥٢٨)] على أنها (أن) دخلت عليها (لا) فأدغمت فيها. و﴿يَسْجُدُوا﴾ منصوب بأن، وفي محلِّ (أن) وجهان: أحدهما: النَّصب إمَّا مفعولًا له على معنى: (فصدَّهم عن السَّبيل لئلَّا يسجدوا) أو (زين لهم لئلَّا يسجدوا)، فحذف الجارَّ، أو بدل من قوله: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: (وزيَّن لهم ألا يسجدوا). ويجوز أن يكون من صلة الابتداء على أن (لا) صلة، أي: (وزيَّن فهم لا يهتدون ألا يسجدوا). والثَّاني: الجرُّ على البدل من السَّبيل متعلِّق بالله. أي: (فصدَّهم عن أن يسجدوا)، و(لا) صلة أيضًا. وقُرئ –بتخفيفها- على أن (ألا) تنبيه، و(يا) حرف نداء ومناداه محذوف كحذفه في قوله:

(يا لعنة الله والأقوام كلِّهم***)

هذا صدر بيت من (البسيط)، وعجزه: (***والصَّالحين على سمعان من جار). وهذا من شواهد (الكتاب)، انظر: الكتاب، بتحقيق: عبد السَّلام هارون (٢١٩/٢)، وفي البيت يدعو على جاره؛ لأنَّه لم يرع حقَّ الجوار، والشَّاهد فيه حذف المدعو؛ لدلالة حرف النِّداء عليه، والمعنى: (يا قوم) أو (يا هؤلاء) لعنة الله على سمعان؛ ولذا رفع (لعنة) بالابتداء، ولو أوقع النِّداء عليها لنصبها]. انظر: تفسير القرطبي (١٨٦/١٣)، انظر ذلك مفصَّلًا في (الدُّر المصون) (٣٠٧/٥-٣٠٩)، تفسير ابن عادل (١٤٤/١٥)، البحر المحيط (٦٧/٧)، معاني القرآن، للنَّحاس (١٢٦/٥)، أضواء البيان (١١٣/٦–١١٤)، المحرر=



وسيأتي مزيد من البيان في المطلب الذي يتعلَّق بدخول حرف النِّداء: (يا) على الاسم في الخطاب القرآني..مع بيان التَّرجيح..



=الوجيز (١/٤٥٠). والتَّقدير: (يا قوم)، أو (يا هؤلاء اسجدوا) فحذف المنادى للعلم به، وحذفت الألف لالتقاء السَّاكنين، ولما حذفت من اللَّفظ حذفت من الخطِّ، وكذلك في (اسجدوا) حذفت لفظًا وخطًّا، فبقي ﴿يَسْجُدُوا﴾ كما ترى. قال أبو علي [وهو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان أبو علي الفارسي النَّحوي. انظر ترجمته في (البلغة في تراجم أئمة النَّحو واللُّغة) (ص:١٣)، تاريخ بغداد (٧/٢٧٥)]. ووجه دخول حرف التَّنبيه على الأمر أنَّه في موضع يحتاج فيه إلى استعطاف الأمور؛ لتأكيد ما يؤمر به كما أنَّ النِّداء موضع يحتاج إلى استعطاف المنادى لما ينادي له من إخبار أو أمر أو نهي، ونحو ذلك مما يخاطب به. انتهى كلامه". الفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/٦٨١)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/١١٥-١١٦).



المطلب السادس: بيان الحكمة من استخدام حرف النداء (يا) دون غيره

أصل النِّداء بـ (يا) أن تكون للبعيد حقيقة أو حكمًا[1]. وقد ينادى بها القريب[2] لنكت منها:

إظهار الحرص في وقوعه على إقبال المدعو نحو: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ [القصص:٣١]، ومنها: كون الخطاب المتلو معتنى به نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

---

(١) وعند المرادي والمالقي: مسافة أو حكمًا..، والمراد من قولهم: (حكمًا)، أي: كالنَّائم والغافل والسَّاهي. انظر: الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٤٥١).

(٢) انظر: الكليَّات (ص:٩٧٩)، الإتقان (٢/٢٢٢- ٢٢٣)، البرهان (٢/٣٢٤)، (٤/٤٤٥)، القاموس المحيط، الياء، (ص:١٧٤٨)، المعجم الوسيط كذلك، (٢/١٠٦٢)، تاج العروس، الياء، (٤٠/٥٥٥)، مختار الصِّحاح، الياء (ص:٣٠٩)، همع الهوامع (٢/٣٢-٣٤)، تفسير أبي السعود (١/٥٨)، روح المعاني (١/١٨١)، البحر المحيط (١/١٥١)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢/٢)، الإتقان (٢/٢٢٣)، البرهان (٤/٤٤٥)، بصائر ذوي التَّمييز (٥/٤٢٢)، الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٤٥١)، مصابيح المعاني (ص:٤٢٤- ٤٢٥). وفي (مغني اللَّبيب): "حرف موضوع لنداء البعيد حقيقةً أو حكمًا، وقد ينادى بها القريب توكيدًا. وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد. وقيل: بينهما وبين المتوسِّط. وهي أكثر أحرف النِّداء استعمالًا؛ ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها". مغني اللَّبيب (ص:٤٨٨). وفي (حاشية الأمير على المغني): قوله: [أي: ابن هشام في (المغني)] "توكيدًا.. إشارة إلى أنَّ الكلام الذي يلقى أو نفس الدُّعاء معتنى به حتى نُزِّلَ القريبُ وإن كان متنبِّهًا لذلك منزلة الغافل.." الحاشية (٢/٤١).

ومنها: قصد تعظيم شأن المدعو إمَّا إجلالًا كما في قول الدَّاعي: ﴿يَـا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ استقصارًا لنفسه؛ واستبعادًا لها من محافل الزُّلفى، ومنازل المقربين، وإمَّا تنبيهًا على غفلته وسوء فهمه. وقد يقصد به التَّنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُـمُ﴾ [البقرة:٢١]، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، ومنها: قصد انحطاطه كقول فرعون: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١][(١)].

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَثُرَ في القرآن الكريم النِّداءُ بـ: ﴿يَا أَيُّهَـا﴾ دون غيره؛ لأنَّ فيه أوجهًا من التَّأكيد، وأسبابًا من المبالغة، منها: ما في (يا) من التَّأكيد والتَّنبيه، وما في (ها) من التَّنبيه، وما في التَّدرج من الإبهام في (أَي) إلى التَّوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتَّأكيد؛ لأنَّ كلَّ ما نادى له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية، وغير ذلك ومما أنطق الله عَزَّوَجَلَّ به كتابه، أمورٍ عظام، وخطوبٍ جسام، ومعانٍ واجب عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم غافلون فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ"[(٢)].

وقال: "و(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرَّجل بمن يناديه. وأمَّا نداء القريب فله (أي) و(الهمزة)، ثمَّ استعمل في مناداة من سَهَا وغَفَل وإن قرب تنزيلًا له منزلة من بَعُد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتَّأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا. فإن قلتَ: فما بال الدَّاعي يقول في جؤاره: (يا رب)، و(يا ألله)، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر؛ قلتُ: هو استقصار منه لنفسه؛ واستبعاد لها من مظانِّ الزُّلفى، وما يقرِّبه إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، ومنازل المقرَّبين؛ هضمًا لنفسه؛ وإقرارًا عليها بالتَّفريط في جنب الله عَزَّوَجَلَّ، مع فرط التَّهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله. و(أَي) وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللَّام، كما

---

(١) انظر: المصادر السَّابقة.

(٢) الكشاف (١/٢٢٥–٢٢٦)، تفسير أبي السعود (١/٥٨)، وانظر: الإتقان (٢/٢٢٢–٢٢٣). وانظر: المفصل في صناعة الإعراب (١/٤١٣).



أنَّ (ذو) و(الذي) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصف المعارف بالجمل. وهو اسمٌ مبهمٌ مفتقرٌ إلى ما يوضِّحه ويزيل إبهامه، فلا بدَّ أن يردفه اسمُ جنس أو ما يجري مجراه يتَّصف به حتى يصحَّ المقصود بالنِّداء، فالذي يعمل فيه حرف النِّداء هو (أي)، والاسم التَّابع له صفته، كقولك: (يا زيد الظَّريف)، إلا أنَّ (أيًّا) لا يستقلُّ بنفسه استقلالَ (زيد)، فلم ينفك من الصِّفة. وفي هذا التدرُّج من الإبهام إلى التَّوضيح ضرب من التَّأكيد والتَّشديد. وكلمة التَّنبيه المقحمة بين الصِّفة وموصوفها لفائدتين:

١ - معاضدة حرف النِّداء ومكاتفته بتأكيد معناه.

٢ - ووقوعها عوضا ممَّا يستحقه (أيّ) من الإضافة"[١].

ويتبيَّن مما سبق الحكمة من استخدام حرف النِّداء (يا)، وما للنِّداء بـ (يا) دون غيرها من أدوات النِّداء الأخرى من المزايا والخصائص التي إن دلَّت فإنما تدلُّ على الدِّقة والإحكام في تناسق ألفاظ القرآن الكريم، ودلالتها على المعاني الجليلة.



---

(١) الكشاف (١/٢٢٤-٢٢٦)، وانظر: تفسير أبي السعود (١/٥٨)، تفسير الرازي (٢/٣٢١)، تفسير النيسابوري (١/١٨٠)، الإتقان (٢/٢٢٢-٢٢٣)، تفسير سورة النِّساء، إبراهيم خليفة (ص:١٠٦-١٠٧).


أساليب النداء في القرآن الكريم



المطلب السابع :
دخول حرف النداء: (يا) على الاسم

يتبيَّنُ ممَّا سبقَ أنَّ النِّداءَ هو طلبُ الإقبال بالحروف (يا) وإخوته، والمقصود هنا: (يا)، حيث لم يقع النِّداء القرآني إلا ب (يا) كما حقَّقتُ ذلك.

وأوَّل ما ينبغي أن يعلم أن الاسم يتميَّز عن الفعل بعلامات منها:

النِّداء: قال في (الألفيَّة):

(بالجَرِّ وَالْتَّنْوِينِ وَالنِّدَا وَأَلْ ***وَمُسْنَدٍ لِلاِسْمِ تَمْيِيزٌ حَصَلْ)(1).

نحو: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا﴾ [الأعراف:٧٧]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ [هود:٤٨]، ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود:٨١]، ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود:٨٧]، فكلٌّ من هذه الألفاظ التي دخلت عليها (يا) اسم، وهكذا كلُّ منادى(2).

وقد اعترض بدخول (يا) على الفعل في قراءة من قرأ: ﴿ألا يَا اسْجُدوا﴾ [النمل:٢٥]-بتخفيف اللَّام- فقد قرأ الكسائيُّ: ﴿ألا يَا اسْجُدوا﴾ -بتخفيف اللَّام- و﴿ألا﴾ تنبيه، وبعدها (يا) التي ينادى بها، والابتداء ﴿اسْجُدوا﴾ على الأمر بالسُّجود، فالمعنى: (ألا يا قوم اسجدوا لله)، خلافًا لهم، وحمدًا لله عَزَّوَجَلَّ أنكم لم تكونوا مثلهم في الطُّغيان، بل هداكم الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا الكلام يكون منقطعًا مما قبله على أنَّ ما قبله تمام، ويكون ما بعده كلامًا معترضًا من غير القصَّة الماضية، إمَّا من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإما

---

(١) ألفيَّة ابن مالك (ص:٩).

(٢) شذور الذَّهب (٢٢/١). وانظر: شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (٢١/١)، أوضح المسالك (١٩/١).

من الهدهد، على تأويل (يا هؤلاء اسجدوا)، فلمَّا كف ذكر هؤلاء اتصلت (يا) بقوله: ﴿اسْجُدوا﴾، فصار (يسجدوا) كأنَّه فعل مضارع إذا أدرجت الكلام، والعرب تقول: (ألا يا ارحمونا)، أي: (ألا يا هؤلاء ارحمونا)؛ لأنَّ (يا) لا يلي الفعل إلا مع إضمار. والمعنى: (ألا يا قوم اسجدوا)، فحذفت الأسماء، وقامت (يا) مقامها، وكان هذا الحذف في النِّداء خاصَّة، وقرأ الباقون بالتَّشديد[1].

قال الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان): "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ألا يَا اسْجُدوا﴾ على قراءة الكسائيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتخفيف (ألا) على أنها تنبيه، و(يا) نداء، والتَّقدير: (ألا يا هؤلاء اسجدوا لله). ويجوز أن يكون (يا) تنبيهًا، ولا منادى هناك، وجمع بينهن تأكيدًا؛ لأنَّ الأمر قد يحتاج إلى استعطاف المأمور، واستدعاء إقباله على الآمر، وأمَّا على قراءة الأكثر بالتَّشديد فعلى أنَّ (أن) النَّاصبة للفعل دخلت عليها (لا) النَّافية، والفعل المضارع بعدها منصوب، وحذفت النُّون علامة النَّصب فالفعل هنا معرب، وفي تلك القراءة مبنيٌّ"[2].

وقد اعترض أيضًا بقولهم: فما تصنع بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧]، حيث دخل حرف النِّداء على ما ليس باسم؟

والجواب يقال فيه ما قيل في سابقه.

وقد سبق في بيان أداة النِّداء المستخدمة في القرآن الكريم ما له صلة فيما نحن بصدد بيانه هنا، وقد أُعيد هنا للوفاء ببيان دخول حرف النِّداء (يا) على الاسم في الخطاب القرآني مستقلًّا، وزيادةً في توضيح المعنى، وذلك من خلال الإعراب التَّفصيلي.

---

(١) بتصرُّف عن (حجَّة القراءات) (١/٥٢٦–٥٢٧). وقيل: قرأ ابنُ عباس وعبد الرَّحمن السلمي والحسن وأبو جعفر وحميد الأعرج: ﴿ألا يَا اسْجُدوا﴾. انظر: حجَّة القراءات (١/٥٢٦–٥٢٧)، النَّشر (٢/٣٣٧)، الإتحاف (ص:٣٢٦)، إبراز المعاني من حرز الأماني (٢/٣٣٥)، معاني القرآن، للنَّحاس (٥/١٢٦)، المحرَّر الوجيز (١/٤٥٠)، تفسير أبي السُّعود (٦/٢٨١)، البيضاوي (٤/١٥٨)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢/٥٣٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/١٨٠).



والخلاصة في ذلك:

أنَّ قراءة الكسائيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ألا يَا اسْجُدوا﴾، لها توجيهان، وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾:

التَّوجيه الأوَّل: أن يقال: إنَّ (يا) حرف تنبيه.

والتَّوجيه الثَّاني: أن يقال: إنَّ (يا) حرف نداء والمنادى محذوف، ويكون التَّقدير: (يا هؤلاء اسجدوا)، و(يا قوم ليتنا نرد)..[1].

ومال إلى هذا الرأي الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (معاني القرآن الكريم)[2]، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّسهيل)[3]، والأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4] في (البيان)[5].



(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٩/ ٤٤٧)، تفسير أبي السُّعود (٢٨١/٦)، معاني القرآن، للنَّحاس (١٢٦/٥)، تفسير البغوي (٥٠٠/٣)، زاد المسير (٣٥٩/٣)، الإتقان (٥٢٧/١)، الحجَّة في القراءات السَّبع (٢٧١/١)، مشكل إعراب القرآن (٥٣٣/٢)، بحر العلوم (٢/ ٥٧٩)، الكشف والبيان (٢٠٣/٧)، ابن عادل (١٤٢/١٥)، النسفي (٦٠١/٢)، الخصائص (١٩٦/٢)، اللَّامات (٣٧/١)، الإنصاف في مسائل الخلاف (٩٩/١).

(٢) معاني القرآن الكريم، للفرَّاء (٢٩٠/٢).

(٣) التَّسهيل، لابن مالك (٣٨٩/٣).

(٤) هو عبد الرَّحمن بن محمَّد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدِّين الأنباري، من علماء اللُّغة والأدب وتاريخ الرِّجال. كان زاهدًا عفيفًا، خشن العيش والملبس، لا يقبل من أحد شيئًا. سكن (بغداد) وتوفي فيها [٥٧٧هـ]. انظر: الأعلام (٣٢٧/٣)، البلغة في تراجم أئمة النَّحو واللُّغة (ص:٣٣)، المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي (٢٣٩/١)، وترجم له في (تاريخ بغداد) (٢٣٩/١٥)، بغية الوعاة (٨٦/٢)، طبقات الشَّافعية، لابن قاضي شهبة (١٠/٢)، طبقات الشَّافعية الكبرى، للسُّبكي (١٥٦/٧)، معجم المؤلفين (١٨٣/٥).

(٥) البيان في غريب إعراب القرآن (٢٢١/٢).







المطلب الثامن :
بيان معنى: (أي) والحكمة من ذكره

قال أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسير سورة النِّساء): "إنَّ أصل (أي) الواقعة في النِّداء نكرة صالحة لأن تقال على كافَّةٍ ما يمكن أن يندرج تحتها (على سبيل البدل)، فهي من المطلق بالمعنى الأصوليِّ المعروف فيه، وإن كانت من أعمِّه (ما صدقًا)، وأكثره صلاحية؛ لاندراج الأجناس تحتها على سبيل البدل"[١].

وقد فرَّقوا بين العام والمطلق في الأصول من حيث (الما صدق)، أي: (الأفراد) فيقولون: إنَّ كلَّ واحد منهما عامٌّ إلَّا أنَّ عموم العامِّ هو (**عموم دفعي**)، وعموم المطلق هو (**عموم بدلي**)[٢].

والمثال يتحققُ عندما نأتي بنكرة في سياق الإثبات، ثمَّ نأتي بها بعينها في سياق النَّفي[٣]، وعندما نقول: (يا)، ونقول بعدها: (أي)، وقبل أن يذكر المفسِّر فإنَّ النَّفس

(١) تفسير سورة النساء (ص:١٠٨).

(٢) انظر: الإبهاج، للسُّبكي (٣١٦/١).

(٣) وتوضيح ذلك إذا قلنا مثلًا: (ما جاءني طالبٌ) أو (ما جاءني رجلٌ) فهو نكرة في سياق النَّفي، وهي تعمُّ، أي: تشمل جميع أفراد الرِّجال دفعةً واحدة، بحيث إذا قلتُ: (ما جاءني رجلٌ) لا يصحُّ أن تقولَ لي: هل جاءك محمَّد؟ لأنَّ النَّكرة عمَّت جميع أفراد الجنس دفعةً واحدة. أمَّا قولنا: (جاءني رجلٌ) من غير نفيٍ، فهنا المطلق هنا يعمُّ الأفراد لكن لا على سبيل الدَّفعة الواحدة، إنما على سبيل البدل. فقولك: (جاءني رجلٌ)، فرجل صالحة لأن تقال على أيِّ ذَكَرٍ من بني آدم، فيصحُّ أن أقصد محمَّدًا بدلا من عليٍّ أو غيره. ويصحُّ أن أقصد عليًّا بدلا من محمَّدٍ أو غيره، بحيث إذا قلتُ: (جاءني رجلٌ) وسَكَتُّ فلكَ أن تسألني عن الرَّجل من هو؟ هل هو محمَّد؟ هل هو عليٌّ..؟ و(أي) لها نفس المواصفات تشمل جميع ما يمكن أن يندرج تحتها من الأجناس أو الأنواع على سبيل البدل، نحو: يا أيُّها الرجل..الطَّالب..الملأ.. العالم.=

هنا كأنَّه قد حضر فيها كلُّ جنسٍ من الأجناس لكن على سبيل البدل، مثلًا: (النَّاس) في ﴿يَــا أَيُّهَــا النَّــاسُ﴾ [البقرة:٢١] كأنَّه حضر في النَّفس أيضًا لكن لا على سبيل الاستقلال، وإنما على سبيل صلوح أن يكون هو المقصود بدل غيره، مثل: صلوح الملأ الأعلى مثلًا، ومثل: صلوح العلماء..الخ.

فعندما أذكرُ المفسِّر يأتي الحضور الثَّاني الذي هو على سبيل الاستقلال، فكأنَّ معنا حضورين، أو كأنَّ النَّاس قد حضروا مرَّتين، مرَّة بذكر (أي) لكن لا على سبيل الاستقلال، وإنما الصَّلوح للإرادة بدلًا من غيرها؛ لأنَّ كلَّ الأجناس تحضر لكن على سبيل الصَّلوح للإرادة -(واحد بدل الآخر)-، ثمَّ يذكرُ المفسِّر بالحضور الاستقلالي.

و(أي) النِّدائية وصلة لنداء ما فيه (أل)[1].

=والمقصود في الحكم بالنِّداء في الحقيقة ليست هي، وإنما نعتُها الذي يليها، ولكونه هو المقصود بالحكم اغْتُفِر فيه ما لا يغتفرُ في غيره من النُّعوت، فالمفروض في النَّعت عند النَّحويين أن يكون مشتقًّا أو مؤوَّلا بالمشتقِّ، فالمشتقُّ مثل: (العاقل)، والمؤوَّل بالمشتقِّ مثل: المنسوب (المصري) مثلا، أي: المنسوب إلى (مصر)، هذا المشار إليه مثلا. أمَّا (النَّاس) أو (الرَّجل) فهو جامد، فجاز أن يكون نعتا؛ لأنَّه المقصود بالنِّداء في الحقيقة في قولك: (يا أيُّها النَّاس)...كأنَّك تناديه لا تنعت به.

(١) "و(أي) النِّدائية وصلة لنداء ما فيه (أل) يقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، و﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤]. ويجوز أن تؤنِّث مع المؤنث فتقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧]. وإنما كانت (أي) وصلة؛ لأنَّه لا يقال: (يا الرَّجل) أو (يا الذي) أو (يا المرأة)، و(أي) هذه: اسم مبني على الضَّمِّ؛ لأنَّه منادى مفرد، و(ها) لازمة لأي للتَّنبيه، وهي عوض من الإضافة في (أي) و(الرَّجل) صفة لازمة لـ: (أي)، ولا بد من أن تكون هذه الصِّفة فيها (أل)". انظر: حاشية الصَّبان (٣/١٥٠-١٥٢). والحاصل أنّه لا ينادي المعرَّف بـ: (أل) فلا يقال: (يا الرَّجل) إلا في الضَّرورة؛ لأنَّ في ذلك جمعًا بين أداتي التَّعريف. وجوَّزه الكوفيون في الاختيار. واستثني البصريون شيئين: اسم الله عَزَّوَجَلَّ، فيقال: (يا ألله)؛ لأنَّ (أل) للزومها فيه كأنها من بنية الكلمة، فيجوز حينئذٍ قطعُ همزه ووصله. والثَّاني: الجملة المسمَّى بها كأن تسمِّي (يا الرَّجل قائم) فإذا ناديته قلتَ: (يا الرَّجل قائم) أقبل؛ لأنَّه سمِّي به على طريق الحكاية. انظر: همع الهوامع (٢/٤٦-٤٨). "و(أي) بمنزلة (كل) مع النَّكرة وبمنزلة (بعض) مع المعرفة والفعل في قولك: (أيُّ عبيدي ضربك فهو حرٌّ) عامٌّ حتى لو ضربه الجميع عتقوا؛ لأنَّ الفعل مسند إلى عامٍّ، وهو ضمير (أي)، وفي (أيُّ عبيدي ضربته فهو حرٌّ) خاصٌّ حتَّى لو ضرب الجميع لم يعتق إلا الأوَّل؛ لأنَّ الفعل مسند إلى=



"و(أي) وصلة إلى ندائه إنما آثروا (أيا)؛ لأنها لوضعها على الإبهام، واحتياجها وضعًا إلى المخصِّص ألصق بما بعدها من غيرها، ولما شابهها اسم الإشارة بكونه وضع مبهمًا مشروطًا إزالة إبهامه بالإشارة الحسيَّة أو الوصف بعده قام مقامها في التَّوصل إلى نداء ما فيه (أل). وأمَّا ضمير الغائب فإنَّه وإن وضع مبهمًا مشروطًا إزالة إبهامه لكن بما قبله غالبًا وهو المفسر، وأمَّا الموصول فإنَّه وإن أزال إبهامه ما بعده لكنه جملة"(١).

وقد سبق ما قاله الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من البيان الواضح للحكمة من ذكر (أي). وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و(أي) لها معانٍ شهيرة، والواقعة في النِّداء نكرة موضوعة لبعضٍ من كلٍّ، ثمَّ تعرَّفت بالنِّداء، وتوصِّل بها لنداء ما فيه (أل)؛ لأنَّ (يا) لا يدخل عليها في غير الله عَزَّوَجَلَّ إلا شذوذًا لتعذُّر الجمع بين حرفي التَّعريف، فإنهما كمثلين، وهما لا يجتمعان إلا فيما شذَّ من نحو:

(فلا والله لا يُلفَى لما بي***ولا لَلِما بهم أبدا دَواء)(٢)

=ضمير المخاطَب، وهو خاصٌّ إذ الرَّاجع إلى (أي) ضمير المفعول، والفعل يعمُّ بعموم فاعله لكونه كالجزء من الفعل". الكليَّات (ص:٣٢٦ – ٣٢٨).

(١) حاشية الصَّبان (١٥١/٣).

(٢) البيت لمسلم بن معبد الوالبي الأسدي، من بني أسد، وقيل: لرجل من بني أسد [الوافر]. اللغة: (لا يلفى) لا يوجد، من ألفى إذا وجد، (لما بي) الذي بي. والمعنى: يقسم أنَّه لا يوجد للذي به من الموجدة والألم، ولا للذي عند خصومه من الحقد والضَّغينة علاج، وليس هناك أمل في المودَّة والمصالحة وإزالة الأحقاد والضَّغائن، بعد أن تفاقم الخطب وعظم الخلاف. والشَّاهد فيه: (للما) فاللام الثَّانية توكيد للأولى الجارَّة، ولم يفصل بينهما فاصل مع أنَّ اللام ليست من أحرف الجواب وهو شاذٌّ؛ لأنَّ الحرف المؤكد موضوع على حرف هجائي واحد لا يكاد يقوم بنفسه، ولو جاء على الصَّواب لقال: (لِمَا لِمَا به)؛ لأنَّ الأصل في حرف أن يعاد مع الاسم المجرور عند توكيده. انظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك (٩٨٢/٢)، سرُّ صناعة الإعراب (٢٨٢/١)، (٣٣٢/١)، الخصائص (٢٨٢/٢)، وانظر: التَّحرير والتَّنوير (٣٧٠/٢٣)، الدُّر المصون (١٨٣/٢)، البحر المحيط (٢٣٠/٨)، ابن عادل (٤٦٨/٦)، (١٤٣/١٥)، (٥/٢٠)، وانظر: خزانة الأدب (٢٧٠/٢–٢٧٤)، (١٥٥/٥)، (٥٢٩/٩)، شواهد المغني (ص:٥٠٥)، الدُّرر (١٥/٢)، معاني القرآن، للفرَّاء (٦٨/١)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، لابن جني (٢٥٦/٢).



أعطيت حكم المنادي، وجعل المقصود بالنِّداء وصفًا لها، والتزم فيه هذه الحركة الخاصَّة المسماة بالضَّمة، وإنما التزم ذلك إشعارًا بأنَّه المقصود بالنِّداء، ولا ينافي هذا كون الوصف تابعًا غير مقصود بالنِّسبة لمتبوعه؛ لأنَّ ذلك بحسب الوضع الأصليِّ حيث لم يطرأ عليه ما يجعله مقصودًا في حدِّ ذاته ككونه مفسِّرًا لمبهم، ومن هنا لم يشترطوا في هذا الوصف الاشتقاق مع أنَّ النَّحويين إلا النَّذر كابن الحاجب[1] اشترطوا ذلك في النُّعوت. و(ها) التَّنبيهية زائدة لازمة للتَّأكيد والتَّعويض عمَّا تستحقُّ من المضاف إليه أو ما في حكمه من التَّنوين كما في ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ [الإسراء:١١٠]، وإن لم يستعمل هنا مضافًا أصلًا. وكثُرَ النِّداء في الكتاب المجيد على هذه الطَّريقة لما فيها من التَّأكيد الذي كثيرًا ما يقتضيه المقام بتكرُّر الذِّكر، والإيضاح بعد الإبهام، والتَّأكيد بحرف التَّنبيه، واجتماع التَّعريفين. هذا ما ذهب إليه الجمهور.."[2].

وفي (تفسير أبي السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "و(أي) اسم مبهم جعل وصلة إلى نداء المعروف باللام لا على أنه المنادى أصالة، بل على أنَّه صفة موضِّحة له، مزيلة لإبهامه والتزام رفعه مع انتصاب موصوفه محلًّا إشعارًا بأنَّه المقصود بالنِّداء، واقحمت بينهما كلمة التَّنبيه تأكيدًا لمعنى النِّداء، وتعويضًا عمَّا يستحقُّه، أي: من المضاف إليه ولما ترى من استقلال هذه الطَّريقة بضروبٍ من أسباب المبالغة والتَّأكيد كثر سلوكها في التَّنزيل المجيد، كيف لا. وكلُّ ما ورد في تضاعيفه على العباد من الأحكام والشَّرائع وغير ذلك خطوبٌ جليلةٌ حقيقةٌ بأن تقْشعرَّ منها الجلودُ، وتطمئن بها القلوب الآيبة، ويتلقَّوها بآذانٍ واعية، وأكثرهم عنها غافلون. فاقتضى الحال المبالغة والتَّأكيد في الإيقاظ والتَّنبيه"[3].

وعلى ذلك فإنَّ فائدة ذكر (أي) في النِّداء في ثلاثة أمور:

"أحدها: غرض لفظي يتمثَّل في كونها وصلة لنداء ما فيه (أل)، فإنَّ حرف النِّداء لا يصحُّ أن يباشر منادى فيه (أل).

---

(١) انظر: شرح الرَّضي على كافية ابن الحاجب (٣٨٦/١)، (٢٨٥/٤).

(٢) بتصرُّف عن (روح المعاني) (١٨١/١–١٨٢)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٥٨/١).

(٣) تفسير أبي السُّعود (٥٨/١).



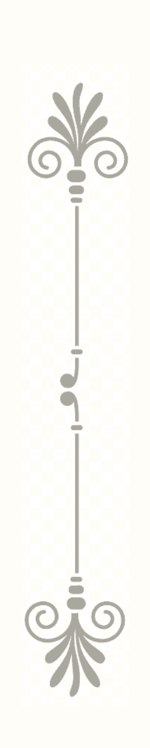
أمَّا الغرضان المعنويان لذكرها: فأحدهما: أنها بحكم إطلاقها وصلوحها لأن تقال على هذا وعلى ذاك من الأجناس على سبيل البدل -كما سبق- إذا طرق ذكرُها السَّمع بمجرَّدها، وقبل أن يذكر ما بعدها المفسِّر لها يصلح في النَّفس أن يراد منها هذا المفسِّر، وأن يراد غيرُه من بقية الأجناس الصَّالحة للإرادة، فإذا ذكر المفسِّر بعدها كان حضوره في النَّفس على سبيل الاستقلال والإلغاء لما عداه، وكذلك يقال في كلِّ تخصيصٍ لعام أو تقييدٍ لمطلق، فذكر (أي) أفادنا حضورًا مشتركًا للجنس المفسِّر لها مع بقية الأجناس زائدًا على الحضور المستقلِّ لذلك المفسر بعد ذكره..

وأمَّا الغرض الآخر أنَّه عند ذكرها، وقبل أن يطرق السمعَ ذكرُ ما يفسِّرُها تتردَّد النَّفس في المراد. فتتشوَّق النَّفس إلى معرفة المراد..، وتفسير هذا المبهم بحكم ما غرسه الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وجبلها عليه من غريزة حبِّ الاستطلاع. فإذا ذكر المفسِّر بعد ذلك فجاءها البيان بعد الإبهام تمكَّن في النَّفس أيما تمكُّنٍ كأنما حُفِرَ وغرز في أعمق الأعماق منها؛ لأنَّ ما يأتي عن تعبٍ في الطَّلب، وتلهُّفٍ وحرصٍ على التَّحصيل تكون على بقائه أحرص، وفي مزيد العناية به أتم وأبلغ"[1]. وبذلك أكون قد أتيتُ على بيان ما قيل في معنى (أَيْ)، والحكمة من ذكره، وما لذلك من الأهميَّة بالنِّسبة لموضوعات هذا الفصل..



(١) تفسير سور النِّساء (ص:١٠٨-١٠٩).


أساليب النداء في القرآن الكريم



المطلب التاسع :
حكمة التَّنبيه بـ (ها)، ونداء ما فيه (أل)

أوَّلًا: حكمة التَّنبيه بـ (ها):

إنَّ ما نادى الله عَزَّوَجَلَّ به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أمور عظام، وخطوب جسام يجب عليهم أن يتيقَّظوا لها....

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكلمة التَّنبيه المقحمة بين الصِّفة وموصوفها لفائدتين:

١ - معاضدة حرف النِّداء ومكاتفته بتأكيد معناه..

٢ - وقوعها عوضًا ممَّا يستحقُّه، أي: من الإضافة.."[١].

وتدخل على نعت[٢] (أَي) في النِّداء، نحو: (يا أَيُّهَا الرَّجلُ)[٣]، وهي في هذا واجبة[٤] للتَّنبيه على أنَّه المقصود بالنِّداء. قيل: وللتَّعويض عمَّا تضاف إليه (أي).

(١) الكشاف (١/٢٢٥-٢٢٦)، وانظر: تفسير الرَّازي (٢/٣٢١)، تفسير النيسابوري (١/١٨٠)، البرهان في علوم القرآن (٢/٤١٥)، مغني اللَّبيب (ص:٤٥٦).

(٢) وقيل: هو عطف بيان لعدم الاشتقاق كما في الرَّضي على الكافية (١/١٤٣).

(٣) وعلى ذلك يكون (أي) منادى نكرة مقصودة، و(ها) للتَّنبيه، و(الرَّجل) نعت لـ: (أي). انظر: المقتضب، للمبرّد (٤/٢١٦-٢١٧).

(٤) أي: واجبة الزيادة. وفي (الجنى الدَّاني): "وحرف التَّنبيه لازم في هذا الموضع؛ لأنَّه كالصِّلة لـ (أي)، بسبب ما فاتها من الإضافة؛ ولذلك يقول المعربون فيه: ها صلة وتنبيه" الجنى الدَّاني (ص:٣٤٧).



ويجوز في هذه في لغة (بني أسد)[١] أن تحذف ألفها، وأن تضم هاؤها إتباعًا[٢].

وعليه قراءة ابن عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَيُّـهُ الْمُؤْمِنُـونَ﴾[٣]، ﴿أَيُّـهُ الثَّقَـلانِ﴾[٤]، ﴿أَيُّـهُ السَّـاحِرُ﴾[٥] -بضمِّ الهاء في الوصل-[٦].

وفي (تفسير سورة النِّساء) بيان لحكم ثلاث تُسْتَفاد من التَّنبيه بـ: (ها):

"**أولاها**: الإرشادُ إلى أهمِّيَّة الأمر المنبَّه إليه ضرورة أنَّه لا يحسن التَّنبيه من العاقل فضلًا عن العليم عَزَّوَجَلَّ إلَّا إلى ما هو مهمٌّ يخشى أن تقع الغفلةُ عن أهمِّيَّته لولا التَّنبيه إليه.

---

(١) قبيلة (بني أسد) من أشهر القبائل العربيَّة. انظر: بطون (بني أسد) في جمهرة أنساب العرب (١/١٩٠)، (٢/٤٦٦)، وانظر: المفصَّل في تاريخ العرب (٨/١٢٥).

(٢) أي: إتباعًا لضمة الياء في (أي).

(٣) وهي آيةٌ طويلةٌ ختمت بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور:٣١].

(٤) وتمام الآية: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ [الرَّحمن:٣١].

(٥) وتمام الآية: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٩].

(٦) انظر: الدُّر المصون (٥/٢١٧)، البحر المحيط (٦/٤١٤). وفي (الكشاف): "وقرئ: ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ -بضمِّ بضمِّ الهاء- ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلمَّا سقطت الألف لالتقاء السَّاكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها". الكشاف (٣/٩٣). وفي (المحرَّر الوجيز): "وقرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهُ﴾ -بضمِّ الهاء- ووجهه أن تجعل الهاء كأنها من نفس الكلمة، فيكون إعراب المنادى فيها. وضعَّف أبو علي [الفارسي] ذلك جدًّا. وبعضهم يقف (أيُّه). وبعضهم يقف (أيُّها) بالألف. وقوَّى أبو علي الوقفَ بالألف؛ لأنَّ علَّة حذفها في الوصل إنما هي سكونها وسكون اللَّام، فإذا كان الوقف ذهبت العلَّة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على ﴿مُحِلِّي﴾ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة:١]". المحرَّر الوجيز (٤/١٨٠)، وانظر: تفسير القرطبي (١٢/٢٣٩)، البحر المحيط (٦/٤١٤)، غرائب القرآن (٥/١٧٦)، روح المعاني (١٨/١٤٧)، إتحاف فضلاء البشر (ص:٤١٠)، التَّيسير في القراءات السَّبع (ص:١٠٨)، السَّبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص:٤٥٥)، تحبير التَّيسير (ص:٤٨١)، حجَّة القراءات، لابن زنجلة (ص:٤٩٧)، الفريد (٣/٥٩٥-٥٩٦)، مغني اللَّبيب (ص:٤٥٦)، وانظر: همع الهوامع (٢/٥٢). وضعَّفها أبو جعفر النَّحاس، وقال: هي لغةٌ شاذَّةٌ لا وجه لها؛ لأنَّ (ها) للتَّنبيه. انظر: إعراب القرآن، للنَّحاس (٣/١٣٤).

ثانيتها: تجليةُ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ الواسعة، ونعمته السَّابغة على عباده بتنبيههم إلى ما يهمُّهم، وبحيث لم يكلهم إلى أنفسهم في اكتشاف ما فيه من الأهميَّة، ولا وكلهم إلى الغفلة التي يمكن أن تعتريهم فتحول دون تنبههم إليه.

ثالثتها: قطعُ أعذارِ الخلق، وإقامة الحجَّة عليهم بهذا التَّنبيه، ليهلكَ من هَلَكَ عن بَيِّنةٍ، ويحيى من حيَّ عن بَيِّنةٍ. فإنَّه عَزَّوَجَلَّ بعد إذ نبَّههم إلى ما يهمُّهم لا يبقى لهم عذر في ادِّعاء أنهم لم يعرفوا أهميَّته، وأنهم لو نبِّهوا إليها لعرفوها"[1].

"و(ها) التَّنبيهية زائدة لازمة للتَّأكيد والتَّعويض عمَّا تستحق من المضاف إليه أو ما في حكمه من التَّنوين كما في ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ [الإسراء:١١٠]، وإن لم يستعمل هنا مضافًا أصلًا. وكثر النِّداء في الكتاب المجيد على هذه الطَّريقة لما فيها من التَّأكيد الذي كثيرًا ما يقتضيه المقام بتكرُّر الذِّكر والإيضاح بعد الإبهام، والتَّأكيد بحرف التَّنبيه، واجتماع التَّعريفين"[2].

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ (ها) التَّنبيهيَّة سمِّيت بذلك؛ لأنَّ المراد منها: إمَّا تنبيه الغافل إلى ما بعدها، وتوجيهه إلى ما سيذكر. وإمَّا لإشعار غير الغافل إلى أهميَّة ما بعدها، وجلال شأنه، ليتفرَّغ له، ويقبل عليه.

ثانيًا: نداء ما فيه (أل):

إذا أريْدَ نداءُ ما فيه (أَلْ)، يُؤتى قبلَهُ بكلمةِ (أيُّها) للمذكَّر، و(أَيَّتُها) للمؤنَّث. وتَبقيانِ معَ التَّثنيةِ والجمع بلفظ واحدٍ، مراعىً فيهما التَّذكيرُ والتَّأنيث، أو يؤتى باسم الإشارة.

فالأوَّل: كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].

(١) تفسير سور النِّساء، أ.د إبراهيم خليفة (ص:١١١).

(٢) روح المعاني (١٨٢/١).



والأمثلة كثيرة وواضحة.

وكلمة: (أَيُّهَا) لا تستعمل إلا في النداء، و(أيتها) تستعمل للمؤنث —كما تقدم- ، (أي) يجوز تأنيثها إذا وصفت بمؤنث كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ها: وها بعده حرف تنبيه، ويلزم وصفه بمعرَّف بأل، أو بموصول، أو اسم إشارة -كما ذكر النحاة-. ويلزم رفع صفتها، كما في النداء؛ لأنه منقول منه إلى الاختصاص(١).

والثَّاني: نحو: (يا هذا الرَّجل)، و(يا هذِهِ المرأةُ) إلا إذا كان المنادى (لفظَ الجلالة)(٢). لكن تبقى (ألْ) وتُقطَعُ همزتُها وُجوبًا، نحو: (يا أللهُ).

والأكثر معَهُ حذفُ حرفِ النِّداءِ والتَّعويضُ منه بميمٍ مُشدَّدةٍ مفتوحةٍ، للدِّلالةِ على التَّعظيم نحو: (اللهمَّ).

وقد وردت (خمسة) مواضع:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦].

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة:١١٤].

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال:٣٢].

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس:١٠].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر:٤٦](٣).

---

(١) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢٧١/١)، البحر المحيط (١٥١/١).

(٢) وذلك "أنَّ الاسم لا ينادى وفيه الألف واللَّام؛ لأنَّك إذا ناديته فقد صار معرفة بالإشارة بمنزلة هذا، وذاك، ولا يدخل تعريف على تعريف، فمن ثمَّ لا تقول: (يا الرَّجل تعال). وأمَّا قولهم: (يا ألله اغفر) فإنما دُعي وفيه الألف واللَّام؛ لأنهما كأحد حروفه. ألا ترى أنهما غير بائنتين منه. وليستا فيه بمنزلتهما في (الرَّجل)؛ لأنَّك في (الرَّجل) تثبتهما وتحذفهما، وهما في (اسم الله) ثابتتان، وهو اسم علم". المقتضب، للمبرد (٢٣٩/٤-٢٤٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢١/٢)، وانظر: الدُّر المصون (٥٣/٢)، المحرَّر الوجيز (٤١٧/١)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٩٤/١)، التِّبيان (١٣٠/١)، وانظر: تفسير النَّيسابوري (١٣٦/٢)، وانظر: الكتاب، بتحقيق: عبد السَّلام هارون، لسيبويه (١٩٦/٢).



ولا يجوز أن تُوصَفَ (اللّهمَّ)، على اللَّفظ، ولا على المحلِّ، على الصَّحيح؛ لأنَّهُ لم يُسمَع. وأمَّا قولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فهو على أنَّه نداءٌ آخرُ، (قُلِ اللَّهمَّ يا فاطرَ السمواتِ). وإذا ناديتَ عَلَمًا مُقترِنًا بألْ وَضعًا حذفتَها وُجوبًا فتقولُ في نداء العبَّاسِ والفضلِ والسَّموأَلِ: يا عبَّاسُ. يا فضلُ. يا سَموأَلُ[١].

"و(اللَّهمَّ) في كلام العرب خاصٌ بنداء الله عَزَّوَجَلَّ في الدُّعاء، ومعناه: (يا الله). ولما كَثُرَ حذف حرف النِّداء معه قال النُّحاة: إنَّ الميمَ عوضٌ من حرف النِّداء يريدون أنَّ لحاق الميم باسم الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الكلمة لما لم يقع إلا عند إرادة الدُّعاء صار غنيًّا عن جلب حرف النِّداء اختصارًا، وليس المراد أنَّ الميم تفيد النِّداء. والظَّاهر أنَّ الميم علامة تنوين في اللُّغة المنقول منها كلمة: (اللَّهم) من عبرانيَّة أو قحطانيَّة، وأنَّ أصلها: (لاَ هُم) مرداف (إله).

ويدلُّ على هذا أنَّ العرب نطقوا به هكذا في غير النِّداء كقول الشَّاعر:

(كدعوةٍ من أبي رياح***يَسْمَعُها اللهُمَّ الكبير)[٢].

وأنّهم نطقوا به كذلك مع النِّداء، كقولِ الشاعر:

---

(١) وتستعمل (اللهمَّ) على ثلاثة أنحاء: الأوَّل: أن تكون للنِّداء المحض، نحو: (اللهمَّ اغفر لي). الثَّاني: أن يذكرها المجيب تمكينًا للجواب في نفس السَّامع، كأن يقال لك: أخالد فعل هذا؟، فتقول: اللهمَّ نعم. الثَّالث: أن تستعمل للدِّلالة على النُّدرة وقلة وقوع المذكور معها، كقولك للبخيل: إنَّ الأمَّة تعظِّمك، اللهمَّ إن بذلت شطرًا من مالك في سبيلها". انظر: الأصول في النَّحو (١/٣٣٨).

(٢) والبيت ينسب للأعشى، ويروى: (كَحْلَفَة) بدل: (كدعوة). انظر: ديوانه (ص:١٩٣)، والطَّبري (٣/٢٢١)، البحر المحيط (٢/٤٣٣)، (٢/٤٣٦)، القرطبي (٤/٥٣)، خزانة الأدب (٢/٢٣٦). وقد "أنشده الفرَّاء ولم يبيِّن قائله. معاني القرآن، للفرَّاء (١/٢٠٣). وقيل: الأعشى -كما سبق-..والبيت من [البسيط]. أمَّا اللُّغة فإنَّ قوله: (كَحْلَفةٍ) كيمين، (أبي رياح) كناية عن رجل من (بني ضبيعة)، واسمه: (حصن بن عمرو). وكان أبو رياح قد قتل رجلًا من (بني سعد بن ثعلبة)، فسألوه أن يحلف أو يعطي الدِّية، فحلف ثمَّ قتل بعد حلفته، فضربه العرب مثلًا لما لا يغني من الحلف. والشَّاهد فيه: (لاهم) حيث استعمل (اللهمَّ) في غير النِّداء..انظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك (٢/١٠٧٠).

(إنِّي إذا ما حَدَثٌ أَلَمَّا***أقُول يا اللهُمَّ يا اللهُمَّا)[1].

وأنَّهم يقولون: (يا الله) كثيرًا. وقال جمهورُ النُّحاة: إنَّ الميم عوضٌ عن حرف النِّداء المحذوف، وأنَّه تعويضٌ غير قياسيٍّ، وأنَّ ما وقع على خلاف ذلك شذوذ. وزعم الفرَّاء[2] أنَّ (اللَّهمَّ) مختزلٌ من (اسم الجلالة)، وجملة أصلها: (يا الله أمّ)[3] أي: أقبل علينا بخير[4]، وكلُّ ذلك تكلُّف لا دليل عليه"[5].

---

(١) البيت قيل: إنَّه لأبي خرَّاشٍ الهذليِّ، وقيل: لأميَّة بن أبي الصَّلت، وهو من [الرَّجز]. اللُّغة: (حَدَثٌ) –بفتحتين– وهو الأمر الذي يحدث من مكاره الدُّنيا، (ألما) نزل. والمعنى: يريد أنَّه إذا نزلت به حادثة، أو أصابه مكروه لجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كشف ما ينزل به. والشَّاهد فيه: (يا اللهمَّ يا اللهمَّ) حيث جمع بين حرف النِّداء والميم المشدَّدة التي يؤتى بها للتَّعويض عن حرف النِّداء، فجمع بين العوض والمعوَّض عنه. انظر: خزانة الأدب (٢/٢٥٨–٢٥٩)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (١/٥٠)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك (٢/١٠٦٨)، شرح الرَّضي على كافية ابن الحاجب (١/٣٨٤)، وانظر: المقتضب، للمبرد (٤/٢٤٢).

(٢) معاني القرآن، للفرَّاء (١/٢٠٣–٢٠٤).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/٣٩٣)، تفسير القرطبي (٤/٥٣)، تفسير الرَّازي (٨/١٨٥)، وانظر: جلاء الأفهام، لابن القيِّم (ص:١٤٣–١٤٤).

(٤) التَّقدير الذي ذكره الفرَّاء: (يا الله أُمنا بخير). قال: فكثرت في الكلام فاختلطت. [أي: امتزجت بما قبلها، وهو (لفظ الجلالة)، وفي (تفسير الطَّبري) (٣/٢٢١): "فاختلطت به"]. قال الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرفعة التي في الهاء من همزة (أُمَّ) لما تركت [أي: الهمزة، يريد حذفها قبل انتقال حركتها إلى ما قبلها]. قال الفرَّاء: ونرى أنَّ قول العرب: (هَلُمَّ إلينا) مثلها، إنما كانت (هل) فضم إليها (أُمَّ) فتركت على نصبها..إلى آخر ما ذكره الفرَّاء في المعاني. معاني القرآن (١/٢٠٣– ٢٠٤).

(٥) التَّحرير والتَّنوير (٣/٢١٢). وينظر في ذلك: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٣٩٣–٣٩٤)، الدُّر المصون (٢/٥٣– ٥٥)، روح المعاني (٣/١١٣)، تفسير الرَّازي (٨/١٨٥)، القرطبي (٤/٥٣)، تفسير الماوردي (٢/٨٤)، أسرار العربيَّة (ص:٢١١–٢١٢)، أوضح المسالك (٤/٣١)، الأصول في النَّحو (١/٣٣٨)، الإنصاف (١/٣٤١–٣٤٥)، الجُمَل، للخليل (ص:١٣٧)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (١/٥٠)، الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة (ص:٢٩)، اللَّامات (ص:٨٨)، اللمع في العربيَّة (ص:١١٣)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفيَّة ابن مالك (١/١٦٠)، (٢/١٠٦٨– ١٠٩٦)، (٣/١٦٨٠)، سرُّ صناعة الإعراب (١/٤١٩)، (١/٤٣٠)، شرح ابن عقيل (٣/٢٥٦)، وانظر: المقتضب، للمبرّد (٤/٢٣٩–٢٤٠).



لا خلاف أنَّ لفظة: (اللَّهمَّ) معناها: (يا الله)؛ ولهذا لا تستعمل إلا في الطَّلب، فلا يقال: (اللَّهمَّ غفور رحيم)، بل يقال: (اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني)..[1]؛ ولذلك صلة بمحور البحث.



(١) انظر ذلك مفصَّلا في (جلاء الأفهام) (ص:١٤٣– ١٤٤).







المطلب العاشر :
النِّداء القرآني العامُّ إلى المخلوق

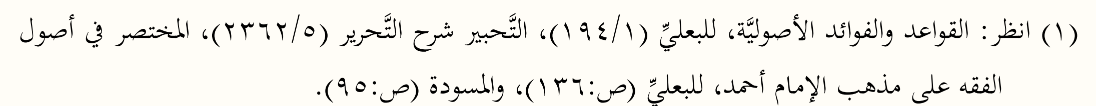


جدول توضيحي لصيغ الخطاب القرآني العام من المخاطِب إلى المخلوق:

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾	٩ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ..﴾	١٧ - ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾
٢ - ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾	١٠ - ﴿.. يَا قَوْمِ...﴾	١٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا...﴾
٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾	١١ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ...﴾	١٩- ﴿يَا أَيُّهَا الذين كَفَرُوا..﴾
٤ - ﴿..يَا أُولِي الأَلْبَاب..﴾	١٢- ﴿..يَا عِبَادِ...﴾ ﴿يَا عِبَادِىَ..﴾	٢٠- ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ...﴾
٥ - ﴿..يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾	١٣- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ..﴾	٢١ - ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾
٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾	١٤- ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ..﴾	-
٧ - ﴿...يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾	١٥ -﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ..﴾	-
٨ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ..﴾	١٦ - ﴿.. يَا قَوْمَنَا..﴾	-



وإليك بيان هذه الصيغ:



أولًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾ [البقرة:٢١]:

١ - بيان المعنى:

يقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النَّاس اسم جمع على ما حقَّقه جمع[١]، والجموع وأسماؤها المحلَّاةُ -بأل- للعموم حيث لا عهد خارجي[٢]، كما يدلُّ عليه وقوع الاستثناء[٣]، والأصل فيه الاتِّصال[٤]، وهو يقتضي الدُّخول يقينًا، ولا يتصوَّر إلا بالعموم. ونحو:

(١) انظر: القواعد والفوائد الأصوليَّة، للبعليِّ (١/١٩٤)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/٢٣٦٢)، المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد، للبعليِّ (ص:١٣٦)، والمسودة (ص:٩٥).

(٢) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٢/٢٥٢).

(٣) وممَّا استدلَّ به الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا صحَّة الاستثناء، والأصل فيه الاتِّصال، فعندما أقول مثلًا: (الطُّلاب أو الطَّلبة إلا فلانًا، أو إلا كليَّة كذا مثلًا يأتوني)...، فلولا أنَّ كلمة: (الطُّلاب) تفيد العموم ما صحَّ الاستثناء، أو يقال: لولا أنَّها شملت الطَّلبة المستَثنين ما صحَّ الاستثناء، فلو كانت الطُّلاب موضوعة للخصوص لكان ذكر (طلبة كذا) عبثًا..؛ ولذلك اشتهر بين العلماء أنَّ (الاستثناء معيار العموم)، فكلُّ ما جاز الاستثناء منه كان عامًّا، وما لا يجوز الاستثناء منه فليس بعامٍّ، ومثال ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:٢-٣]، فإنَّ الاستثناء في الآية دلَّ على أنَّ كلمة (الإنسان) عامّة، ولفظ: (الإنسان) اسم جنس محلًّى بالألف واللاَّم فيفيد العموم، ولولا الاستثناء لكان كلُّ إنسان في خسرٍ سواء كان مؤمنًا أو كافرًا. فمن قال: إن المفرد المعرف (بأل) لا يعم. يرد عليه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾؛ إذ لو لم يعم كل إنسان لما استثنى منه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

(٤) قوله: (الأصلُ في الاستثناء الاتِّصال)، فإنَّ (المتَّصل) ما كان من جنس المستثنى منه، و(المنقطع) خارج عن جنس المستثنى منه. مثال ذلك: (جاء الطُّلاب إلا المقاول فلان، أو إلا العمال..)، فهذا استثناء منقطع، فالأصل في الاستثناء الاتِّصال بحيثُ لا يُصَار إلى الانقطاع إلا إذا قامت قرينة بيِّنة تدلُّ على أننا نتحدَّث عن غير هذا الجنس، وأننا ذكرناه لفائدة معينة، كما يقال: (جاءَ القومُ إلا حمارًا) وكأنِّي أقول: (حمارًا) ليس من جنس القوم، وأنا أذكره الآن لفائدة أخرى، كأنَّني أقول: لا يصح أن يغيب عن المخاطَب أن حديثي قاصر على هذا الجنس، فلا تحاول أن تلحق بهذا الجنس آخر.

(ضربتُ زيدًا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضانَ إلَّا عشره الأخير) عامٌّ تأويلًا[1]، وكذا التَّأكيد بما يفيد العموم؛ إذ لو لم يكن هناك عموم كان التَّأكيد تأسيسًا[2]، والاتفاق على خلافه، وشيوع استدلال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالعموم كما في حديث السَّقيفة[3]، وهم أئمَّة الهدى.

---

(١) أورد الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ اعتراضًا، وهو: كيف يقال: الاستثناء يفيد العموم؟ فكأنَّه يقول: سآتي لكم بخاصٍّ وقع فيه الاستثناء، كما يقال: (ضربت زيدا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضان إلا يومًا). فـ (زيد) خاصٌّ، وصحَّ منه الاستثناء، و(رمضان) شهرٌ مخصوص، وقد وقع الاستثناء منه. والجوابُ أنَّه عامٌّ تأويلًا، فهو خاصٌّ من ناحية عدم شموله لغيره، لكنَّه عامٌّ باعتباره كلًّا له أجزاء، فالكلُّ أعمُّ من جزئه.

(٢) استدلَّ الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بالتَّأكيد بما يفيد العموم، كالتَّأكيد بـ:(كل) و(جميع)، وهما من ألفاظ العموم، فعندما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠]، فلو لم يكن لفظ: (الملائكة) شاملًا لكافة أفراد الملائكة، بل كان مخصوصًا بالبعض دون البعض، لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا لا تأكيدًا، والاتفاق على خلاف ذلك، حيث إنَّ هذه الألفاظ عند العرب هي للتأكيد، بمعنى أنَّها تؤكِّد ما عُلم سابقًا مع رفع احتمال التَّخصيص، فعندما أقول: (جاء الطلاب) يحتمل في عقل البعض أنَّ (محمَّدًا) لم يأت، فعندما أقول: (كلهم) أو (أجمعون) أكون قد رفعت احتمال التَّخصيص. وعندما أقول: (جاء محمد نفسه) أكون قد رفعت احتمال المجاز؛ لأنه يحتمل في عقل البعض أن الذي أتى رسولُهُ مثلًا...فلو كان لفظ: (النَّاس) خاصًّا لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا، مع أنَّها تأكيد باتفاق. وتنظر ألفاظ العموم على سبيل المثال. إرشاد الفحول (ص:٢١٣)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/٢٨٨-٢٩٦)، التَّلخيص، للجويني (١٤/٢) فما بعد، والمحصول (٥١٣/٢) فما بعد، وشرح التَّلويح (٨٨/١) فما بعد، والمدخل، لابن بدران (ص:٢٤٠)، وروضة النَّاظر (٢٢١/١)، وكشف الأسرار على أصول فخر الإسلام، للبزدويّ (٣/٢) فما بعد. ومذكِّرة الشَّيخ محمَّد الأمين الشِّنقيطي على روضة النَّاظر (ص:٢٠٤) فما بعد.

(٣) وذلك عندما احتجَّ المهاجرون به على الأنصار يوم (ثقيفة بني ساعدة) من أنَّ الإمامة في قريش، فعندما انتقل الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرَّفيق الأعلى ذهب الأنصارُ قبل المهاجرين إلى (ثقيفة بني ساعدة) ثمَّ تبعهم المهاجرون، ثمَّ اختلفوا من الإمام بعد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالأنصار يقولون: نحن أولى، والهاجرون يقولون: نحن أولى، فجاء أبو بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذكر قولَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الأئمَّة من قريش))، و(الأئمَّة) جمع (إمام)، وقد دخلت عليها الألف واللام، فلو كانت (أل) إذا دخلت على الجمع لا تفيد العموم لكانت كلمة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غير مفيدة، وقد سمع ذلك جمع من أصحاب النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تكن القضية لتنتهي لولا دخول (أل) التي تفيد العموم. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٤٨): حديث ((الأئمة من قريش)) رواه النسائي=



ثمَّ هذا الخطاب في نحو: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ﴾ يسمَّى بـ: (الخطاب الشِّفاهي) عند الأصوليين. قالوا: وليس عامًّا لمن بعد الموجودين في زمن الوحي، أو لمن بعد الحاضرين مهابط الوحي. والأوَّل هو الوجه، وإنما يثبت حكمه لهم بدليل آخر من نصٍّ أو قياس أو إجماع، وأمَّا بمجرَّد الصِّيغة فلا. وقالت الحنابلة: بل هو عامٌّ لمن بعدهم إلى يوم القيامة(١).

واستدلَّ الأوَّلون بأنَّا نعلم أنَّه لا يقال للمعدومين نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

قال العضد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): وإنكاره مكابرة، وبأنَّه امتنع خطاب الصَّبيِّ والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجِّهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب، فالمعدوم أجدر أن يمنع؛ لأنَّ تناوله أبعد(٣). واستدلَّ الآخرون بأنَّه لو لم يكن الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطبًا به لمن بعدهم لم يكن مرسلا إليهم، واللَّازم منتف، وبأنَّه لم يزل العلماء يحتجُّون على أهل الأعصار ممن بعد الصَّحابة بمثل ذلك، وهو إجماع على العموم لهم.

وأجيب...

أمَّا عن الأوَّل: فبأن الرِّسالة إنَّما تستدعي التَّبليغ في الجملة، وهو لا يتوقَّفُ على المشافهة، بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهًا، وللبعض بنصب الدَّلائل والأمارات على أنَّ حكمهم حكم الذين شافههم.

=والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح". وهو عند الحاكم [٨٥٢٨] بلفظ: ((الأمراء من قريش))، قال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وللحديث أطراف.

(١) انظر: التَّقرير والتَّحبير (٢٨٩/١)، التَّحبير شرح التَّحرير (٢٤٩٥/٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٣٢٢/٢).

(٢) هو (عضد الدِّين الإيجي) عبد الرَّحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدِّين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربيَّة. من أهل (إيج) بفارس، ولِّي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا. وجرت له محنة مع صاحب (كرمان)، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا [٧٥٦هـ]. الأعلام (٢٥٩/٣)، بغية الوعاة (٧٥/٢).

(٣) انظر: حاشية العلامة سعد الدِّين التَّفتازاني، وحاشية السَّيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدِّين لمختصر المنتهى للإمام ابن الحاجب المالكي مع حاشية المحقق الشَّيخ حسن الهروي على حاشية السَّيد الجرجاني (١٥/٢-١٦).



وأمَّا عن الثَّاني: فبأنَّه لا يتعيَّن أن يكون ذلك لتناوله لهم، بل قد يكون؛ لأنَّهم علموا أنَّ حكمه ثابت عليهم بدليل آخر قاله غير واحد.

وفي شرح العلاَّمة الثَّاني للشرح العضدي[1] أنَّ القول بعموم الشِّفاهي وإِنْ نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أَجِلَّة المحققين: إنَّه المشهور حتَّى قالوا: إنَّ الحقَّ أنَّ العمومَ معلومٌ بالضَّرورة من الدِّين المحمَّدي، وهو الأقرب، وقول العضد: إنَّ إنكاره مكابرة حقٌّ لو كان الخطاب للمعدومين خاصّةً، أمَّا إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التَّغليب فلا، ومثله فصيحٌ شائعٌ، وكلُّ ما استدلَّ به على خلافه ضعيف. انتهى.

وإلى العمومِ ذَهَبَ كثيرٌ من الشَّافعية[2] على أنَّه عندهم عامٌّ بحقِّ لفظه ومنطوقه من غير احتياجٍ إلى دليل آخر. وقد قيل: إنَّه من قبيل الخطاب العامِّ الذي أجرى على غير ظاهره كما في قوله:

(إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكته***وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئيمَ تمرَّدا)"[3].

وقد حقَّق الأستاذُ الدُّكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ القولَ في ذلك مبيِّنًا أنَّ قول الجمهور هو الصَّواب والمتعيِّن من كون الخطابات الشِّفاهية تشملهم حقيقةً، ولا تشملُ غيرهم إلا على سبيل المجاز..، وسآتي على بيان أهمِّ ما ذكره الدُّكتور إبراهيم خليفة من التَّعقيب على كلام الألوسي في كلامه الآنف الذِّكر..بإيجاز؛ وذلك لأهميَّته، وحيث لم أجد نظيرًا لما ذكره، مع الإحالة إلى (تفسير سورة النِّساء)..[4].

---

(١) يعني: سعدَ الدِّين التَّفتازاني، ويعني من (الشَّرح العضديِّ) شرح العلامة عضد الدِّين الإيجي على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وكلُّها مطبوعةٌ في كتاب واحد (٢/١٥-١٦).

(٢) انظر: الشَّذا الفيَّاح من علوم ابن الصَّلاح (٢/٤٧٦)، التَّقرير والتَّحبير (١/٢٨٩)، تيسير التَّحرير (١/٢٥٦)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/٢٤٩٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢/٣٢٢).

(٣) روح المعاني (١/١٨٣-١٨٤). ينظر: الكليَّات (ص:٦٦١-٦٦٢). والبيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص:٣٧٢)، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٣هـ]، وانظر: خزانة الأدب (١/٢٠٠)، قرى الضَّيف (١/٢٥١)، المستطرف (٢/١٧١)، تهذيب الرِّياسة (ص:١٢٤).

(٤) تفسير سورة النِّساء، من (ص:١١٧) إلى (١٣٠).



يقول أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أمَّا حديث التَّغليب فإنَّه جارٍ على وفقِ دعوى الجمهور، فمن المتقرِّر لدى علماء البيان أنَّ (دلالة التَّغليب) مجاز لا حقيقة؛ فإنَّه ليس إلا (التَّجريد البياني)، وهو إمَّا راجع لعلاقة التَّقييد حسبما هو الصَّحيح المتَّجه[1]، كما يقال: (قمران) عن الشَّمس والقمر[2]، فنكون قد جرَّدنا القمر عن قيوده المشخِّصة له، والمميِّزة له عن كوكب الشَّمس فإطلاقه على مطلق (الكوكب المنير) الشَّامل لليلي والنَّهاري، وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشَّمس.

وإمَّا أن يكون (التَّجريد البياني) علاقة مستقلَّة من علاقات المجاز المرسل؛ فإنَّ الأمر مجاز لا حقيقة. وكذلك فيما حكاه الألوسي في قوله: إنَّه من قبيل العامِّ الذي أجري على غير ظاهره..الخ؛ فإنَّ الخروج عن الظَّاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التَّغليب كما في البيت المذكور، بأن يغلب المشافه على غيره من مطلق من تحقق فيه الأهليَّة للخطاب، أم كان من غير هذا الباب.."[3].

ثمَّ قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي تناول نحو هذه الصِّيغة للعبيد شرعًا حتَّى يعمَّهم الحكم خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى التَّناول؛ لأنَّ العبد من النَّاس مثلا فيدخل في الخطاب العامِّ له قطعًا، وكونه عبدًا لا يصلح مانعًا لذلك. وذهب البعض إلى عدم التَّناول. قالوا: لأنَّه قد ثبت بالإجماع صرفُ منافع العبد إلى سيِّده، فلو كلِّف بالخطاب لكان صرفًا لمنافعه إلى غير سيِّده، وذلك تناقض، فيتبع الإجماع، ويترك الظَّاهر. وأيضًا خرج العبد عن الخطاب بالجهاد والجمعة والعمرة والحجِّ..والتَّبرعات والأقارير ونحوها، ولو كان الخطاب متناولًا له للعموم لزم التَّخصيص، والأصل عدمه.

---

(١) أي: بالنَّظر إلى المعنى المنتقل عنه.

(٢) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٤/٣٤٨-٣٤٩)، جواهر البلاغة (ص:٢٢٧)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/٩٠٠)، وانظر: صبح الأعشى (٤٠٦/١٤)، مفردات غريب القرآن الكريم، للأصفهاني، مادَّة: (بحر) (ص:١٠٩)، ولسان العرب، مادَّة: (بحر)، بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/٢٢٦).

(٣) بتصرف عن (تفسير سورة النساء) (ص:١٢٣-١٢٤).



والجواب عن الأوَّل: أنَّا لا نُسلِّم صرف منافعه إلى سيِّده عمومًا، بل قد يستثنى من ذلك وقت تضايق العبادات حتَّى لو أمره السيِّد في آخر وقت الظُّهر، ولو أطاعه لفاتته الصَّلاة، وجبت عليه الصَّلاة، وعدم صرف منفعته في ذلك الوقت إلى السيِّد. وإذا ثبت هذا فالتَّعبد بالعبادة ليس مناقضا لقولهم: بصرف المنافع للسيِّد.

وعن الثَّاني: بأنَّ خروجه بدليل اقتضى خروجه، وذلك كخروج المريض والمسافر والحائض عن العمومات الدَّالة على وجوب الصَّوم والصَّلاة والجهاد، وذلك لا يدلُّ على عدم تناولها اتفاقًا. غايته أنَّه خلافُ الأصل ارتكب لدليل وهو جائز. ثمَّ الصَّحيح أنَّ الأمم الدَّارجة قبل نزول هذا الخطاب لا حَظَّ لها فيه؛ لاختصاص الأوامر والنَّواهي بمن يتصوَّر منه الامتثال، وأنَّى لهم به؟ وهم تحت أطباق الثَّرى لا يقومون حتَّى ينفخ في الصُّور.

وجوَّز بعضُهم كون الخطاب عامًّا بحيث يندرجون فيه. ثمَّ قال: ولا يبعد أن يكون الأمر الآتي عامًّا لهم أيضا بالنِّسبة إلى الكلام القديم القائم بذاته عَزَّوَجَلَّ، وإن كان كونه عربيًّا عارضًا بالنِّسبة إلى هذه الأمّة، وفيه نظر؛ لأنَّ المنظور إليه إنَّما هو أحكام القرآن بعد النُّزول، وإلا لكان النِّداء وجميع ما فيه من خطاب المشافهة مجازات، ولا قائل به، فتأمَّل. وعلى العلات لفظ: (النَّاس) يشمل الذُّكور والإناث بلا نزاع. وفي شمول نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] خلاف. والأكثرون على أنَّ الإناث لا يدخلنَ في مثل هذه الصِّيغة ظاهرًا خلافًا للحنابلة[١].

استدلَّ الأولون بأنَّه قد روى عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنَّها قالت: يا رسول الله: إنَّ النِّساء قُلنَ: ما نرى الله عَزَّوَجَلَّ ذكر إلا الرِّجال فأنزل ذكرهنَّ[٢]، فنفت ذكرهنَّ مطلقًا،

---

(١) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص:٤١)، روضة النَّاظر (ص:٢٣٦)، وينظر: التَّقرير والتَّحبير (٢٧١/١)، المحصول، لابن العربي (ص:٧٨)، قواطع الأدلة (١١٥/١)، إجابة السَّائل شرح بغية الآمل (ص:٣١٠)، رفع الحاجب (٣٠٨/٣)، نهاية السُّول (ص:٣٩٠)، المحصول، للرَّازي (٦٢٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا بلفظ: قالت: قلت: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرِّجال؟...الخ. أخرجه أحمد [٢٦٥٧٥]، [٢٦٦٠٣]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٤١] وابن=



ولو كنَّ داخلات لما صدق نفيهنَّ، ولم يجز تقريره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للنَّفي، وبأنَّه قد أجمع أرباب العربيَّة على أنَّ نحو هذه الصِّيغة جمع مذكَّر، وأنَّه لتضعيف المفرد، والمفرد مذكَّر، وبأنَّ نظير هذه الصِّيغة (المسلمون)، ولو كان مدلول (المسلمات) داخلا فيه لما حسن العطف في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إلا باعتبار التَّأكيد، والتَّأسيس خير من التَّأكيد..

وقال الآخرون: المعروف من أهل اللِّسان تغليبهم المذكَّر على المؤنث عند اجتماعهما باتِّفاق، وأيضًا لو لم تدخل الإناث في ذلك لما شاركن في الأحكام لثبوت أكثرها بمثل هذه الصِّيغة، واللازم منتف بالاتفاق، كما في أحكام الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة. وأيضًا لو أوصى لرجال ونساء بمائة درهم، ثمَّ قال: (أوصيت لهم بكذا) دخلت النِّساء بغير قرينة، وهو معنى الحقيقة، فيكون حقيقة في الرِّجال والنِّساء، ظاهرًا فيهما، وهو المطلوب. وأجيب: أمَّا عن الأوَّل فبأنَّه إنما يدلُّ على أنَّ الإطلاق صحيحٌ إذا قصد الجميع، والجمهور يقولون به، لكنَّه يكون مجازًا، ولا يلزم أن يكون ظاهرًا، وفيه النِّزاع. وأمَّا عن الثَّاني فبمنع الملازمة. نعم يلزم أن لا يشاركهن في الأحكام بمثل هذه الصِّيغة، وما المانع أن يشاركنَ بدليلٍ خارج؟ والأمر كذلك؛ ولذلك لم يدخلنَ في الجهاد والجمعة مثلا، لعدم الدَّليل الخارجي هناك. وأمَّا عن الثَّالث فبمنع المبادرة ثمة بلا قرينة، فإنَّ الوصيَّة المتقدِّمة قرينة دالَّة على الإرادة، فالحقُّ عدم دخول الإناث ظاهرًا. نعم الأولى هنا القول بدخولهن باعتبار التَّغليب، وزعم بعضهم أن لا تغليب، بل الأمر للرِّجال فقط كما يقتضيه ظاهر الصِّيغة، ودخول الإناث في الأمر بالتَّقوى للدَّليل الخارجي، ولا يخفى أنَّ

=راهويه [١٨٧١]، والطبراني في (الكبير) [٦٥٠]. وأخرجه الترمذي وحسنه [٣٢١١] عن أم عمارة الأنصارية رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنها أتت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت..



هذا يستدعي تخصيص لفظ: (النَّاس) ببعض أفراده؛ لأنَّ إبقاؤه حينئذ على عمومه مما يأباه الذَّوق السَّليم"[1].

والحاصل أنَّ الخطابات الشَّرعية سواء في ذلك خطابات الكتاب والسُّنة تسمَّى في عرف الأصوليين (الخطابات الشِّفاهية) يقصدون الخطابات التي شافه بها الله عَزَّوَجَلَّ، أو النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكلَّفين.

أمَّا بالنِّسبة للمنتظمين في سلك التَّكليف وقت هذه الخطابات من الذُّكور الأحرار فإنَّ الخطاب يشمله قطعًا على سبيل الحقيقة..

أمَّا غير المكلفين يومئذٍ كالصِّغار فضلًا عن الذين لم يوجدوا بعد، فهل هذه الخطابات تشملهم أو لا تشملهم؟

فأوَّل ما يتقرَّر في ذلك أنَّ خلاف المختلفين ليس في المطالبة بمضمون هذه الخطابات، وإنَّما الخلاف في الدِّلالة على الحكم، فمثلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمن يقول: الخطابات تشمل المكلَّفين ومن سيكلف، أي: من سينتظم في سلك التَّكليف على سبيل الحقيقة، سيقولون: الخطاب للكلِّ..، وهؤلاء هم الحنابلة -كما سبق- حيث يقولون: (الخطابات الشِّفاهيَّة) تشمل من هو مكلَّف ومن ليس مكلَّفًا إلى يوم القيامة.

والجمهور قالوا: لا تشمل من لم يكن يومئذٍ مكلَّفًا على سبيل الحقيقة؛ وذلك لأنَّ معظم غير المكلَّفين يومئذٍ كانوا معدومين. فهل يصلح (خطاب المعدوم)؟

ولتوضيح ذلك يقال: لنتصوَّر أنَّ إنسانًا لم يتزوج مثلًا، فيقول -وهو يتصوَّر أنَّه سينجبُ ولدًا، ويسمِّيه محمَّدًا، ويدخله المدرسة- فوقف وقال: (يا محمَّد أقم الصَّلاة)، فلا شكَّ أنَّ ذلك عبث. فإذا تزوج فعلا وأنجب طفلا، ولا زال مثلا في الأيام الأولى من ولادته، فقال له: (أقم الصَّلاة)، أو قال له: (يا محمَّد اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا)، طبعًا هذا عبث أيضًا.

---

(١) روح المعاني (٤/١٧٩-١٨٠). ينظر ما أورده الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في (تفسير سورة النِّساء) من (ص:١٢٨)، إلى (١٣٠)، وتفسير أبي السُّعود (١/٥٨)، وينظر: تفسير أبي السُّعود أيضًا (٢/١٣٨).

فإذا كان خطاب الموجودين القاصرين عن أهليَّة التَّخاطب عبثًا، فما بالكم بالمعدوم؟ ولا ينكر ذلك إلا مكابر كما ذكر العضد..

ولكن الحنابلة يقولون: هل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ، أم إلى جميع النَّاس إلى يوم القيامة؟ أليس النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسل للعالمين، والقرآن أنزل للنَّاس كافّةً؟

وقد ردَّ الجمهور على ذلك بأنَّا مسلِّمونَ بأنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ للجميع، ولكن لا نُسلِّم أنَّ الإرسال متوقِّف على (الخطابات الشِّفاهيَّة)، فإذا خَاطَبَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكلَّفين، يأتي بعد ذلك المخاطَبون فيقولون لمن بعدهم: النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسل إلى الجميع، وقد لزمنا الخطاب لكوننا مكلَّفين، فإذا صرتم مكلَّفين، أو تحقَّقتْ فيكم شروطُ التَّكليف لزمكم الحكمُ كما لزمنا بالقياس، ويذكر في ذلك النُّصوص الدَّالة على عموم الرِّسالة.

ثمَّ اعترض الحنابلة بعد ذلك بأنَّه قد شاع الاستدلال بالعمومات[1]، فيقولون: عندما يأتي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيقول: السَّارق تقطع يده[2]، فيقال له: ما الدَّليل؟ فيقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فلولا شمول الآية لما صحَّ الاستدلال بها.

وأجيب بأنَّهم ذكروا ذلك، ولكن من أين لكم أنَّهم ذكروها على سبيل الاستدلال لا على سبيل بيان الحكم الذي تتضمَّنه؟ فالذي ألجأنا إلى ذلك الضَّرورة التي لا دافع لها..

---

(١) انظر: إرشاد الفحول (ص:٢٣٧).

(٢) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفيِّ قال سألتُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨]، أخاصٌّ أم عامٌّ؟ فقال: بل عامٌّ. تفسير الطَّبري (١٠/٢٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/١٠٧)، والدر المنثور (٣/٧٣)، تفسير القاسمي (٣/١١٧).

٢ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

ومن خلال تفسير أوَّل موضع وردت فيه هذه الصِّيغة تُفهم الحكمة من ذلك، فيقاس عليها غيرها من الآيات. وأمَّا أهميَّة ذلك فإنما تعلم بالتَّفكر والتَّأمل فيما ولي المنادَى، وأنَّه أمر عظيم ينبغي أن يتنبَّه له المخاطَب كما أنَّ النَّظر في أقوال المفسِّرين يزيد المخاطَب فهمًا لما ولي المنادَى يدفع عن تفكيره الإشكال، ويبصِّره بالعاقبة والمآل، وقد كانت العناية والاهتمام بذكر نماذج تطبيقيَّة تثري الموضوع، وتفتح أمامه الآفاق، وتجمع بين العلم والدَّعوة، وهما في حقيقة الأمر صنوان يُرْتَقي بهما إلى سُدَّة النَّجاة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ وَالذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فقد جاء أنَّ النِّداء إلى النَّاس كلِّهم لعبادةِ ربِّهم الذي خلقهم والذين من قبلهم. ربهم الذي تفرَّد بالخلق، فوجب أن يتفرَّد بالعبادة. وللعبادة هدف لعلَّهم ينتهون إليه ويحقِّقوه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾..لعلَّكم تصيرون إلى تلك الصُّورة المختارة من صور البشريَّة. صورة العابدين لله عَزَّوَجَلَّ. المتَّقين لله عَزَّوَجَلَّ. الذين أدَّوا حقَّ الرُّبوبيَّة الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، ربُّ الحاضرين والغابرين، وخالق النَّاس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسَّماء، بلا ندٍّ ولا شريك[1].

وهذا أمرٌ عامٌّ لكلِّ النَّاس، بأمرٍ عامٍّ، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم عَزَّوَجَلَّ بما خلقهم له، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، إلى غير ذلك..

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصيغة من النِّداء فهو: [٢٠].

وأمَّا عدد التَّكرار فهو: [٢٠].

وهي على النَّحو الآتي:

---

(١) انظر: الظِّلال (١/٤٦-٤٧).



[البقرة:٢١-١٦٨]، [النِّساء:١ - ١٧٠- ١٧٤]، [الأعراف: ١٥٨]، [يونس:٢٣ – ٥٧ – ١٠٤ – ١٠٨]، [الحج:١ – ٥ – ٤٩ – ٧٣]، [النَّمل:١٦]، [لقمان:٣٣]، [فاطر:١٥]، [الحجرات:١٣][1].

ثانيًا: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ..﴾ [البقرة:٤٠]:

و(إسرائيل) هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ، وقيل: (إسرا) بالعبرانيَّة: عبد، و(إيل) هو الله عَزَّوَجَلَّ، فكان اسمه: (عبدَ الله)[2].

وذلك مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقيل غير ذلك[3].

---

(١) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص:٤٠٥)، وفاته أن يذكر في كتابه (عجائب علوم القرآن) الآية: [٣٣] من (سورة لقمان). انظر: عجائب علوم القرآن (ص:١٩١–١٩٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٥٥٣)، (٢/٣٩٠- ٣٩٢)، تفسير القرطبيِّ (١/٣٣١)، تفسير الماوردي (١/١١٠)، التَّحرير والتَّنوير (١/٤٥٠)، السِّراج المنير (١/٦١)، الرَّازي (٣/٤٧٤)، الدُّر المصون (١/٢٠٢). وينسب هذا القول إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير، عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء، عن عُمير مولى ابن عباس عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ إسرائيل كقولك: عبد الله". تفسير الطَّبري (١/٥٥٣)، تفسير ابن كثير (١/٢٤١)، وانظر: الإتقان (٢/٣٨٠). وهذا إسناد صحيح. وإسماعيل بن رجاء بن ربيعة: ثقة، أخرج له مسلم في (صحيحه). وعمير مولى ابن عباس: هو عمير بن عبد الله الهلالي، مولى أمِّ الفضل، وقد ينسب إلى ولاء زوجها (العباس)، كما ورد في إسناد حديث آخر في المسند: [٧٧]، وقد ينسب إلى ولاء بعض أولادها، كما في هذا الإسناد، وهو تابعيٌّ ثقة، وأخرج له الشَّيخان وغيرهما. انظر: تقريب التَّهذيب (ص:٧٥٤)، تهذيب الكمال (٢٢/٣٨١)، إسعاف المبطأ برجال الموطأ (ص:٢٣)، تعجيل المنفعة (١/٨٨).

(٣) انظر: التِّبيان في تفسير غريب القرآن الكريم (١/٨٠)، وانظر التَّفصيل والقراءات في (تفسير القرطبي) (١/٣٣١)، وروح المعاني (١/٢٤١)، انظر: إعراب القرآن وبيانه (١/٨٩).



وقد اختلفوا فيه، والأصحُّ أنَّه علمٌ أعجمي؛ ولهذا منع من الصَّرف، وهو مركَّبٌ تركيب الإضافة، فإنَّ (إسرا) هو العبد بالعبريَّة، و(إيل) هو الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تصرَّفت العربُ فيه بلغاتٍ أصحُّها لغة العرب..

وهنا كلام مهمٌّ للطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر التَّنوع في (خطاب بني إسرائيل)، ثمَّ يذكر وجه المناسبة لكلِّ خطاب، حيث يقول في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾: [هو] "خطابٌ لذريَّة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفي ذريَّته انحصر سائر الأمَّة اليهوديَّة. وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: (يا أيُّها اليهود)؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود فهو اسم النِّحلة والدِّيانة؛ ولأنَّ من كان متَّبعًا دين اليهوديَّة من غير بني إسرائيل كحِميَر(1) لم يعتدَّ بهم؛ لأنهم تبع لبني إسرائيل، فلو آمن بنو إسرائيل بالنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآمن أتباعهم؛ لأنَّ المقلِّد تبع لمقلده"(2).

وقد جاء تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أنَّ هذا الخطاب للتَّذكير بنعمٍ أنعَمَ الله عَزَّوَجَلَّ بها على أسلافهم، وكراماتٍ أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأعقابه مزيد مناسبة لذلك، ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التَّدين بدين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكروا بوصف (الذين هادوا) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هَادُوا..﴾ الآية [البقرة:٦٢].

وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامَّتهم؛ لأنَّ ما خوطبوا به هو من التَّذكير بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ على أسلافهم وبعهد الله عَزَّوَجَلَّ لهم. وكذلك نجد

---

(١) حمير: أبو قبيلة من (اليمن)، وهو حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وهي قبيلة يمنية معروفة منذ أيام السَّبئيين، اشتدَّ نفوذها في أواخر عهد السَّبئيين، ثمَّ كوَّنت لنفسها دولة عاصمتها (ظُفار)، وقد استمر نفوذها حتَّى ظهور الإسلام، وكان لها لغة خاصَّة هي (الحميريَّة) وقد انقرضت. مؤسِّس القبيلة هو (حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب). انظر: الصِّحاح، مادَّة: (حمر) (٢/٦٣٨)، وكذلك في (لسان العرب) (٤/٢٠٨)، وانظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٥٢)، تاريخ ابن الوردي (١/٥٦-٥٨)، تاريخ الإسلام (١١/٣١٨)، تاريخ الطَّبري (١/٢٦١) (١/٤٢٩)، معجم البلدان (٥/١٤-٣٥).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١/٤٤٩).



خطابهم في الأغراض التي يراد منها التَّسجيل على جميعهم يكون بنحو: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٦٤]، أو بوصف اليهود الذين هادوا، أو بوصف النَّصارى، فأمَّا إذا كان الغرض التَّسجيل على علمائهم فنجد القرآن يعنونهم بوصف: ﴿الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:٤٧]، أو ﴿الذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام:٢٠].

وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق ممَّا يناسبُ علماءَهم خاصَّة مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. ونحو: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٤١][(١)]. إلى غير ذلك من الآيات. فإذا جاء الخطاب بأسلوبٍ شاملٍ لعلمائهم وعامَّتهم صرف إلى كلِّ طائفة من الطَّائفتين ما هو لائق بها.

وهنا فائدة: فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، أي: (يا أولاد إسرائيل)، والأصل في (بني) أن تكون للذُّكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمَّةٍ شملت الذُّكور والإناث، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦][(٢)].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٦].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٦].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:٤٠ – ٤٧ – ١٢٢]، [المائدة:٧٢]، [طه:٨٠]، [الصَّف:٦].

(١) انظر: المصدر السابق (١/٤٥٠).

(٢) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (الابن) (١/٦٢).

ثالثًا: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾ [البقرة:١٠٤]:

وصفَهم بالإيمان إثْرَ تعدادِ ما يوجبه ويقتضيه؛ تنشيطًا لهم، وحثًّا على مراعاة ما يعقُبه من الأمر[1]. يناديهم بالصِّفة التي تميِّزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيِّهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتَّلبية[2].

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيها هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٨٩].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٨٩][3].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:١٠٤ – ١٥٣ – ١٧٢ – ١٧٨ – ١٨٣ – ٢٠٨ – ٢٥٤ – ٢٦٤ – ٢٦٧ – ٢٧٨ – ٢٨٢]، [آل عمران:١٠٠ – ١٠٢ - ١١٨ - ١٣٠ - ١٤٩ - ١٥٦ – ٢٠٠]، [النِّساء:١٩ - ٢٩ – ٤٣ – ٥٩ – ٧١ – ٩٤ – ١٣٥ – ١٣٦ – ١٤٤]، [المائدة:١ – ٢ – ٦ – ٨ – ١١ – ٣٥ – ٥١ – ٥٤ – ٥٧ – ٨٧ – ٩٠ – ٩٤ – ٩٥ – ١٠١ – ١٠٥ – ١٠٦]، [الأنفال:١٥ - ٢٠ – ٢٤ – ٢٧ – ٢٩ – ٤٥]، [التَّوبة:٢٣ – ٢٨ – ٣٤ – ٣٨ – ١١٩ – ١٢٣]، [الحج:٧٧]، [النُّور:٢١ – ٢٧ – ٥٨]، [الأحزاب:٩ – ٤١ – ٤٩ – ٥٣ – ٥٦ – ٦٩ – ٧٠]، [محمَّد:٧ – ٣٣]، [الحجرات:١ – ٢ – ٦ – ١١ – ١٢]، [الحديد:٢٨]، [المجادلة:٩ – ١١ – ١٢]، [الحشر:١٨]، [الممتحنة:١ – ١٠ – ١٣]، [الصَّف:٢ – ١٤]، [الجمعة:٩]، [المنافقون:٩]، [التَّغابن:١٤]، [التَّحريم:٦ – ٨].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/١٧٩).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/١٠٠).

(٣) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص:٤٠٧)، وكذلك في كتابه (عجائب علوم القرآن) من [١٩٤] إلى [٢٠٢]، مع ذكره في كتابه الأخير (ما ولي المنادَى) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾.



رابعًا: ﴿..يَا أُولِي الأَلْبَاب..﴾ [البقرة:١٧٩]:

و(الألباب) هنا: جمع لبٍّ، وهو العقل، واللُّبُّ من كلِّ شيءٍ: الخالصُ منه[١].

يعني: يا ذوي العقول. أي: يا ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام. خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطًا لهم إلى التَّأمُّل...[٢].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٤].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٤].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:١٧٩، ١٩٧]، [المائدة:١٠٠]، [الطَّلاق:١٠].

خامسًا: ﴿..يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾ [آل عمران:٦٤]:

١ - بيان المعنى:

أي: من اليهود والنَّصارى، وهو كثير، وقد جاءت الصِّيغة نصًّا صريحًا في إرادة كلٍّ منهما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

أقول: وقد يراد به واحد منهما، وذلك بحسب القرائن كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء:١٧١]. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تجريدٌ للخطاب وتخصيصٌ له بالنَّصارى زجرًا لهم عمَّا هم عليه من الكفر

---

(١) انظر: مفردات القرآن، مادَّة: (لب) (ص:٧٣٣)، لسان العرب، مادَّة: (لبب) (١/٧٢٩)، الكليَّات (ص:٧٩٨)، التَّعاريف (ص:٦١٧).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/١٩٦)، روح المعاني (٢/٥٢).

والضَّلال، ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في رفع شأنِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وادِّعاءِ ألوهيَّتِه، وأمَّا غلوُّ اليهودِ في حطِّ رتبَتِه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ورميِهم له بأنَّه وُلد لغير رَشْدةٍ فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق[1].

وكذلك ما جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]. المراد بأهل الكتاب هنا: النَّصارى؛ لأنهم هم الذين اتخذوا المخلوق ربًّا وعبدوه مع الله عَزَّوَجَلَّ[2]. وقد أريد بالذين (أوتوا الكتاب) -في هذه الصِّيغة المشابهة للصِّيغة التي نحن بصددها- اليهود في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النِّساء:٤٧].

٢ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أقبل على خطاب أهل الكتاب بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجَّة عليهم، ما فيه وازع لهم لو كان بهم وَزْع[3]، وكذلك شأن القرآن أن لا يفلت فرصة تَعِنُّ من فُرَص الموعظة والهدى إلا انتهزها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحكماء والخطباء أن يتوسَّموا أحوالَ تأثُّر نفوس المخاطَبين، ومظانَّ ارعوائها عن الباطل، وتبصُّرها في الحقِّ، فينجدوها حينئذٍ بقوارع الموعظة والإرشاد[4].

وسيأتي مزيد من البيان عند ذكر الصِّيغة.

أمَّا وصفهم بـ: (أهل الكتاب) فقد وُصفوا بأهليَّة الكتاب؛ تمهيدًا لما سيأتي من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم[5].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢/٢٥٩)، روح المعاني (٦/٢٤).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣/٢٦٨).

(٣) "وزعته أزعه وزعًا: كففته، فاتزع هو، أي: كف. وأوزعته بالشَّيء: أغريته به، فأوزع به، فهو موزع به، أي: مغرى به" الصِّحاح، مادة: (وزع) (٣/١٢٩٧).

(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٥/٧٨).

(٥) انظر: تفسير أبي السُّعود (٣/٥٤)، روح المعاني (٦/١٧٢).

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[آل عمران:٦٤ – ٦٥ – ٧٠ – ٧١ – ٩٨ – ٩٩]، [النِّساء:١٧١]، [المائدة:١٥ – ١٩ – ٥٩ – ٦٨ – ٧٧].

سادسًا: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ [النساء:٤٧]:

١ – بيان المعنى:

وقد جاءت هذه الصِّيغة في آية واحدة في (خطاب اليهود)[١] في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء:٤٧].

٢ – ما يستفاد ممَّا ولي المنادَى:

"يتَّجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب، [وهم هنا] اليهود دعوة إلى الكتاب المصدِّق لما بين أيديهم، وتهديدًا لهم بالمسخ واللَّعن المتوقَّعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغًا لهم بالشِّرك والانحراف عن التَّوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله عَزَّوَجَلَّ لا يغفر أن يشرك به. وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة، وبشاعة الشِّرك حتى إنَّه ليخرج من هذه الحدود. إنَّه نداء لهم بالصِّفة التي كان من شأنها أن يكونوا أوَّل المستجيبين، وبالسَّبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أوَّل المسلمين، فهم أوتوا الكتاب،

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٨/٤٤٠)، روح المعاني (٥/٤٩)، ابن كثير (٢/٣٢٤)، الدُّر المنثور (٢/٥٥٥)، لباب النقول (١/٧٠)، الثَّعالبي (١/٣٧٩)، البغوي (١/٦٤١)، زاد المسير (١/٤١٧)، التَّحرير والتَّنوير (٥/٧٨)، الكشف والبيان (٣/٣٢٣)، تفسير مقاتل بن سليمان (١/٢٣٢).



فليس غريبًا عليهم هذا الهدى. والله عَزَّوَجَلَّ الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدِّقًا لما معهم، فليس غريبًا عليهم ذلك، وهو مصدِّق لما معهم. ولو كان الإيمان بالبيِّنة، أو بالأسباب الظَّاهرة، لآمنت يهود أوَّل من آمن، ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح، وكانت لها أحقادٌ وعناد، ومن ثمَّ لم تؤمن، ومن ثمَّ يجيئها التَّهديد العنيف القاسي.."[1].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [النِّساء:٤٧].

ولكن ينبغي أن يلاحظ فيه ما جاء في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ هذه الصِّيغة –أعني: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾– لها ذكرٌ من غير ذِكْرِ صيغة النِّداء (يا) في مواضع متعدِّدة، فعدد الآيات التي وردت فيها هذه الصِّيغة مجرَّدة عن النِّداء في [١٧] موضعًا[2]، وليستُ هنا بصدد بيان إلا ما جاء مسبوقًا منها بـ: (يا).

سابعًا: ﴿...يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام:١٢٨]:

١ – بيان المعنى:

النِّداء هنا نداء مضاف –وسيأتي بيانه– و(المعشر): الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد[3]، بحيث تجمعهم صفة أو عمل، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

---

(١) بقليل من التصرف عن (الظِّلال) (٥/٦٧٦–٦٧٧).

(٢) انظر الآيات التَّالية: [البقرة:١٠١، ١٤٤، ١٤٥]، [آل عمران:١٩، ٢٠، ١٠٠، ١٨٦، ١٨٧]، [النساء:١٣١]، [المائدة: مرتين في الآية: ٥، ٥٧]، [التَّوبة:٢٩]، [الحديد:١٦]، [المدَّثر: مرَّتين في الآية:٣١]، [البيِّنة:٤]. أمَّا ما كان مسبوقًا بالنِّداء فقد جاء في [النِّساء:٤٧] –كما سبق–.

(٣) وفي (تاج العروس): يقال: المَعْشَر كمسكن: الجماعة، وقيَّده بعضهم بأنَّه الجماعة العظيمة، سمِّيت لبلوغها غاية الكثرة؛ لأنَّ (العشرة) هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا وهو مُرَكَّبٌ ممَّا فيه من الآحاد كأحَدَ عَشَرَ، وكذا عشرون وثلاثون، أي: عَشَرَتان وثلاثة، المَعْشَرَ محَل العَشَرة الذي هو الكَثْرَة الكاملة.=



وهو يُجمع على: (معاشر) أيضًا، وهو بمعناه، وهو مشتقٌّ من المعاشرة والمخالطة.

والأكثر أن يضاف (المعشر) إلى اسم يبيِّن الصِّفة التي اجتمع مسمَّاه فيها، وهي هنا صفة كونهم جِنًّا؛ ولذلك إذا عُطف على ما يضاف إليه كان على تقدير تثنية معشرًا وجمْعِه، فالتَّثنية نحو: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ [الرحمن:٣٣]، أي: يا معشر الجنِّ ويا معشر الإنس، والجمع نحو قولك: (يا معاشر العرب والعجم والبربر)"[١].

٢ - ما يستفاد ممَّا ولي المنادَى:

والجنُّ مأمورون ومنهيُّون كالإنس، وقد بعث الله عَزَّوَجَلَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الإنس إليهم وإلى الإنس وأمر الجميع بطاعة الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ...[٢].

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:١٣٠].

الرُّسل من الإنس خاصَّة لكن لما جمعوا مع الجنِّ في الخطاب صحَّ ذلك[١].

=وقيل: المعْشَرُ: أهل الرَّجُل. وقال الأزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ [تهذيب اللغة، للأزهريِّ، مادَّة: (عشر) (٢٦٢/١)، وكذلك مادَّة: (طهر) (١٠١/٦)]: المعْشَر والنَّفَر والقَوْم والرَّهْط: معناه الجمع، لا واحد لهم من لفظهم، للرجال دون النساء، والعشيرة أيضًا للرجال، والعالم أيضًا للرِّجال دون النساء. وقال الليث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعْشَر: كل جماعة أمْرُهم واحد، نحو: معشر المسلمين، ومعشر المشركين. والجمع المعاشر. وقيل: المعشر: الجن والإنس، وفي التَّنزيل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ﴾ [الأنعام:١٣٠]. قال شيخنا -[لعله يقصد أبا عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي، المتولد بفاس سنة [١١١٠]، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة [١١٧٠] حيث قال: وهو عُمدتي في هذا الفنِّ. تاج العروس (٣/١)]-: ولكن الإضافة تقتضي المغايرة، وفيه أن التَّقدير: يا مَعْشَرًا هم الجنُّ والإنس، فتأمل. تاج العروس، مادَّة: (عشر) (٥٣/١٣- ٥٤)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (عشر) (٥٦٨/٤)، تهذيب اللُّغة، من (٢٥٩/١) إلى (٢٦٢/١)، المعجم الوسيط (٩٠٢/٢).

(١) التَّحرير والتَّنوير (٦٧/٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧٩/١٣)، دقائق التَّفسير (١٣٥/٢).



وفي إرسال الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إقامة للحجَّة عليهم، وهذا أيضًا مما يستفاد من الآية.

وفي (البرهان): "المراد: (الإنس)؛ لأنَّ الرُّسل لا تكون إلا من بني آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وحكى بعضهم فيه الإجماع، لكن عن الضَّحاك[2]: إنَّ من الجن رسولًا اسمه (يوسف)؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]. قال المفسرون: السبب فيه أن استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس؛ ليكمل هذا الاستئناس. إذا ثبت هذا المعنى، فهذا السبب حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن.

أما القول الثاني: وهو قول الأكثرين: (أنه ما كان من الجن رسول البتة، وإنما كان الرسل من الإنس) فما رأيت في تقرير هذا القول حجة إلا ادعاء الإجماع، وهو بعيد؛ لأنه كيف ينعقد الإجماع مع حصول الاختلاف. ويمكن أن يستدل فيه بقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، الدر المنثور (٣/٣٦٠)، تفسير البيضاوي (٢/١٨٢)، الكشاف (٢/٥١)، تفسير ابن جزي (٢/٢١)، تفسير أبي السُّعود (٣/١٨٥)، تفسير السَّمرقندي (١/٤٨٣)، السَّمعاني (٥/٣٢٣)، النَّسفي (١/٥٣٧)، أحكام القرآن، للطَّحاويِّ (٢/٢٩٢)، الكشف والبيان (٤/١٩١)، البغوي (٤/٣٣٤)، زاد المسير (٢/٧٨)، فتح القدير (٢/١٨٥)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، تفسير الرازي (١٣/١٥٠)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧)، النكت والعيون (٢/١٧٠)، السمعاني (٢/ ١٤٥)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني (١/٣٨٦). ولم يذكر هذا القول (الدُّكتور محمَّد شكري أحمد..) الذي جمع أقوال الضَّحاك في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾، وكذلك في تفسير: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. انظر: تفسير الضَّحاك (١/٣٥٢–٣٥٣)، (٢/٦٩١). وإنما ذكر قول الضَّحاك الذي سيأتي، وهو زعمه أنَّ في الجنِّ رسلًا..



عمران:٣٣]. وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط.."[1]. ثم أورد اعتراضات على ما تمسك به الضحاك.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واحتجَّ الجمهور بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]؛ ليحصل الاستئناس، وذلك مفقود في الجن"[2]. ويرد على هذا القول ما حققه الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كون ذلك حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن، وهو أقرب.

واحتج الجمهور كذلك بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا...﴾ الآية [آل عمران:٣٣]. قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أجمعوا أنَّ المراد بالاصطفاء: النُّبوة. وأجيب عن تمسُّك الضَّحاك بالآية بأنَّ البعضيَّة صادقةٌ بكون الرُّسل من بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يلزم إثبات رسل من الجنِّ بطريق إثبات نفرٍ من الجنِّ يستمعون القرآن من رسل الإنس، ويبلِّغونه إلى قومهم وينذرونهم، ويصدق على أولئك النَّفر من حيث إنهم رسل الرُّسل، وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ رسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك حيث قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس:١٤]"[3]. ويرد على دعوى الإجماع كذلك ما حققه الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.

وقيل: قوم من الجنِّ رسل للآية[4]، ويرد عليه ما سبق.

وقد نصَّ غير واحد من أئمَّة السَّلف والخلف على الاتِّفاق على أنَّه ليس من الجنِّ رسل.. فقد قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نصَّ على ذلك مجاهدُ وابنُ جريج وغيرُ واحد من الأئمَّة من السَّلف والخلف. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الرُّسل من بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن الجنِّ نذر، وحكى ابن جرير عن الضَّحاك بن مزاحم أنَّه زعم أنَّ في الجنِّ رسلًا،

---

(١) تفسير الرازي (١٣/١٥١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٣٧)، وانظر: روح المعاني (٧/٢١٥).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٢/٤٥٣)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).



واحتجَّ بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة. وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابنُ جرير[1].

والدَّليل على أنَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنَّما هم من الإنس قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ..﴾، إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فحصر النُّبوَّة والكتاب بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذرِّيته، ولم يقل أحد من النَّاس أنَّ النُّبوة كانت من الجنِّ قبل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ انقطعت عنهم ببعثته.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف:١٠٩]، ومعلوم أنَّ الجنَّ تبعٌ للإنس في هذا الباب.."[2]. إلى آخر ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من الأدلَّة.

وقد حقَّق ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك أيضًا عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، حيث قال: "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يخصُّ قريشًا والعرب، ثمَّ يعمُّ سائر البشر؛ لأنَّ القرآن خطاب لهم، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنفسهم، والمعنى ليس بمَلَكٍ لا يطيقون الأخذ منه، ولا جني، ثمَّ يعمُّ الجنَّ؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى الإنس والجنِّ، والقرآن خطاب للثَّقلين، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم جميعًا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]، فجعل الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي أرسلها من النَّوعين مع أنهم من الإنس؛ فإنَّ الإنس والجنَّ مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين؛ فإنهم يأكلون ويشربون وينكحون وينسلون ويغتذون وينمون

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، وانظر: تفسير الضَّحاك (١/٣٥٢-٣٥٣).

(٢) تفسير الحافظ ابن كثير (٣/٣٤٠)، وانظر: الدُّر المنثور (٣/٣٥٩)، روح المعاني (٨/٢٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).



بالأكل والشُّرب، وهذه الأمور مشتركة بينهم، وهم يتميَّزون بها عن الملائكة؛ فإنَّ الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ولا تنسل، فصار الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنفس الثَّقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميَّزوا به عن الملائكة حتى كان الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبعوثًا إلى الثَّقلين دون الملائكة.."[1].

٣ - النَّتائج:

وممَّا سبق يتبيَّن:

أ. جاء نداء الجنِّ في الخطاب القرآني بهذه الصِّيغة، وقد بيَّنتُ ما جاء في معناها.

ب. إنَّ الجنَّ مأمورون ومنهيون كالأنس.

ج. الاتِّفاق على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بعث الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الإنس خاصّةً إلى الإنس والجنِّ معًا، فإنَّ مبلِّغ الخطاب الإلهي إنما هو من الإنس لكلٍّ من الإنس والجنِّ.

د. إقامةُ الحجَّة على الجنِّ، وذلك بإرسال الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إليهم.

هـ. جاء الخطاب من الجنِّ بصيغة: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾ [الأحقاف:٣٠] -وسيأتي بيان ذلك في موضعه- .

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة -﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾- من غير عطف لفظ (الإنس) فهو: [١].

أمَّا مع العطف فسيأتي عقب ما جاء من غير عطف.

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: [الأنعام: ١٢٨].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٢).



ثامنًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنْسِ..﴾ [الأنعام:١٣٠]:

سبقَ بيانُ معنى (معشر)، وهنا: (الخطاب إلى الاثنين).

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضا: [٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[الأنعام:١٣٠]، [الرَّحمن:٣٣].

تاسعًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ..﴾ [الأعراف:٢٦]:

١ - ما يستفاد من النِّداء بهذه الصِّيغة، ومما ولي المنادَى:

وهنا مسائلُ مهمَّة لها صلة وثيقة بما لهذه الصِّيغة من الدِّلالة.

فمن ذلك ما ذكره الرَّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)، حيث قال: "لا شكَّ أنَّ (اسم الولد) واقعٌ على (ولد الصُّلب) على سبيل الحقيقة، ولا شكَّ أنَّه مستعملٌ في (ولد الابن)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، وقال للَّذين كانوا في زمان الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [البقرة:٤٠]، إلا أنَّ البحث في أنَّ لفظَ (الولد) يقعُ على (ولد الابن) مجازًا أو حقيقة.



فإن قلنا: إنَّه مجاز فنقول: ثبتَ في أصول الفقه أنَّ اللَّفظ الواحد لا يجوز أن يستعمل دفعةً واحدة في حقيقته وفي مجازه معًا(1)، فحينئذٍ يمتنعُ أن يريد الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:11] ولد الصُّلب وولد الابن معًا.

[قال]: واعلم أنَّ الطَّريق في دفع هذا الإشكال أن يقال: إنَّا لا نستفيد حكم (ولد الابن) من هذه الآية، بل من السُّنة ومن القياس، وأمَّا إن أردنا أن نستفيده من هذه الآية فنقول: الولد وولد الابن ما صارا مرادين من هذه الآية معًا؛ وذلك لأنَّ أولاد الابن لا يستحقُّون الميراث إلا في إحدى حالتين، إمَّا عند عدم ولد الصُّلب رأسًا، وإمَّا عندما لا يأخذ ولد الصُّلب كلَّ الميراث، فحينئذٍ يقتسمون الباقي. وأمَّا أن يستحقَّ (ولد الابن) مع (ولد الصُّلب) على وجه الشَّركة بينهم كما يستحقُّه أولاد الصُّلب بعضهم مع بعض فليس الأمر كذلك، وعلى هذا لا يلزم من دلالة هذه الآية على الولد وعلى ولد الابن أن يكون قد أريد باللَّفظ الواحد حقيقته ومجازه معًا؛ لأنَّه حين أريد به (ولد الصُّلب) ما أريد به (ولد الابن)، وحين أريد به (ولد الابن) ما أريد به ولد الصُّلب.

فالحاصل أنَّ هذه الآية تارة تكون خطابًا مع (ولد الصُّلب)، وأخرى مع (ولد الابن)، وفي كلِّ واحدةٍ من هاتين الحالتين يكون المراد به شيئًا واحدًا. أمَّا إذا قلنا: إن وقوع اسم الولد على (ولد الصُّلب) وعلى (ولد الابن) يكون حقيقة، فإن جعلنا اللَّفظ مشتركًا بينهما عاد الإشكال؛ لأنَّه ثبت أنَّه لا يجوز استعمال اللَّفظ المشترك لإفادة

(1) أي: يكون اللَّفظ هنا حقيقة في (الابن) مجاز في (ابن الابن) على الرأي الأوَّل، وهو رأيُ الرَّازي من لفَّ لفَّه. والرَّأي الآخر أنَّهُ يجوز استعمال اللفظ الواحد في حقيقته ومجازه معًا. انظر: تفسير ابن عادل (6/273)، تفسير ابن عرفة (1/331، 356)، نظم الدرر (2/400)، تفسير الرَّازي (9/512)، (10/24)، إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد (1/22)، تحفة الأحوذي (5/504)، شرح الزُّرقاني على الموطَّأ (2/261)، شرح النَّووي لصحيح مسلم (13/202)، فتح الباري (10/39)، (10/49)، (11/366)، الخرشي على مختصر خليل (7/199)، منح الجليل (5/223)، البحر الرَّائق (4/55)، الإبهاج (1/259)، البحر المحيط في أصول الفقه (1/509)، الأشباه والنَّظائر، لتاج الدِّين السُّبكي (1/375)، الفروق (1/181)، القواعد، لابن رجب (ص:353)، شرح الكوكب المنير (3/159)، غمز عيون البصائر (4/128)..الخ.



معنييه معًا[1]، بل الواجب أن يجعله متواطئًا[2] فيهما كالحيوان بالنِّسبة إلى الإنسان والفرس.

---

(١) والحاصل أنَّ منهم من يجوِّز إعمال المشترك في معنييه، (يجيز أن يراد المعنيان جميعًا)، ومنهم من يعدُّ ذلك خطبًا عظيمًا. والتَّحقيق جواز حمل المشترك على معنييه، كما حقَّقه الشَّيخ تقيُّ الدِّين أبو العباس ابنُ تيمية في (رسالته في أصول التَّفسير)، وحرَّر أنَّه هو الصَّحيح في مذاهب الأئمَّة الأربعة -رحمهم الله-، وكثير من أهل الكلام. مقدِّمة في أصول التَّفسير، لابن تيميه (١٢/٢)، وانظر: المسودة (ص:٣٤)، انظر: أضواء البيان (٣٣٦/١)، نظم الدُّرر (٦٦٣/٢)، المنار (١٠٦/٣)، (٢٨٥/٤)، (١٥١/٦)، (٨٠٩/٧)، (١٨٢/٨)، (٢٩٤/٩)، الإبهاج (٢٥٧/١، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٨)، التَّمهيد، للإسنوي (ص:١٨١)، حاشية العطار (٥٠٧/١)، نهاية السُّول (٢٣٨/١)، الفتاوى الكبرى الفقهيَّة، لابن حجر الهيتمي (٣٢/١)، (٣٠٤/٣)....الخ.

(٢) (المشترك) هو اللَّفظة الموضوعةُ لحقيقتين مختلفتين أو أكثر، وضعا أوَّلًا من حيث هما كذلك. فخرج بـ: (الوضع): ما يدلُّ على الشَّيء بالحقيقة، وعلى غيره بالمجاز، وخرج بقيد: (أوَّلًا) المنقول، وخرج بقيد (الحيثيَّة): المتواطئ فإنَّه يتناول الماهيَّات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنَّها مشتركة في معنى واحد. إرشاد الفحول (٥٧/١)، المحصول (٣٥٩/١-٣٦١)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (٦٠/١). قال الأخضري في (السُّلَّم):

(ونسبة الألفاظ للمعاني***خمسة أقسام بلا نقصان)

(تواطؤ تشاكك تخالف***والاشتراك عكسه التَّرادف).

قوله: (تواطؤ)..وهو القسم الأوَّل من الخمسة كالإنسان؛ فإنَّ معناه لا يختلفُ في أفراده، ويسمَّى ذلك المعنى متواطئا لتواطئ أفراده، أي: توافقها فيه؛ فإنَّ أفراد الإنسان كلَّها متوافقةٌ في معناه من الحيوانيّة والنَّاطقيّة، وإنَّما الاختلافُ بينهما بعوارضٍ خارجةٍ كالبياض والسَّواد والطُّول والقصر. فإن كان معناه مختلفًا في أفراده كالنُّور؛ فإنَّ معناه في الشَّمس أقوى منه في القمر. وكالبياض؛ فإنَّ معناه في العاج أقوى منه في الثَّوب، فالنِّسبة بينه وبين أفراده تشاككٌ. ويقال للمعنى مشكك؛ لأنَّ النَّاظر إذا نظر في الأفراد باعتبار أصل المعنى ظنَّه متواطئًا، وإذا نظر باعتبار التَّفاوت ظنَّه مشتركًا فحصل له التَّشكك. ويسمَّى اللَّفظ متواطئا كمعناه، وفي الثَّاني مشككًا كمعناه. وإذا نظر بين معنى اللَّفظ وبين لفظ آخر فإن لم يصدق أحدهما على شيءٍ مما يصدقُ عليه الآخر، فالنِّسبة بينهما تخالف، أي: تباين، كالإنسان والفرس..واللَّفظ إن تعدد معناه كعين الباصرة والجارية فالنِّسبة بينه وبين ما له من المعاني الاشتراك؛ لاشتراك المعنيين في اللَّفظ الواحد. وإن تعدَّد المعنى كالإنسان والبشر فالنِّسبة بين اللَّفظين التَّرادف..انظر: (شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم المنورق) (ص:١٧).

والذي يدلُّ على صحَّة ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وحلائل أَبْنَائِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم﴾ [النساء:٢٣]. أجمعوا أنَّه يدخل فيه ابن الصُّلب وأولاد الابن، فعلمنا أنَّ لفظ (الابن) متواطئٌ بالنِّسبة إلى ولد الصلب وولد الابن، وعلى هذا التَّقدير يزول الإشكال.

[قال]: اعلم أنَّ هذا البحث الذي ذكرناه في أنَّ (الابن) هل يتناول (أولاد الابن) قائم في أنَّ لفظ الأب والأم هل يتناول الأجداد والجدَّات؟ ولا شكَّ أن ذلك واقع بدليل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣].

والأظهر أنَّه ليس على سبيل الحقيقة؛ فإن الصَّحابة اتفقوا على أنَّه ليس للجدِّ حكمٌ مذكور في القرآن، ولو كان اسم الأب يتناول الجدَّ على سبيل الحقيقة لما صحَّ ذلك والله أعلم"[(١)].

وفي (الكليَّات) "المعنى الحقيقي للابن هو الصُّلبي، كذا للولد منفردًا وجمعًا، لكن في العرف اسم الولد حقيقة في ولد الصُّلب. واستعمال الابن والولد في (ابن الابن) مجاز؛ ولهذا صحَّ أن يقال: (إنَّه ليس ولدي، بل ولد ابني)، و(ليس ابني، بل ابن ابني) فلا بد من قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنى الحقيقي إذا استعملا في (ابن الابن) أو في معنى شاملٍ له كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنَّ عدم كون أحد من ولد آدم من صلبه موجودًا عند ورود الخطاب قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي[(٢)]، فيكون المراد أبناء الأبناء فقط، لا معنى شاملا للابن الصُّلبي وابن الابن، وهذا لا يدلُّ على صحَّة استعمال لفظ الولد في المعنى الشَّامل للأولاد الصُّلبيَّة وأولاد الأبناء. [ثمَّ قال:] والحقُّ أنَّ إطلاق (الابن) على (ابن الابن) لا يستلزم إطلاق (الولد) على (ابن الابن) قطعًا؛ فإنَّ حكم لفظ (الابن) مغاير لحكم لفظ (الولد) في أكثر المواضع، وتناول لفظ الابن لابن الابن إنما يدل على تناول الولد لابن الابن أن لو كان لفظ الولد مرادفًا للفظ الابن أو كان الابن

---

(١) تفسير الرَّازي (٥١٣/٩)، تفسير ابن عادل (٢١٣/٦).

(٢) وقد بيَّنتُ ذلك في (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية).



أخصُّ مطلقًا من الولد، وكلاهما ممنوع؛ لأنَّ الأولاد [لا][1] تطلق عرفًا على أولاد الأبناء، بخلاف الأبناء فإنها تطلق عليها[2] بدليل دخول الحفدة في المستأمن على أبنائه[3]، فبينهما عموم وخصوص وجهي[4]. فلا يلزم من تناول لفظ الابن له تناول لفظ الولد له أيضًا، ولا يطلق الابن إلا على الذَّكر بخلاف الولد"[5].

٢ - النَّتائج:

أ. إنَّ إطلاق اسم الولد أو الابن واقع على ولد الصُّلب على سبيل الحقيقة.

ب. لا شكَّ أنَّ الصِّيغة التي معنا تتناول ابن الابن، ولكن هل يستفاد ذلك من المجاز أم من الحقيقة؟ وإذا كان من المجاز هل يلزم منه استخدام اللَّفظ الواحد في حقيقته ومجازه معًا؟ أم أنَّ يستفاد ذلك من السُّنة والقياس والإجماع؟

ج. دخول (ابن الابن) في الخطاب عند وروده ليس على سبيل الحقيقة خلافًا للحنابلة كما حقَّقتُ ذلك (في خطاب المعدوم) فأغنى عن ذكره هنا.

د. الجمهور على أنَّه من المجاز، ويكون من باب التَّغليب، وهو مجاز لا حقيقة؛ فإنَّه ليس إلا التَّجريد البياني -كما سبق-.

---

(١) يوجد هنا سقط [لا]، ولا يتمُّ المعنى بدونه، وهو في النُّسخة المتداولة، والتي قد اعتمدت هنا. مع ملاحظة أنَّ الحقيقة العرفيَّة قد تختلف باختلاف الزَّمان والمكان. ينظر: (التلويح على التوضيح) (١٦٧/١).

(٢) أي: تطلق عليها مجازًا للقرينة الصَّارفة، وقد بينتُ ذلك مفصلًا في (أساليب الخطاب في القرآن الكريم) في (المبحث التاسع) (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية، وبيان المقصود من الخطاب الشِّفاهي)، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر [١٤٣٦هـ]، من (٦٣٦/١) إلى (٦٤٦/١).

(٣) أي: مع بنيه في الأمان مع أن الأبناء حقيقة في الصُّلبيين مجاز في الحفدة.

(٤) العموم والخصوص الوجهي أن يجتمعا في شيءٍ وينفرد كلٌّ منهما في شيء كالنِّسبة بين الحيوان والأبيض. وفي الصِّيغة التي معنا قد اجتمعا -أي: الولد والابن- في الابن، وانفرد الولد في شموله للأنثى، وانفرد الابن في شموله لابن الابن.

(٥) الكليَّات (ص:٢٧)، وانظر: التقرير والتحبير (٣٤/٢).



هـ. وعلى اعتبار أنَّه من الحقيقة فإنَّ الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّه من المتواطئ، وليس من استخدام المشترك لإفادة معنييه معًا. ويرى الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ حمل اللَّفظ على كلا الحالين (الموجود والمعدوم) يكون من المتواطئ، ويرى أنَّ الحمل على الحقيقة إن أمكن أولى من الحمل على المجاز..، وقد ذكر أنَّ اعتبار المجاز يقتضي حمل اللَّفظ على حقيقته ومجازه في آنٍ واحد فيكون حقيقة في (الابن)، مجاز في (ابن الابن)، فيكون المخرج عنده أن نجعله من المتواطئ، وهو يتناول الماهيَّات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنها مشتركة في معنى واحد. كالإنسان فإنَّ معناه لا يختلف في أفراده، ويسمَّى ذلك المعنى متواطئًا لتواطئ أفراده، أي: توافقها فيه، فإنَّ أفراد الإنسان كلُّها متوافقة في معناه من الحيوانيَّة والنَّاطقيَّة، وإنما الاختلاف بينهما بعوارض خارجة كالبياض والسَّواد والطُّول والقصر.

ولكن التَّواطؤ قد يدلُّ على ماهيَّاتٍ مختلفة وإن اتَّفقت في الأصل مثل: الإنسان والفرس أصلهما (حيوان) بينما موضوعهما حقائق مختلفة. أمَّا موضوعنا هنا فهو في حقائق غير مختلفة – إلا من حيث الوجود والعدم– وهي الإنسان المكلَّف..، والاعتبارات الأخرى لا محلَّ لها هنا.

وما ذكره من المحظور في استخدام المجاز حيث إنَّه يؤدي إلى استخدامِ اللَّفظ في حقيقته ومجازه في آن واحد –على ما فيه من الخلاف– قد دفعناه من حيث استخدامه في مجازه فحسب على اعتبار التَّغليب، وهو أمرٌ شائعٌ.

و. أرى أنَّ الرَّاجح هو قول الجمهور باعتبار المجاز لكن على أنَّه من باب التَّغليب، وهو سائغٌ ومعروفٌ عند العرب كما بيَّنتُ ذلك من قبل.

ز. لا شكَّ أنَّ من يقول بالحقيقة أو من يقول بالمجاز لا يرفضون الأدلَّة الأخرى من السُّنة والقياس والإجماع.

ح. ثمَّة فرقٌ بين الولد والابن فيجتمعان ويفترقان..

ط. بيان أحكام أخرى تترتَّب على ذلك.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٥].



أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٥].

وهي على النَّحو الآتي:

[الأعراف:٢٦ – ٢٧ – ٣١ – ٣٥]، [يس:٦٠].

عاشرًا: ﴿.. يَا قَوْمِ...﴾ [البقرة:٥٤]:

أمَّا إذا أضيف المنادَى إلى النَّفس ففي ذلك أقاويل ذكرها المبرّد[1] في (المقتضب)، وذكر أنَّ من أجودها حذف الياء، وذلك كقولك: (يا غلام أقبل)، و(يا قوم لا تفعلوا). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود:٥١]، وقال: ﴿يَـا عِبَـادِ فَـاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

وكذلك كلُّ ما كان في القرآن من ذا[2]. كقوله: ﴿رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الأَرْضِ﴾ [نوح:٢٦]. وإنما كان حذفها الوجه؛ لأنها زيادة في الاسم غير منفصلة منه معاقبة للتَّنوين حالَّة في محلِّه، فكان حذفها ها هنا كحذف التَّنوين من قولك: (يا زيد)، و(يا عمرو)، وكانت أحرى بذلك، إذ كانت تذهب في الموضع الذي يثبت فيه التَّنوين. وذلك إذا التقى ساكنان وهي أحدهما. تقول: (جاءني غلامي العاقل)، و(جاءني زيد العاقل)، فتحرَّك التَّنوين؛ لالتقاء السَّاكنين، وتحذف الياء؛ لالتقاء السَّاكنين، ومع ذا فإنَّ الياء

---

(١) المبرد هو محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرّد، إمام العربيَّة (ببغداد) في زمنه، وأحد أئمَّة الأدب والأخبار. مولده (بالبصرة) ووفاته (ببغداد). من كتبه: (الكامل) و(المقتضب)...[٢٨٦هـ]. انظر: الأعلام (١٤٤/٧)، سير أعلام النُّبلاء (٥٧٦/١٣)، الأنساب (٥١٣/١)، بغية الوعاة (٢٦٩/١)، طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:٤١)، معجم المؤلفين (١١٤/١٢)، الوافي بالوفيَّات (١٦٩/٢)، تاريخ الإسلام (٢٩٩/٢١)، شذرات الذَّهب (١٩٠/٢)، وفيات الأعيان (٣١٣/٤).

(٢) أي: من ذلك القبيل.



والكسرة تستثقلان، والكسرة تدلُّ على الياء، إذا حذفتها دلت عليها كسرتها، وأوضحت لك المعنى. فهذا القول المختار[1].

وإنَّ افتتاح الخطاب بنحو: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إيذانٌ بأهميَّة ما سيلقى إليهم؛ لأنَّ النِّداء طلب الإقبال. ولما كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه، لكن النِّداء مستعملٌ في طلب الإقبال المجازي، وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله. واختيار التَّعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول النَّاصح المتطلِّب الخيرَ لهم؛ لأنَّ المرء لا يريد لقومه إلا خيرًا. وحذفت ياء المتكلم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في (نداء المضاف إلى ياء المتكلِّم)[2].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٣٨].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٣٨].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:٥٤]، [المائدة:٢٠ – ٢١]، [الأنعام:٧٨ – ١٣٥]، [الأعراف:٥٩ – ٦١ – ٦٥ – ٦٧ – ٧٣ – ٧٩ – ٨٥ – ٩٣]، [يونس:٨٤]، [هود:٢٨ – ٥٠ – ٥١ – ٦١

---

(١) المقتضب (٤/٢٤٥– ٢٤٦). وانظر: الأقوال الأخرى في (المقتضب)..، وانظر: الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (١/٣٤٠)، الكليَّات (ص:١٠٣٢)، وانظر: باب إضافة المنادى إلى نفسك في (الكتاب) لسيبويه، بتحقيق: عبد السلام هارون (٢/٢٠٩). وقد جاء بيان ياءات الزَّوائد على الرَّسم في (النَّشر في القراءات العشر) حيث ذكر ابنُ الجزريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها تأتي في أواخر الكلم، وتنقسم على قسمين: أحدهما: ما حذف من آخر اسم منادى نحو: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الأعراف:٧٩]، ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ﴾ [يونس:٨٤]، ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت:٥٦]، ﴿يَا أَبَتِ﴾ [يوسف:٤]، ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ [الزُّخرف:٨٨]، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ [آل عمران:٣٥]، وهذا القسم مما لا خلاف في حذف الياء منه في الحالين، والياء من هذا القسم (ياء إضافة) كلمة برأسها استغني بالكسرة عنها، ولم يثبت في المصاحف من ذلك سوى موضعين بلا خلاف وهما: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:٥٦]، و﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزُّمر:٥٣]، وموضع بخلاف، وهو ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف:٦٨]....والقُرَّاء مجمعون على حذف سائر ذلك إلا موضعًا اختص به (رويس)، وهو ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزُّمر:١٦]". النَّشر في القراءات العشر (٢/١٧٩–١٨٠).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/٢٣٦).

- ٦٣ - ٧٨ - ٨٤ - ٨٨ - ٩٢]، [طـه:٨٦ - ٩٠]، [المؤمنـون:٢٣]، [النَّمـل:٤٦]، [العنكبوت:٣٦]، [يس:٢٠]، [الزُّمر:٣٩]، [غافر:٢٩ - ٣٠ - ٣٨ - ٣٩]، [الزُّخرف:٥١]، [الصَّف:٥]، [نوح:٢].

الحادي عشر: ﴿.. يَا أَيُّهَا الْمَلأُ...﴾ [يوسف:٤٣]:

(الملأ): الرُّؤساء سمُّوا بذلك؛ لأنهم مِلاءٌ بما يحتاج إليه، و(الملأ): -مهموز مقصور- الجماعة.

وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدَّموهم الذي يرجع إلى قولهم[١].

وقيل: سمُّوا بذلك؛ لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرَّأي؛ أو لأنهم يملئون العيون أبهة، والصُّدور هيبة، والجمع: (أملاء)، مثل: سبب وأسباب[٢].

وفي (تفسير أبي السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "خطابٌ للأشراف من العلماء والحكماء"[٣].

وفي (روح المعاني): "خطابٌ للأشراف ممن يُظنُّ به العلم"[٤].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٥].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٥].

وهي على النَّحو الآتي:

[يوسف:٤٣]، [النَّمل:٢٩ - ٣٢ - ٣٨]، [القصص:٣٨].

---

(١) انظر مادَّة: (ملأ) في (لسان العرب) (١٥٨/١)، تاج العروس (٤٣٧/١)، تهذيب اللغة (٢٩٠/١٥).

(٢) انظر مادَّة: (ملأ) في (المصباح المنير) (٢٩٩/١)، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، فصل اللام، مادَّة: (ملأ) (ص:٦٧٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٨٠/٤)، وانظر: فتح القدير (٣٧/٣).

(٤) روح المعاني (٢٥٠/١٢).



الثاني عشر: ﴿..يَا عِبَادِ...﴾ [الزُّمر:١٠]..، ﴿يَا عِبَادِىَ..﴾ [العنكبوت:٥٦]:

والخطاب بهذه الصِّيغة يدلُّ على عبوديَّة الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الإنسان قد خلق لأجل ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِـنَّ وَالإِنْـسَ إلا لِيَعْبُـدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، كما يدلُّ على العناية بأمر هذا المخلوق، وقد دلَّ على ذلك الإضافة إلى (ياء المتكلِّم)[1]..وكذلك النِّداء بـ: (يا) حيث سبق بيان ما فيه من الحكم الكثيرة، والتي يستفاد منها العناية بأمر المخلوق.

١ – ﴿يَا عِبَادِىَ﴾:

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضًا: [٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[العنكبوت:٥٦]، [الزُّمر:٥٣].

٢ – ﴿يَا عِبَادِ﴾:

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٣].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضًا: [٣].

وهي على النَّحو الآتي:

[الزُّمر:١٠ – ١٦]، [الزُّخرف:٦٨].

وهذا بالنِّسبة لقراءة حفص عن عاصم، أمَّا بيان القراءات فقد قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا عِبَـادِىَ الذيـنَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِـعَةٌ فَإِيَّـاىَ

(١) قد سبق بيان ما أضيف من المنادَى إلى النَّفس في صيغة الخطاب بـ: ﴿..يَا قَوْمِ..﴾.



فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]. "قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابنُ عامر: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بتحريك الياء، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيُّ بإسكانها"(١). قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:٥٣]: "قرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدريُّ وابن محيصن والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وخلف: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بإسكان الياء، وفتحها الباقون"(٢). وقال أيضًا: "قرأ الجمهور: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وروى أبو بكر عن عاصم أنَّه يقف بغير ياء"(٣). وقال عند تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزُّخرف:٦٨] "قرأ نافع وابنُ عامر وأبو عمرو: ﴿يا عبادى﴾ بإثبات الياء ساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو بكر وزرٌّ بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين"(٤).

وقد جاء توجيه هذه القراءات في (الحُجَّة): "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:٥٦]، ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:٥٣] يقرآن بإثبات الياء وحذفها، فالحجَّة لمن أثبت أنَّه أتى بالكلام على أصله؛ لأنَّ أصل كلِّ ياءٍ الإثبات، والفتح لالتقاء السَّاكنين، والحُجَّة لمن أسكنها وحذفها لفظًا أنَّه اجتزأ بالكسرة منها وحذفها؛ لأنَّ بناء النِّداء على الحذف، والاختيار لمن حرَّك الياء بالفتح أن يقف بالياء؛ لأنها ثابتة في السَّواد"(٥).

وجاء في موضع آخر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ يقرأ بحذف الياء وإثباتها، فالحُجَّة لمن حذف أنَّه استعمل الحذف في النِّداء لكثرة دوره في الكلام، والحُجَّة لمن أثبت أنَّه أتى به على الأصل"(٦).

---

(١) زاد المسير (٣/٤١٢).

(٢) فتح القدير (٤/٢٤٣)، وانظر: تفسير القرطبي (١٣/٣٥٨).

(٣) فتح القدير (٤/٥٣٩).

(٤) المصدر السابق (٤/٦٤٥).

(٥) الحُجَّة في القراءات السَّبع (١/٢٨١).

(٦) المصدر السابق (١/٣١٠).



والحاصل أنَّ في هذه الصِّيغة ما يدلُّ على أنَّ الإنسان مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ قد أُمِر بعبادته حتَّى يتحقَّق فيه معنى التَّكليف المتفرِّع عن العبوديَّة..، وفيها ما يدلُّ على العناية بأمر هذا المخلوق -كما أسلفتُ- من دلالة الإضافة إلى (ياء المتكلِّم)، والنِّداء بـ: (يا)..وقد كرَّمَ الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان، وأنعم عليه بالنِّعم الكثيرة، وكلَّفه إلى حين، فإذا مات استراح من التَّكليف، وانقلب إلى ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ له من النَّعيم الدَّائم في دار الخلد والكرامة.

وإذا جحد وخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ فقد بيَّن له العاقبة والمآل..، والله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بعباده يغفرُ لهم الذُّنوب، ويضاعفُ لهم الأجور..

ويجمع بين البشر العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، والبنوَّةُ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجميع النَّاس متساوون في أصل الكرامة الإنسانيَّة، وفي أصل التَّكليف والمسؤوليَّة، دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللَّون أو اللُّغة أو الجنس أو الوضع الاجتماعيِّ أو غير ذلك من الاعتبارات. وإنَّ العقيدة الصَّحيحة هي الضَّمان لنمو هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان..

وفي الآيات أيضًا إيماءٌ إلى بُعد درجة العبوديَّة عن مرتبة الألوهيَّة. فينبغي على المكلَّف أن يكون على بصيرة إلى ما بين خصائص الألوهيَّة وخصائص العبوديَّة من البون الشَّاسع، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد مدَّ لهذا المخلوق جسور الأمل فكان قريبًا منه...

وفي هذه الآيات أيضًا التَّلويح إلى غفلةِ كثيرٍ من البشر عمَّا يحقِّق لهم العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، وهو طريق السَّعادة، والحياة الطَّيِّبة، والجزاء الحسن. وأنَّ لهذا التَّكليف حِكمٌ قدَّرها الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يكون العبدُ متحقِّقًا بوصف العبوديَّة إلا بأصلين عظيمين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: متابعة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حينئذٍ يرتقي في مدارج العبوديَّة ومسالك الطَّاعات إلى سدَّة السَّعادة والنَّجاة.



الثالث عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ..﴾ [المؤمنون:٥١]:

١ - بيان المعنى:

لقد جاء الخطاب هنا موجَّهًا إلى الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ بصيغة النِّداء: (يا)، وأستعرض هنا بعض أقول المفسِّرين في بيان المراد من النِّداء هنا، وما يذكر هنا يكمِّل ما ذكر في (تنوُّع وجوه المخاطَبات).

فقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنهم لم يخاطَبوا دفعةً، بل خُوطِبَ كلٌّ منهم في زمانه بصيغةٍ مفردة؛ لأنهم أرسلوا في أزمنةٍ مختلفة[1]. وفي (تفسير أبي السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "فإنَّ هذا الخطاب قد حُكِي لنا بصيغة الجمع مع أنَّ كلًّا من المخاطَبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب؟"[2]. وقيل: هذا خطاب للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمراد به أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ كأنَّه أخبر أنَّه قد قال لجميع الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ قبله هذا القول، وأمرهم بهذا، والمعنى: كلوا من الحلال[3].

والحاصل أنَّ ظاهر قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ خطاب مع كلِّ الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولكنَّ ذلك غير ممكن؛ لأنَّهم أرسلوا متفرِّقين في أزمنة متفرِّقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم؟ فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه:

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٧٦/٤)، روح المعاني (٢٣٩/١٢)، الكشاف (٣٤/٣)، البحر المديد (٥٨٠/٣)، تفسير ابن عادل (٢٢٥/١٤)، تفسير البيضاوي (٨٩/٤)، السِّراج المنير (٥٨٢/٢)، تفسير النَّسفي (٤٧١/٢)، تفسير النَّيسابوري (١٢٢/٥).

(٢) تفسير أبي السُّعود (١٨/٦)، وانظر: البحر المديد (٣٩٠/٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٢٣٦/٨).

(٣) انظر: تفسير الوجيز، للواحدي (٧٤٨/٢)، تفسير الطبري (٤٠/١٩)، معاني القرآن وإعرابه (١٥/٤)، القرطبي (١٢٨/١٢).

أحدها: أنَّ المعنى الإعلام بأنَّ كلَّ رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى، ووصِّى به؛ ليعتقد السَّامع أن أمرًا نودي له جميع الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ووصُّوا به حقيقٌ بأن يؤخذ به ويعمل عليه[١].

وهو الرَّاجح -كما سيأتي-.

وثانيها: أنَّ المراد نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: (أيُّها القوم كفُّوا عني أذاكم)، ومثله: ﴿الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وهو نعيم بن مسعود[٢].

وثالثها: وهو قول الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]، واختاره الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤] أنَّ المراد به عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطَّعام والشَّراب؛ ولأنَّه روى أنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يأكل من غزل أمِّه. والمعنى: وقلنا لعيسى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ كلوا من الحلال الذي طيَّبه الله عَزَّ وَجَلَّ لكم دون الحرام، ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ كما يقال للواحد: (أيُّها القوم كفُّوا عني أذاكم).

---

(١) انظر: الكشاف (٣/٣٤)، تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨٠)، البحر المحيط (٧/٥٦٦)، ابن عادل (١٤/٢٢٥)، تفسير النَّسفي (٢/٤٧١)، تفسير النَّيسابوري (٥/١٢٢-١٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢/١٩١)، تفسير القرطبي (١٢/١٢٧)، الرازي (٥/٣٣١)، تفسير مقاتل (١/٣١٦)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١١/٢٥٢)، بحر العلوم (١/٢٦٦)، الكشف والبيان (٢/١١٣)، النكت والعيون (١/٢٦١)، السمعاني (١/٣٨٠)، البغوي (١/٤٣٥)، زاد المسير (١/٣٤٩)، فتح القدير (١/٤٥٨). وتوجيه هذا القول كما في (المحرَّر الوجيز) أن يكون الخطاب لمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرج بهذه الصِّيغة ليفهم وجيزًا أنَّ هذه المقالة قد خوطب بها كلُّ نبيٍّ أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لتاجر: (يا تُجَّار ينبغي أن تجتنبوا الرِّبا) فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أنَّ هذه المقالة تصلح لجميع صنفه. انظر: المحرَّر الوجيز (٤/١٤٦)، وانظر: تفسير القرطبي (١٢/١٢٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/١٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٩/٤٠)، الدر المنثور (٦/١٠٢)، ابن كثير (٥/٤٧٨)، تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨١)، الهداية إلى بلوغ النِّهاية، لمكي (٧/٤٩٧٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/١٥)، السمعاني (٣/٤٧٨)، البغوي (٣/٣٦٧)، زاد المسير (٣/٢٦٤)، فتح القدير (٣/ ٥٧٧).



٢ - التَّرجيح:

أمَّا التَّرجيح بين هذه الأقوال فإنِّي أرى ترجيح القول الأوَّل؛ لأنَّه أوفق للفظ الآية؛ ولأنَّه روي عن أمِّ عبد الله أخت شدَّاد بن أوس[١] أنها بعثت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدح من لَبَن في شدَّة الحرِّ عند فطره وهو صائم فردَّه الرَّسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وقال: ((**من أين لك هذا؟**))، فقالت: من شاة لي، ثمَّ ردَّه، وقال: ((**من أين هذه الشَّاة؟**))، فقالت: اشتريتها بمالي فأخذه. ثمَّ إنها جاءته وقالت: يا رسول الله لم رددتَّه؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بذلك أمرت الرُّسل أن لا يأكلوا إلا طيِّبًا، ولا يعملوا إلَّا صالحًا**))"[٢].

ويتبيَّن مما سبق ما لذلك الخطاب القرآني الذي جاء بصيغة النِّداء (يا) من أثر على الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ينعكس على أمَّةِ كلِّ رسولٍ منهم منهجًا وعملًا وتطبيقًا؛ لأنهم الأسوةُ في ذلك عَلَيْهِمُ السَّلَامُ...

٣ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون:٥١] ففيه وجهان:

---

(١) هي أمُّ عبد الله بنت أوس الأنصاريَّة أخت شدَّاد بن أوس. لها صحبة. انظر: الإصابة (٨/٢٥٠)، وانظر: الثِّقات، لابن حبَّان (٣/٤٦٣)، معرفة الصَّحابة (٦/٣٥٢٩).

(٢) والحديث حسن، أخرجه الطبراني [٤٢٨]، والحاكم [٧١٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، عن أمِّ عبد الله أخت شدَّاد بن أوس. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ في (مجمع الزَّوائد) (١٠/٥٢١): "فيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف". وأخرجه أيضًا: أحمدُ في (الزهد) (ص:٣٩٨)، والطبراني في (مسند الشَّاميين) [١٤٨٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/١٠٥). قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الحاكم: صحيح فردَّه الذَّهبي بأنَّ أبا بكر بن أبي مريم راويه واه" التَّيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (٢/١٩٣).



الأوَّل: أنَّه الحلال. وقيل: طيِّبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال الذي لا يعصى الله عَزَّوَجَلَّ فيه، والصَّافي الذي لا ينسى الله عَزَّوَجَلَّ فيه، والقوام ما يمسك النَّفس ويحفظ العقل(١).

والثَّاني: أنَّه المستطاب المستلذُّ من المأكل والفواكه(٢).

وقال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، تعقيبًا على قول ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: -الطَّيب هنا يجمع الحلالَ المستلذَّ، والآية تشيرُ بتبعيض (من) إلى أنَّ الحرام رزقٌ-. قال ابن عرفة: وجه دلالتها على ذلك من المفهوم؛ لأنَّ مفهومه أنَّ البعض الآخر، وهو الذي ليس بحلالٍ ولا مستلذٍّ غير مأذون فيه.

وعادتهم يوردون هنا سؤالًا وهو أنَّه قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ولم يقل: (مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) مع أنَّ تلك خطابٌ للرُّسل (فهو كان يكون) أولى بهذا اللَّفظ؟ وعادتهم يجيبون بوجيهين:

الأوَّل: أمَّا إذا قلنا: إنَّ الرِّزق لا يطلق إلا على الحلال فنقول: لما كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ معصومين أُمروا أمرًا مطلقًا من غير تعيين الحلال، وغيرهم ليس بمعصوم، فقيِّدَ الإذنُ في الأكل له بالحلال فقط، فيكون الطَّيب على هذا المراد به: المستلذُّ.

الجواب الثَّاني: الرُّسل في مقام كمال التَّوحيد، ونسبة كلُّ الأشياء إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وأمَّا غيرهم فليس كذلك فقد يذهل حين اقتطاف الثَّمرة، ويظنُّ أنها من الشَّجرة، ويغفل عن كون الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أخرجها منها وأنبتها فقيل لهم: ﴿كُلُواْ مِن

---

(١) انظر: الكشاف (٣٤/٣)، تفسير البيضاوي (٨٩/٤)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٤/٦)، السِّراج المنير (٥٨٢/٢)، تفسير الرَّازي (٢٨١/٢٣)، غرائب القرآن (١٢٣/٥)، الكليَّات (ص:٤٠٠).

(٢) انظر: المحرَّر الوجيز (٥٦٦/٤)، تفسير الرَّازي (٢٨١/٢٣)، تفسير ابن عادل (٢٢٦/١٤)، الخازن (١٤٠/١)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٣٠٧/٣).



طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ حتَّى يعتقدوا حين التَّناول أنَّ ذلك الرِّزق كلُّه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وليس للمتسبِّب فيه صنع بوجه[1].

قال الرَّازي رَحِمَهُٱللَّهُ: "فبيَّن عَزَّوَجَلَّ أنه وإن ثقل عليهم بالنُّبوَّة وبما ألزمهم القيام بحقِّها، فقد أباح لهم أكل الطَّيبات كما أباح لغيرهم. واعلم أنَّه سبحانه كما قال للمرسلين: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فقال للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، واعلم أن تقديم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُواْ مِنَ الطيبات﴾ على قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ كالدِّلالة على أنَّ العمل الصَّالح لا بدَّ وأن يكون مسبوقًا بأكل الحلال، فأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2] فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به، وإذا كان ذلك تحذيرًا للرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ مع علوِّ شأنهم فبأن يكون تحذيرًا لغيرهم أولى"[3].

٤ - إجمال النَّتائج المستفادة:

أ. خطاب الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ بصيغة النِّداء (يا) هو من تنوُّع أساليب الخطاب في القرآن الكريم باعتبار المخاطَبين.

ب. إنَّ خطابهم لم يكن دفعةً واحدة، وإنما خوطب كلُّ واحد منهم في زمانه على أصحِّ الأقوال.

ج. توضيح أثر ما ولي أداة النِّداء (يا)، وما ولي المنادى (الرُّسل) على الرُّسل أنفسهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

د. توضيح أثر ما ولي أداة النِّداء (يا) على أمَّةِ كلِّ رسول منهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

هـ. إنَّ الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أسوةٌ لأممهم في الامتثال والعمل والتَّطبيق.

و. إنَّ لهذه الأسوة أثرٌ في تفعيلِ الخطاب بالنِّسبة للمخاطَبين.

---

(١) تفسير ابن عرفة (١/٥٠٥– ٥٠٦).

(٢) وهو ما ختمت به الآية، أعني: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾.

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨١)، تفسير ابن عادل (١٤/٢٢٦)، الخازن (٣/٢٧٣).

ز. إنَّ ما خوطبوا به مما اتفقت عليه الشَّرائع، وذلك يدلُّ على أهميَّة ما خوطبوا به، فهم متَّفقون على إباحة الطَّيبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متَّفقون على كلِّ عملٍ صالح وإن تنوَّعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشَّرائع، فإنها كلُّها عملٌ صالح، ولكن تتفاوتُ بتفاوتِ الأزمنة؛ ولهذا فإنَّ الأعمال الصَّالحة قد اتَّفقت عليها الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما جاؤوا به الشَّرائع فيها صلاحٌ للأمم، كالأمر بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاص الدِّين له، ومحبَّته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصِّدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبرِّ الوالدين، والإحسان إلى الضُّعفاء والمساكين واليتامى، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

ح. إنَّ ما خوطبوا به ينعكس أثره على أممهم، حيث يتنبَّه المخاطَبون إلى أنَّ أمرًا نودي له جميع الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ووصُّوا به حقيقٌ بأن يؤخذ ويعمل به.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: [المؤمنون:٥١].

الرابع عشر: ﴿...يَا أَهْلَ يَثْرِبَ...﴾ [الأحزاب:١٣]:

ولا بدَّ من الرُّجوع إلى الآية للإحاطة بما يتعلَّق بهذه الصِّيغة من معنى، حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ أنَّثَ الفعل إشارة إلى رخاوتهم وتأنثهم في الأقوال والأفعال ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾، أي: قوم كثير من موتى القلوب ومرضاها يطوف بعضهم ببعض، ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عدلوا عن الاسم –الذي وسمها به النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من (المدينة) و(طيبة) مع حسنه– إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديمًا مع احتمال قبحه باشتقاقه من (الثَّرب)



الذي هو اللَّوم والتَّعنيف إظهارًا للعدول عن الإسلام يقال: (ثرب عليه ثربًا)، و(أثرب)، بمعنى: (ثرب تثريبًا) -إذا لامه وعيَّره بذنبه وذكَّره به[1]. وأكَّدوا بنفي الجنس لكثرة مخالفتهم في ذلك فقالوا: ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾، أي: قيامًا أو موضع قيام تقومون به -على قراءة الجماعة بالفتح، وعلى قراءة حفص بالضَّمِّ-[2] المعنى: لا إقامةَ أو موضع إقامةٍ في مكان القتال ومقارعة الأبطال، ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هرابًا، وكونوا مع نسائكم أذنابًا، أو إلى دينكم الأوَّل على وجه المصارحة لتكون لكم عند هذه الجنود يد"[3] إلى آخر ما ذكره.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: الأحزاب: [١٣].

---

(١) وقد جاءت هذه المعاني مختصرة في (مختار الصِّحاح): "(الثَّرب): شحم قد غشي الكرش والأمعاء رقيق، و(التَّثريب): التَّعبير والاستقصاء في اللَّوم، و(ثرب عليه تثريبًا) قبح عليه فعله، و(يثرب) مدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". مختار الصِّحاح، مادَّة: (ثرب). وزاد في (المغرب): "وهي مخصوصة بالحمى ". المغرب، مادَّة: (ثرب). وقد جاء مفصَّلًا في (لسان العرب)، مادَّة: (ثرب). وإن ذلك يدلُّ على أنهم عدلوا عن الاسم الذي وسمها به النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من (المدينة) و(طيبة) مع حسنه إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديمًا مع احتمال قبحه كما ذكر البقاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ في (نظم الدُّرر) (٨٣/٦).

(٢) وفي (الإتحاف): "واختلف في ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣] فحفص بضمِّ الميم الأولى اسم مكان من (أقام)، أي: لا مكان إقامة، أو مصدرًا منه، أي: لا إقامة. وقرأ بالضَّمِّ في ثاني (الدُّخان): ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدُّخان:٥١] نافع وابن عامر وأبو جعفر، وافقهم الأعمش والباقون بالفتح فيهما مصدر قام، أي: لا قيام أو اسم مكان منه، أي: لا مكان. وأجمعوا على فتح الأوَّل من (الدُّخان): ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدُّخان:٢٦]..". إتحاف فضلاء البشر (ص:٤٥٢)، وانظر: معاني القرآن، للنَّحاس (٣٣١/٥)، إبراز المعاني (٦٤٧/٢)، معاني القرآن، للزَّجاج (٢١٩/٤)، البحر المحيط (٤٦٠/٨)، تفسير أبي السعود (٩٤/٧)، روح المعاني (١٥٧/١١).

(٣) بقليل من التَّصرف عن (نظم الدُّرر) (٨٣/٦).

الخامس عشر: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب:٣٢]:

١ - بيان المعنى:

سبق بيان أنَّه من نداء النِّسبة، وهو من المضاف إلى الخاصِّ إضافة تدلُّ على التَّشريف. وفيه "تلوين للخطاب وتوجيه له إليهنَّ[١]؛ لإظهار الاعتناء بنصحهنَّ ونداؤهنَّ ههنا، وفيما بعد بالإضافة إليه عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهنَّ من الأحكام، واعتبار كونهنَّ نساء في الموضعين أبلغ من اعتبار كونهنَّ أزواجًا كما لا يخفى على المتأمِّل"[٢].

وقد جاء في تمام معنى الآية -أعني: قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب:٣٢] - ما يدلُّ على مكانة نساء النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأهميَّة الخطاب إليهنَّ بهذه الصِّيغة، وبهذا الوصف، وبهذه الإضافة التي تدلُّ على التَّشريف.

ولم يقل: كواحدة؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنَّث[٣]، فالمعنى: كجماعات من جماعات النِّساء إذا تقصيت أمَّة النِّساء جماعةً جماعة لم توجد فيهنَّ جماعةٌ تساويكنَّ في الفضل، لما خصَّكُنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ به من قربة بقرب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزول الوحي الذي بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ في بيوتكنَّ[٤].

"و(النِّساء) اسم جمع للمرأة لا واحد له من لفظه، والمراد به هنا: الأزواج. وإطلاق النِّساء على الأزواج شائع بالإضافة كثيرًا، نحو: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وبدون

---

(١) حيث جاء بعد قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب:٢٨ - ٢٩].

(٢) روح المعاني (١٤٨/٢١)، تفسير أبي السُّعود (٧ /١٠١).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٦٣٥/٣)، الكشف والبيان (٣٤/٨)، ابن عادل (٥٤٣/١٥)، السراج المنير (٢٤٢/٣).

(٤) انظر: نظم الدُّرر (٦/ ١٠١).



إضافة مع القرينة كما هنا، فالمراد: اعتزلوا نساءكم، أي: اعتزلوا ما هو أخصُّ الأحوال بهنَّ، وهو المجامعة"[1].

قال الإمام الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكان ممَّا خصَّ اللَّهُ به نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، فحرَّم نكاح نسائه من بعده على العالمين، وليس هكذا نساء أحدٍ غيره. وقال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فَأَبَانَهُنَّ به مِنْ نساء العالمين. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، مثل ما وصفتُ من اتِّساع لسان العرب، وأنَّ الكلمة الواحدة تجمع معاني مختلفةً، وَممَّا وَصَفْتُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَحْكَمَ كثيرًا من فرائضه بوحيه، وسنَّ شرائعَ واختلافها، على لسان نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي فعله. فقوله: ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ يعني في معنى دون معنى، وذلك أنَّه لا يحِلُّ لهم نكاحهنَّ بحال، ولا يحرم عليهم نكاحُ بناتٍ لو كُنَّ لهنَّ كما يحرم عليهم نكاح بنات أمَّهاتهم اللاَّتي ولدنهم، أو أرضعنهم. وذكر الحجَّة في هذا، ثمَّ قال: وقد ينزل القرآن في النَّازلة ينزل على ما يفهمه من أنزلت فيه كالعامَّة في الظَّاهر، وهي يراد بها الخاصُّ والمعنى دون ما سواه. والعرب تقول للمرأة: (تَرُبُّ أَمْرَهُمْ): (أُمُّنَا وَأُمُّ الْعِيَالِ)، وتقول كذلك للرَّجل يتولَّى أن يَقُوتَهُمْ: (أُمُّ الْعِيَال)، بمعنى أنَّه وضع نفسه موضع الأُمِّ التي تَرُبُّ أَمْرَ الْعِيَال"[2].

٢ – ومما سبق يتبيَّن ما يلي:

أ. إنَّ النِّداء إليهنَّ يشتمل على الاعتناء بالنُّصح لهنَّ، وتظهر أهميَّة النِّداء إليهنَّ بهذه الصِّيغة، وبهذا الوصف، وبهذه الإضافة.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢/ ٣٦٦).

(٢) أحكام القرآن، للشَّافعي (١/١٦٧–١٦٩).



ب. الإضافة يترتب عليها أحكام تخصهنَّ.

ج. الإضافة هنا إضافة تشريف.

د. تُظهر الإضافة ما خُصَّ به نساء النَّبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ من الفضل.

هـ. توضيح التَّشبيه في الآية، وبيان أنَّه تشبيه السَّلب في النُّزول لا في العلوّ.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي: [الأحزاب:٣٠ – ٣٢].

السادس عشر: ﴿..يَا قَوْمَنَا....﴾ [الأحقاف:٣٠– ٣١]:

١ – وقد جاءت هذه الصِّيغة في الخطاب القرآني على لسان الجنِّ مرَّتين: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف:٣٠ – ٣١].

٢ – وتدلُّ الآيتان على:

أ. وجود الجنِّ.

ب. سماع الجنِّ للقرآن الكريم، أنهم مخاطَبون به، ويدلُّ على ذلك أنهم أنذروا قومهم.

ج. إثباتُ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إلى الجنِّ كما أنَّه مرسلٌ إلى الإنس، ويدلُّ على ذلك أيضًا ما سبق من تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:١٣٠].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي: [الأحقاف:٣٠ – ٣١].



السابع عشر: ﴿....يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]:

١ – بيان المعنى:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ أي: إن الخطاب المنزَّل يعقله وينتفع به أصحاب البصائر السليمة النافذة، والعقول الراجحة. وتمام الآية: ﴿هُوَ الذى أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

أي: تدبَّروا وانظروا فيما نزل بقريظة والنَّضير[١]، فقايسوا فعالهم، واتَّعظوا بالعذاب الذي نزل بهم. و(العبر): جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان، ويعمل به، ويعتبر ليستدلَّ به على غيره. و(العبرة): الاعتبار بما مضى. وقيل: (العبرة): الاسم من الاعتبار. والعرب تقول: (اللهمَّ اجْعَلْنا ممَّن يَعبَرُ الدُّنيا ولا يَعْمُرُها)، أي: ممَّن يعتبر بها، ولا يموت سريعًا حتَّى يرضيك بالطاعة[٢].

و"(العبرة) بالكسر: الاسم من الاعتبار، وبالفتح: تحلب الدَّمع، وعَبِر الرَّجل والمرأة والعين من باب: (طَرِبَ)، أي: جرى دمعه، والنَّعت في الكلِّ عابر، واستعبرت عينه أيضًا، و(العبران) الباكي.."[٣].

---

(١) كانت في (يثرب) منهم ثلاث قبائل مشهورة: ١- (بنو قَيْنُقَاع): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل (المدينة). ٢- (بنو النَّضِير): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). ٣- (بنو قُرَيْظة): وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٣٢٦/٤)، البداية والنِّهاية (٩٢/٤).

(٢) انظر: لسان العرب، مادَّة: (عبر) (٥٢٩/٤). تاج العروس (٥٠٧/١٢)، القاموس المحيط (ص:٥٩٩).

(٣) مختار الصحاح، مادَّة: (عبر) (ص:٤٦٧)، وانظر: لسان العرب، (٥٢٩/٤)، تاج العروس (٥٠٥/١٢)، والصحاح (٧٣٢/٢)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٥٢/١٢)، عمدة القاري، للعيني (١٢٦/٢٤).



أمَّا (الاعتبار) فهو الحالة التي يُتَوصَّل بها من معرفَة المشَاهد إلى ما ليس بمُشَاهَدٍ[1]. أو هو التَّدبر وقياس ما غاب على ما ظهر. ويكون بمعنى: (الاختبار والامتحان)، [نحو] عَبَرْتُ الدَّراهم واعتبرتها فوجدتها ألفًا. وبمعنى: (الاتعاظ) نحو: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، وبمعنى: (الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم) نحو قول الفقهاء: (الاعتبار بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدُّم به[2]. و(العبرة) و(الاعتبار): الاتِّعاظ، أو الاعْتِبارُ بما مَضَى. وتكون بمعنى: الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم، نحو قولهم: (العبرة بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدم بالعقب كذا في (المصباح)[3].

وقيل: المجاوزة من عدوة دنيا إلى عدوة قصوى، ومن علم أدنى إلى علم أعلى، ففي لفظها بما ينالون من ورائها مما هو أعظم منها إلى غاية العبرة العظمى[4].

٢ – الاستدلال بالآية على القياس:

وقد استدلَّ جمعٌ من المفسِّرين بهذه الآية على الاحتجاج القياس..[5].

---

(١) وقال المفسِّرون: (الاعتبار) هو النَّظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها. والاعتبار له مفاهيم مختلفة، وتتعدَّد هذه المفاهيم بتعدُّد الفنون. انظر: الكليات (ص:١٤٧-١٤٨).

(٢) انظر: التَّعاريف (ص:٧٣-٧٤)، وتاج العروس، مادَّة: (عبر) (٥١١/١٢).

(٣) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (عبر) (٣٨٩/٢-٣٩٠)، وكذلك التَّعاريف (ص:٥٠١)، وانظر: بغية المسترشدين، لعبد الرَّحمن باعلوي الحضرمي، الشَّافعي (ص:١٤٥).

(٤) انظر: التَّعاريف (ص:٥٠١)، وانظر: نظم الدرر (٣٣/٢).

(٥) انظر: روح المعاني (١٢٢/٤)، (٤١/٢٨)، تفسير البيضاوي (٥/ ١٩٨)، التحرير والتنوير (٧٢/٢٨)، تفسير النسفي (٤٥٦/٣)، تفسير أبي السعود (٢٢٦/٨)، تفسير السمعاني (٣٩٧/٥)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٧/١٤- ٥٨)، نظم الدُّرر (٥١٣/٧)، تفسير ابن جزي (٣٥٨/٢). قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية في كتاب: (المحصول من أصول الفقه) على أن القياس حجة". تفسير الرازي (٥٠٣/٢٩).



ورأى غيرهم أنها لا تدلُّ على القياس[1]، وهي مسألة مختلف فيها، وهي مبسوطة في كتب أصول الفقه.

ويذكر ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ "بعض المواضع يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريحٍ بذكر الفرع، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦]؛ فإنَّ هذا يحتاج إلى تفكُّر؛ ولهذا سأل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنها من حضره من الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فأجابه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بالجواب الذي أرضاه[2].

ونظير ذلك ذكر القصص؛ فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها؛ لأنَّ كل إنسان له في حالة منها نصيب، فيقال فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]، ويقال عقب حكايتها: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]، ويقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٣]، والاعتبار هو القياس بعينه.

---

(١) ومنهم ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)، حيث قال: "استدلَّ الذين أثبتوا القياس في الفقه بهذه الآية، واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها..". تفسير ابن جزي (١٠٧/٤)، وانظر: المحلى، لابن حزم (٣٦٤/٩)، روضة الناظر (٢٨٥/١– ٢٨٦).

(٢) روى البخاري عن عبيد بن عمير، قال: قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا لأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: ((قولوا نعلم أو لا نعلم))، فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: ((يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك))، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ((أي عمل؟))، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لعمل، قال عمر: ((لرجل غني يعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله)). صحيح البخاري [٤٥٣٨]. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ تذييل، أي: كهذا البيان الذي فيه تقريب المعقول بالمحسوس بين الله عَزَّوَجَلَّ نُصحًا لكم؛ رجاء تفكركم في العواقب حتى لا تكونوا على غفلة.



كما قال ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما سئل عن (دية الأصابع) فقال: هي سواء[1]. واعتبروا ذلك بالأسنان، أي: قيسوها بها، فإنَّ الأسنان مستوية الدِّية مع اختلاف المنافع، فكذلك الأصابع. ويقال: اعتبرت الدَّراهم بالصَّنْجَة[2] إذا قدَّرتها بها"[3].

قال الإمام المطرزي رَحِمَهُٱللَّهُ في (عنوان الأصول): "والقياس حجة؛ لقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا﴾ [الحشر:٢][4]؛..

---

(١) واستدلَّ على ذلك بروايات منها ما جاء في صحيح البخاري [٦٨٩٥] عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: ((هذه وهذه سواء)) يعني: الخنصر والإبهام.

(٢) (الصَّنْجَة): الميزان -بفتح فسكون- ما يوضع في الميزان مقابل ما يوزن لمعرفة قدره. وقد تنطقُ بالسِّين بدل الصَّاد، وهي فارسيَّة الأصل. وكلُّ كلمة لا يكون فيها حرف من (حروف الإذلاق) -وهي: (فرَّ من لبٍّ)-، فهي كلمة غير عربيَّة أصلا، أي: معربة. ومن هذه الكلمات: (الصنجة). وفي (مختار الصِّحاح): "صَنْجَة الميزان: ما يوزن به معرب ولا تقل سنجة". مختار الصحاح، مادة: (صنج) (ص:٣٧٥). وفي (الموسوعة الفقهية الكويتية): "(الصَّنْج) لغة: شيء يُتَّخَذ من صفرٍ يُضربُ أحدهما على الآخر وآلة بأوتارٍ يضرب بها، ويقال لما يُجعل في إطار الدُّفِّ من النُّحاس المدوَّر صغارًا: (صُنُوج) أَيْضًا. ويؤخذ من استعمالات الفقهاء للفظ: (الصَّنْجَة) أنَّ المراد بها عندهم: قطعٌ مَعْدِنِيَّةٌ ذاتُ أَثْقَالٍ محدودة مختلفة المقادير يوزن بها. الموسوعة الفقهية الكويتيَّة (٢٨/٥).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/٥٧-٥٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم (٥/٣١٧)، المستصفى (١/٢٩٣)، (١/٣٧٠)، الإبهاج (٣/١٠)، (٣/٢٧٤)، أصول السَّرخسي (٢/٩٣)، (٢/١٠٦)، (٢/١٢٥)، المنخول (١/٣٢٩).

(٤) فمن العلماء من يرى أنَّ الاعتبار عامٌّ يشمل كلَّ شيءٍ فيه ردُّ الشَّيء على المثيل سواء في الاتِّعاظ، أو الحكم الشَّرعي فيدخل في ذلك القياس؛ لأنَّه رد الشَّيء إلى شبيهه، وتعديةٌ من أصلٍ إلى فرع. والاستدلال بهذه الآية على القياس مع المناقشة والترجيح مبسوط في كتب الأصول، انظر: أحكام القرآن، للجصَّاص (٥/٣١٧)، أصول السَّرخسي (٢/٩٣) فما بعد، المحلَّى (٩/٣٦٤)، المستصفى (١/٢٩٣) فما بعد، النُّبذة الكافية (ص:٦٢)، الإبهاج (٣/٩) فما بعد، المعتمد (٢/٢٢٣)، شرح التَّلويح (٢/١١)، المحصول (٥/٧٣)، حاشية العطَّار (٢/٢٥٠)، روضة النَّاظر (١/٢٨٥)، قواطع الأدلَّة (٢/٩٢) فما بعد، كشف الأسرار (٢/١٠٨)، (٣/٣٠٦) فما بعد، إرشاد الفحول (١/٣٤٠)، الإحكام، للآمدي (١/٩٠)، (٤/٣٢) فما بعد، الإمام في بيان أدلة الأحكام، للعزِّ بن عبد السَّلام (ص:١٦٣)، الإنصاف، للبطليوسي (ص:١٣٨)، الاجتهاد من كتاب التَّلخيص، لإمام الحرمين (ص:١١٤)، البحر المحيط=



..ولإجماع الصحابة، عَمِلَ به الخلفاءُ الأربعة، ولم ينكره الباقون"[1].

٣ - إجمال النّتائج المستفادة:

وممَّا سبق يتبيَّن أن معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾.

أ. احملوا أنفسكم بالإمعان في التَّأمل في عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ب. الاعتبار أحد قوانين الشَّرع، والسَّعيد من اعتبر بغيره؛ لأنَّه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره.

ج. احتجَّ بالآية مثبتوا القياس فإنَّه مجاوزة من الأصل إلى الفرع، والمجاوزة اعتبار، وهو مأمور به في هذه الآية فهو واجب. ولما كان الاعتبار عظيم النَّفع، لا يحصل إلَّا للكُمَّل، زاده تعظيمًا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا أُولِي الأَبْصَـارِ﴾ بالنَّظر بأبصاركم وبصائركم في غريب هذا الصُّنع؛ لتحقّقوا به ما وعدكم على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إظهار دينه، وإعزاز نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تعتمدوا على غير الله عَزَّوَجَلَّ..[2].

د. الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء؛ ولهذا سمِّيت (العَبْرَة) -بفتح العين-[3] عبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخدِّ. وسمِّي (علم التَّعبير)؛ لأنَّ صاحبه ينتقل من التَّخيل إلى المعقول، وسمِّيت (الألفاظ) عبارات؛ لأنها تنقل المعاني عن لسان القائل إلى عقل المستمع.

=(٢/٣٣٧)، (٤/١٩-٢٠)، والتَّحبير شرح التَّحرير (٢/٥٩٥)، (٧/٣٤٨٢) فما بعد، والتَّقرير والتَّحبير (٣/٣٢٥) فما بعد.

(١) انظر تحقيقنا: سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ] (ص:٢٨١-٢٨٢).

(٢) انظر: نظم الدرر (١٩/٤١١).

(٣) إنَّ العَبْرَة -بفتح العين- ليست هي فقط الدَّمعة، بل الدَّمعة التي تسيل على جزء من الخدِّ بعد أن تجتاز المآقي، و(المآقي): أطراف العين.

هـ. في الآية دعوة إلى التَّأمُّل والنَّظر في سُنَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ودأبه في الأمم السَّابقين واللَّاحقين، والاعتبار بما قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا من نبأهم.

و. إنَّ هذا اللَّون من ألوان الخطاب له أهميَّة عظيمة لا تخفى على كلِّ متأمِّلٍ؛ ولذلك قد سبق إفراده بالدِّراسة والبحث ضمن الموضوعات فيما يتعلَّق من الخطاب بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه.

الثامن عشر: ﴿..يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا...﴾ [الجمعة:٦]:

وتمام الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهو (نداء تنبيه مع ذمٍّ)، والخطاب إلى عامَّة بني إسرائيل.

وقد جاء النِّداء مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاصٍّ منصوصٍ فيه على أنَّه مرسل بقول يبلِّغه، وإلا فإنَّ القرآن كلُّه مأمورٌ بإبلاغه، أي: يا أيُّها الرَّسول الذي هم قاطعون بأنَّه رسوله الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول وستأتي عند ذكر صيغة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]. و﴿هَادُوا﴾: تَابُوا. وقد ذكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) لهذه الكلمة أربعة من المعاني: أحدها: "هَادَ يَهُودُ: تَابَ. الثَّانِي: هَادَ: إذَا سَكَنَ. الثَّالِثُ: هَادَ: فَتَرَ. الرَّابِعُ: هَادَ: دَخَلَ فِي الْيَهُودِيَّةِ.

وقد قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُونُوا هُودًا﴾ [البقرة:١٣٥]، أي: يهُودًا. ثمَّ حذف الياء.

فأمَّا من قال: إنَّه التَّائب يشهدُ لهُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أَي: تُبْنَا، وكلُّ تائبٍ إلى ربِّه ساكنٌ إليه فاترٌ عن معصيته. وهذا معنى متقاربٍ"[١]. وقد

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٢/٢٩٥). وينظر أيضًا مفصَّلًا في (لسان العرب)، مادَّة: (هود) (٣/٤٣٩).



قال الله عَزَّوَجَلَّ في الآية التَّالية: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَـهُ أَبَـدًا بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِـيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٧].

قـال ابـن القـيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتأمَّـل حـرف (لا) كيـف تجـد في نهايتـه ألفًـا يمتـدُّ بهـا الصَّوت ما لم يقطعْه ضيقُ النَّفس فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، ولن يعكس ذلك فتأمَّلْه، فإنَّـه معنى بـديع، وانظـر كيـف جـاء في أفصـح الكـلام، كـلام الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ بحرف (لا) في الموضع الذي اقترن به (حرف الشَّرط) بالفعل، فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُـمْ أَوْلِيَـاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَـوْتَ﴾ كأنَّه يقول: متى زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، وقيل لهم: تمنَّوا الموتَ فلا يتمنَّونه أبدًا. وحرف الشَّرط دلَّ على هذا المعنى، وحرف (لا) في الجواب بإزاء صيغة العموم؛ لاتِّساع معنى النَّفي فيها.."[1].

والحاصـل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بـيَّن أنَّ كـلَّ همِّهـم، وكـلَّ أملهـم الحيـاة الـدُّنيا، وهـم يعرفـون أنهم بعد الموت سينتقلون إلى العذاب بسبب ظلمهم وكفرهم.

ولقد عاين النَّاسُ وأدركوا عظيم جبن اليهود، وكبير حرصهم على الحياة الدُّنيا. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [الجمعة:٦].

التاسع عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا....﴾ [التحريم:٧]:

١ – بيان المعنى:

جاء في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ أنَّه "مقول لقول قد حذف ثقةً بدلالة الحال عليه، يقال لهم ذلك

---

(١) انظر تمام كلامه في (بدائع الفوائد) (١/١٠٢– ١٠٣).

عند إدخال الملائكة إيَّاهم النَّار حسبما أمروا به، فتعريف (اليوم) للعهد، ونهيهم عن الاعتذار؛ لأنهم لا عذرَ لهم؛ أو لأنَّ العذر لا ينفعهم. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنهما أشدَّ النَّهي، وأمرتم بالإيمان والطَّاعة على أتمِّ وجه"(١).

ونظيره في المعنى نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الذين ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧]، ونحو: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية:٣٥].

٢ – النتائج:

وممَّا سبقَ يتبيَّن أنَّ الخطاب إلى الذين كفروا قطعٌ لأعذارهم حتَّى لا تكون لهم حُجَّة. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: فإنَّ هذا اليوم ليس يوم الاعتذار، فقد فات زمان الاعتذار، وصار الأمر إلى ما صار..

وسيأتي مزيد بيان عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [التَّحريم:٧].

العشرون: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ...﴾ [الانفطار:٦]:

١ – بيان المعنى:

أمَّا يتعلَّق بمعنى كلمة (إنسان) فقد سبق في (عموم الخطاب)، وكذلك الخطاب بهذه الصِّيغة.

(١) روح المعاني (١٥٨/٢٨)، وانظر: تفسير أبي السعود (٢٦٨/٨).



وفي الآية ما يدلُّ على أنَّ الإنسان يتميَّزُ عن سائر المخلوقات بهذا الوصف، مكرَّمٌ ومنعم عليه، فيتحتَّم عليه أن يقابل النِّعمة بالشُّكر وأداء ما يجب عليه، وأن لا يتجرأ على عصيان من خلقه، وأنعم عليه بالنِّعم التي لا تحصى، وجعل له الحياة مؤقَّتة، وهي دار اختبار له وامتحان، وأن لا ينخدع بزخرف الدُّنيا وإغواء الشَّيطان.

٢ - إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، أي: "أيُّ شيءٍ خدعك وجرَّأك على عصيانه، وقد علمت ما بين يديك من الدَّواهي التَّامَّة، والعراقيل الطَّامَّة، وما سيكون حينئذٍ من مشاهدة أعمالك كلِّها؟ والتَّعرض لعنوان كرمه عَزَّوَجَلَّ للإيذان بأنَّه ليس ممَّا يصلح أن يكون مدارًا لاغترارِهِ يغويه الشَّيطان، ويقول له: افعل ما شئت فإنَّ ربَّك كريم قد تفضَّل عليك في الدُّنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنَّه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطَّاعة، واجتناب الكفر والعصيان، كأنَّه قيل: ما حملك على عصيان ربِّك الموصوف بالصِّفات الزَّاجرة عنه الدَّاعية إلى خلافه؟!"(١) إلى غير ذلك من الصِّفات التي هي مقرِّرةٌ للرُّبوبيَّة مبيِّنةٌ لكرم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان وكرَّمه ونعَّمه، وما جاء من صيغة النِّداء في خطاب الإنسان تدلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده، ينبِّههم إلى ما فيه الخيرُ لهم. و(ما ولي المنادَى) فيه ما فيه من التَّذكير بالنِّعم، ونلحظ ذلك في الآية السَّابعة من (سورة الانفطار): ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝﴾ [الانفطار:٦ - ٧]، وحيث جاء ذكر الإنسان في (سورة التِّين) قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فقد جاء ذكر (الإنسان) في السَّورتين، وكذلك التَّذكير بالخلق في أحسن تقويم.

---

(١) تفسير أبي السُّعود (٩/١٢١)، وانظر: البحر المديد (٧/٢٥٤).



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾ [التين:١– ٨].

وقد أقسم بذلك على أنَّ الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحًا كان له أجر غير ممنون، وإلا كان في أسفل سافلين، فتضمَّنت السُّورة بيان ما بعث به هؤلاء الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ج. أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي على النَّحو التَّالي: [الانفطار:٦] [الانشقاق:٦].

الحادي والعشرون: ﴿.. يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]:

١ – بيان المعنى:

وقد جاء النِّداء مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾، وذكر العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ "افتتاحها بـ: ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاص منصوص فيه على أنَّه مرسل بقول يبلِّغه، وإلَّا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه، ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول في غير جواب عن سؤال منها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة:٦].

والسُّور المفتتحة بالأمر بالقول (خمس) سور: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ [الجن:١]: سورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوِّذتان، فالثَّلاث الأول لقول يبلِّغه، والمعوِّذتان لقول



يقوله لتعويذ نفسه. وابتدئ خطابهم بالنِّداء لإبلاغهم؛ لأنَّ النِّداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم[1].

والحاصل أنَّهم قد نودوا بوصف الكافرين؛ لأنَّهم كانوا كذلك؛ ولأنَّ في هذا النِّداء تحقيرًا لهم، واستخفافًا بهم، ولبيان أنَّهم ليسوا على شيءٍ، وتحريضًا لهم حتَّى يخرجوا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وفيه أيضًا الإيذان بأنَّه (أي: مبلِّغ الخطاب صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) لا يخشاهم فقد ناداهم بما يكرهون من الوصف، وبما يثيرُ غضبهم، وما ذاك إلَّا ثقةً بالله عَزَّوَجَلَّ الذي عصمه منهم وكفاه أذاهم.

وهنا قد يرد سؤال: "لم قال الله عَزَّوَجَلَّ في (سورة التَّحريم): ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التَّحريم:٧]، ولم يذكر (قل)، وههنا ذكر: ﴿قُلْ﴾، وذكره باسم الفاعل؟ والجواب: الآية المذكورة في (سورة التَّحريم) إنما تقال لهم يوم القيامة، وثمَّة لا يكون الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رسولا إليهم، فأزال الواسطة، وفي ذلك الوقت يكونون مطيعينَ لا كافرين، فلذلك ذكره بلفظ الماضي، وأمَّا ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر، وكان الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رسولا إليهم، فلا جرم قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾"[2].

وهنا أيضا مسألة مهمَّةٌ تتعلَّق بهذه الصِّيغة من الخطاب القرآني، قال: "قوله عَزَّوَجَلَّ ههنا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خطاب مع الكلِّ أو مع البعض؟ الجواب: لا يجوز أن يكون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢]..خطابًا مع الكلِّ؛ لأنَّ في الكفَّار من يعبدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كاليهود والنَّصارى فلا يجوز أن يقول لهم: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ولا يجوز أيضًا أن يكون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣-٥] خطابًا مع الكلِّ؛ لأنَّ في الكفَّار من آمن وصار بحيث يعبدُ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذن وجب أن يُقال:

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ٥٣١).

(٢) تفسير الرَّازي (٣٢/٣٣٠).

إنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خطابُ مشافهةٍ مع أقوامٍ مخصوصينَ، وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة[1].

والحاصل أنَّا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التَّخصيص، ولو حملنا على أنَّه خطابُ مشافهةٍ لم يلزمنا ذلك، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى.

٢ – إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أ. الجمع بين الأمرِ والنِّداء يدلُّ على أهميَّة ما سيلقى إليهم؛ ولإظهار العناية بما بعد القول، فهو أمر مهمٌّ؛ لأنَّه أمر عقدي يقتضي التَّبليغ من المبلِّغ، ويقتضي الاستجابة من المخاطَبين.

ب. لقد سبق أنَّ الخطاب بنحو: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ هو من (خطاب الذَّم)؛ لتضمُّنه الإهانة، ولم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين.

ج. جاء الخطاب هنا مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾ حيث ينفع المكلَّفين الاستجابة للرَّسول المبلِّغ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وفي الآخرة يوم الجزاء ينقطع التَّكليف فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التَّحريم:٧].

د. أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [الكافرون:١].



---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٦٦٢/٢٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣٤٧١/١٠)، القرطبي (٢٢٨/٢٠)، الرازي (٣٣١/٣٢)، الدُّر المنثور (٦٥٤/٨)، تفسير أبي السُّعود (٢٠٦/٩– ٢٠٧)، فتح القدير (٥/ ٥٠٨)، الوجيز، للواحدي (١٢٣٧/٢)، البغوي (٣١٧/٥)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (٣١٠/١).

المطلب الحادي عشر :
النداء من حيث العموم والخصوص

أولًا: نداء الجنس:

ولا بدَّ في البداية في بيان مصطلح: (الجنس).. جاء في (المغرب): "(الجنس) عن أئمَّةِ اللُّغة الضَّرب من كلِّ شيء، والجمع: (أجناس)، وهو أعمُّ من (النَّوع)، يقال: (الحيوان جنس)، و(الإنسان نوع)؛ لأنَّه أخصُّ من قولنا: (حيوان)، وإن كان جنسا بالنِّسبة إلى ما تحته.."[1].

أقول: وعلى ذلك فالجنس –بالكسر– أعمُّ من النَّوع، وهو كلُّ ضرب من الشَّيء، فالإبل جنس من البهائم. وعلى ذلك فإنَّه ينظر إلى (الإنسان) مثلا من منظورين:

الأوَّل: بالنِّسبة لما فوقه فهو نوع.

الثَّاني: بالنِّسبة لما تحته فهو جنس، فيكون النَّوع الذَّكر والأنثى. وهو جنسٌ قريب فلا جنس تحته، وإنما تحته النَّوع. و(الجِنْس) لغة: الضَّرب من كلِّ شيء، وهو أعمُّ من النَّوع[2]. وعلى ذلك فالجنس ثلاثة أقسام: جنس قريب، وهو ما لا جنس تحته، وإنما تحته الأنواع كالإنسان والفرس ونحوهما أو جنس بعيد، وهو ما لا جنس فوقه، وتحته الأجناس كالجوهر –فليس فوقه جنس، وتحته أجناس، وهي الجسم والنَّامي والحيوان–

---

(١) المغرب، مادَّة: (جنس) (١٦٤/١).

(٢) انظر: مادَّة: (الجنس) في كلٍّ من (الصِّحاح) (٩١٥/٣)، لسان العرب (٤٣/٦)، مختار الصِّحاح (ص:١١٩)، المصباح المنير (١١١/١)، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف (ص:٢٥٦)، المغرب (١٦٤/١).



وجنس متوسِّط، وهو ما فوقه جنس وتحته جنس كالجسم فإنَّ فوقه الجوهر، وتحته الحيوان.

وعند (المنطقيين) هو كلِّيٌّ مَقُول على كثيرينَ مختلفينَ بالحقيقة في جواب ما هو؟ مثل: (حيوان) فهو يصدق على أنواعٍ كثيرة مختلفة الحقائق كإنسان وفرس(١).

وبناءً على ما سبق من التَّعريف فإنِّي أستعرض الآيات التي تصلح أن تكون خطابًا للجنس. فقد جاء في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق:٦] أنَّه (خطاب الجنس)(٢). وجاء في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ -بالضَّمِّ- على (خطاب الجنس)؛ لأنَّ النِّداء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ للجنس، نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]؛ فإنَّ المراد جنس النَّاس لا كلَّ فرد، وإلا فمعلوم أنَّ غير المكلَّف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلَّب في خطاب أهل (مكَّة) -كما سبق-(٣).

ورجَّحَ الأصوليُّون دخول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الخطاب بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾(٤).

---

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول (٤٠٩/١)، انظر: التَّعريفات (ص:١٩٣)، شرح السُّلم المنورق للملوي بحاشية الصبَّان (ص:٦٨)، شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم (ص:١٥-١٧)، تسهيلُ المنطق، للبدخشاني (ص:٤٧)، التَّعاريف، للمناوي (ص:٢٥٦)، الحدود الأنيقة (ص:٧٢-٧٣)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثاني (ص:٩-١٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤٣٧/١٠)، البحر المديد (٢٦٩/٧)، تفسير الرَّازي (٣١/ ٩٧ – ٩٨) (١٠٢/٣١)، غرائب القرآن (٤٦٨/٦)، القرطبي (٢٧١/١٩)، روح المعاني (٨٠/٣٠)، التَّحرير والتَّنوير (٢٢١/٣٠)، أضواء البيان (٤٦٨/٨)، ابن عادل (١٠/ ٢٧٨)، الكشاف (٢٣٦/٤)، المحرر الوجيز (٤٥٦/٥)، تفسير النسفي (٦١٩/٣)، تفسير ابن جزي (٤٦٤/٢).

(٣) سبق بيان ذلك في الخطاب المكيِّ والخطاب المدني.

(٤) قال الآمدي رَحِمَهُٱللَّهُ: يدخل الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عمومه عندنا، وعند أكثر العلماء، خلافًا لطائفة من الفقهاء والمتكلِّمين. الإحكام (٢٩٢/٢-٢٩٤)، وفي (المحصول): "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ عامٌّ في حقِّهما، ومنهم من خصَّصه بالأمَّة، قال: لأنَّ منصب الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقتضي إفراده بالذِّكر، وهو باطل؛ لأنَّ اللَّفظ عامٌّ ولا مانع من دخول الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه. وقال الصَّيرفيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: كلُّ خطاب لم يصدَّر بأمر الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتبليغه ولكن ورد مطلقًا فالرَّسول=



وفي القرآن سورتان أولهما: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إحداهما في النِّصف الأوَّل، وهي السُّورة الرَّابعة منه، وهي (سورة النِّساء)، والثَّانية في النِّصف الثَّاني منه وهي (سورة الحجِّ). والأولى تشتمل على شرح المبدأ، والثَّانية تشتمل على شرح المعاد..فتأمَّل هذا التَّرتيب ما أوقعه في البلاغة"(١).

قال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفردات): "والنَّاس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم النَّاس تجوُّزا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانيَّة، وهو وجود العقل والذِّكر، وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصَّة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عدم فعله المختصُّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه، كاليد فإنَّها إذا عدمت فعلها الخاصَّ بها فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السَّرير ورجله. فقوله ﷻ: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٣]، أي: كما يفعل من وجد فيه معنى الإنسانيَّة، ولم يقصد بالإنسان عينًا واحدًا بل قصد المعنى، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]، أي: من وجد فيه معنى الإنسانيَّة أي: إنسان كان"(٢). وقال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وربما قصد به النُّوع كما هو وعلى هذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:٥٤]. قيل في الآية: إنَّ المراد بالنَّاس هو النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: العرب"(٣).

=صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطب به كغيره، وكلُّ ما كان مصدَّرًا بأمر الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغه فذلك لا يتناوله كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [الأعراف:١٥٨]. المحصول (٣/١٩٩-٢٠٠). وفي (اللُّمع): "إذا خوطب النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخطاب خاصٍّ لم يدخل معه غيره إلا بدليل كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل:١-٢]". اللمع (١/٢٢). انظر: المسودة (١/٣٠)، القواعد والفوائد الأصولية (١/٢٠٧)، المستصفى (١/٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢) قواطع الأدلة (١/١٢١)، التقرير والتحبير (١/٢٨٨)، الفصول في الأصول (١/١٣٧).

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٦-٢٢٧).

(٢) مفردات القرآن الكريم، للرَّاغب، مادَّة: (نوس) (ص:٨٢٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٧٦)، الدر المنثور (٢/٥٦٦- ٥٦٧)، روح المعاني (٥/٥٧-٦٢)، تفسير أبي السعود (٢/١٩٠)، النكت والعيون (١/٤٩٦)، المحرر الوجيز (٢/ ٦٨)، البيضاوي (٢/٧٩)، زاد المسير (٢/٤٢١)، (٢/٣٦٤)، (٤/٥٥١)، ابن كثير (٢/٣٣٦)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٣/١٧١)،=



والحاصل أنَّ النَّاس هنا عامٌّ أريد به الخصوص، وهو النَّبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣].

فالنَّاس الأولى عامٌّ أريد به خصوص رجل واحد، وهو (نعيم بن مسعود الأشجعي).

ويتبيَّن مما سبق:

أ. أنَّ نداء الجنس يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد.

ب. أنَّ غير المكلَّف لا يدخل في هذا الخطاب..

ج. أن غير المشافهين بالخطاب يدخلون في الخطاب بالإجماع، لكن هل يدخلون بطريق الحقيقة أم المجاز؟ قولان تقدم بيان الراجح منهما.

ثانيًا: نداء النوع:

أمَّا من حيث ذكر هذا اللُّون من الخطاب، فقد جاء عقب (خطاب الجنس)؛ لأنَّه أخصُّ منه.

وأمَّا ما يتعلَّق بالتَّعريف فقد جاء في (المعجم الوسيط) أنَّ (النَّوع): "الصَّنف من كلِّ شيءٍ"[1]، ويقال: (ما أدْرِي على أيِّ نَوْعٍ هُوَ؟ أي: أيِّ وَجْة).

=الإتقان (٤٣/٢)، البرهان في علوم القرآن (٢٢٧/٢)، أضواء البيان (٣٤٠/٩)، البغوي (٢٥٦/١)، السراج المنير (٣١٠/١).

(١) انظر: مادَّة: (الجنس) في كلٍ من (الصِّحاح) (٩١٥/٣)، لسان العرب (٤٣/٦)، مختار الصِّحاح (ص:١١٩)، المصباح المنير (١١١/١)، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف (ص:٢٥٦)، المغرب (١٦٤/١). ومادَّة: (النَّوع) في (المعجم الوسيط) (٩٦٤/٢)، ومادَّة: (صنف) في (مقاييس اللغة) (٣١٣/٣).



وفي (اصطلاح المناطقة): كُلِّيٌّ مَقُول على واحد أو على كثيرين متفقين في الحقائق في جواب ما هو؟ مثل: (إنسان)، فهو يصدق على أفراد كثيرة متَّفقة الحقائق، كزيد وعمرو(١).

وفي (علم الأحياء): وحدةٌ تصنيفيَّة أقلُّ من الجنس يتمثل في أفرادها نموذج مشترك محدود ثابت وراثي، جمع: أنواع"(٢). وبناءً على ما سبق من تعريف (الجنس) وتعريف (النَّوع) فإنِّي أستعرضُ الآيات التي تصلحُ أن تكون خطابًا للنَّوع.

فقد جاء في (نظم الدُّرر) في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

"لما كان خلق الحيوان أدلَّ على الوحدانيَّة والقهر بما خالف به الجمادات من الحياة التي لا يقدر على الانفكاك عنها قبل أجله، وبما له من أمور اضطراريَّة لا محيص له عنها، وأمور اختياريَّة موكولة في الظَّاهر إلى مشيئته، وكان أعجبه خلقًا الإنسان بما له من قوَّة النُّطق، قال دالا على ما دلَّ عليه بخلق الخافقين لافتا القول إلى (خطاب النَّوع) كلِّه إيذانًا بتأهُّلهم للخطاب، وترقِّيهم في عُلا الأسباب، من غير عطفٍ، إيذانًا بأن كلا من خلقهم وخلق ما قبلهم مستقل بالدِّلالة على ما سيق له: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: أيُّها النَّاس المدعون لإلهية غيره"(٣).

---

(١) انظر: التَّعريفات (ص:٣٠٢)، شرح السُّلم المنورق للملوي بحاشية الصَّبان (ص:٧٠)، تسهيل المنطق، للبدخشاني (ص:٤٦)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثَّاني (ص:٩ – ١٠).

(٢) بقليل من التَّصرف عن (المعجم الوسيط): مادَّة: (نوع) (٢/٩٦٤)، وانظر: تاج العروس (٢٢/٢٨٨).

(٣) نظم الدُّرر١٦ (٦/٤٥٥).



وقد مثَّلَ لخطاب (النَّوع) الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان)، والسُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإتقان)[1] بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، والمراد: بنو يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2].

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روح المعاني) تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:٢٤]: "جَمَعَ الخطاب؛ لأنَّه في قوَّة (خطاب النَّوع)"[3].

أقول: ويمكن أن يقال: إنَّ من (خطاب النَّوع) الآيات التَّالية:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤].

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:٤٧].

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:١٨].

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ [النمل:٢٩، ٣٢، ٣٨]، و[القصص:٣٨].

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠، ٣٢].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦].

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، وانظر: الإتقان (٢/٨٨).

(٢) وإنما صرَّح به للطيفة يقول سيقت في (النَّوع السَّادس) وهو (علم المبهمات). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، الإتقان (٢/٨٨). ويقصد الزَّركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره في (علم المبهمات) في كتابه (البرهان) أنَّه "قد يكون للشَّخص اسمان فيقتصر على أحدهما دون الآخر لنكتة، فمنه قوله عَزَّوَجَلَّ: في (مخاطبة الكتابيين): ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا دون (يا بنى يعقوب)، وسرَّه أنَّ القوم لما خوطبوا بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وذكِّروا بدين أسلافهم؛ موعظةً لهم؛ وتنبيها من غفلتهم، سمُّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ (إسرائيل) اسم مضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ في التَّأويل..، ولما ذكر موهبته لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتبشيره به قال: ﴿يَعْقُوبَ﴾ وكان أولى من (إسرائيل)؛ لأنَّها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، وإن كان اسم (يعقوب) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبرانيا لكن لفظه موافق للعربيِّ من العقب والتَّعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنَّه من العجائب". بقليل من التصرف عن (البرهان) (١/١٦٠-١٦١).

(٣) روح المعاني (٨/١٢٩).

وأما الخطاب بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾، ونحوه من الأمثلة السَّابقة فقد يشكل ذلك على المخاطَب من أيِّ الخطابين هو؟ هل هو من (خطاب الجنس) أم من (خطاب النَّوع)؟

ولكنَّ ذلك الإشكال يندفعُ ببيان صلاحيَّة هذا التَّمثيل لكلٍ من الخطابَين -أعني: الجنس والنَّوع- وذلك باختلاف النَّظر، فهو بالنِّسبة لما فوقه -أعني: الحيوان- نوع، وبالنِّسبة لما تحته جنس. ولكنَّا لما علمنا أنَّ ما فوقه ممَّا لا يتوجَّه الخطاب له على عمومه؛ لأنَّه إنما أنزل للعاقلين المميِّزين قلنا بأنَّه من (خطاب الجنس)، وعلى ذلك يخرَّج قول من قال من المفسِّرين: إنَّه من (خطاب الجنس).

وإذا تقرَّر ذلك فإنَّه يقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه من كونه يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صَدُقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد. ولكنَّ غير المكلَّف لا يدخل أصلًا في هذا الخطاب.

ثالثًا: نداء الاثنين:

فمن ذلك نداء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحبيه في السِّجن:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف:٤١].

رابعًا: نداء العين:

ومن ألوان النداء ما كان موجَّهًا إلى فرد، وهو ما يسمَّى (بخطاب العين). فمن ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ﴾ [هود:٤٨]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات:١٠٤-١٠٥]، ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ﴾ [النمل:١٠]. ولم يقع في



القرآن الكريم النِّداء بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١] تعظيمًا له وتبجيلًا وتخصيصًا بذلك عن سواه[(١)].

وقد قال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البحر) في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]:"إنَّ نداءه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ هو على سبيل التَّشريف والتَّكرمة والتَّنويه بمحلِّه وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٣]، ﴿يَا نُوحُ﴾ [هود:٣٢]، ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [هود:٧٦]، ﴿يَا مُوسَى﴾ [البقرة:٥٥]، ﴿يَا دَاوُدُ﴾ [ص:٢٦]، ﴿يَا عِيسَى﴾ [آل عمران:٥٥]، وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنَّه رسوله، صرَّح باسمه فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] أعلم أنَّه رسوله، ولقَّنهم أن يسمُّوه بذلك. وحيث لم يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النِّداء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، وغير ذلك من الآي. وأمره بالتَّقوى للمتلبس بها، أمر بالدَّيمومية عليها والازدياد منها.

والظاهر أنَّه أمرٌ للنَّبي، وإذا كان هو مأمورا بذلك، فغيره أولى بالأمر. وقيل: هو خطاب له لفظا، وهو لأمَّته"[(٢)] .

أقول: والحاصل أنَّ الذي يتقرَّر في ذلك:

١ - يعسرُ التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ قد نودي باسمه في عهده، وفي ذلك تكلُّف، إن قال قائل بذلك.

٢ - إنَّ من الرُّسل من ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم بالوصف الذي يدلُّ على الرِّسالة، وذلك كما في قوله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣]، ولكن من غير نداء.

---

(١) الإتقان (٢/٨٨-٨٩).

(٢) البحر المحيط (٨/٤٥٠).

٣ – ورد ذكر (محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من غير نداء، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

٤ – إنَّ هناك الكثير من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن الكريم لم يقع النِّداء أصلًا باسمهم، وإنما ذكر اسمهم كما ذكر اسم (محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وإذا تقرَّر ذلك عُلِمَ أنَّ التَّخصيص بالتَّشريف المذكور إنما هو مقصورٌ على نداءات القرآن الكريم فحسب –وهو الذي يعنينا هنا–، ولا يشمل الكتب السَّماوية الأخرى لانتفاء الدَّليل؛ إذ يعسر التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ نودي باسمه في عهده، وإنَّما علم ذلك من نداءات القرآن الكريم نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران:٥٥]، وما سبق.

خامسًا: إجمال تقسيم النداءات من حيث العموم والخصوص:

إنَّ القرآن الكريم تضمَّن نداءات يمكن تقسيمها من حيث العموم والخصوص إلى أقسام:

١ – نداءات خَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها المصطَفين الأخيار ممَّن اجتباهم لتبليغ رسالاته، وهي من نداء الخاصِّ والمراد به الخصوص: ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

٢ – نداءات خاصَّة من وجه، وعامَّة من آخر جاءت بإحدى هذه الصِّيغ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤]...، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

٣ – نداءات أكثر عمومًا وردت بإحدى الصِّيغ التَّالية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]...، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ [الانفطار:٦]...، ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦].



٤ - نداء الخاصِّ والمراد به العموم: ومن الخاصِّ المراد به العموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقال أبو بكرٍ الصيرفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: "كان ابتداءُ الخطابِ له صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلمَّا قال في (الموهوبة): ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ عُلم أنَّ ما قبلها له ولغيره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ"[(٢)]. وهذه قرينةٌ تدلُّ على العموم.

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق:١]، فقد افتتح الخطابُ بالنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والمراد سائر من يملكُ الطَّلاق[(٣)].

٥ - نداء العامِّ والمراد الخصوص: ومن ذلك: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]. لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

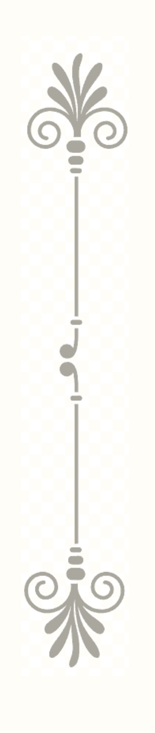


(١) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أبو بكر الصَّيرفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أئمَّة أصحابنا المتقدِّمين أصحاب الوجوه والمصنِّفين البارعين، اسمه: محمَّد بن عبد الله. قال الخطيب البغداديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخ بغداد) (٥/٤٤٩): كان الصَّيرفيُّ فهمًا عالما له تصانيف في أصول الفقه، وسمع الحديث من أحمد المنصور ثم الرَّمادي ومن بعده، لكنَّه لم يرو كبير شيء. قال: وتوفِّيَ يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيعٍ الآخر سنة (ثلاثين وثلاثمائة). قال السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأنساب) (٢/٥٠٤): هو بغداديٌّ فهم عالم ذكيٌّ. وقال غيرهما: كان إمامًا بارعًا متفنِّنًا، وله مصنَّفات في الأصول وغيره، وله وجوه كثيرة في (المهذَّب). ومن غرائبه: إيجابه الحدَّ على من وطىء في النِّكاح بلا وليٍّ إذا كان يعتقد، والجمهور قالوا: لا حدَّ". تهذيب الأسماء (٢/١٩٣-١٩٤).

(٢) انظر: البرهان (٢/٢١٨)، الإتقان (٢/٨٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨/١٤٨).





المطلب الثاني عشر :
نـداء الأعلام

ويتـضمن:

أولًا: توطئة للتَّعريف بالعلم في الخطاب القرآني.

ثانيًا: نداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن الكريم.

ثالثًا: مقاصد النداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

رابعًا: ما ولي نداء النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرآن.

خامسًا: إجمال ما يستفاد من المعاني التي تضمَّنتها آياتُ النِّداء للنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سادسًا: إجمال ما يستفاد من نداء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

سابعًا: نداء من اختلف في نبوته (لقمان – مريم) عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ثامنًا: نداء (مالك) عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الملائكة.

تاسعًا: نداء بقية الأعلام.

عاشرًا: نداء المخلوقات الأخرى غير الجمادات.

الحادي عشر: نداء الجمادات.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:





أولًا: توطئة للتَّعريف بالعلم في الخطاب القرآني:

العلم نوعان: جنسيٌّ، وسيأتي، وشَخصيٌّ، وهو اسمٌ يعين مسمَّاه تعيينًا مطلقًا[1].

فخرج بذكر (التَّعيين): النَّكرات، وبذكر (الإطلاق) -ما عدا العَلَم من المعارف- فإنَّ تعيينها لمسمَّياتها تعيينٌ مقيَّد، ألا ترى أن ذا الألف واللَّام مثلًا إنما تعيَّن مسمَّاه ما دامت فيه (أل)، فإذا فارقته فارقه التَّعيين. ونحو هذا إنما يعيِّن مسمَّاه ما دام حاضرًا، وكذا الباقي[2].

ومسمَّاه نوعان:

الأول: العلم الشَّخصي:

١ - أولو العلم من المذكَّرين والمؤنَّثات:

وما ورد في الخطاب القرآني من هذا النَّوع : أعلام الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والملائكة، مثل: (مالك) عَلَيْهِ السَّلَامُ -كما سيأتي- ، وأعلام الصَّحابة كعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعلام النِّساء كمريم ابنة عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ، وأسماء الكفَّار مثل: (قارون) -كما سيأتي-، ويشمل (علم الأشخاص) الاسم والكنية واللَّقب، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في (الألفيَّة):

(واسمًا أتى وكنية ولقبًا***)[3].

---

(١) قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

(اسم يُعَيِّنُ المسَمَّى مطلقا***عَلَمُهُ كجعفر وخِرْنِقا)

ألفيَّة ابن مالك، العَلَم (ص:١٣). "قوله: (مُطْلَقا)، أي: بلا قيد التَّكلم أو الخطاب أو الغيبة، فالاسم: جنس يشمل النَّكرة والمعرفة، و(يعيِّن مسمَّاه) أخرج النَّكرة، و(بلا قيد) أخرج بقيَّة المعارف كالمضمر؛ فإنَّه يعيِّن مسمَّاه بقيد التَّكلم كأنا أو الخطاب كأنت أو الغيبة كهو" شرح ابن عقيل (١/١١٨).

(٢) بتصرُّف عن (أوضح المسالك) (١/١٢٢- ١٢٣).

(٣) ألفيَّة ابن مالك، (العَلَم) (ص:١٣).



والمراد بالاسم هنا: ما ليس بكنية ولا لقب كزيد، وبالكنية: ما كان في أوَّله أبٌ أو أم كأبي لهب، وباللقب ما أشعر بمدحٍ كالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكإسرائيل، وذي القرنين، أو ذمٍّ كأنف النَّاقة[1].

٢ – **أعلامُ القبائل**: كعاد، وثمود، ومدين، وأصحاب الأيكة، وسبأ، وأصحاب الرَّس، والرُّوم، ونحو ذلك.

٣ – **أعلام البلاد والأمكنة في الدُّنيا**: كمكَّة، والمدينة، ويثرب، وحنين، ومصر، ونحو ذلك.

٤ – **أعلام الأماكن الأخرويَّة**: كالفردوس، والجنَّة، والنَّار، والأعراف، والبرزخ، والكوثر، وسدرةُ المنتهى، والحور العين.

٥ – **أعلام الكواكب والنُّجوم والشُّهب**: كالشَّمس، والقمر، والشِّعرى، والشِّهاب.

٦ – **أعلام الطيور**: كالهدهد، والطَّير الأبابيل[2].

وغير ذلك ممَّا سيأتي بيانه.

الثاني: العلمُ الجنسي:

العلم الجنسي ليس كاسم الجنس في المعنى، بل هو معيِّنٌ لمسمَّاه، لكن ليس تعيينًا مطلقًا، بل كتعيين ما دخلت عليه (أل) الجنسية، وذلك أنكَ تقول: (هذا أسامة) تقصد به واحدًا من الأسود لا تقصد به أسدًا بعينه، فهذا لفظٌ صالح لكلِّ أسد. وسمِّي (علم جنس)؛ لأنَّه موضوع لكلِّ فرد من أفراد الجنس، فـ (أسامة) لكلِّ أسد، و(ثُعَالة) لكلِّ ثعلب.

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١/١١٩).

(٢) انظر: الشَّواهد على القواعد من (ص:١١١-١١٦).



والحاصل أنَّه اسمٌ يُعَيِّنُ مُسَمَّاه، بغير قيدٍ تَعْيين ذِي الأَدَاة الجِنْسِيَّةِ أو الحُضُورِيَّة، فإذا قُلتَ: (أسامةُ أجرأ من ثُعالَةَ)، فهو بمنزلةِ قولِك: (الأَسَدُ أجْرَأُ مِنَ الثَّعلَب)، و(ألْ) في الأسد والثَّعلب للجنس.

وإذا قلت: (هذا أسامَةُ مُقْبِلًا) فهو بمنزلَةِ قَولِك: (هذا الأسدُ مُقْبِلًا)، و(ألْ) في (الأسد) لِتَعْرِيفِ الحُضُورِ[1].

وهو أنواع:

١ – **أعيان**: كإنسان، وبقرة، وذئب، وحوت، ونمل، ونحل، وعنكبوت، وجراد، وكفرعون لكلِّ من ملك (مصر)، ونحو ذلك.

٢ – **أمور معنويَّة**: "كسبحان للتَّسبيح"[2].

وينقسم العلم إلى اسم وكنية ولقب.

أمَّا (الاسم) فقد سبق التَّمثيل له، وكذلك الكنية واللَّقب.

ثانيًا: نداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن الكريم:

وأذكر هنا (نداء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) في القرآن الكريم مرتَّبة على حسب التَّرتيب الزَّمني:

١ – نداء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمان :

القسم الأوَّل: نداء الله عَزَّ وَجَلَّ له:

[البقرة:٣٣، ٣٥]، [طه:١١٧].

القسم الثَّاني: نداءٌ من إبليس له:

---

(١) انظر: قطر النَّدى (ص:٩٧)، وانظر: تعجيل النَّدى (ص:١٠٢-١٠٣)، شذور الذَّهب (ص:٢٩٠)، أوضح المسالك (١/١٣٢– ١٣٣).

(٢) انظر: أوضح المسالك (١/ ١٣٣).





[طه:١٢٠].

٢ – نداء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمان:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ له:

[هود:٤٦، ٤٨].

القسم الثَّاني: نداء قومه له:

[هود:٣٢]، [الشُّعراء:١١٦].

٣ – نداء هود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضع واحد من قومه:

[هود:٥٣].

٤ – نداء صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضعين من قومه:

[الأعراف:٧٧]، [هود:٦٢].

٥ – نداء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: نداء الله عَزَّوَجَلَّ له:

[هود:٧٦]، [الصَّافات:١٠٤].

القسم الثَّاني: نداء جاء على لسان والده:

[مريم:٤٦]، [الأنبياء:٦٢].

٦ – نداء لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في موضعين من قومه:

[هود:٨١]، [الشُّعراء:١٦٧].

٧ – نداء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

في ثلاثة مواضع كلُّها من قومه:

[الأعراف:٨٨]، [هود:٨٧، ٩١].

٨ – نداء يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو قسمين، ويلاحظ حذف (يا) النِّداء فيهما:

القسم الأوَّل: نداء من عزيز (مصر):

[يوسف:٢٩].

القسم الثَّاني: نداء من صاحبي السِّجن:

[يوسف:٤٦].

٩ – نداء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وهو ستة أقسام:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ:

[الأعراف:١٤٤]، [طه:١١، ١٧، ١٩، ٣٦، ٤٠، ٤٩، ٨٣]، [القصص:٣٠]، [القصص:٣١]، [النَّمل:٩، ١٠].

القسم الثَّاني: نداء من قومه:

[البقرة:٥٥، ٦١]، [المائدة:٢٢، ٢٤]، [الأعراف:١١٥، ١٣٤، ١٣٨].

القسم الثَّالث: نداء من فرعون:

[الإسراء:١٠١]، [طه:٥٧].

القسم الرَّابع : نداء من السَّحرة:

[طه:٦٥].

القسم الخامس: نداء من القبطي:

[القصص:١٩]

القسم السَّادس: نداءِ من النَّاصح له (مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه):

[القصص:٢٠]

ويلاحظ أن مجموع نداءات موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في (أربعة وعشرين) موضعًا.



١٠ – نداء هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

في موضع واحد من موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

[طه:٩٢]

١١ – نداء زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

وهو في موضع واحد من الملائكة:

[مريم:٧]

١٢ – نداء عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

وهو قسمين:

القسم الأوَّل: نداء من الله عَزَّوَجَلَّ:

[آل عمران:٥٥]، [المائدة:١١٠، ١١٦].

القسم الثَّاني: نداء من الحواريين:

[المائدة:١١٢].



١٣ – نداء الرَّسول ﷺ، أو النَّبي ﷺ:

أمَّا (نداءُ الرَّسول) ﷺ ففي موضعين:

[المائدة:٤١، ٦٧].

وأمَّا (نداء النَّبي) ﷺ ففي [١٣] موضع:

[الأنفال:٦٤، ٦٥، ٧٠]، [التَّوبة:٧٣]، [الأحزاب:١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩]، [الممتحنة:١٢]، [الطَّلاق:١]، [التَّحريم:١، ٩].

وقد جاء (نداء النَّبي) ﷺ إلى قومه بلفظ: (قل)، وهي على النَّحو التَّالي: [الأنعام:١٣٥]، [الأعراف:١٥٨]، [يونس:١٠٤، ١٠٨]، [الحج:٤٩]، [الزُّمر:٣٩]، [الجمعة:٦]، [الكافرون:١].

وقد جاء (نداء النَّبي) ﷺ على لسان الكافرين في [الحجر:٦].

وجاء وصفًا لحاله في: [المدَّثر:١]، [المزَّمل:١].

ثالثًا: مقاصد النداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾:

وأعرض هنا للسُّورة التي تكرَّر فيها النِّداء بصيغة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (خمس مرَّات)، وهي (سورة الأحزاب)، فإنَّ "افتتاح السُّورة بخطاب النَّبي ﷺ[1]، وندائه بوصفه مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السُّورة يتعلَّق بأحوال النَّبي ﷺ. وقد نودي فيها (خمس مرَّات) في افتتاح أغراض مختلفة من التَّشريع بعضها خاصٌّ به وبعضها يتعلَّق بغيره وله ملابسة به.

فالنِّداء الأوَّل؛ لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربِّه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].



والنِّداء الثَّاني[(١)]؛ لافتتاح غرض التَّنويه بمقام أزوجه واقترابه من مقامه.

والنِّداء الثَّالث[(٢)]؛ لافتتاح بيان تحديد تقلُّبات شؤون رسالته في معاملة الأمَّة.

والنِّداء الرَّابع[(٣)] في طالعَة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه.

والنِّداء الخامس[(٤)] في غرض تبليغه آداب النِّساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

فهذا النِّداء الأوَّل افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض، وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه عَزَّوَجَلَّ على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدِّين أعماله، وهو نظير النِّداء الذي في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١]. ونداء النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بوصف النُّبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف؛ ليربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره؛ ولذلك لم يناد في القرآن بغير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ بخلاف الإخبار عنه فقد يجيء بهذا الوصف كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالذينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم:٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠]، ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، ويجيء باسمه العلم كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد يتعيَّن إجراء العلم ليوصف بعده بالرِّسالة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وتلك مقامات يقصد

---

(١) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨].

(٢) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

(٣) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

(٤) يعني قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ...﴾ [الأحزاب:٥٩].



فيها تعليم النَّاس بأنَّ صاحب ذلك الاسم هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تلقين لهم بأن يسمُّوه بذلك ويدعوه به، فإنَّ عِلم أسمائه من الإيمان لئلَّا يلتبس بغيره.."[1].

رابعًا: ما ولي نداء النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرآن:

جاء النِّداء للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القرآن الحكيم -كما سبق- في (سبعة عشر) موضعًا جاء في غالبها بعد النِّداء الطَّلب، ففي (عشرة) مواضع منها جاء بعد النِّداء الأمرُ، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال:٦٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾ [الأنفال:٧٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة:٧٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا﴾ [الأحزاب:٢٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنّ﴾ [الأحزاب:٥٩].

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل:١-٢].

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١ – ٢].

وفي موضعين جاء عقب النِّداء النَّهي، إمَّا مباشرة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١].

وإمَّا معطوفًا على الأمر، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١/٢٤٩ – ٢٥٠).



وفي موضع واحد جاء بعد النِّداء للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستفهام، وذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم:١].

أمَّا المواضع التي جاء فيها بعد النِّداء الخبرُ فهي (خمسة):

وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة:١٢].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

خامسًا: إجمال ما يستفاد من المعاني التي تضمَّنتها آياتُ النِّداء للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

بعد النَّظر في الآيات السَّابقة يمكن أن نُقَسِّم المعاني التي تضمَّنتها هذه الآيات إلى ما يلي:

١ - الأمر بإبلاغ الرِّسالة وما يتعلَّق بها ،كالحذر من المعوِّقات مع ذكر أركان هذه الرِّسالة وصفاتِ المرسل بها والبيعة عليها.

٢ - الحثُّ على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وتأييد الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كبيان بعض أحكامه، مع التَّصديق بموعود الله عَزَّوَجَلَّ، والثِّقة بنصره وتأييده لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين وكفايته ورعايته لهم.



٣ - الأمر بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ بفعل الطَّاعات، والبعد عن المخالفات.

٤ - بيان بعض الأحكام المتعلِّقة بالنِّساء، كتخييرهنَّ بين البقاء معه أو تخلية سبيلهنَّ، وبيان ما أحلَّ الله عَزَّوَجَلَّ له من النِّساء، وبيان بعض أحكام الطَّلاق.

سادسًا: إجمال ما يستفاد من نداء الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ:

أمَّا نداءُ الله عَزَّوَجَلَّ للرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فهو لتبليغ الخطاب إليهم، ولبيان أهليتهم لتلقِّي الخطاب، ولتُعْلم عند المخاطَبين مكانتهم، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد اصطفاهم واختارهم من بين الخلق للتَّبليغ، فكانوا أهلًا للتَّبليغ، وأسوةً للخلق في العمل والتَّطبيق، وتفعيل ألفاظ الخطاب في الواقع..

وأما نداء الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى أقوامهم فهو لتبليغهم الخطاب، وبيانه لهم، وإفادتهم ما لا يستقلُّون بمعرفته، وقطع أعذارهم..، كما أنَّ (خطاب الرُّسل) عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فيه التَّشريع والتَّنظيم لما يعتري المكلَّفين من الأحوال التي تكون محلَّ نزاع فيما بينهم..، وفي هذه التَّشريعات تنظيم لمرور الإنسان وسيره في طريق الحياة، وفيها منع الصِّدام بين المكلَّف وغيره، حماية من له من الخطر أن يصيبه هو، أو يصيب غيره من جرَّاء انطلاقه من غير قيود ولا حدود.

ولأنَّ العقل البشري إذا خلا من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الذي جاء به الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، سيؤمن مثلًا بهواه فيتبعه على نحوٍ بهيميٍّ ليس له ضابط[1]، سيؤمن بالمال فيجعله إلهه المعبود، سيؤمن باللَّذة فيتحلَّل من كلِّ ضابط..سيؤمن بفكر فلانٍ أو فلان من شياطين الإنس، وتعصف به رياح الأهواء وتتجاذبه..إلى غير ذلك.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، أي: لا فراغ ولا يمكن أن يرتفع النَّقيضان.

(١) يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].



يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هــربوا من الرِّقِّ الــذي خلــقوا له فبلو برقِّ النَّفس والشَّــيطــانِ

لا ترض ما اختــاروه هم لنفوسهم فقد ارتضوا بالذُّل والحــرمــانِ

لو ســاوت الدُّنيا جنــاح بعوضــة لم يسق منها الرَّب ذا الكفرانِ[1].

ولم أتعرَّض هنا لبيان كلِّ صيغة من صيغ نداء الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لأقوامهم لكثرتها؛ ولأنَّ الهدف من بعثة الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ واحد لا يختلف، والأصول واحدة. ويدلُّ على ذلك على سبيل المثال قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، إلى غير ذلك.

سابعًا: نداء من اختلف في نبوته (لقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ):

وأمَّا نداء من قيل: إنَّه كان نبيًّا، والأكثر على خلافه فهو نداء: (لقمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ)[2].

وقد جاء النِّداء في وصيته لابنه في [لقمان:١٣].

أمَّا نداء من اختلف في نبوَّتها فهو نداء: مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ فقد ذكر البعض الإجماع على كون مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ ليست نبيَّة.

فقد قيل في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢] قال: "كلَّموها شِفاهًا كرامةً لها،

---

(١) متن القصيدة النُّونية (ص:٣٠٨).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢٠/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٣)، الدر المنثور (٦/٥١٦)، زاد المسير (٣/٤٣٠)، تفسير النسفي (٢/٧١٣)، تفسير السَّمرقندي (٣/٣٧٠)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/١٩٥)، الإتقان (٢/٣٧٣).



ومن أنكر الكرامة زعم أنَّ ذلك كانت معجزةً لزكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إرهاصًا لنبوَّةِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ الإجماع على أنَّه عَزَّوَجَلَّ لم يستنبئ امرأةً لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣][1].

وقال الحافظ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في (تفسيره)، قال: "يخبرُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه إنما أرسل رسله من الرِّجال لا من النِّساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يوح إلى امرأة من بنات آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحي تشريع. وزعم بعضهم أنَّ سارة امرأة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومريم بنت عمران أمُّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيَّات، واحتجُّوا بأنَّ الملائكة بشَّرتْ (سارة) بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] الآية، وبأنَّ الملك جاء مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فبشَّرها بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢- ٤٣]. وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيَّات بذلك، فإن أراد القائل بنبوَّتهنَّ هذا القدر من التَّشريف فهذا لا شكَّ فيه، ويبقى الكلام معه في أنَّ هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النُّبوة بمجرَّده أم لا؟ الذي عليه أهل السُّنة والجماعة، وهو الذي نقله الشَّيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم أنَّه ليس في النِّساء نبيَّة، وإنما فيهنَّ صدِّيقات كما قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن أشرفهنَّ مريم بنت عمران عَلَيْهَا السَّلَامُ حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/١٦)، وانظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٣/١٤٦)، النسفي (١/٢٥٤)، تفسير أبي السعود (٢/٣٥).



يَـأْكُلانِ الطَّعَـامَ﴾ [المائدة:٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقة، فلو كانت نبيَّة لذكر ذلك في مقام التَّشريف والإعظام، فهي صِدِّيقة بنصِّ القرآن إلى آخر ما ذكره"[١].

وأرى أنَّ ما ذكر من دعوى الإجماع غير مسلَّم، فقد ذكر الزَّجاجُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] والقرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] أنَّ معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَاكِ وَطَهَّـرَكِ﴾ أي: اختارك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، أي: من الكفر عن مجاهد، والحسن، والزَّجاج رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ[٤]: من سائر الأدناس من الحيض والنِّفاس وغيرهما. ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ لولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: عالمي زمانها. عن الحسن وابن جريج وغيرها. قيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصُّور. وهو الصَّحيح على ما نبينه، وهو قول الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. وكرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأوَّل: الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثَّاني: لولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقد قال رسول اللّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**))[٥]. والكمال هو التَّناهي والتَّمام، ويقال في ماضيه: (كَمُل) -بفتح الميم وضمها، و(يَكملُ) في مضارعه -بالضَّم-. وكمال كلِّ شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله عَزَّوَجَلَّ خاصَّة، ولا شكَّ أنَّ أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثمَّ يليهم الأولياء من الصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين..[٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٢٣)، وانظر: لوامع الأنوار البهيَّة (٢/٢٦٦)، فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٦/٤٤٧- ٤٧٣)، عمدة القاري (٧/١٢)، (٢٣/٣٤٩)، غمز عيون البصائر (٣/٣٩٣)، البداية والنِّهاية (٢/٧١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٤١٠).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٨٢-٨٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٤١٠).

(٥) أخرجه البخاري [٣٤١١، ٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨]، ومسلم [٢٤٣١].

(٦) بتصرف واختصار عن (تفسير القرطبي) (٤/٨٢- ٨٤). وانظر أيضًا: تفسير القرطبي لكلٍّ من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم:١٦].



وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت: دعوى الإجماع عجيب، فإن الخلاف في نبوة نسوة موجود، خصوصا مريم، فإن القول بنبوتها شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي في الحلبيات إلى ترجيحه، وقال: إن ذكرها مع الأنبياء في (سورة الأنبياء) قرينة قوية لذلك"(١).

ورأي الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه زيادة في التَّفصيل والتَّحقيق، وهنا أختصر ما قاله مع التَّعقيب: قال: "واستدلَّ بهذه الآية من ذهب إلى نبوَّة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ تكليم الملائكة يقتضيها، ومنعه اللَّقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ..الخ. وادَّعى أنَّ من توهَّم أنَّ النُّبوة مجرَّد الوحي ومكالمة الملك فقد حاد عن الصَّواب. ومن النَّاس من استدلَّ على عدم استنباء النِّساء بالإجماع، وبقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا﴾ [النحل:٤٣]، ولا يخفى ما فيه.

أمَّا أوَّلًا: فلأنَّ حكاية الإجماع في غاية الغرابة، فإنَّ الخلاف في نبوَّة نسوة كحواء وآسية وأم موسى وسارة وهاجر ومريم موجود خصوصًا مريم، فإنَّ القول بنبوَّتها شهير، بل مال الشَّيخ تقيُّ الدِّين السُّبكي، وابن السَّيد إلى ترجيحه، وذكر أنَّ ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قويَّة لذلك.

وأمَّا الثَّانية: فلأنَّ الاستدلال بالآية لا يصحُّ؛ لأنَّ المذكور فيها الإرسال، وهو أخصُّ من الاستنباء على الصَّحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفي الأعمِّ(٢).

أقول: وبيان ذلك أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوت الأخصِّ، وشرط موضوع الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لموضوع المدَّعَى أو أعمَّ منه.

وشرط محمول الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لمحمول المدَّعى أو أخصَّ منه، ويلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعمِّ.

ومن حيث الإجمال أقول: المحمولُ الثَّابت لموضوع أخص، أعمُّ من المحمول الثَّابت لموضوع أعم، فمثلا عندما يقال: (حضر محمَّد)، فإنَّ المحمول الثَّابت للأخصِّ أعمُّ من

(١) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (٥٣١/٢).

(٢) روح المعاني (١٥٤/٣-١٥٥).



أن يكون مع هذا الحضور طالب آخر أو لا، فقولنا: (حضر محمَّد) يصدق عليه عدَّة احتمالات، نقول مثلًا: (حضر محمَّد وحده)، (حضر محمَّد مع خالد)، (حضر محمَّد مع خالدٍ وعليٍّ) ...وهكذا. فهو أعمُّ من قولنا: (حضر المحمَّدان) أو (حضر المحمَّدون) أو (حضر جميعُ الطَّلبة). وبناءً على ذلك لا يلزم من نفي كونه رسولًا نفي كونه نبيًّا.

أقول: وبناءً على ما سبق فلا يوجد دليل على نبوَّتها، كما أنَّه لا يستطيع أحدٌ أن يقول: إنها ليستْ نبيَّة؛ لانتفاء الدَّليل كما سبق.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢]، والعطفُ يقتضي المغايرة. وما استدلُّوا به من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ غير منتج؛ لأنَّه أعمُّ من المدَّعى، ومن القواعد والأسس أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوتُ الأعمِّ، ولا يلزم من ثبوت الأعمِّ ثبوتُ الأخصِّ، وقد تقرَّر أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا، فبينهما عموم وخصوص مطلق(١).

والحاصل أنَّ الخلاف إنما جرى ذكره هنا لبيان أنَّها ليست واسطة في تبليغ الخطاب على معنى أنَّها مرسلة، وهذا لا خلاف فيه.

والحاصل أنَّ القول بالإجماع مجانب للصَّواب على القول الصَّحيح في التَّفريق بين النُّبوَّة والرِّسالة، وكون مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ نَبِيَّة مختلف فيه كما ذكر القرطبيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في (تفسيره)(٢).

قلت: وذلك الاختلاف يرجع إلى أنَّ هذا الأمر مسكوت عنه، لا دليل يثبته، ولا دليل ينفيه، وإن كان الإجماع صحيح على كونها ليست مرسَلة، وذلك للنَّص القرآني.

والنِّداء لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ أقسام:

القسم الأوَّل: نداء من زكريَّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: [آل عمران:٣٧].

---

(١) العموم والخصوص المطلق بمعنى أن يصدقا على شيءٍ، وينفردُ الأعمُّ منهما، مثل النِّسبة بين الحيوان والإنسان، أمَّا العموم والخصوص الوجهي فهو أن يجتمعا في شيء وينفرد كلٌّ منهما في شيء، مثل النِّسبة بين الحيوان والأبيض.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/٨٣).



القسم الثَّاني: نداء من الملائكة: [آل عمران:٤٢، ٤٣، ٤٥].

القسم الثَّالث: نداء من قومها: [مريم:٢٧].

ثامناً: نداء (مالك) عَلَيْهِ السَّلَامُ من الملائكة:

في موضع واحد من أهل النَّار:

[الزُّخرف:٧٧]

ومالك عَلَيْهِ السَّلَامُ هو: هو (خازنُ جهنَّم)، أو يقال: (خازنُ النَّار)، والمعنى واحد.

وقد جاء في خطاب أهل النَّار لمالك عَلَيْهِ السَّلَامُ: مادَّة النِّداء (نَادَوْا)، وكذلك أداة النَّداء (يا) في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾. والجمع بينهما في خطابهم يدلُّ على شدَّة ما هم فيه من الكرب والغمِّ.

وقراءة: ﴿يا مَالِ﴾ -بحذف الكاف- على التَّرخيم؛ للإشارة إلى أنَّ العذاب أوهنهم عن إتمام الكلام، ولذا قالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾.

وفي (الكشاف): "حسَّن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم؛ لضعفهم وعظم ما هم فيه"[1].

---

(١) الكشاف (٤٩٦/٣)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٥٥/٨)، روح المعاني (١٠٣/٢٥)، تفسير البيضاوي (٩٦/٥)، تفسير الرازي (٦٤٤/٢٧). " قيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ: (يا مَال)، فقال: ((ما أشغلَ أهلَ النَّار عن التَّرخيم)). وأجيب عنه: بأنَّه إمَّا حَسُن التَّرخيم؛ لأنهم بلغوا من الضعف والنَّحافة إلى حيث لا يمكن أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها. وقرأ أبو السَّرار الغَنَوِي: (يَا مَالُ) مَبْنِيا على الضم على لغة من لا ينوي. انظر: الكشاف (٤٩٦/٣)، روح المعاني (١٠٢/٢٥)، الدُّر المصون (١٠٧/٦)، ابن عادل (٢٩٤/١٧)، البحر المديد (٣٤/٧). وانظر قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا في (تفسير الطَّبري) (٩١/١)، تفسير الثَّوري (ص:٢٧٤)، تفسير القرطبي (١١٧/١٦)، معاني القرآن، للنَّحاس (٣٨٥/٦)، التِّبيان، للعكبري (٢٢٨/٢)، تفسير الصَّنعاني (٢٠٢/٣)، جزء فيه قراءات النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص:١٤٧)، إبراز المعاني (ص:٣٥٠). وفي (البحر): "وقرأ الجمهور: ﴿يَا مَالِكُ﴾. وقرأ عبد الله، وعليّ، وابن وثاب، والأعمش: (يا مال)، بالتَّرخيم، على لغة من ينتظر الحرف". البحر المحيط (٢٧/٨)، فتح القدير (٨٠٤/٤). وفي (زاد المسير): "وقرأ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن يعمر: (يا مالِ) -بغير كاف مع كسر اللام-". زاد المسير (٣٢٩/٧). قال=



"فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؛[1] قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدَّة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنَّه لا فرج لهم، ويغوِّثون[2] أوقاتًا لشدَّة ما بهم ﴿مَاكِثُونَ﴾ لابثون"[3].

وجروا على عادتهم في الغباوة والجلافة فقالوا: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسن إليك فلم يروا لله عَزَّوَجَلَّ عليهم إحسانًا وهم في تلك الحالة، فلا شكَّ أنَّ إحسانه ما انقطع عن موجود أصلًا، وأقل ذلك أنَّه لا يعذِّب أحدًا منهم فوق استحقاقه؛ ولذلك جعل النَّار دركات كما كانت الجنَّة درجات..[4].

و"جملة ﴿وَنَادَوْا﴾ حال من ضمير: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[5]، أو عطف على جملة: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

وحكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنَّه مما سيقع يوم القيامة، إمَّا لأنَّ إبلاسهم في عذاب جهنَّم، وهو اليأس يكون بعد أن نادوا: ﴿يَا مَالِكُ﴾، وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة: ﴿وَنَادَوْا﴾ حاليَّة، وإمَّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي

=الزَّجاج: وهذا يسمِّيه النَّحويون: التَّرخيم، وهو كثيرٌ في الشِّعر في (مالك)، و(عامر)، ولكنِّي أكرههما لمخالفة المصحف. معاني القرآن، للزَّجاج (٤/٤٢٠)، وانظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الأنباري (١/٣٦١).

(١) أي في الآيات السَّابقة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزُّخرف:٧٤- ٧٦].

(٢) (غَوَّثَ الرَّجُل): قال واغوثاه. انظر: الصِّحاح، مادَّة: (غوث) (١/٢٨٩). وفي (تاج العروس):"غَوَّثَ الرَّجُل، واستغاثَ: صاح: واغَوْثَاه، وتقول: ضُرِبَ فلانٌ فَغَوَّثَ تَغْوِيثًا، قال: واغَوْثَاهُ". تاج العروس، مادَّة: (غوث) (٥/٣١٣)، لسان العرب (٢/١٧٤).

(٣) الكشاف (٣/ ٤٩٦)، روح المعاني (٢٥/١٠٢).

(٤) نظم الدُّرر (٧/ ٥٣)، وانظر: السِّراج المنير (٣/ ٦٧٩).

(٥) وتمام الآيات: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف:٧٤ – ٧٧].

الصُّــورِ فَفَــزِعَ مَــنْ فِي السَّــمَوَاتِ وَمَــنْ فِي الأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، وهذا إن كانت جملة: ﴿وَنَـادَوْا﴾ الخ معطوفة. و﴿مَالِـكُ﴾ (المنادَى): اسم الملَك الموكَّل بجهنَّم. خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ شفاعة. واللام في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (لام الأمر) بمعنى الدُّعاء. وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التَّبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائـب لاعتبـار مَّـا مثـل التَّعظيـمِ في نحـو قـول الـوزير للخليفـة: (لِيَـرَ الخليفـة رأيـه). و(القضاء) بمعنى: الإماتة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]، سألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيل عنهم الحياة؛ ليستريحوا من إحساس العذاب. وهم إنما سألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يميتهم فأجيبوا بأنهم ماكثون جوابًا جامعًا لنفي الإماتة، ونفي الخروج، فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعدُ"[1].

وإليك إجمال ما يستفاد من صيغة النِّداء ومما ولي المنادَى:

١ - الجمع في خطابهم بين مادَّة النِّداء (نَادَوْا)، وكذلك أداة النَّداء (يا) يدلُّ على شدَّة ما هم فيه من الكرب والغمِّ.

٢ - إنَّ من الملائكة من لهم مهامٌّ مختلفة لا يعصون الله عَزَّوَجَلَّ فيما أمرهم، ومن هذه المهام: ما كلِّف به (مالك) عَلَيْهِ السَّلَامُ من كونه خازنًا للنَّار.

٣ - بيان حال أهل النَّار من الضَّعف والوهن، وأنَّه لا شفاعة لهم تنقذهم أو ترفع عنهم العذاب، وأنهم لا يظلمون، بل يجزون ما كانوا يعملون في الدُّنيا.

٤ - أن ما جاء من ذكر أحوال أهل النار إنما هو من الغيبات التي لا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق السمع، فيقتصر في ذلك على ورد من صحيح الكتاب والسنة.

٥ - إن دخولهم النار بسبب رفضهم قبول الحق واستعلائهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٨]، ثم بين حالهم من الغفلة والانغماس في أوحال المعاصي، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[الزخرف: ٧٩-

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٥/٢٥٩-٢٦٠).

٨٠]. والله عَزَّوَجَلَّ ليس بغافل عما يعمل الظالمون، ولهم يوم يقفون فيه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ويحاسبون.

تاسعًا: نداء بقية الأعلام:

وأذكر هنا عقب ما ذكر من نداء أهل الفضل والتَّشريف بقيَّة الأعلام وهم: (إبليس، فرعون، هامان، السَّامري).

١ – نداء إبليس:

أمَّا نداء إبليس ففي موضعين من الله عَزَّوَجَلَّ:

[الحجر:٣٢]، [ص:٧٥].

وإليك بيان ما يستفاد مما ولي المنادَى:

وفي بداية الأمر يذكر الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إيَّاه بأمره الملائكة بالسُّجود له. ويذكر تخلُّف إبليس عدوَّه عن السُّجود له من بين سائر الملائكة، حَسَدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٣]، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلا﴾ [الإسراء:٦٢].

وقد ذكر جمعٌ كبيرٌ من المفسِّرين ما قاله ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أنَّ أوَّل من قاس إبليسُ فأخطأ القياس، فمن قاس الدِّين بشيءٍ من رأيه قرنه الله عَزَّوَجَلَّ مع إبليس. وذكروا ما قاله الحسن وابن سيرين: ما عبدت الشَّمس إلا بالقياس[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٢٧/١٢)، وانظر: القرطبي (١٧١/٧)، روح المعاني (٨٩/٨)، الدُّر المنثور (٤٢٥/٣)، الثَّعالبي (٢١٩/٤)، البغوي (١٨٢/٢)، فتح القدير (٥١٠/٣). وأورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما ذكره الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "..عن الحسن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] قال: قاس إبليس، وهو أوَّل من قاس. [قال:] إسناده صحيح..وعن ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أوَّل من=

أقول: وتوجيه خطأ إبليس في القياس أن يقال: إنَّ إبليس قد استعمل القياس في إثبات أنَّه خير من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لئلا يسجد له حينما أُمِر بالسُّجود له فيما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]. وهو قياس من الشَّكل الأوَّل(١) حذفت منه المقدِّمة الثَّانية للعلم بها. ونظمه هكذا: أنا مخلوق من النَّار، وآدم مخلوقٌ من الطِّين، وكلُّ مخلوقٍ من النَّار خيرٌ من المخلوقِ من الطِّين = أنا خيرٌ من آدم..

وقد أخطأ إبليس في قياسه؛ لأنَّ الفضل عند الله عَزَّوَجَلَّ بحسن العمل لا بشرف الأصل. فإذا سلَّمنا جدلًا أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين فيرد عليه ما سبق.

=قاس إبليس، وما عبدت الشَّمس والقمر إلا بالمقاييس. [قال:] إسناد صحيح أيضًا". تفسير ابن كثير (٣/٣٩٣).

(١) الشَّكل الأوَّل: ما كان الحدُّ الأوسط فيه محمولًا في الصُّغرى، موضوعًا في الكبرى، مثل: كلُّ طائرٍ حيوان، وكلُّ حيوانٍ متنفِّس = كلُّ طائرٍ متنفِّس.. وشرطه: ١- أن تكون مقدِّمته الصُّغرى موجبة..٢- أن تكون مقدِّمته الكبرى كلِّيَّة. فإن فقد الشَّرط الأوَّل وكانت الصُّغرى سالبة صدقت النَّتيجة مرَّة وكذبت أخرى، والنَّتيجة لا بدَّ أن يطَّردَ صدقُها. فلو قلنا: لا شيء من الفضَّة بذهب، وكلُّ ذهبٍ معدن، فالنَّتيجة = لا شيء من الفضَّة بمعدن، وهي كاذبة مع صدق المقدِّمتين. وإنما نشأ كذب النَّتيجة من الإخلال بالشَّرط الأوَّل، وهو إيجاب الصُّغرى. وكذلك لو فُقِد الشَّرط الثَّاني، وكانت الكبرى جزئيَّة فإنَّ النَّتيجة أيضًا تكذب، مثل: كلُّ نبات قمح، وبعض النَّبات ورد، فالنَّتيجة = بعض القمح ورد، وهي كاذبة مع صدق المقدِّمتين، وذلك لفقد الشَّرط الثَّاني، وهو كلِّيَّة الكبرى. قال صاحب السُّلَّم:

حَمْل بصغرى وضعه بكبرى ... يُدْعى بشكل أول ويدرى

ثمَّ قال:.... فشرطه الإيجاب في صغراه ... وأن تُرَى كلـية كـبراه

انظر: شرح الشَّيخ درويش القويسني على متن السُّلَّم في علم المنطق (ص:٣٤- ٣٥)، توضيح المنطق القديم (ص:١٠٤)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرُّسوم (ص:١٢٥)، طرق الاستدلال (ص:٢٤٣-٢٤٥)، الجديد في الحكمة (ص:١٧٨)، الرِّسالة الشَّمسية (ص:١٤١)، التَّذهيب (ص:٣٧٩)، مغني الطُّلاب بشرح سيف الغلاب (ص:١٦٦)، الرَّدُّ على المنطقيين (ص:٢٩٦)، تيسير التَّحرير (١/٥٨)، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (١/٣٢٢).



أعني إن سُلِّمَ لإبليس أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين من حيث أصل الخلق فإنَّه يرد عليه ما سبق..كيف ولم يسلَّم له ذلك؟! فمن أين له أنَّ المخلوق من النَّار خيرٌ من المخلوق من الطِّين من حيث أصل الخلق؟! وقد علم أنَّ الإنسان المخلوق من الطِّين أفضل من الجنِّ المخلوق من النَّار..حيث إنَّ فيهم –أي: الإنس– الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ وفضَّلهم من بين سائر الخلق..

والحاصل أنَّ تقرير إبليس ليس حجَّة.

قال محمَّد بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ظَنَّ الخبيثُ أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، ولم يعلم أنَّ الفضل لمن جعل الله عَزَّوَجَلَّ له الفضل، وقد فضَّل الله عَزَّوَجَلَّ الطِّين على النَّار من وجوه منها: أنَّ من جوهر الطِّين الرَّزانة والوقار والحلم والصَّبر، وهو الدَّاعي لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد السَّعادة التي سبقت له إلى التَّوبة والتَّواضع والتَّضرع فأورثه الاجتباء والتَّوبة والهداية، ومن جوهر النَّار الخفَّة والطَّيش والحدَّة والارتفاع، وهو الدَّاعي لإبليس بعد الشَّقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشَّقاوة؛ ولأنَّ الطِّين سبب جمع الأشياء والنَّار سبب تفرقها؛ ولأنَّ التُّراب سبب الحياة، فإنَّ حياة الأشجار والنَّبات به، والنَّار سبب الهلاك"[(١)].

أقول: ما أورده الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونقله عنه غير واحدٍ من المفسِّرين إنَّما يسلَّم له من حيث تميُّز الطِّين عن النَّار، ولكن لا يسلَّمُ له أنَّ أصل الخلق سببٌ للاستجابة أو الإعراض، أو دافع من الدَّوافع فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ مكلَّفٍ مختارًا، ويجازى على

---

(١) تفسير الطَّبري (١٢/ ٣٢٧). وفي (أضواء البيان): "لا نسلِّم أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، بل الطِّين خيرٌ من النَّار؛ لأنَّ طبيعتها الخفَّة والطَّيش والإفساد والتَّفريق، وطبيعته الرَّزانة والإصلاح فتودعه الحبَّة فيعطيكها سنبلة، والنَّواة فيعطيكها نخلة. وإذا أردت أن تعرف قدر الطِّين فانظر إلى الرِّياض النَّاضرة، وما فيها من الثِّمار اللَّذيذة، والأزهار الجميلة، والرَّوائح الطَّيبة. تعلم أنَّ الطِّين خيرٌ من النَّار. [وقال] إنَّا لو سلمنا تسليمًا جدليًّا أنَّ النَّار خيرٌ من الطِّين، فإنَّه لا يلزم من ذلك أنَّ إبليس خيرٌ من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعًا، والفرع وضيعًا..". انظر: أضواء البيان (١/٣٣– ٣٥)، كتب ورسائل ابن تيمية في التَّفسير (١٥/٥– ٦)، والمعنى قريب في (البحر المديد) (٢/٢٠١)، والبحر المحيط (٥/١٧)، وكذلك في (المنار) (٨/٢٩٤).



اختياره إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وإلا لكان ذلك مدخلا لكلٍّ من خلق من النَّار — وهم الجنُّ— أن يكونوا مدفوعين من أصل الخلق إلى نوازع الشرِّ.. ولا قائل بذلك، وهو ممَّا يتنافى مع الحكمة فتنبه.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ [الحجر:٣٢]، [ص:٧٥]، "وهذا يقتضي أنَّه عَزَّوَجَلَّ تكلَّم معه، فعند هذا قال بعض المتكلِّمين: إنَّه عَزَّوَجَلَّ أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله عَلَيۡهِمُ السَّلَامُ، إلا أنَّ هذا ضعيف؛ لأنَّ إبليس قال في الجواب: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ [الحجر:٣٣]، فقوله: ﴿خَلَقْتَهُ﴾ (خطاب الحضور) لا (خطاب الغيبة)، وظاهره يقتضي أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم مع إبليس بغير واسطة، وأنَّ إبليس تكلَّم مع الله عَزَّوَجَلَّ بغير واسطة، وكيف يعقل هذا مع أنَّ مكالمة الله عَزَّوَجَلَّ بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب؟! فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم؟! ولعلَّ الجواب عنه أنَّ مكالمة الله عَزَّوَجَلَّ إنما تكون منصبًا عاليًا إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام، فأمَّا إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا"[1].

واختُلِفَ في تَسْمِيتِهِ بـ: (إبليس) على قولين:

أحدهما: أنَّه اسم أعجميٌّ، وليس بمشتقٍّ.

والثَّاني: أنَّه اسمُ اشتقاق، اشتُقَّ من (الإبلاس)، وهو اليأس من الخَيْر، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، أي: آيِسُونَ من الخير..."[2].

والرَّاجح أنَّه اسم أعجمي، ومنعه من الصَّرف للعلميَّة والعجمة.

والإبلاس: اليأس[3].

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٤٠/١٩)، انظر: ابن عادل (٤٥٧/١١)، السراج المنير (٢٠١/٢).

(٢) تفسير الطبري (٥٠٩/١)، النُّكت والعيون (١٠٢/١)، تفسير العز بن عبد السَّلام (٢٧/١)، تفسير القرطبي (٢٩٥/١)، روح المعاني (٢٢٩/١)، ابن جزي (٢٦١/١).

(٣) التَّعاريف (ص:٣١)، المصباح المنير، مادَّة: (بلس) (٦٠/١).

قال العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وزاد الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] في معنى (الإبلاس) قيد السُّكوت، ولم يذكره غيره.

والحقُّ أنَّ السُّكوت من لوازم معنى (الإبلاس) وليس قيدًا في المعنى[2].

أقول: وما ذكره قد أشار إليه الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبله في (المفردات)، حيث قال: "ولما كان (المبلس) كثيرًا ما يلزم السُّكوت، وينسى ما يعنيه قيل: (أبلس فلان): إذا سكت، وإذا انقطعت حجَّته"[3].

وكذلك يرد ذلك –أي: ما ذكره الطَّاهر والرَّاغب رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ– على ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (نظم الدُّرر) وغيره من "السُّكون والانكسار، والحزن والتحيُّر، وانقطاع الحجَّة والنَّدم"[4]..

وخطاب الله عَزَّوَجَلَّ لإبليس للتَّقريع والتَّوبيخ، والمعنى: أيُّ: سبب حملك على أن لا تكون مع السَّاجدين لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الملائكة، وقد أمرك الله عَزَّوَجَلَّ بذلك..، وهم في الشَّرف بالمنزلة التي قد علمتها؟.

٢ – نداء فرعون:

أمَّا نداء فرعون ففي موضعين من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

[الأعراف:١٠٤]، [الإسراء:١٠٢].

---

(١) ونص ما قاله الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإبلاس) : أي يبقى بائسا ساكنا متحيرا. يقال: ناظرته فأبلس. إذا لم ينبس، ويئس من أن يحتجَّ. ومنه (النَّاقة المبلاس): التي لا ترغو. وقريء: (يُبْلَس) بفتح اللام، من أبلسه إذا أسكته. الكشاف (٣/٢١٦)، وانظر: البحر المحيط (٨/٣٧٩)، روح المعاني (٢١/٥٢)، البيضاوي (٤/٢٠٣). وقال الزَّمخشري في موضع آخر: "الإبلاس: اليأس من كلِّ خير. وقيل: السُّكوت مع التَّحيُّر". الكشاف (٣/٣٨). وذكر الزَّمخشري ذلك أيضًا في (أساس البلاغة) مادَّة: (بلس) (ص:٢٩)، وفي (المخصص، لابن سيده): (أَبْلَس الرجُل): سكتَ. المخصص (١/٢٢٩).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٥/٢٥٨).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للرَّاغب (ص:١٤٣).

(٤) انظر: نظم الدُّرر (١١/٥٥).



وإليك بيان المعنى مع ما يستفاد مما ولي المنادَى:

"يخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن مناظرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون، وإلجامه إيَّاه بالحجَّة، وإظهاره الآيات البيِّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:١٠٤]، أي: أرسلني الذي هو خالقُ كلِّ شيء وربُّه ومليكه"[(١)].

"وهذه محاورة من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون، وخطاب له بأحسن ما يدعى به وأحبُّها إليه؛ إذ كان مَنْ مَلَكَ (مِصْرَ) يقال له: (فرعون) كنمرود في (يونان)، وقيصر في (الرُّوم)، وكسرى في (فارس)، والنَّجاشي في (الحبشة)، وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علمًا شخصيًّا، بل يكون علم جنس كأسامة وثعالة، ولما كان فرعون قد ادَّعى الرَّبوبيَّة فاتحه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لينبِّهه على الوصف الذي ادعاه، وأنَّه فيه مبطل لا محقٌّ، ولما كان قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٠٥] أردفها بما يدلُّ على صحَّتها، وهو قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ [الأعراف:١٠٥]، ولما قرَّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم، وهو قوله: ﴿فَأَرْسِلْ﴾، ولم ينازعه فرعون في هذه السُّورة في شيءٍ مما ذكره موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلا أنَّه طلب المعجزة. ودلَّ ذلك على موافقته لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنَّ الرِّسالة ممكنة لإمكان المعجزة؛ إذ لم يدفع إمكانها، بل قال: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف:١٠٦].."[(٢)].

وأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]. (الظنُّ) هنا بمعنى التَّحقيق.

و(الثُّبور): الهلاك والخسران أيضًا[(٣)].

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثمَّ حكى تعالى أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لفرعون: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾. واعلم أنَّ فرعون قال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٥٤).

(٢) البحر المحيط (٥/٤٢٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٠/٣٣٧)، أضواء البيان (٦/٢٧).

مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١]، فعارضه موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾"[١].

"والظَّاهر أنَّ خطاب موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فرعونَ بقوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ خطاب إكرام؛ لأنَّه ناداه بالاسم الدَّالِّ على الملك والسُّلطان بحسب متعارف أمَّته فليس هو بترفع عليه؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال له ولهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا﴾ [طه:٤٤]. والظَّاهر أيضًا أنَّ قول موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هذا هو أوَّل ما خاطب به فرعون كما دلَّت عليه (سورة طه)"[٢].

وهاك إجمال النَّتائج المستفادة:

١ – إنَّ الشِّرك أو الكفر هو أقبح الظُّلم، كما أنَّه كذلك أكبرُ الذُّنوب، وأشنعُ المعاصي..والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى –حقيقة الألوهيَّة، وحقيقة التَّوحيد– ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدُّنيا والآخرة.

٢ – الحكمة في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتزام آداب البحث والمناظرة في الحوار، حيث خاطب موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فرعون بخطاب الإكرام الذي ينزِّلُ المدعوَّ المنزلة اللَّائقة به في حال الخطاب والمناظرة..

٣ – إنَّ دعاة الباطل، وعلى الأخصِّ من كان له نفوذ وسلطة يظلمون النَّاس بإخراجهم من العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ الواحد إلى العبوديَّة للطَّواغيت المتعدِّدة والأرباب المتفرِّقة.

٤ – الاعتبار بالعاقبة والمآل في الدُّنيا والآخرة لمن ظلم نفسه، وأنكر حقيقة التَّوحيد، وتسبَّب في إضلال غيره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

٥ – قطع أعذار فرعون ومن تبعة بإقامة الحُجَّةِ عليهم، بالمحاورة والمناظرة، وبالمعجزات الماديَّة التي جاء بها موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومع ذلك كفروا وجحدوا..

---

(١) تفسير الرَّازي (٢١/٤١٥)، السراج المنير (٢/٣٤٢).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٩/٣٧).



٦ – اقتداء المخاطَبين بالرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والصبر على الإيذاء في سبيل ذلك.

٧ – إن للرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ منهجا قويمًا في الدَّعوة، يتأسَّى به كلُّ داعية.

"وإنَّ الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الواحد، والعبوديَّة لإلهٍ واحد، وإنَّ الأرض لتفسد حين لا تتمخَّض العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ في حياة النَّاس..إنَّ العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ وحده معناها أن يكون للنَّاس سيِّد واحد، يتوجَّهون إليه بالعبادة وبالعبوديَّة كذلك، ويخضعون لشريعته وحدها، فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلِّبة، وشهوات البشر الصَّغيرة!.

إنَّ الفساد يصيب تصوُّراتِ النَّاس كما يصيب حياتهم الاجتماعيَّة حين يكون هناك أربابٌ متفرِّقون يتحكَّمون في رقاب العباد –من دون الله عَزَّوَجَلَّ– وما صلحت الأرض قطُّ ولا استقامت حياة النَّاس إلَّا أيام أن كانت عبوديتهم لله عَزَّوَجَلَّ وحده –عقيدةً وعبادةً وشريعة– وما تحرَّر الإنسان قط إلَّا في ظلال الرُّبوبيَّة الواحدة. ومن ثَمَّ يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وملئه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣].

وكلُّ طاغوت يُخضع العباد لشريعة من عنده، وينبذ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، هو من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون!"(١).

٨ – الحاجة في كلِّ زمان إلى الدُّعاة الذين يدعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهم على بصيرة ودراية بأحوال المخاطَبين، واختلاف ثقافاتهم، وقدراتهم العقلية، يحسنون فنَّ المناظرة والحوار، ويتعمدون على الدَّليل والحُجَّة والبرهان الذي يقنع المخاطَبين، ويدحضُ حجج المخالفين.

٩ – أن يكون الغرض من المناظرة والحوار الوصول إلى الحق.

---

(١) الظِّلال (٩/١٣٤٥).

٣ - نداء هامان:

أمَّا نداء هامان ففي موضعين من فرعون:

[القصص:٣٨]، [غافر:٣٦].

يخبرُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهيَّة لنفسه حيث دعا قومه مستخفًّا بهم، حيث لم يعملوا عقولهم، ولم يتفكَّروا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤]، فقد جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصَرِّحًا لهم بذلك، ودعاهم إلى الاعتراف له بالإلهيَّة، فأجابوه سامعين مطيعين. فأجابوه إلى ذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]. وقال عَزَّوَجَلَّ حكاية عن فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٦]. وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص:٣٨]، أي: أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطِّين، ليتخذ له آجُرًّا لبناء الصَّرح - وهو القصر المنيف الرَّفيع-كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧]؛ وذلك لأنَّ فرعون بنى هذا الصَّرح الذي لم يُرَ في الدُّنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيَّته تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما زعمه من دعوى إلهٍ غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨][١].

أمَّا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾، أي: اطبخ لي الآجر، روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٢٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣/٢٨٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١٣/٨٠٨)، الدر المنثور (٦/٤١٦). قال الزَّمخشري: ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه؛ لأنَّه أوَّل من عمل الآجر، فهو يعلمه الصَّنعة؛ ولأنَّ هذه العبارة أحسن طباقًا لفصاحة القرآن، وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه=



وقال قتادة: هو أوَّل من صنع الآجر، وبنى به[1].

ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصَّرح جمع هامان العمال. -قيل: (خمسين ألف) بناء سوى الأتباع والأجراء- وأمر بطبخ الآجر والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء، وشيَّدوه بحيث لم يَبْلغه بنيانٌ منذ خلق الله عَزَّوَجَلَّ السَّموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتنهم فيه. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شكٌّ، فكفر على الشَّكِّ؛ لأنَّه قد رأى من البراهين ما لا يخيل[2] على ذي فطنة[3].

ويستفاد مما ولي المنادى من قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أنه يستدلَّ بعدم الدَّليل على عدم المدلول -على حدِّ زعمه-، وهو خطأ من جهة أنَّ الدَّليل على المدلول -وهو وجود الصَّانع- أكثر من أن يحصى، ومن جهة أنَّ عدم الدَّليل لا يستلزم عدم المدلول. وأمَّا قوله: ﴿غَيْرِي﴾ فقد تكلَّف له بعضهم أنَّه لم يرد به أنَّه خالق السَّموات والأرض وما فيهما؛ فإنَّ امتناع ذلك بديهي، وإنما أراد به نفي الصَّانع والاقتصار على الطَّبائع، وأنَّه لا تكليف على النَّاس إلَّا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره.

أمَّا قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ فقد تكلَّفوا له ههنا أيضًا، فقيل: إنَّه يبعد من العاقل أن يرومَ صعود السَّماء بآلةٍ، ولكنَّه أراد أنَّه لا سبيل إلى إثبات الصَّانع من حيث العقل -كما مرَّ-، ولا من حيث الحس؛ فإنَّ الإحساس به يتوقَّف على الصُّعود وهو معتذِّرٌ، وإلَّا فابنِ يا هامان مثل هذا البناء، وإنما قال ذلك تهكُّمًا. فبمجموع هذه الأشياء قرَّرَ أنَّه لا دليل على الصَّانع، ثمَّ رتَّب النَّتيجة عليه، وهو قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يحتمل أن يريد: لأعلمه من الكاذبين. والأكثرون من

=بالإيقاد على الطِّين منادى باسمه بـ: (يا) في وسط الكلام.. دليل التَّعظيم والتَّجبر. الكشاف (٣/١٧٩- ١٨٠).

(١) انظر: القرطبي (١٣/ ٢٨٨)، الدُّر المنثور (٦/٤١٦)، معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (٥/١٨٠).

(٢) لا يخيل: أي: لا يشكل.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٩).



المفسِّرين على أنَّه بنى مثل هذا البناء جهلًا منه، أو تلبيسًا على مَلئِهِ حيث صادفهم أغبى النَّاس وأخلاهم من الفطن..

وإنما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ ولم يقل: اطبخ لي الآجر؛ لأنَّ هذه العبارة أحسن؛ ولأنَّ فيه تعليم الصَّنعة، وقد كان أوَّل من عمل الآجر فرعون..-كما سبق- والطُّلوع والاطِّلاع: الصُّعود. يقال: طلع الجبل واطَّلع.

وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٣٩]، يعني: أرض (مصر) ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، إشارة إلى أنَّ الاستكبار بالحقِّ إنما هو لله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ مستكبرٍ سواه عَزَّوَجَلَّ فاستكباره بغير الحقِّ[1].

وهاك إجمال النَّتائج المستفادة مما سبق:

أمَّا قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.. فهي "كلمةٌ فاجرةٌ كافرة، يتلقَّاها الملأُ بالإقرار والتَّسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في (مصر) من نسب الملوك للآلهة. ثمَّ على القهر، الذي لا يدع لرأسٍ أن يفكر، ولا للسانٍ أن يُعبِّر. وهم يرونه بشرًا مثلهم يحيا ويموت، ولكنَّه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب! ثمَّ يتظاهرُ بالجدِّ في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يلهو ويسخر: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾..في السَّماء. كما يقول وبلهجة التَّهكم ذاتها يتظاهر بأنَّه شاكٌّ في صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنَّه مع هذا الشَّكِّ يبحث وينقِّبُ ليصل إلى الحقيقة: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾! وفي هذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السَّحرة. وهي محذوفة هنا للتَّعجيل بالنِّهاية..﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٣٩]"[2].

كما يستفاد أن عدم الدَّليل لا يستلزم عدم المدلول.

---

(١) انظر: الكشاف (١٨٠/٣)، ابن عادل (٢٦١/١٥)، روح المعاني (٨٢/٢٠)، الرَّازي (٦٠٠/٢٤)، تفسير النَّيسابوري (٣٤٣/٥)، النسفي (٦٤٥/٢)، البحر المديد (٢٥٣/٤).

(٢) الظِّلال (٢٦٩٤/٢٠ –٢٦٩٥).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان العاقبة والمآل: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩]، أي: فائتين عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، أي: فارِّين منه، بل أدركهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

والحاصل أنَّه يقال في هذه الصِّيغة من النِّداء ما قيل في السَّابقة من العبر والعظات من حيث الاعتبار ببيان عاقبة الظَّالمين المستكبرين.

٤ – نداء السَّامري:

وأمَّا نداء السَّامري(١) ففي موضع واحد من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

[طه:٩٥]

والخطاب من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث ترك هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ومال إلى السَّامري(٢).

---

(١) و(السَّامري): قيل اسمه هارون، وقيل اسمه موسى بن ظفر، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه من قوم كانوا يعبدونَ البقر، وقيل: كان رجلا من القبط. وكان جارًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيمًا من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف (بالسَّامرة)، وهم معروفون بالشَّام. قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: كان من أهل (كرمان). وقيل: كان من أهل (باجرما). انظر: أضواء البيان (٤/٧٨)، تفسير الطَّبري (٢/٦٦- ٦٧)، تفسير ابن كثير (٥/٣١٣)، تفسير القرطبي (١١/٢٣٤)، الدُّر المنثور (٥/٥٨٨)، الكشاف (٢/٥٥١)، تفسير أبي السُّعود (٦/٣٤)، البحر المحيط (٧/٣٦٧)، زاد المسير (٣/١٧٣)، التَّحرير والتَّنوير (١٦/٢٨٠–٢٩٤)، ابن عادل (١٣/٣٥٠)، النُّكت والعيون (٣/٥٩)، تفسير البيضاوي (٤/٣٥)، السمعاني (٣/٣٥٣). و(باجرما): قرية من أعمال البليخ قرب (الرَّقة)، من أرض الجزيرة. (ياقوت). ويقال: موضع قبل نصيبين (معجم ما استعجم) (١/٢٢٠)، وانظر: معجم البلدان (١/٣١٣).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١/٢٨٦).

قال قتادة: كان السَّامري عظيمًا في بني إسرائيل، ولكن عدوَّ الله عَزَّوَجَلَّ نافق بعد ما قطع البحر مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمَّا مرَّت (بنو إسرائيل) بالعمالقة، وهم يعكفونَ على أصنامٍ لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فاغتنمها السَّامري، وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتَّخذ العجل[1]. فقال له موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بصيغة النِّداء: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:٩٥]، أي: ما شأنك وما قصتك؟! وهذه الصِّيغة تشير إلى جسامة الأمر، وعظم الفعلة.

وخطابه عَلَيْهِ السَّلَامُ إيَّاه بذلك ليظهر للنَّاس بطلان كيده باعترافه، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالًا للمفتونين، ولمن خلفهم من الأمم[2].

عاشرًا: نداء المخلوقات الأخرى غير الجمادات (نداء النملة):

أما نداء النَّملة للنَّمل ففي موضع واحد: [النَّمل:١٨].

١ – بيان المعنى:

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:١٨]. فإن قال قائل: كيف صلح أن يجمعوا بالواو والنُّون، وإنما سبيل الواو والنُّون أن يكونا للنَّاس؟ قيل له: العلَّة في هذا أنَّهنَّ وصفنَ بوصفِ النَّاس، وأجرين مجرى النَّاس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ فأثبتت الواو في فعل (النَّمل)؛ لأنَّهنَّ وصفنَ بالقول، والقول سبيله أن يكون من النَّاس. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٦/٣٨)، روح المعاني (١٦/٢٥٢)، الدُّر المنثور (٦/٤٣٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٠٥)، تفسير القرطبي (١١/٢٣٩)، تفسير الماوردي (٤/٢٦٤)، البحر المديد (٣/٤١٥)، الهداية إلى بلوغ النِّهاية (٧/٤٦٩٣).

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، فقال: ﴿سَاجِدِينَ﴾، ولم يقل: (ساجدات)؛ لأنَّه وصفهن بمثل وصف النَّاس[1].

ومن سنن العرب أن تُجْرِيَ المواتَ وما لا يَعْقِل في بعض الكلام مجرى بني آدم. فيقولون في جمع أرض: (أرضون). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣]، و﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]، و﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤][2].

و﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل:١٨]، و﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٩].

وفي (تفسير الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]: أي: البهائم الإبل والبقر والغنم فتلعن عصاة بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا أجدبت الأرض، فإن قال لنا قائل: وما وجه الذين وجهوا تأويل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ إلى أنَّ اللَّاعنين هم: الخنافس والعقارب، ونحو ذلك من هوام الأرض، وقد علمت أنها إذا جَمعتْ ما كان من نَوع البهائم، وغير بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنما تجمعه بغير الياء والنُّون وغير الواو والنُّون، وإنما تجمعه بالتاء، وما خالف ما ذكرنا فتقول: (اللَّاعنات) ونحو ذلك؟ قيل: الأمر وإن كان كذلك فإنَّ من شأن العرب إذا وصفت شيئًا من البهائم أو غيرها مما حكم جمعه أن يكون بالتَّاء وبغير صورة جمع ذُكْرَانِ بني آدم بما هو من صفة الآدميين أن يجمعوه جمع ذكورهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١] فأخرج خطابهم على مثال خطاب بني آدم إذ كلمتهم وكلموها، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، وكما قال: ﴿وَالشَّمْسَ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨٧/٢)، تفسير السَّمعاني (٧/٣)، الخازن (٢٦٢/٣)، الكشف والبيان (٣٠/٢)، البغوي (٤٧٥/٢)، الخازن (٥١١/٢)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (٣٣٨/١)، وانظر: مغني اللَّبيب (ص:٤٧٨)، والخصائص (٢٢/١).

(٢) انظر: كتاب الكليَّات (ص:٤٩)، وانظر: المزهر في علوم اللُّغة وأنواعها (٢٦٨/١)، لسان العرب، مادَّة: (أرض) (١١١/٧).

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقال آخرون: عنى الله عَزَّوَجَلَّ ذكره بقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾: الملائكة والمؤمنين. وذكر من قال ذلك"[1].

٢ - فوائد تتعلَّق بالآية:

وهنا فوائد تتعلَّق بالآية، وما فيها من النِّداء فإنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ قد جمع في هذه اللَّفظة (أحد عشر) جنسًا من الكلام: نادت، وكنَّت، ونبَّهت، وسمَّت، وأَمَرَتْ، وقصَّت، وحَذَّرت، وخَصَّت، وعمَّت، وأشارت، وعذرت. فالنِّداء: ﴿يَا﴾، والكناية: ﴿أَيُّ﴾، والتَّنبيه: ﴿هَا﴾، والتَّسمية: ﴿النَّمْلُ﴾، والأمر: ﴿ادْخُلُوا﴾، والقصص: ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾، والتَّحذير: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، والتَّخصيص: ﴿سُلَيْمَانُ﴾، والتَّعميم: ﴿وَجُنُودُهُ﴾، والإشارة: ﴿وَهُمْ﴾، والعذر: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾، فأدت خمس حقوق حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ، وحقَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحقَّها، وحقَّ رعيتها، وحقَّ جنود سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

٣ - إجمال ما يستفاد:

دلَّ هذا الخطاب من النَّمل وفهم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لندائها على أنَّ عالم النَّمل عالم له خصائصه وطبائعه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨].

ومما يدلُّ على ذلك أيضًا: ما روى عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ**[3]

---

(١) تفسير الطَّبري (٣/٢٥٦)، تفسير أبي السُّعود (١/١٨٢)، الرازي (٤/١٤١)، تفسير النَّيسابوري (١/٤٤٨)، ابن عادل (٣/١٠٧).

(٢) الإتقان (٢/١٤٨)، الكليَّات (ص:٣٢٤).

(٣) أي: متاعه.



فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلاَّ نَمْلَةً وَاحِدَةً))[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ))**[2].

والشَّاهد أنَّ النَّمل أمَّةٌ من الأمم تسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ مثل بقية الحيوانات. وقد نهى النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن **((قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةُ وَالنَّحْلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرَدُ))**[3].

فلا يجوز قتل النَّمل إلا المؤذي[4].

الحادي عشر: نداء الجمادات:

نداء الأرض والسَّماء: [هود:٤٤].

نداء النَّار: [الأنبياء:٦٩].

نداء الجبال: [سبأ:١٠].

(١) أخرجه البخاريُّ [٣٣١٩]، ومسلم، [٢٢٤١].

(٢) أخرجه البخاريُّ، [٣٠١٩]، ومسلم، [٢٢٤١].

(٣) أخرجه أبو داود، [٥٢٦٧]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن ماجه [٣٢٢٤]، وأحمد [٣٠٦٦]، والدَّارمي [٢٠٤٢]. والحديث صحيح. انظر: البدر المنير (٣٤٥/٦)، الإلمام بأحاديث الأحكام (٤٤٤/٢)، التَّلخيص الحبير (٥٨٤/٢، ١٠٩٣)، خلاصة البدر المنير (٣٥/٢، ١٣٨٦). و(الصُّرَد): طائر فوق العصفور، وقيل: طائر أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، ضخم المنقار، له برثن عظيم. انظر: مادَّة: (صرد) (٢٨٤/٣)، وكذلك انظر: العين، مادَّة: (صرد) (٩٧/٧)، المغرب (٤٧١/١).

(٤) انظر على سبيل المثال: حاشية العدويِّ على شرح كفاية الطَّالب (٦٥٧/٢)، بغية المسترشدين (ص:٥٥١)، كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٥١١/٥)، المبدع شرح المقنع (٩٠/٣).

١ - نداء الأرض والسَّماء:

أمَّا نداء الأرض والسَّماء فقد جاء في آية واحدة، وهي قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٤٤].

وأورد هنا إلى ما يتعلَّق بنداء الجمادات، فإنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ﴾، يدلُّ على أنَّه سبحانه في الجلال والعلوِّ والعظمة، بحيث أنَّه متى قيلَ قيلٌ لم ينصرف العقل إلا إليه، ولم يتوجَّه الفكر إلَّا إلى أنَّ ذلك القائل هُو هو. وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنَّه تقرَّر في العقول أنَّه لا حاكم في العالمين ولا متصرِّف في العالم العلويِّ والعالم السُّفليِّ إلَّا هو. وإنَّ الحسَّ يدلُّ على عظمة هذه الأجسام وشدَّتها وقوَّتها، فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرِّف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببًا لوقوف القوَّة العقليَّة على كمال جلال الله عَزَّوَجَلَّ وعلوِّ قهره، وكمال قدرته ومشيئته. والسَّماء والأرض من الجمادات، ويدلُّ ذلك على أنَّ أمره وتكليفه نافذٌ في الجمادات(١).

وهل النِّداء هنا مجاز أم حقيقة؟

قيل: هذا مجاز؛ لأنها موات. وقيل: جعل فيها ما تميِّز به(٢).

وقد سبق بيان ذلك وتحقيق القول الرَّاجح في (بيان من الذي ينادى؟).

أمَّا (ما ولي المنادَى) فقد ذكر النَّيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه "استعار لغور الماء في الأرض (البلع) الذي هو إعمال القوَّة الجاذبة في الطُّعوم للشَّبه بين الغورِ والبلع، وهو الذَّهاب إلى مقرٍّ خفيٍّ. وجعل قرينة الاستعارة نسبه الفعل إلى المفعول، وفي جعل الماء مكان

---

(١) انظر: تفسير الرَّازي (١٧/٣٥٣)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٠/٤٩٩).

(٢) انظر: القرطبي (٩/٤٠)، وكذلك ينظر تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

الغذاء أيضًا استعارة؛ لأنَّه شبَّه الماء بالغذاء لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزُّروع والأشجار تقوي الآكل بالطَّعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة: ﴿ابْلَعِي﴾؛ لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء. ثمَّ أمر الجماد على سبيل الاستعارة للشَّبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر دون أن يقول ليبلع ترشيحًا لاستعارة النِّداء[1]؛ إذ كونه مخاطبًا من صفاتِ الحيِّ، كما أنَّ كونه منادى من صفاته. ثمَّ قال: ﴿مَـــاءَكِ﴾ بإضافة الماءِ إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهًا؛ لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك. واختار ضمير الخطاب دون أن يقول: (ليبلع ماؤها) لأجل التَّرشيح المذكور. ثمَّ اختار مستعيرًا لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشَّبه بينهما في عدم ما كان، ثمَّ أمر على سبيل الاستعارة، وخاطب في الأمر لمثل ما تقدَّم في ﴿ابْلَـــعِي﴾ من ترشيح استعارة النِّـداء"[2]. وقد ذكر النَّيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] أنَّ (نداء الأرض)، و(نداء السَّماء)..من المجاز لا من الحقيقة..وقد هو عكس ما قد رجَّحته آنفًا.

والحاصل أنَّ الآية تتضَّمن أوجهًا من البلاغة ذكرتُ منها في (الإقناع) ما يزيد على (اثنين وعشرين) وجهًا[4].

---

(١) الاستعارة المرَشَّحة ما ذكر معها ملائم المشبَّه به، والمجرَّدة ما ذكر معها ملائم المشبَّه، والمطلقة ما خلت من ملائم المشبَّه به أو المشبَّه..ولا يعتبر التَّرشيح والتَّجريد إلا بعد أن تتمَّ الاستعارة باستيفائها قرينتها لفظيَّة أو حاليَّة؛ ولهذا لا تسمَّى قرينة التَّصريحيَّة تجريدًا؛ لأنَّه قد ذكر المشبَّه نفسه، ولا قرينة المكنية ترشيحًا؛ لأنَّ المرشَّحة فيها ملائم المشبَّه، أمَّا المكنية ففيها لازم من لوازمه، وثمَّة فرق بينهما. وهنا المشبَّه: غور الماء، والمشبَّه به: البلع، ووجه الشَّبه: الذَّهاب إلى مقرٍّ خفيٍّ، والقرينة نسبة الفعل إلى المفعول...كما شبَّه الماء بالغذاء، فالماء مشبَّه، والغذاء مشبَّه به، والتَّرشيح نداء الجماد، والملائم البلع....

(٢) تفسير النَّيسابوري (٤/٢٥)، وانظر: تفسير النسفي (٢/٦٢)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٥/١٠٠)، تفسير المنار (١٢/٧٩).

(٣) انظر: المصدر السَّابق (٤/٢٥).

(٤) انظر: الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر (٣٧٥-٣٨٢)، وينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/١٠٢)، الإتقان (٢/١٢١)، (٣/٢٢٧)، دلائل الإعجاز (ص:٩١-٩٢)، مقدِّمة تفسير ابن النَّقيب (ص:٣٩٧)، و(ص:٣٧٠).



٢ – نداء النَّار:

وأمَّا نداء النَّار فقد جاء في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، ويستفاد من هذا النِّداء أمور منها: أنَّ الطَّبيعة لا تؤثِّرُ في شيءٍ إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ النَّار مع شدَّةِ طبيعة الإحراق فيها ألقى فيها الحطبُ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شكَّ أنَّ الحطبَ أصلبُ وأقسى وأقوى من جِلد إبراهيم عَزَّوَجَلَّ ولحمه، فأحرقت الحطبَ بحرِّها، وكانت على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بردًا وسلامًا، فسبحان من لا يقعُ شيءٌ كائنًا ما كان إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ، فعَّال لما يريد. ولو شاء الله عَزَّوَجَلَّ تخلُّف تأثيرِ الأسباب عن مسبّباتها لتخلَّف. فإنَّ طبيعةَ الإحراق في النَّار معنى واحد لا يتجزَّأ إلى معانٍ مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادًا من حرِّها في الوقت الذي هي كائنة بردًا وسلامًا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. فدلَّ ذلك دلالة قاطعة على أنَّ التَّأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السَّموات والأرض عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يسبِّب ما شاء من المسبِّبات على ما شاء من الأسباب، وأنَّه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته عَزَّوَجَلَّ[(١)].

"وقد أظهر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك معجزة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ وَجَّه إلى النَّار تعلُّقَ الإرادة بسلب قوَّة الإحراق، وأن تكون بردًا وسلامًا إن كان الكلام على الحقيقة[(٢)]، أو أزال عن مزاج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّأثر بحرارة النَّار إن كان الكلام على التَّشبيه البليغ[(٣)]، أي: كوني كبرد في عدم تحريق الملقَى فيك بحَرِّك. وأمَّا كونها سلامًا فهو حقيقة لا

(١) انظر: أضواء البيان (٣٤٢/٢)، (٧٦/٢٠).

(٢) أي: لو كان الخطاب للنَّار لكان المعنى أنَّها تحوَّلت إلى بردٍ لانقلاب الحقيقة. أمَّا لو بقيت النَّار نارًا على حقيقتها ولكنَّها كانت كالبرد على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من حيث عدم التَّأثر فإنَّ المعنى يكون كوني كبرد في عدم تحريق الملقَى فيك بحَرِّك فحذف أداة التَّشبيه ووجه الشبه.

(٣) هو التَّشبيه الذي لم تُذْكر فيه أداة التَّشبيه، ولم يُذْكَر فيه أيضًا وجْه الشَّبه. نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]. ومن التَّشبيه البليغ المصدر المضاف المبيِّن للنَّوع نحو: (راغ روغان الثَّعلب)، ومنه أيضًا إضافة المشبَّه به للمشبَّه نحو: (لبس فلانٌ ثوبَ العافية)...



محالة[١]، وذِكر ﴿سَلامًا﴾ بعد ذكر البرد كالاحتراس؛ لأنَّ البرد مؤذٍ بدوامه ربما إذا اشتد، فعُقِّب ذكره بذكر السَّلام لذلك"[٢].

وأمَّا (ما أعقب المنادى) من الأمر فإنَّ هذه هي الكلمة التي تكوَّن بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فلا نسأل: كيف لم تحرق النَّار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ والمشهود المعروف أنَّ النَّار تحرق الأجسام الحيَّة؟! فالذي قال للنَّار: كوني حارقةً هو الذي قال لها: كوني بردًا وسلامًا. وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول. مألوفًا للبشر أو غير مألوف.

إنَّ الذين يقيسونَ أعمال الله عَزَّوَجَلَّ إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأمَّا الذين يدركون اختلاف الطَّبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلًا، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلًا علميًّا أو غير علميٍّ. فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلًا. ليست في ميدان التَّعليل والتَّحليل بموازين البشر ومقاييس البشر. وكلُّ منهج في تصوُّر مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهجٌ فاسد من أساسه؛ لأنَّ أعمال الله عَزَّوَجَلَّ غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إنَّ علينا فقط أن نؤمن بأنَّ هذا قد كان؛ لأنَّ صانعه يملك أن يكون. أمَّا كيف صنع بالنَّار فإذا هي برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فلا تحرقه النَّار..فذلك ما سكت عنه النَّصُ القرآني؛ لأنَّه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود. وليس لنا سوى النَّص القرآني من دليل.

---

(١) أي: لأنَّه لا يتأتَّى حملها على المجاز لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرج منها سالما في كلِّ الأحوال، أي: سواء تحوَّلت حقيقة النَّار إلى بَرْدٍ أو أزال عن مزاجه التَّأثر....

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٧/١٠٦).



وما كان تحويل النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلَّا مثلًا تقع نظائره في صور شتَّى. ولكنَّها قد لا تهزُّ المشاعر كما يهزُّها هذا المثل الجاهر. فكم من ضيِّقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية، وإن هي إلا لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهي الشَّر المستطير؟!.

إنَّ ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لتتكرَّر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم، وفي حياة الأفكار والعقائد والدَّعوات، وإن هي إلَّا رمز للكلمة التي تبطل كلَّ قول، وتحبطُ كلَّ كيد؛ لأنها الكلمة العليا التي لا ترد..

٣ - نداء الجبال:

وأمَّا نداء الجبال فقد جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠]، ويقال في نداء الجبال ما قيل في سابقه من نداء الأرض والسَّماء..من عظمة المنادَى –بفتح الدال المهملة–، وانقياده لقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث جعله مسخَّرًا لداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد جاء هذا البيان موجَّهًا للمخاطَبين؛ لبيان نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ، وتصريفه في مخلوقاته ما يوضِّح استيلاء قهره وملكه، ويشير إلى عظيم ملكه كما بيَّن في غير موضع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له ما في السَّموات وما في الأرض. وفي الآية إشارة إلى فضيلة داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ولقد منَّ الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وآتاه من العلم النَّافع، والعمل الصَّالح، والنِّعم، ومن نعمه عليه، ما خصَّه به من أمره عَزَّوَجَلَّ الجمادات، كالجبال، والحيوانات من الطُّيور أن تُؤَوِّبَ معه، وتُرَجِّع التَّسبيح بحمد ربها عَزَّوَجَلَّ، مجاوبةً له، وكان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده.

ومن فائدة ذلك أن يكون محفِّزًا ومنهضًا له ولغيره من المخاطَبين على التَّسبيح؛ فإنَّهم إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها عَزَّوَجَلَّ، وتمجيده، وتكبيره، وتحميده، كان ذلك مما يهيِّج على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. فقد جاء في القرآن قول الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ومن المعلوم أنَّ (النَّكرة في سياق النَّفي والنَّهي تعمُّ).

وفي خطاب الجماد إشعارٌ بأنَّه ما من صامتٍ ولا ناطقٍ إلا وهو منقادٌ لمشيئته.

وقد أَلانَ الله عَزَّوَجَلَّ له الحديدَ كالشَّمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مِطْرَقَةٍ، وذلك في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ يسير، أو لانَ الحديدُ في يده لما أوتي من شدَّة القوَّة.

وهل تُسبِّح حقيقةً أم بظهورِ أثر الصَّنعة فيها، ودلالتها على وجود الخالق عَزَّوَجَلَّ؟ للمفسِّرين قولان. وقد سبق تحقيق أنَّ تسبيح الجبال والطَّير مع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تسبيح حقيقي، يجعل لله عَزَّوَجَلَّ لها إدراكاتٍ تسبِّح بها، يعلمها هو عَزَّوَجَلَّ ونحن لا نعلمها.

٤ - النَّتائج المستفادة:

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ الصِّيغة التي فيها (**نداء الأرض والسَّماء**) تدلُّ على عظمة المنادِي -بكسر الدال المهملة-، وأيضًا تدلُّ على عظمة المنادَى -بفتح الدال المهملة-، وأنها أجسام عظيمة مخلوقة، وأنها على عظمها خاضعةٌ لقدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته، وأنَّ الجمادات تؤمر وتنقاد..

وأمَّا (**نداء النَّار**) فيدلُّ على عظمة المنادَى -بفتح الدال المهملة-، وقوَّة تأثيره في المخلوق البشري، ومع ذلك فهو لا يؤثر في شيءٍ إلَّا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو خالقُ الأسباب والمسبِّبات، ولو شاء تخلُّفَ تأثير الأسباب عن مسبِّباتها لفعل، وذلك يدلُّ على قدرته، كما يدلُّ على مكانة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتأييد الله عَزَّوَجَلَّ له، كما يستفاد أنَّ البونَ شاسعٌ بين صفاتِ الخالق عَزَّوَجَلَّ، وصفات المخلوق. كما يجب الإيمان والتَّسليم بذلك كلِّه، وأن لهذا الإيمان، ولهذه القصَّة من الأثر ما ينعكسُ في نفوسِ المخاطَبين وأفعالهم، وأنَّ الحقَّ لا بدَّ أن يعلو وينتصر..





المطلب الثالث عشر :
المنادى المبني

ويتضمَّن:

أولًا: المنادى المفرد المعرفة.

ثانيًا: النكرة مقصودة.

ثالثًا: المنادى الموصوف بابن.

رابعًا: المنادى بلفظ (أَي) و(أيه).

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

يبنى النِّداء في بعض الحالات، وهي:

أولًا: المنادى المفرد المعرفة:

وهو كثير جدًّا في الخطاب القرآني وهو يبنى على ما يرفع به في محلِّ نصب، وذلك نحو الآيات التَّالية: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾ [البقرة:٣٣]، ونحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠].

"فألزم الضَّم أو نائبه، ونائب الضَّمِّ: الألف في المثنى، والواو في جمع المذكَّر السَّالم، ونعني (بالمفرد): ما ليس مضافًا ولا شبيهًا بالمضاف، ولو كان مثنى أو مجموعًا.

ونعني (بالمعرفة): ما أريد به معيَّن سواء كان علمًا أو غيره.

فهذا النُّوع يبنى على الضَّمِّ في مسألتين:

الأولى: أن يكون غير مثنى ولا مجموع جمع مذكَّر سالما، [وهو كثير في النِّداء القرآني] نحو: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا﴾ [الأعراف:٧٧]، ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ﴾ [هود:٤٨]، ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ [هود:٥٣].

الثانية: أن يكون جمع تكسير: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾ [سبأ:١٠].

ويبنى على الألف إذا كان مثنى نحو: يا زيدان، يا رجلان، ويبنى على الواو إذا كان جمع مذكر سالما: يا زيدون، يا مسلمون، إذا أريد بهما معيَّن"(١).

---

(١) بتصرُّف عن (شذور الذَّهب) (ص:١٤٣– ١٤٤).



ثانيًا: النكرة المقصودة:

وهي النَّكرة التي تقصد قصدًا في النِّداء؛ ولذلك تكتسب التَّعريف منه؛ لأنَّه يحدِّدُها من بين النَّكرات، وهي تبنى على ما ترفع به في محلِّ نصبٍ[1].

وأمَّا نداء (النَّكرةُ المقصودة) في الخطاب القرآني فقد جاء في (أربعة) مواضع، وهي:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود:٤٤].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ [يوسف:١٩].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وقد سبق بيان ما يتعلَّق بمعنى هذه الآيات..

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ فإنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بُشْرَى﴾ -بسكون الياءِ- نكرة مقصودة، نادى البشرى، كأنَّه عَزَّوَجَلَّ يقول: فهذا أوانك..، واحتمل أن يكون نكرة غير مقصودة فهو معرب، وحذف التَّنوين لمنع الصَّرف؛ لأنَّ ألف (فُعلى) لا تكون إلَّا للتَّأنيث[2].

---

(١) انظر: اللُّباب في علل البناء والإعراب (٣٣٩/١)، وانظر: شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك (٢٥٨/٣)، و(ص:٢٢٩)، و(ص:٢٦٢) من الجزء نفسه.

(٢) انظر ذلك مفصَّلًا في: دراسات لأسلوب القرآن (٣/ ٥٢٣)، معاني القرآن، للفرَّاء (٣٩/٢-٤٠)، الكشاف (٢٤٧/٢)، البحر المحيط (٢٩٠/٥)، العكبري (٢٧/٢)، القرطبي (٣٣٨٢/٤).



ثالثًا: المنادى الموصوف بابن:

إذا كان العلم المفرد موصوفًا بكلمة: (ابن) أو (بنت) بشرط أن يكونا مضافين إلى علم ففيه وجهان: البناء على الضَّمِّ، والبناء على الفتح[1].

أمَّا لفظ (ابن) الواقع صفةً للعلم فلا يجوز فيه إلا النَّصب.

ومثال ذلك من القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة:١١٠]، ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة:١١٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦]؛ ولأنَّ (عيسى) اسم مقصور فالفتح والضَّم مقدَّران[2].

وفي (الفريد): "يحتمل أن يكون (عيسى) مفتوحًا على إتباع حركته لا حركة الابن؛ لأنَّه قد وصفت به، وهو بين علمين، كقولك: (يا زيد بن عمرو)، فحركة (زيد) الإتباع، وحركة (ابن) حركة إعراب، وأن يكون مضمومًا كقولك: (يا زيد بن عمرو)، فـ: (زيد) مضموم؛ لأنَّه منادى مفرد، و(ابن) منصوب؛ لأنَّه صفة مضافة، كقولك: (يا زيد صاحب بشر). فإن قلت: (عيسى) آخره ألف لا تكون عليها فتحة ولا ضمَّة؛ قلت: تقدَّر عليها"[3].

رابعًا: المنادى بلفظ: (أي) و(أيَّة):

ويأتي مبنيًا على الضَّم في محلِّ نصب، وتدخل على ما فيه (أل)، وعلى المشتقِّ وغير المشتقِّ، ومجموع الصِّيغ في القرآن الكريم تأتي على النَّحو التَّالي:

---

(١) انظر: أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك (٤/٢٢– ٢٣)، شذور الذَّهب (١/ ١٤٨– ١٤٩).

(٢) انظر: التِّبيان في إعراب القرآن (١/٢٣١)، الشَّواهد على القواعد (ص:٩٢).

(٣) الفريد (٢/١٠٣– ١٠٤). والحاصل أنَّ (يا) حرف نداء، و(عيسى) منادى مفرد علم مبني على الضَّمِّ المقدَّر على الألف في محلِّ نصب، و(ابن) بدل أو نعت لـ (عيسى)، و(مريم) مضاف إليه..

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ﴾ [يوسف:٤٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف:٧٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون:٥١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل:١٨]، ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ [الزخرف:٤٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ [الانفطار:٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

كما يلاحظ أنَّها تؤنَّث مع المؤنث، وقد جاء في موضعين، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ [يوسف:٧٠]، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل:١٨]، فقد سبق بيانه في موضعه في (نداء المخلوقات الأخرى غير الجمادات).

وتدخل على (الذي) وقد جاء في موضع واحد: وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦].

وتدخل على (الذين)، وهو كثير في القرآن الكريم، وعددها: [٩٢] موضعًا.

وأعتمد هنا أوّل ورودٍ للصِّيغة، حيث إنَّ التَّفصيل في ذلك قد سبق في (النِّداءات العامَّة):

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:١٠٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:٤٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ [الجمعة:٦]، ﴿أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم:٧].

وقد جاء في (أوضح المسالك إلى ألفيَّة ابن مالك)، (أقسام تابع المنادى الَمْبِنِيَّ وأحكامه)، وقد بيَّن ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّها (أربعةٌ):

"**أحدها**: ما يجبُ نصبه مراعاةً لمحلِّ المنادى، وهو ما اجتمع فيه أمران:

أحدهما: أن يكون نعتًا أو بيانًا أو توكيدًا.

الثَّاني: أن يكون مضافًا مجرَّدًا من (أل)، نحو: (يا زَيْدُ صَاحِبَ عمرو)، و(يا زَيْدُ أَبَا عَبْدِ اللهِ)، و(يا تميمُ كُلَّهُمْ أو كُلَّكُمْ).

الثَّاني: ما يجبُ رفعه مراعاة للفظ المنادى، وهو نعت (أيٍّ) و(أيَّةٍ)، ونعت اسم الإشارة اسمُ الاشارة وُصْلَةً لندائه نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ﴾

[الفجر:٢٧]..وقولك (يا هذَا الرَّجُلُ) إن كان المراد أوّلا نداء (الرّجل). ولا يُوصَف اسم الإشارة أبدا إلا بما فيه (أل). ولا تُوصَف (أيُّ) و(أيَّة) في هذا الباب إلا بما فيه (أل) أو باسم الإشارة نحو: (يَأَيُّهذَا الرَّجُلُ)(١).

الثَّالث: ما يجوز رفعه ونصبه وهو نوعان:

أحدهما: النَّعت المضافُ المقرونُ بـ: (أل) نحو: (يا زَيْدُ الحَسَنُ الْوَجْهِ).

والثَّاني: ما كان مفردًا من نعتٍ أو بيانٍ أو توكيدٍ كان معطوفًا مقرونًا بأل نحو: (يا زَيْدُ الحَسَنُ) و(الحَسَنَ)، و(يا غُلاَمُ بِشْرٌ) و(بِشْرًا)، و(يا تَمِيمُ أجْمَعُوْنَ) و(أَجْمَعِينَ).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

قرأه السَّبعة بالنَّصب، واختاره أبو عمرو وعيسى(٢)، وقرئ بالرَّفع،..

واختاره الخليل(٣)، وسيبويه(٤)، وقدَّروا النَّصب بالعطف على ﴿فَضْلًا﴾ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ:١٠]. وقيل: إن كانت (أل) للتَّعريف مثلها في الطَّير فالمختار النَّصب أو لغيره مثلها في (اليَسَعِ) فالمختار الرَّفع.

---

(١) انظر: أوضح المسالك (٣٣/٤ – ٣٤)، أسرار العربيَّة، لأبي البركات الأنباري (ص:٢٠٨)، توضيح المقاصد (١٠٧٨/٢)، شرح الرَّضي على كافية ابن الحاجب (٣٧٦/١)، شذور الذَّهب (ص:٣٢٣)، بصائر ذوى التَّمييز (٣٦٠/٦).

(٢) هو عيسى بن عمر الثَّقفي بالولاء، فقد قيل: إنَّه كان مولى خالد بن الوليد المخزومي، أبو سليمان، من أئمَّة اللُّغة. وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، وأوّل من هذَّب النَّحو ورتَّبه. وعلى طريقته مشى سيبويه وأشباهه. وهو من أهل (البصرة). ولم يكن ثقفيًا وإنَّما نزل في (ثقيف) فنسب إليهم، وكان صاحب تقعُّر في كلامه، مكثرًا من استعمال الغريب. له نحو (سبعين) مصنَّفًا احترق أكثرها..توفي سنة [١٤٩هـ]. انظر: الأعلام (١٠٦/٥)، البلغة في تراجم أئمَّة النَّحو واللُّغة (ص:٥١)، بغية الوعاة (٢٣٧/٢–٢٣٨)، سير أعلام النُّبلاء (٢٠٠/٧)، معرفة القرَّاء الكبار (١١٩/١)، معجم المؤلِّفين (٢٩/٨)، وفيات الأعيان (٤٨٦/٣). قال عنه الحافظ ابن حجر: "عيسى بن عمر النَّحوي أبو عمر الثَّقفي صدوق..". تقريب التَّهذيب (ص:٧٧٠).

(٣) انظر: الجمل في النَّحو، للخليل (ص:١٠٩–١١٠).

(٤) انظر: الكتاب، لسيبويه (١٨٧/٢).



والرَّابع: ما يُعْطَى تابعًا ما يستحقّه إذا كان منادى مستقلًّا، وهو البدل، والمنسوق المجرَّد من (أل)؛ وذلك لأنَّ البدل في نيَّة تكرار العامل والعاطف، كالنَّائب عن العامل تقول: (يَا زَيْدُ بِشْرُ) بالضمِّ، وكذلك (يا زَيْدُ وَبِشْرُ)، وتقول: (يا زَيْدُ أبا عَبْدِ اللهِ)، وكذلك: (يا زَيْدُ وأبَا عَبْدِ اللهِ)، وهكذا حكمهما مع المنادى المنصوب"[1].

والحاصل أنَّ النَّصب فيه أوجه:

١ - أن يكون عطفًا على محلِّ (الجبال).

٢ - أن يكون منصوبًا بإضمار فعل..التَّقدير: وسخَّرْنا له الطَّير..

٣ - أن يكون عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾.. التَّقدير: وآتيناه الطَّير..

والرَّفع: عطفًا إمَّا على لفظ: (الجبال)، وإمَّا على المنويِّ في ﴿أَوِّبِي﴾، وأغنت ﴿مَعَهُ﴾ عن تأكيده.

---

(١) أوضح المسالك (٣٣/٤ – ٣٦)، وانظر: المقتضب، للمبرّد (٢١٢/٤ – ٢١٣)، التِّبيان في إعراب القرآن الكريم (١٩٥/٢) وفي (مشكل إعراب القرآن): من نصب ﴿الطَّيْرَ﴾ عطفه على موضع الجبال؛ لأنها في موضع نصب بمعنى النِّداء، وهو قول سيبويه. وقيل: هي مفعول معه، وقال أبو عمرو: هو منصوب بإضمار فعل تقديره: (وسخَّرْنا له الطَّير). وقال الكسائيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تقديره: (وآتيناه الطَّير)، كأنَّه معطوف على ﴿فَضْلًا﴾. وقد قرأه الأعرجُ بالرَّفع عطفه على لفظ: (الجبال). وقيل: هو معطوف على المضمر المرفوع في ﴿أَوِّبِي﴾. وحسن ذلك؛ لأنَّ معه قد فصلت بينهما فقامت مقام التَّأكيد". مشكل إعراب القرآن، لمكي (٥٨٣/٢ –٥٨٤). انظر: تفسير القرطبي (٢٦٦/١٤)، روح المعاني (٧٦/١٧). وانظر: الفريد (٥٨/٤)، المحرَّر الوجيز (٤٦٩/٤)، البحر المحيط (٢٥٣/٧). وفي (زاد المسير) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الطَّيْر﴾ "قرأ أبو رزين وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو العالية وابن أبي عبلة: ﴿الطَّيْرُ﴾ بالرَّفع. فأمَّا قراءة النَّصب فقال أبو عمرو بن العلاء: هو عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا﴾، و﴿الطَّيْر﴾، أي: وسخَّرنا له الطَّير. قال الزَّجاج: [انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٢٤٢/٤– ٢٤٣)]. ويجوز أن يكون نصبًا على النِّداء كأنَّه قال: دعونا الجبال والطَّير، فالطَّير معطوفٌ على موضع (الجبال). وكلُّ منادي عند البصريين فهو في موضع نصب، قال: وأمَّا الرَّفع فمن جهتين: إحداهما: أن يكون نسقًا على ما في ﴿أَوِّبِي﴾، فالمعنى: ﴿يَا جِبَالُ﴾ رجِّعي التَّسبيح معه أنت والطَّير. والثَّانية: على النِّداء، المعنى: (يا جبالُ ويا أيُّها الطَّير أَوِّبِي معه)". زاد المسير (٤٣٦/٦)..



٤ – وقد ذكر الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهًا رابعًا، وهو أنَّه مفعول معه، ولكنه رُدَّ بأنَّ قبله لفظ: ﴿مَعَهُۥ﴾، ولا يقتضي العامل أكثر من مفعول معه واحد إلَّا بالبدل أو العطف. لا يقال: جاء زيد مع بكر مع عمرو..[1].

والخلاصة في إجمال الإعراب أن يقال: إنَّ ﴿يَـا﴾ حرف نداء، و﴿جِبَـالُ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿أوِّبِى﴾ فعل أمر مبني على حذف النُّون، والياء فاعل، ومعه ظرف متعلِّق بـ ﴿أَوِّبِي﴾، و﴿الطَّيْرَ﴾ عطف على محلِّ الجبال، وهو النَّصب، وقُرئ بالرَّفع عطفًا على اللَّفظ..ويقال في النَّصب والرَّفع ما سبق بيانه[2] .



(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/٢٤٢– ٢٤٣)، الدُّر المصون (٥/٤٣٤).

(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه (٨/٧٣)، الكشاف (٣/٢٨١)، البحر المحيط (٧/٢٥٣)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢/٣٥٥)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢/٥٨٣ – ٥٨٤)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/٢٤٣)، الدُّر المصون (٥/٤٣٣–٤٣٤)، البيضاوي (٤/٢٤٣)، النسفي (٣/٥٥)، تفسير أبي السعود (٧/١٢٤)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٧/١٩٢)، البحر المديد (٤/٤٧٦).



المطلب الرابع عشر :
المنادى المعرب (نداء المضاف)

ينقسم المنادى المعرب إلى نداء المضاف وإلى نداء النَّكرة غير المقصودة والشَّبيه بالمضاف.

أما نداء المضاف فهو أكثر الأنواع في القرآن الكريم، ويكون منصوبًا.

وأمَّا صيغ (نداء المضاف) فهي على النَّحو الآتي مرتَّبةً على حسب التَّرتيب المصحفي بالنِّسبة لأوَّل موضع ترد فيه، مع بيان ما لم يسبق بيانه:

وهذا جدول توضيحي لصيغ نداء المضاف على حسب الترتيب المصحفي :

١ - ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾	٩ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾	١٧ - ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾
٢ - ﴿يَا قَوْمِ﴾	١٠ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾	١٨ - ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾
٣ - ﴿يَا بَنِيَّ﴾	١١ - ﴿يَا بُنَيَّ﴾	١٩ - ﴿يَا وَيْلَنَا﴾
٤ - ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾	١٢ - ﴿يَا أَبَتِ﴾	٢٠ - ﴿يَا عِبَادِيَ﴾
٥ - ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾	١٣ - ﴿يَا أَبَانَا﴾	٢١ - ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾
٦ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾	١٤ - ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾	٢٢ - ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾
٧ - ﴿يَا وَيْلَتَى﴾	١٥ - ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾	٢٣ - ﴿يَا حَسْرَتَا﴾
٨ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾	١٦- ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾	٢٤ - ﴿يَا قَوْمَنَا﴾

أولًا: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة)، كما سبق أنَّه من (نداء النِّسبة).

ثانيًا: ﴿يَا قَوْمِ﴾ [البقرة:٥٤]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة).

ثالثًا: ﴿يَا بَنِيَّ﴾ [البقرة:١٣٢]:

١ - مواضع ورود هذه الصيغة:

وقد جاءت في (ثلاثة) مواضع:

الأول: نداء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **بنيه:**

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢].

والمعنى أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَصَّى، ثمَّ وَصَّى بعده يعقوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَنِيهِ، فقالا جميعًا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾..[1]، يعني: اختار لكم الدِّين، أي: الإسلام.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه أمر الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالإسلام، وأنَّه قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصَّى بنيه، ويعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصَّى بنيه أن لا يموتنَّ إلَّا وهم مسلمون[2].

---

(١) انظر: النُّكت والعيون (١/١٩٣)، القرطبي (٢/١٣٥)، مقاتل (١/٧٩)، النَّيسابوري (١/٤٧).

(٢) انظر: الجواب الصَّحيح (٢/١٢٩)، دقائق التَّفسير (١/٣٣٨).



أمَّا تفصيل (الوصيَّة) فقد "أمر أبناءه أن يكونوا على ملَّةِ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي نظير ما وصَّى به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه، فأجمل هنا اعتمادًا على ما صرَّح به في قوله سابقًا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وهذا تنويه بالحنيفيَّة التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:١٣٥]، وإبطال لزعمهم أنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على اليهوديَّة، وأنَّه أوصى بها بنيه فلزمت ذرِّيته فلا يحولون عنها"[(١)].

والحاصل أنَّ الإسلام هو أساس قبول العمل فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. فإنَّ من الكافرين من عمل شيئًا من الصَّالحات فإذا أعمالهم هباءً منثورًا..يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالذينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩]، أي: الأعمال التي كانوا يظنُّون أنَّها تنفعهم كالصَّدقة، وصلة الرَّحم، وإغاثة الملهوف، والإنفاق أو الكرم..فهي كالسَّراب، وهو ما يرى في الفلوات من لمعانِ الشَّمس عليها وقت الظَّهيرة فيظنُّ أنَّه ماء يجري على وجه الأرض حتَّى إذا وصل إليه لم يرَ ماءً ولا شرابًا، وإنَّما رأى سرابًا فعظمت حسرتُه، ووجد الله عَزَّوَجَلَّ له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله، فكذلك الكافر يحسب أنَّ عمله ينفعه حتَّى إذا مات لم يجد شيئًا من الأعمال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد انعقد الإجماع على أنَّ الكفَّار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيمٍ ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشدُّ عذابًا من بعض بحسب جرائمهم"[(٢)].

(١) التَّحرير والتَّنوير (١/٧٣٠).

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٥٩٧). وانظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (٣/٨٧)، فتح الباري (٩/١٤٥).

وشبَّهها في موضعٍ آخر بالرَّماد الذي عصفت به الرِّيح في يوم شديد هبوب الرِّيح، فأصابت تلك الرِّيح المدمِّرة زرعَ قومٍ ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨].

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ابْنُ جُدْعَانَ[١] كان في الجاهليَّة يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نَافِعُهُ؟ قَالَ: ((**لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**))[٢].

الموضع الثَّاني: نداء يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **بنيه:**

﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧]. ومما يستفاد من نداء يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هنا أنَّه "لم يناقض توكُّله، بل قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]"[٣].

"ومما يوضِّحُ أن تعاطي الأسباب لا ينافي التَّوكل على الله عَزَّوَجَلَّ: قوله عَزَّوَجَلَّ عن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السَّبب، وتسبب في ذلك بالأمر به؛ لأنَّه يخاف عليهم أن تصيبهم النَّاس بالعين، لأنَّهم (أحدَ عَشَرَ) رجلا أبناء رجلٍ واحد، وهم أهل جمالٍ وكمالٍ وبسطةٍ في الأجسام. فدخولهم من بابٍ واحدٍ مظنَّةٌ لأن تصيبهم العينُ فأمرهم بالتَّفرق،

---

(١) "قال العلماء: وكان بن جدعان كثيرَ الإطعام، وكان اتخذ للضيفان جَفْنَةً يُرقى إليها بسلَّمٍ [يأكُلُ منها القائِمُ والرَّاكِبُ لِعظَمِها]، وكان من (بني تميم بن مرَّة) أقرباء عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وكان من رؤساء قريش، واسمه: عبد الله، و(جدعان) –بضم الجيم، وإسكان الدَّال المهملة، وبالعين المهملة–". شرح النَّووي على صحيح مسلم (٣/٨٧).

(٢) أخرجه مسلم [٢١٤].

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التَّفسير (١٥/١١٣–١١٤).



والدُّخول من أبوابٍ متفرِّقة تعاطيًا للسَّبب في السَّلامة من إصابة العين، كما قال غير واحد من علماء السَّلف. ومع هذا التَّسبب فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾. فانظر كيف جمع بين التَّسبب في قوله: ﴿لا تَـدْخُلُوا مِـنْ بَـابٍ وَاحِـدٍ﴾، وبين التَّوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَعَلَيْـهِ فَلْيَتَـوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُـونَ﴾، وهذا أمرٌ معلومٌ لا يخفى إلا على من طمسَ الله عَزَّوَجَلَّ بصيرته!!. والله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يسقط لها [أي: لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ] الرُّطب من غير هزِّ الجذع، ولكنَّه أمرها بالتَّسبب في إسقاطه بهزِّ الجذع"[1].

الثالث: نداء من يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **لبنيه أيضًا:**

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧]، أي: فتعرَّفوا، وهو تَفَعُّلٌ مـن (الحـسِّ)، وهـو في الأصـل: (الإدراك) بالحاسـة، وكـذا أصـل (التَّحسـس): طلـب الإحسـاس، واستعماله في التَّعـرف استعمال لـه في لازم معنـاه[2]. وقولـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَيْأَسُـوا مِـنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، أي: لا تقنطوا من فَرَجِه عَزَّوَجَلَّ وتنفيسه، وأصل معنى: (الرَّوح) -بالفتح-: التَّنفس. يقال: (أراح الإنسان) إذا تنفس، ثُمَّ استعير للفرج كما قيل: (له تنفيس) من النَّفس[3]. كأنَّه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ تنسَّم نسائمَ الفرج بعد أن رَفَعَ الأمرَ إلى مولاه عَزَّوَجَلَّ[4].

ومن رحمته وفرجه وتيسيره ولطفه في جمع الشَّتات، وتيسير المراد[5].

---

(١) أضواء البيان (٣/٤٥٩).

(٢) انظر: روح المعاني (١٣/٤٤)، انظر: القرطبي (٩/٢٥٢)، تفسير أبي السُّعود (٤/٣٠٢).

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (٤/٣٠٢)، روح المعاني (١٣/٤٤)، المفردات، للرَّاغب، مادَّة: (روح) (ص:٣٦٩)، بصائر ذوى التَّمييز (٣/١٠٤)، مقاييس اللغة، لابن فارس، مادَّة: (روح) (٢/٤٥٤).

(٤) انظر: روح المعاني (١٣/٨١).

(٥) انظر: نظم الدُّرر (١٠/٢٠٤).



"وكلمة: ﴿رَوْحِ﴾ أدقُّ دلالةً وأكثر شفافيّةً. ففيها ظلُّ الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روْح الله عَزَّوَجَلَّ النَّدي: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فأمَّا المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله عَزَّوَجَلَّ، النَّدية أرواحهم بروْحه، الشَّاعرون بنفحاته المحيية الرَّخيَّة، فإنهم لا ييأسونَ من روْح الله عَزَّوَجَلَّ، ولو أحاط بهم الكربُ، واشتدَّ بهم الضِّيقُ. وإنَّ المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربِّه عَزَّوَجَلَّ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه عَزَّوَجَلَّ"(١).

ويمتنع أن يكون للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يأسٌ من رَوح الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يقعوا في الاستيئاس، بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه السُّورة تضمَّنت ذكر المستيئسينَ، وأنَّ الفرج جاءهم بعد ذلك، لئلَّا ييأس المؤمن، ولهذا فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١](٢).

٢ – اللغة:

الأصل (بنين)، حذفت النُّون عند الإضافة، وأدغمت (ياء الجمع) في (ياء المتكلِّم)، وحرِّكت المشدَّدة بالفتحة.

رابعًا: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٧٩]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة).

(١) الظِّلال (١٣/٢٠٢٦).

(٢) انظر: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التَّفسير (١٥/١٥٢).

خامسًا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ [آل عمران:٢٦]: [الزمر:٤٦]:

١ – ورود هذه الصيغة:

أما ورود هذه الصيغة ففي موضعين على النحو التالي:

الموضع الأول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

الموضع الثاني: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر:٤٦].

٢ – إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

الفائدة الأولى: الميم في (اللَّهُمَّ):

الميم في قوله ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ عوض عن حرف النِّداء؛ ولذلك لا يجتمعان. وهذا من خصائص الاسم الجليل، كدخوله عليه مع حرف التَّعريف، وقطع همزته، ودخول تاء القسم عليه. وقيل: أصله: (يا الله آمنا بخير)، أي: اقصدنا به، فخفِّف بحذف حرف النِّداء ومتعلَّقات الفعل وهمزته[1].

الفائدة الثانية: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾: أي: يا مالك الملك.

فكأن في هذه الجملة الكريمة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ دعاءين خاشعين:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩٧/٦)، القرطبي (٥٣/٤)، تفسير أبي السُّعود (٢١/٢)، الدُّر المصون (٥٣/٢)، المحرَّر الوجيز (٤١٧/١)، روح المعاني (١٠٩/٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٩٤/١)، التِّبيان (١٣٠/١)، البيضاوي (١١/٢)، تفسير النَّسفي (٢٢٨/١)، تفسير النَّيسابوري (١٣٦/٢)، بحر العلوم (٢٠٤/١)، البغوي (٤٢٥/١)، زاد المسير (٩٠/٢)، ابن عادل (١٣٣/٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٥٠/٥)، فتح القدير (٣٧٨/١) معاني القرآن، للفراء (٢٠٣/١)، المفردات (ص:٨٣)، تأويل مشكل القرآن (ص:٢٩٥).



أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله: (اللَّهُمَّ)، أي: يا الله، وفي هذا النداء كل معاني العبودية والتنزيه والتقديس والخضوع.

وأما الدعاء الثاني فهو المعبر عنه بقوله: ﴿مالِكَ الْمُلْكِ﴾ أي: يا مالك الملك، وفي هذا النداء كل معاني الإحساس بالربوبية، والضعف أمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وسلطانه.

فقوله: ﴿مالِكَ﴾ منصوب بحرف النداء المحذوف[1].

الفائدة الثالثة: معنى: ﴿الْمُلْكِ﴾ من الآية الأولى:

قال العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المُلك) "بضمِّ الميم: اسم لأكمل أحوال (المِلك) -بكسر الميم-، و(المِلك): -بالكسر- جنس للمُلك بالضَّمِّ، وفسِّر (المُلك) المضموم بضبط الشَّيء المتصرَّف فيه بالحُكم. وهو تفسير قاصر، وأرى أن يُفسَّر بأنَّه تصُّرفٌ في طائفةٍ من النَّاس ووطنهم تصرُّفًا كاملا بتدبيرٍ ورعاية، فكلُّ (مُلك) بالضَّمِّ (مِلك) بالكسر، وليس كلُّ (مِلك) مُلكًا"[2].

(١) انظر: التِّبيان (١/١٣٠)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٣٩٤)، الطبري (٦/٢٩٩)، الدُّر المصون (٢/٥٣-٥٤)، ابن عادل (٥/١٢٥)، تفسير أبي السُّعود (٢/٢١)، تفسير القرطبي (٤/٥٤)، النَّسفي (١/٢٢٨)، فتح القدير (١/٤٩٧)، إعراب القرآن، للنَّحاس (١/٣٦٥). وفي (الفريد): "نداء ثان، أي: يا مالك الملك، ولا يجوز أن يكون صفة لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾ عند صاحب (الكتاب) [أي: سيبويه. انظر: (الكتاب) بتحقيق عبد السَّلام هارون، (٢/١٩٦)] وموافقيه؛ لأنَّه لحقه شبه الصَّوت، والأصوات لا توصف كـ:(فاق) وشبهه. وأجاز ابن السَّراج والزَّجاج والمبرد وغيرهما من البصريين والكوفيين أن يكون ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ نعتا لقوله: ﴿اللَّهُمَّ﴾، قائلين: إنَّ الاسم ومعه الميم بمنزلته، ومعه (يا)، فكما يجوز أن يوصف ومعه (يا) يجوز أن يوصف ومعه الميم. ونظيره: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾". الفريد: (١/٥٥٨)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١/٣٩٤)، المقتضب، للمبرّد (٤/٢٣٩)، الكتاب، لسيبويه (٢/١٩٦)، الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (١/٣٣٨).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٢٩/١١).

الفائدة الرابعة: يستفاد من النداء في الموضع الأول أنه "نداءٌ خاشعٌ في تركيبه اللَّفظي إيقاع الدُّعاء. وفي ظلاله المعنويَّة روحُ الابتهال. وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشةٌ للمشاعر في رفقٍ وإيناس. وفي جمعه بين تدبير الله عَزَّوَجَلَّ، وتصريفه لأمور النَّاس، ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة: حقيقة الألوهيَّة الواحدة القوامة على الكون والنَّاس، وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلَّا طرفًا من شأن الكون الكبير الذي يُصرِّفه الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الدَّينونة لله عَزَّوَجَلَّ وحده هي شأن الكون كلِّه كما هي شأن النَّاس، وأنَّ الانحراف عن هذه القاعدةِ شذوذٌ وسفه وانحراف! إنها الحقيقة النَّاشئة من حقيقة الألوهيَّة الواحدة..إله واحد فهو المالك الواحد..هو ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ بلا شريك..، ثُمَّ هو من جانبه يملك من يشاء ما يشاء من ملكه.."[1].

الفائدة الخامسة: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾:

﴿اللَّهُمَّ﴾ منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب، و(الميم) المشدَّدة عوض من (يا) النداء المحذوفة. و﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ منادى مضاف، وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

سادسًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾ [آل عمران:٦٤]:

وقد سبقَ ما يتعلَّق بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّة)، وسبق أنَّها من نداء التَّخصيص.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/٣٨٤).



سابعًا: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ [المائدة:٣١]:

في (ثلاثة) مواضع :

الموضع الأوَّل: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ﴾ [المائدة:٣١][(١)]:

١ – بيان ما ولي المنادَى:

في هذه القصّة بيانٌ لتأثير الحسد، وأنَّه يؤدِّي إلى المخاطر والمهالك والقبائح، فيقضي على رابطة الأخوّة، ويؤدِّي إلى سفك الدِّماء[(٢)].

ومعنى (الاستفهام) هنا: "الإنكار على نفسه والنَّعي، أي: لا أعجز عن كوني مثل هذا الغُرَاب، وفي ذلك هضمٌ لنفسه، واستصغار لها بقوله: مثل هذا الغُرَاب. وأصل (النِّداء) أن يكون لمن يعقل، ثُمَّ قد ينادي ما لا يعقل على سبيل المجاز كقولهم: (يا عجبًا) و(يا حسرة)، والمراد بذلك التَّعجب. كأنَّه قال: انظروا لهذا العجب، ولهذه الحسرة، فالمعنى: تنبَّهوا لهذه الهلكة. وتأويله: (هذا أوانك فاحضري)[(٣)].

(١) وتمام الآية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

(٢) سبق التَّعريف (بالحسد) وبيان آثاره.

(٣) البحر المحيط (٤٨١/٣). وقد "قرأ الجمهور: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ بألف بعد التَّاء، وهي بدل من ياء المتكلِّم، وأصله: (يا ويلتي) بالياء، وهي قراءة الحسن. وأمال حمزة والكسائي وأبو عمرو ألف ﴿ويلتى﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ بفتح الجيم. وقرأ ابن مسعود، والحسن، وفياض، وطلحة، وسليمان: بكسرها وهي لغةٌ شاذَّة، وإنما مشهور الكسر في قولهم : عجزت المرأة إذا كبرت عجيزتها". البحر المحيط (٤٨١/٣).



وكلمة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ كلمة جزع وتحسُّرٍ، بمعنى: (يا هلاكي)، والألف فيها بدلٌ من (ياء المتكلِّم). والمعنى: (يا ويلتي احضري فهذا أوانك)، و(الويل) و(الويلة): الهلكة[١].

و(البعث) في قول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ "مستعملٌ في الإلهام بالطَّيران إلى ذلك المكان، أي: فألهم الله عَزَّوَجَلَّ غرابًا ينزل بحيث يراه قابيل. وكأنَّ اختيار الغراب لهذا العمل؛ إمَّا لأنَّ الدَّفنَ حيلة في الغِربان من قبلُ، وإمَّا لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري النَّاظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النَّفس. ولعلَّ هذا هو الأصلُ في تشاؤم العرب بالغُرَاب، فقالوا: (غُراب البين). والضَّمير المستتر في ﴿يُرِيَه﴾ إن كان عائدًا إلى اسم الجلالة فالتَّعليل المستفاد من اللام وإسناد الإرادة حقيقتان[٢]، وإن كان عائدًا إلى الغراب فاللام مستعملةٌ في معنى (فاء التَّفريع)[٣]، وإسناد (الإرادة) إلى الغراب مجازٌ؛ لأنّه سبب الرُّؤية فكأنَّه مُرِيءٌ[٤].

و﴿كَيْفَ﴾ يجوز أن تكون مجرَّدة عن الاستفهام مرادًا منها الكيفيَّة، أو للاستفهام، والمعنى: ليريه جواب[٥] كيف يُواري؟[٦].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٨/٣)، روح المعاني (١١٦/٦)، تفسير البيضاوي (١٢٤/٢)، السِّراج المنير (٣٧١/١). وسيأتي بيان معنى (الويل) مفصَّلا..

(٢) أقول: فيكون المعنى: أرى اللهُ عَزَّوَجَلَّ -وهو فاعل الرُّؤية حقيقة- القاتلَ..

(٣) أقول: فرَّع عن رؤية الغراب -وهو وسيلة وسبب- ما قام به من البحث في الأرض والمواراة..

(٤) أقول: أي: أنَّه أقام السَّبب -الذي هو الغراب- مقام المسبَّب -الرُّؤية، فكأنَّه، أي: الغراب- وهو لا يعقل – هو الذي أراه معلِّمًا إيَّاه؛ لأنَّه لما كان سبب تعليمه فكأنَّه قصد تعليمه، وفيه أيضًا تنزيلُ ما لا يعقل – الغراب -منزلةَ من يعقل – فاعل الرُّؤية الحقيقي، وذلك على طريقة المجاز المرسل.

(٥) أقول: أي: جواب الاستفهام الذي قد انبثق من نفسه، ماذا يفعل في هذه الجثَّة؟ كيف يواريها؟

(٦) أقول: والمعنى أنَّ الضَّمير المستكنَّ – أي: المستتر- في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُرِيَهُ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، أو الغراب، والهاء لقابيل -القاتل-، أي: ليريه اللهُ عَزَّوَجَلَّ أو ليريه الغراب، أي: ليعلمه؛ لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنَّه قصد تعليمه على سبيل المجاز المرسل. وجملة: ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ في موضع نصب على أنَّها مفعول ثانٍ ليرى.

و(السَّوْأة): مَا تَسُوء رؤيتُه، وَهِي هنا تغيُّر رائحة القتيل وتقطُّع جسمه"[1].

وفي (التَّحرير والتَّنوير) أيضًا: كلمة: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾: "من صيغ الاستغاثة المستعملة في التَّعجُّب، وأصله: (يا لَوَيْلَتِي)، فعوِّضت الألف عن (لام الاستغاثة) نحو قولهم: (يا عَجَبًا). ويجوز أن يجعل الألف عوضًا عن ياء المتكلِّم، وهي لغة، ويكون النِّداء مجازًا بتنزيل (الويلة) منزلة ما يُنَادَى[2]، كقوله: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]. والاستفهام في ﴿أَعَجَزْتُ﴾ إنكاريٌّ. وهذا المشهد العظيم هو مشهد أوَّل حضارةٍ في البشر، وهي من قبيل طلب سَتر المشاهد المكروهة. وهو أيضًا مشهد أوَّل علم اكتسبه البشر بالتَّقليد وبالتَّجربة، وهو أيضًا مشهد أوَّل مظاهر تَلقِّي البشر معارفه من عوالم أضعفَ منه كما تَشَبَّه النَّاس بالحيوان في الزِّينة، فلبسوا الجُلُود الحسنة الملوَّنة وتكلَّلوا بالريش الملوَّن وبالزُّهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتَّاريخ والدِّين والخُلُق؟!"[3].

٢ – بيان العاقبة:

وبعد أن فعل ما فعل من قتل أخيه ماذا كانت العاقبة؟ قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٣٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿..فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

وفي هاتين الآيتين بيانٌ لما آل إليه حاله بعد ما اقترفت يداه من القتل؛ إذْ رأى الغراب – وهو لا يعقل –يحتفل بإكرام أخيه الميِّت، ورأى نفسه –وهو يعقل– يجترئ على قتل أخيه، وهذه الموازنة إن دلَّت فإنَّما تدلُّ على عظم الجرم بالنِّسبة له، وفيها تعليمٌ

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٧٣/٦).

(٢) أقول: أي: تنزيلُ ما لا يعقل منزلةَ من يعقل، وهي علاقة من علاقات المجاز المرسل، والقرينة (نداء الويل)، وهو لا يعقل، والنُّكتة زيادة التَّحسُّر فكأنَّ المتحسِّر ينادي ويلته ويطلب حضورها، بعد تنزيلها منزلة من ينادي، ولا يكون ذلك إلا في أشدِّ الأحوال ألمًا.

(٣) التَّحرير والتَّنوير (١٧٣/٦–١٧٤).

للمخاطَبين ببيان جسامة مثل هذا الفعل، وفي الآيات بيانٌ يدلُّ على أنَّ عاقبة كلِّ ظالمٍ النَّدمُ والخسران.

ويحتمل أنَّ هذا النَّدم منه لم يكن ناشئًا عن خوف عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا قَصْدِ توبة، فلذلك لم ينفعْه. وقيل: إنما ندمه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفيًا شروطه، أو ندم ولم يستمر ندمه[1].

وفي (أحكام القرآن): "فَنَقُولُ: من الغريب أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أَخْبَرَ عنه أَنَّهُ نَدِمَ، وهو فِي النَّارِ!، وقال ﷺ: ((**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**)). قلنا: عن هذه (ثلاثة) أجوبة:

الأَوَّل: أَنَّ الحديث ليس يَصِحُّ[2]، المعنى صحيح، وَكُلُّ مَنْ نَدِمَ فقد سَلِمَ، لكنَّ النَّدم له شروطٌ، فكلُّ من جاء بشروطه قُبِلَ منه، ومن أَخَلَّ بها أو بشيءٍ منها لم يقبل.

الثَّاني: أنَّ معناه ندم ولم يسْتَمِرَّ ندمُهُ، وإنَّما يقبل النَّدم إذا اسْتَمَرَّ.

الثَّالث: أنَّ النَّدم على الماضي إنَّما ينفع بشرط العزم على ألَّا يفعل في المستقبل[3].

٣ – طبيعة الإنسان فيها نوازعُ الخيرِ والشَّر:

وممَّا يستفاد من هذه القصَّة ما أجمله صاحب (الظِّلال) بقلمه الصَّناع، وبيانه المطواع حيث قال:

"هذه القصَّة تقدِّم نموذجًا لطبيعة الشَّرِّ والعدوان، ونموذجًا كذلك من العدوان الصَّارخ الذي لا مبرِّر له. كما تقدِّم نموذجًا لطبيعة الخير والسَّماحة، ونموذجًا كذلك من

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/١٤٢).

(٢) والغريب أنَّه ذكر أنَّ الحديث لا يصحُّ، وقد أخرجه غير واحد، وهو مرويٌّ من أكثر من طريق، فقد أخرجه من أصحاب السُّنن ابن ماجه، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، [٤٢٤٢]، وأحمد [٣٣٨٧]. والحديث صحَّحه الحاكم، ووافقه الذَّهبي. انظر: المستدرك على الصَّحيحين [٧٦١٢، ٧٦١٣]. قال الحافظ في (الفتح) (١٣/٤٧١): "وهو حديث حسن من حديث بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخرجه بن ماجة، وصحَّحه الحاكم..". انظر: مرعاة المفاتيح، (٨/٣١)، [٢٣٥٧]، مشكاة المصابيح (٨/٧١)، مصباح الزجاجة (٤/٢٤٨)، أسنى المطالب (ص:٣١٠)، كشف الخفاء (٢/٣١٥).

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي (٢/ ٨٧-٨٨).

الطِّيبة والوداعة. وتقفهما وجهًا لوجه، كلٌّ منهما يتصرَّفُ وفق طبيعته. وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشَّر والعدوان الصَّارخ الذي يثير الضَّمير، ويثير الشُّعور بالحاجة إلى شريعة نافذةٍ بالقصاص العادل، تكفُّ النَّموذج الشَّرير المعتدي عن الاعتداء، وتخوِّفه وتردعه بالتَّخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها –على الرَّغم من ذلك– وجد الجزاء العادل، المكافئ للفعلة المنكرة. كما تصونُ النَّموذج الطَّيب الخيِّر، وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النُّفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تؤمن في ظلِّ شريعة عادلة رادعة"[1].

والحاصل أنَّ الآيات قدَّمت نموذجين متقابلين، وبيَّنت أنَّ الإنسان مركَّبٌ من صفاتٍ متقابلة من الخيرِ والشَّرِّ، والعقيدة التي جاء الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ هي التي توجِّه الإنسان إلى ملازمة الصِّفات والميول الخيِّرة، وإلى كبح جماح الصِّفات المقابلة لصفات الخير، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حينما تعلَّقت إرادتُه بإيجاد هذا الكون، اقتضت حكمتُه أن يختارَ الإنسان من بين المخلوقات الأخرى، فيجعله سيِّدَ هذا الكون، ويجعل سائر مظاهره مسخَّرةً لخدمته، فكان أن جهَّز هذا المخلوق بمجموعة من الصِّفات التي لا بدَّ منها؛ لتتكاملَ لديه القدرةُ على إدارةِ الكون وتعميره؛ وليتحقَّق فيه معنى التَّكليف المتفرِّع عن عبوديَّته لله عَزَّوَجَلَّ. ومن هذه الصِّفات –مثلًا– صفة القوَّة، وما يتفرَّعُ عنها من النُّزوعِ إلى السَّيطرةِ والعظمةِ والجاه، وبثَّ فيه مجموعةً من العواطف كالحُبِّ والكراهية والغضبِ والحَسَد أو الغبطة...الخ.. إلَّا أنَّ لهذه الصِّفاتِ آفاتٌ عظام، وهي سلاحٌ ذو حدَّين. إن استعمل أحدهما جاء بالتَّنظيم العظيم للكون، وبالخيرِ الوفيرِ للإنسان..وإن استعمل الآخر جاء بالشَّرِّ الوبيل، والفوضى الهائلة، وأورث الإنسانيَّة شقاءً لا آخر له. ومن نتائج الخطورة لهذه الصِّفات أنَّ من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يستعملَ صفةَ القدرة –مثلًا– في ظلمِ الآخرين، وأن تتسابقَ جماعاتٌ في ميدانٍ من الصِّراع الدَّمويِّ على السُّلطان والجاه والثَّروات والممتلكات..الخ. ومن أجل ذلك كان لا بدَّ من قوَّةٍ توجِّهُ هذه

(١) في ظلال القرآن (٦/٨٧٤ – ٨٧٥).



الصِّفات إلى الوجهة الصَّالحة. هذه القوَّةُ هي الدِّين والعقيدةُ الصَّحيحة التي فيها التَّنظيم لحياة الإنسان، والحدود الرَّادعة، والتَّرغيب والتَّرهيب، والثَّواب والعقاب، والقانون الأخلاقي الذي يدفع اختلاف المختلفين...

٤ - الزَّمان والمكان والأشخاص:

ولا يحدِّد السِّياقُ القرآني غالبًا لا زمانَ ولا مكانَ ولا أسماء القصَّة؛ لأنَّ القرآن الكريم لا يُعنى إلا بالمقاصد الشَّريفة، فالقرآن لا يُعنى غالبًا بتقرير زمانٍ ولا مكان، ولا تحديدِ أشخاصٍ بدقَّة؛ لأنَّ ذلك ليس له شأنٌ في تشكيل الحدث.

٥ - قياس الشَّبه:

ما ذكره ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) من تفسير لقَوْله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ حيث قال: "فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى قِيَاسِ الشَّبَهِ"(١). وما ذكره ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) مجملًا، ذكره مفصَّلًا في (المحصول)، حيث قال: "وأمَّا قياس الشَّبه فهو على ضربين: شبه خَلقي، وشبه حُكمي، فأمَّا (الشَّبه الخلقي) فكإجماع الصَّحابة على جزاء الحمامة بالشَّاة، والنَّعامة بالبدنة لما بينهما من تشابه الخلقة. وأمَّا (الشَّبه الحُكمي) كقول علمائنا في الدَّليل على أنَّ الوضوء يفتقر إلى النِّية خلافًا لأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طهارة حكميّة فافتقرت إلى النِّية كالتَّيمم. وقد اختلف النَّاس في (قياس الشَّبه)، فمنهم من نفاه، ومنهم من أثبته، ومنهم من فصله"(٢).

وقال في (العبادات): هي نوعٌ لا يجري فيها تعليل بحال، بل إنَّ (قياس الشَّبه) يدخلها كقول علمائنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الوضوء: عبادة فافتقرت إلى النِّية كالصَّلاة...الخ(٣).

---

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٢/٨٧).

(٢) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المحصول في أصول الفقه)، لابن العربي (١/١٢٦ - ١٢٧).

(٣) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المصدر نفسه) (١/١٣٣).



وعلى أيَّة حال فإنَّ الخلافَ مبسوطٌ في (كتب أصول الفقه)، وما أردتُ الإشارة إليه هنا أنَّ من العلماء من استدلَّ على (قياس الشَّبه) من الآية السَّابقة كابن العربيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المالكيَّة، ونفاه غيره.

٦ – الاعتبار بقصص السَّابقين.

....

الموضع الثَّاني: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود:٧٢]:

١ – ما يستفاد مما ولي المنادَى:

يخبرُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه وَهَبَ لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بعد أن طَعَن في السنِّ، وآيس هو وامرأته (سارة) من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبشروهما بإسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتعجَّبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود:٧٢ – ٧٣]، وبشروه مع وجوده بنبوَّته، وبأنَّ له نسلًا وعَقِبًا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النِّعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]، أي: ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرَّت بوالده؛ فإنَّ الفرح بولد الولد شديدٌ لبقاء النَّسل والعَقِب، ولما كان ولد الشَّيخ والشَّيخة قد يتوهَّم أنَّه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم (يعقوب)، الذي فيه اشتقاق العقب والذُّريَّة، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله



عَزَّوَجَلَّ في الأرض، فعوَّضه الله عَزَّوَجَلَّ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقرَّ بهم عينه[1]، أي: قالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟![2].

٢ – المراد من قولها: ﴿يَا وَيْلَتَى..﴾:

هذه الكلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم. ولم تُرِد بها الدُّعاء على نفسها، وإنما هي كلمة تخفُّ على ألسنة النِّساء عند الأمر العجيب. وقولها: ﴿أَأَلِدُ﴾ استفهام تعجُّب[3].

٣ – التَّعقيب على قول أبي حيَّان والقاسمي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: (الاستفهام هنا استفهام إنكارٍ وتعجُّب):

قال أبو حيَّان رَحِمَهُٱللَّهُ في (البحر المحيط)، حيث قال: "استفهمت –بقولها: أألد؟!– استفهامَ إنكارٍ وتعجُّب"[4].

أقول: المراد بالاستفهام هنا: التَّعجبُ من أمرٍ خارقٍ للعادة. ولم ترد بذلك الإنكار، ويدلُّ على هذا المعنى قولها: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ لأنَّه من المستبعد أن تنكر على الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ ما جاؤوا به من البشرى، وهي على يقين أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيءٌ، ولكنَّها تعجَّبت من ذلك الأمر لكونه مخالفًا للعادة والمألوف، فأنكرت عليها الملائكة تعجُّبَهَا؛ لأنَّها كانت في بيت الآيات، ومهبط المعجزات، والأمور الخارقةِ للعادات، فكان عليها أن تسبِّح الله عَزَّوَجَلَّ وتمجِّده مكان التَّعجب..

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٧)، القاسمي (٣/٣٦٢).

(٢) انظر: القرطبي (١٧/٤٧)، أبو السُّعود (٨/١٤٠)، الوجيز، للواحدي (ص:١٠٢٩)، زاد المسير (٨/٣٧)، روح المعاني (٢٧/١٣)، النُّكت والعيون (٢/٤٨٦)، المحرر الوجيز (٥/١٧٨)، تفسير ابن جزي (٢/٣٠٩)، فتح القدير (٢/٧٣٨)، البحر المحيط (٩/٥٥٧)، ابن عادل (١٨/٨٦).

(٣) زاد المسير (٢/٣٨٧)، وانظر: القرطبي (٤/٦٩)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (١/٢٥٢)، الوسيط، للواحدي (٢/٥٨٢).

(٤) البحر المحيط (٦/١٨٣).

وكلام أبي حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ موهمٌ في عطفه التَّعجب على الإنكار، والعطف يقتضي المغايرة، فكأنَّها أنكرت وتعجَّبت. ويرد ذلك الاعتراضُ بعينه على ما أورده القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أي: أتستبعدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟![1].

وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمرِ الخارقِ للعادة، ويدلُّ له أيضًا وقوع مثله من نبيِّ الله زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

٤ – دروسٌ للمخاطَبين:

وممَّا يستفاد أنَّ المرأة وبخاصّة العقيم يهتزُّ كيانها كلُّه لمثل هذه البشرى، وهو أمر عجيبٌ حقًّا. فالمرأة ينقطعُ طمثُها عادةً في سنٍّ معيَّنةٍ فلا تحمل. ولكن لا شيء – بالقياس إلى قدرة الله عَزَّوَجَلَّ– عجيبٌ، ولا عجبَ من أمر الله عَزَّوَجَلَّ. فالعادةُ حين تجري بأمرٍ لا يكون معنى هذا أنها سنَّة لا تتبدَّل. وعندما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ لحكمة يريدها، وهي هنا رحمته بأهلِ هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه يقع ما يخالف العادة، مع وقوعه وفق السُّنَّة الإلهيَّة التي لا نعلم حدودها، ولا نحكم عليها بما تجري به العادة في أمدٍ هو على كلِّ حال محدود، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث في الوجود. ومشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طليقةٌ لا تتقيَّد هذه المشيئةُ بالنَّواميس. نعم إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجري هذا الكون وفق النَّواميس التي قدرها له. ولكنَّ هذا شيءٌ والقول بتقيد إرادته بهذه النَّواميس بعد وجودها شيءٌ آخر![2].

---

(١) تفسير القاسمي (٤/ ٣٢٠).

(٢) بتصرُّفٍ عن (الظِّلال) (١٢/ ١٩١٢).



الموضع الثَّالث: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨].

١ - توضيح المعنى العام:

ويوم يعضُّ الظَّالم نفسه، المشرك بربِّه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرَّط في جنب الله عَزَّوَجَلَّ، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدَّه عن سبيل ربِّه عَزَّوَجَلَّ، يقول: يا ليتني اتخذت في الدُّنيا مع الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيلًا، يعني: طريقًا إلى النَّجاة من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ(١).

وفي الآية ما يفيد ندم الظَّالم الذي فارق طريق الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء به من عند الله عَزَّوَجَلَّ من الحقِّ، وندمه يوم القيامة حيثُ لا ينفعه النَّدَمُ. وفيه التَّحذير والتَّبصير للمخاطَبين..

٢ - دلالةُ (الالتزام العرفيِّ) أو (المعنى الكنائي):

وفي ذلك اليوم يعضُّ الظَّالم على يديه من فرط الحسرة، وعضُّ اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنَّها من روادفهما، فتذكر الرَّادفة، ويدلُّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السَّامع عنده في نفسه من الرَّوعة ما لا يجده عند لفظ المكنَّى عنه(٢).

أقول: ويمكن أن نطلق على هذه الدِّلالة أنها من دلالات (الالتزام العرفي).

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٢٦٢/١٩).

(٢) تفسير أبي السُّعود (٢١٣/٦)، تفسير البيضاوي (١٢٢/٤)، المحرر الوجيز (٢٠٨/٤)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٤١٩/٦)، البحر المحيط (١٠١/٨).

أمَّا دلالة الالتزام[١] فهي دلالة اللَّفظ على أمرٍ خارجٍ عن معناه لازمٍ له كدلالة السَّقف على جدار أو عمود يحمله، ودلالة الإنسان على الضَّاحك الخارج عن معناه، ولكنَّه لازم له.

ومن الكلام العربي: قولهم: (طويلُ النِّجَادِ)، وقولهم: (كثيرُ الرَّماد). فإنَّ قولهم: (طويل النِّجَادِ)[٢]، ملزوم لزم منه طول صاحبه. تريد بهذا التَّركيب أنَّه شجاعٌ عظيم، فعدلت عن التَّصريح بهذه الصِّفة، إلى الإشارة إليها بشيءٍ ترتَّب عليه ولزمه؛ لأنَّه يلزم من طول (حمالةِ السَّيفِ) طولُ صاحبه، ويلزم من طول الجسمِ الشَّجاعةُ عادةً، فالمراد طولُ قامته، وإنْ لم يكن له نجادٌ، ومع ذلك يصحُّ أن يراد المعنى الحقيقي. ومن هنا يعلَمُ أنَّ الفرقَ بين قرينة المجاز وقرينة الكناية بأنَّ قرينة المجاز مانعةٌ من إرادة المعنى الأصليِّ، وقرينةُ الكنايةِ غير مانعةٍ من إرادة المعنى الأصليِّ[٣]. وقولهم: (كثير الرَّماد)، يستدلُّون

(١) انظر: نهاية السُّول (١/١٧٤)، الإحكام، للآمدي (١/٣٦)، البحر المحيط في أصول الفقه (١/٤١٧)، التَّحبير (١/٣١٩)، حاشية العطَّار (١/٣١٣)، شرح التَّلويح على التَّوضيح (١/٢٤٥)، مختصر المعاني (ص:١٧٥).

(٢) النِّجَاد: حمالة السَّيف، وهو هنا كناية عن طول قامته.

(٣) (الكِنايةُ: لفظٌ أُريدَ به لازمُ معناه مع جوازِ إرادتِهِ)، أي: ذلك المعنى، (معه)، أي: لازمه كلفظ: طويل النجاد، المراد به: طول القامة، ويجوز أن يراد به حقيقة طول النجاد، أي: حمائل السيف أيضًا، (وبهِ تُفارِقُ المجازَ)، فإنه لا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي للقرينة المانعة من إرادته. من تحقيقنا لكتاب إتمام الدراية (٢/٢١٦). الفرق بين المجاز والكناية: يظهر من وجهين: أحدهما: أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها، فلا يتمنع في قولك: فلان طويل النجاد، أن تريد: طول نجاده، من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته، وفي قولك: (فلانة نئومة الضحى) أن تريد أنها تنام ضحى لا عن تأويل يرتكب في ذلك مع إرادة كونها مخدومة مرفهة، والمجاز ينافي ذلك، فلا يصح في نحو: (رعينا الغيث) أن تريد: معنى الغيث، وفي نحو قولك: (في الحمام أسد) أن تريد: معنى الأسد من غير تأويل، وأنى والمجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء. والثاني: أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم على الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم على اللازم ..انظر: مفتاح العلوم (١/٤٠٣). "الكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها، وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح؛ لأن الانتقال فيها يكون من الملزوم إلى اللازم فهو كالدعوى ببينة، فكأنك تقول في زيد كثير الرماد: زيد كريم؛ لأنه كثير الرماد، وكثرته تستلزم كذا..الخ، كيف لا وأنها تمكن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة يتحاشى الإفصاح بذكرها، إما=



بذلك على الجود والكرم؛ لأنَّ كثرةَ الرَّمادِ تدلُّ على كثرة الطَّبخ، وهذه تدلُّ على كثرةِ الآكلين، وكثرةُ الآكلينَ تدلُّ على الجود. وكلُّ هذه (لوازم عرفيَّة لا عقليّة). لكن الدِّلالة على اللاَّزم تسمَّى التزامًا إن التُزم ذلك بالعقل، أي: في الذِّهن بأن لزم من تصوُّر الملزوم في الذِّهن تصوُّر ذلك اللاَّزم فيه سواء لزم ذلك في الخارج كدلالة الأربعة على الزَّوجية، أم لم يلزمه في الخارج، بل كان منافيًا له فيه كالبصر للعمى، وخرج بقيد اللاَّزم له في الخارج فقط دون الذِّهن كالسَّواد للغراب، فلا يسمَّى دلالة لفظ (الغراب) على السَّواد دلالة التزام، لعدم لزوم السَّواد في العقل، وإن لزم في الخارج...



وهنا ينبغي التَّنبيه على أنَّه ليس من شرط (دلالة الالتزام) أن تكون ذهنيةً عقليّة فقط، بل قد تكون (دلالة الالتزام) دلالة (لزوم عرفي) أي: أنَّ العقل لا يحكم إلا بعد

=احترامًا للمخاطب أو للإبهام على السامعين، أو للنيل من خصمه، دون أن يدع له سبيلا عليه، أو لتنزيه الأذن عما تنبو عن سماعه ونحو ذلك من الأغراض واللطائف البلاغية". جواهر البلاغة (ص:٢١٠)، وفي (الإيضاح) (ص:٣١٠): "أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر. قال الشيخ عبد القاهر: ليس ذلك؛ لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه بل لأنه يفيد تأكيدًا لإثبات المعنى لا يفيده خلافه، فليست فضيلة قولنا: (رأيت أسدًا) على قولنا: (رأيت رجلًا) هو والأسد سواء في الشجاعة أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفده الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات تلك المساواة له لم يفده الثاني. وليست فضيلة قولنا: (كثير الرماد) على قولنا: (كثير القرى) أن الأول أفاد زيادة لقراه لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيدًا لإثبات كثرة القرى له لم يفده الثاني. والسبب في ذلك أن الانتقال في الجميع من الملزوم إلى اللازم فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة، ولقائل أن يقول: قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون الشبه به أتم منه في المشبه وأظهر. فقولنا: رأيت أسدًا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا: رأيت رجلا كالأسد؛ لأن الأول يفيد شجاعة الأسد، والثاني شجاعة دون شجاعة الأسد، ويمكن أن يجاب بحمل كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء من الصور أصلًا". وانظر: بغية الإيضاح (٣/٥٥٦)، مختصر المعاني (ص:٢٦٣)، دلائل الإعجاز (ص:٦٩)، وانظر ذلك مفصلًا في (المطول شرح تلخيص المفتاح) (ص:٤١٤- ٤١٥)، وشروح التلخيص (٤/٢٧٤) فما بعد.



ملاحظة تكرار المشاهدة والتَّجربة التي دلَّ العرف على المعنى المراد، والتَّكرار على لزومها..وهذا كثيرٌ في القرآن والسنُّة، وكلُّ باب الكناية قائمٌ عليه. و(الملازمة العرفيَّة) هنا إنما حكم العقل بها بالنَّظر إلى السِّياق والسِّباق والقرائن التي ترجِّحُ الكناية على الحقيقة، فيحكم بالملازمة العرفيَّة، وذلك واضح...

٣ – ندم الكافر وحسرته يوم القيامة:

وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذي دلَّت عليه هذه الآية، جاء موضَّحًا في آياتٍ أُخَر، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤] الآية. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الأغلال فى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ﴾ [سبأ:٣٣] الآية. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١] الآية. و(الحسرة) أشدُّ النَّدامة. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، حيث يتمنَّى الكافر أن يكون آمن بالرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار الدُّنيا، واتَّخذ معه سبيلًا، أي: طريقًا إلى الجنَّة في قوله هنا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧] جاء موضحًا في آيات أخر كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦]،..إلى غير ذلك.

٤ – الأخوَّة والصَّداقة:

الصداقة نوع من المحبة إلَّا أنها أخص منها، فهي المودة بعينها..وهي علاقة اجتماعية بين شخصين أو أكثر، تبنى على أساس من المودة والتعاون بينهم، وتبدأ من انفعال عاطفي هادئ، وتنتهي إلى أن تستحوذ على النفس، وتؤثر في السلوك.

والصداقة إذا كانت مرتبطة بالعقيدة فإنها تثمر ثمارًا طيبة، وترقى إلى محبة منبثقة من العقيدة، متأثرة بأخلاقها وأدبياتها..فهي محبة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ.



وقد يكون للصداقة من الأثر في المنهج والسلوك ما يفوق أيَّ عاطفة أخرى، فإن كان الصديق صالحًا كريم الخلق غدا القرين بعد المخالطة نظيرًا له في الصلاح والكرم، وإن كان سيء الخلق لئيمًا، اقتفى أثره، وسار على نهجه.

قال الشاعر:

(عن المرء لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قَرِينه***فكُلُّ قرينٍ بالمقارِنِ يقتدي)(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"(٢).

ولقد حذر الله عَزَّوَجَلَّ من صحبة أهل الشر والفساد، وأمر بصحبة أهل الفضل والرشاد والصلاح، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وفي الحديث: ((**لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلَّا تقي**))(٣).

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ندم أهل النار؛ بسبب صحبتهم لأهل الفساد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]. فهذا تنفير من صحبة أهل السوء والباطل.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٣٢).

(٢) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك [٣٦٤]، والطيالسي [٢٢١٣]، وأحمد [١١٣٥٥]، والدارمي [٢٠٥٧]، وأبو داود [٤٨٣٢]، والترمذي [٢٣٩٥]، وقال: "حسن". كما أخرجه: أبو يعلى [١٣١٥]، وابن حبان [٥٥٤]، والحاكم [٧١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٨٢].



والحاصل أن صحبة أهل الباطل تورد صاحبها المهالك، وفي المقابل فإن صحبة أرباب العزائم والهمم، ومشاركة المجدين تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثر في الصد عن الحق.

والصداقة التي تدوم وتثمر ثمارًا طيبة إنما تبنى على المحبة والصدق والإخلاص، وإن لهذه المحبة مقتضيات تقدم بيانها تُحَفِّزُ على المحبة الصادقة.

والأخوَّة الحقيقيَّة هي التي تقوم على الإيمان والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولله، وليس من أجل منفعةٍ دنيويَّة، أو مصلحةٍ شخصيَّة، أو عصبيَّة قبليَّة، أو غير ذلك من الماديَّات، فما كان لله عَزَّوَجَلَّ دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

وقد قيل: إنَّ الكلمة منفردة وحيدة لا تعدو أن تكون رسمًا، قد تُفهمك معنى، ولكن فيضَ معانيها ، وجمال قدرها لا يدرك إلَّا باتساقها مع غيرها من الكلمات، وكذلك هو حال المؤمن مع إخوانه وأحبابه..-كما تقدم-.

"فإن صفا لك أخ فكن به أشد ضنًا منك بنفائس أموالك، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى خلقًا أو خلقين تكرههما؛ فإن نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد، فكيف بنفس غيرك؟ وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره"(١).

ثامنًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام:١٢٨]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).

تاسعًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ [الأنعام:١٣٠]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).

---

(١) رسائل الجاحظ (٤/٧٨).



عاشرًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة)، [الصافات: ٥١– ٥٧].

الحادي عشر: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ [هود:٤٢]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

الموضع الأوَّل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢].

الموضع الثَّاني: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

الموضع الثَّالث: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣].

الموضع الرَّابع: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان:١٦].

الموضع الخامس: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ [لقمان:١٧].

الموضع السَّادس: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢].

٢ – القراءات:

وفي هذه الصِّيغة اختلافٌ بين القُرَّاء، وهذا الخلاف قد ذكره بعض المفسِّرين، فقد اختلف في: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ في الآيات السَّابقة، أعني في الآية التي في (سورة هود)، والتي جاء ذكرها في موضع واحد، وفي (سورة يوسف) في موضع واحد، و(سورة لقمان) في ثلاثة مواضع، وفي (الصَّافات) في موضع. "فحفصٌ –بفتح الياء– في (السِّتَّة)[1]؛ ذلك لأنَّ أصل ابن: (بنو) صغر على (بنيو) فاجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسُّكون

(١) أي: في المواضع (السِّتَّة) الآنفة الذِّكر.



قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها، ثمَّ لحقها (ياء الإضافة). فاستثقل اجتماعها مع الكسرة فقلبت ألفًا، ثمَّ حذفت الألف اجتزاء عنها بالفتحة.

وقرأ أبو بكر[1] هنا كذلك بالفتح. وقرأ ابن كثير الأوَّل من (لقمان): ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بسكون الياء مخفَّفة، واختلف عنه في الأخير منها..﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ فرواه عنه البزيُّ كحفص، ورواه عنه قنبل بالتَّخفيف مع السُّكون كالأوَّل، وافقه ابن محيصن على التَّخفيف فيهما. ولا خلاف عن ابن كثير في كسر الياء مشدَّدة في الأوسط من (لقمان) ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾، وبه قرأ الباقون في (الستَّة). وأدغم باء ﴿ارْكَبْ﴾ في ميم ﴿مَعَنَا﴾ أبو عمرو والكسائيُّ ويعقوب. واختلف عن ابن كثير وعاصم وقالون، وخلَّاد.

والوجهان صحيحان عن كلٍّ منهم. والباقون بالإظهار"[2].

ويقول العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾: "النِّداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذِّهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه. و﴿بُنَيِّ﴾ -بكسر الياء المشدَّدة- تصغير (ابن) مع إضافته إلى (ياء المتكلِّم)، وأصله: (بُنَيْوي) أو (بُنَيْيي) على الخلاف في أنَّ

---

(١) هو شعبة بن عياش الكوفي المقرئ.

(٢) إتحاف فضلاء البشر (٤٥٥/١)، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٦/٣). النَّشر (٣٢٥/٢). وفي (زاد المسير): قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ "قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ: ﴿يَا بُنَيِّ ارْكَبْ﴾ مضافة، بكسر الياء. وروى أبو بكر عن عاصم (يا بنيَ) -مفتوحة الياء- ها هنا، وباقي القرآن مكسورة. وروى حفص عنه بالفتح في كلِّ القرآن: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ إذا كان واحدًا. قال النَّحويون: الأصل في ﴿بُنَيَّ﴾ ثلاث ياءات، ياء التَّصغير، وياء بعدها هي لام الفعل، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإضافة. فمن قرأ: ﴿يَا بُنَيِّ﴾ أراد: يا بنيي، فحذف ياء الإضافة، وترك الكسرة تدلُّ عليها، كما يقال: يا غلام أقبل. ومن فتح الياء، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة؛ استثقالا لاجتماع الياءات مع الكسرة، فانقلبت ياء الإضافة ألفًا، ثمَّ حذفت الألف كما تحذف الياء، فبقيت الفتحة على حالها. وقيل: إن المعنى: يا بني آمن واركب معنا". زاد المسير (٣٧٦/٢)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٩/٩)، المحرَّر الوجيز (١٧٤/٣)، الحجَّة في القراءات السَّبع (١٨٧/١).



(لام ابن) الملتزمَ عدمُ ظهورها هي واو أم ياء. وعلى كلا التَّقديرين فإنّها أدغمت فيها (ياء التَّصغير) بعد قلب الواو ياءً لتقارب الياء والواو، أو لتمَاثلهما فصار (بنَيّي). وقد اجتمع ثلاث ياءات فلزم حذف واحدة منها فحذفت ياء المتكلم لزوما وألقيت الكسرة التي اجتلبت لأجلها على (ياء التَّصغير) دلالة على الياء المحذوفة. وحذفُ (ياء المتكلِّم) من المنادى المضاف شائع، وبخاصّة إذا كان في إبقائها ثقلٌ كما هنا؛ لأنَّ التقاء ياءات ثلاث فيه ثقل. وهذا التّصغير كناية عن تحبيب وشفقة. نزل الكبير منزلة الصَّغير؛ لأنّ شأن الصَّغير أن يحب ويشفق عليه. وفي ذلك كناية عن إمحاض النُّصح له"[(١)].

٣ – ما يستفاد من النِّداءات بهذه الصِّيغة:

الحاصلُ أنَّ النِّداءات السَّابقة بهذه الصِّيغة فيها النُّصح والتَّحبب والشَّفقة والعاطفة، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وفيها امتثال أمرِ الله عَزَّوَجَلَّ كما في نداء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه.

ففي النِّداء الأوَّل –نداء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه– يهتف بولده الشَّارد حتَّى لا ينخرطَ في سلك الكافرين المخالفين لأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ البنوَّة العاقَّة لا تحفل بالأبوَّة الملهوفة، ولا تقدِّر مدى الهول، وما يحدق بها من جرَّاء مخالفة أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فيأتي النُّصح والشَّفقة من الأبوَّة المدركة لحقيقة الهول، كما أنَّ في النِّداء ما يدلُّ على أنَّ الوشيجة التي يجتمع عليها النَّاس في هذا الدِّين تتميَّز عن وشيجة الدَّم والنَّسب والقوم والعشيرة واللَّون واللُّغة والجنس والعنصر والحرفة والطَّبقة، فإنَّ هذه الوشائج قد توجد أو يوجد بعضها ثمَّ تنقطع، فعلم أنَّ البنوَّة أو الأخوَّة في الدِّين أقوى من البنوَّة والأخوة في النَّسب؛ لأنها قد تنقطع بمخالفة الدِّين، وأمَّا البنوَّة أو الأخوَّة في الدِّين فلا تنقطع بمخالفة النَّسب.

ولكن ماذا كانت النَّتيجة بعد هذا النِّداء وهذا النُّصح؟

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢١٣/١٢). وانظر: الحجَّة في القراءات السَّبع (٢٨٤/١– ٢٨٥). انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٦/٣)، المقتضب (٢٤٩/٤)، البحر المحيط (٢٢٦/٥)، البيان في غريب إعراب القرآن الكريم (١٤/٢–١٥)، الفريد (٦٢٨/٢–٦٢٩).



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

حال الموج بين الولد العاقِّ، والوالد الرَّحيم، فكان الولد من المغرقين.

وفي الموضع الثَّاني من هذه الصِّيغة من النِّداء نداء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتشترك رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع رؤيا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ –التي ستأتي– في كون رؤيا الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حقٌّ.

وفي نداء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يدلُّ على أنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ علم أنَّ الله ﷻ سيصطفي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ للنُّبوَّة، وينعم عليه بشرف الدَّارين، فخاف عليه حَسَد الإخوة؛ ولهذا نصحه بأن لا يقصَّ رؤياه على إخوته حتَّى لا يكون للشَّيطان مدخلٌ إلى نفوسهم فيدبِّروا ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرًا يسوؤه..، وإنَّ الشَّيطان للإنسان عدوٌّ مبين يوغر صدور النَّاس بعضهم على بعض، ويزيِّنُ لهم الشَّر، ولكلِّ نعمةٍ حاسد، ولا نعمة أعظم من هذه النِّعمة، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد.

وفي نداء لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الموعظة والعاطفة والنُّصح والتَّوجيه والإرشاد، ينهى ابنه عن الشِّرك، ويعلِّلُ ذلك بأنَّه ظلمٌ عظيم، ويؤكِّد هذه الحقيقة مرَّتين، مرَّة بتقديم النَّهي، وفصل علَّته، ومرَّة بـ (إنَّ) و(اللام)، وهذه النَّصيحة هي الحقيقة الخالدة التي دعا إليها جميعُ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والتي يجب أن تتحقَّق في كلِّ مخاطب، ويعمل كلُّ داعيةٍ على غرسها في نفوس السَّامعين..

وفي قوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيَّات الأعمال، وأنَّه لا يفوت الله عَزَّوَجَلَّ عملٌ، وذلك يصوِّر عظمةَ الله عَزَّوَجَلَّ ودقَّته وعدله، وقضاءه بالقسط..قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والله عَزَّوَجَلَّ عالم البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار. قال الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وفي ذلك الحثُّ على مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بطاعته، والتَّرهيب من عمل القبيح قلَّ أو كثر.

وأمر لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ابنه بأداء الصَّلاة تامّة بأركانها وشروطها وواجباتها؛ لأنَّها عماد الدِّين، وأكبر العبادات البدنيَّة، ولذلك وصَّاه بأعظم الطَّاعات..

ونداء إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لابنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نداء شفقة وترحُّم..، وتنفيذ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ذلك دلالة على أنَّ الوحي يأتي من الله عَزَّوَجَلَّ إلى الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ في اليقظة والمنام، وكان الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**تَنَامُ عَيني ولا يَنَامُ قَلْبي**))[1]، فما كان منهما إلا الثَّبات والصَّبر فلا يتردَّد في التَّضحية بفلذة كبده، ويمضي في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وما كان من الابن إلا الطَّاعة والتَّسليم والرِّضا بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره..، فماذا كان بعد ذلك من أمر؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧].

الثاني عشر: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [يوسف:٤]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي (ثمانية) على النَّحو التَّالي:

[يوسف:٤ – ١٠٠].

[مريم:٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٥].

---

(١) الحديث مرويٌّ عن عبد الله بن مسلمة عن مالك عن سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه سأل عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كيف كانت صلاة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: ((تنام عيني ولا ينام قلبي)). صحيح البخاري، [٣٥٦٩].

[القصص:٢٦].

[الصَّافات:١٠٢].

٢ - القراءات:

قرأ ابنُ عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَـا أَبَـتِ إِنِّي رَأَيْـتُ﴾ [يوسف:٤] -بفتح التَّاء- في جميع القرآن، وقرأ الباقون -بكسر التَّاء- على الإضافة إلى نفسه الأصل (يا أبي) فحذفت الياء؛ لأنَّ (ياء الإضافة) تحذف في النِّداء كما يحذف التَّنوين، وتبقى الكسرة تدلُّ على الياء، كما تقول: (ربِّ اغفر لي). وفي التَّنزيل: ﴿رَبِّ قَـدْ آتَيْتَـنِي﴾ [يوسف:١٠١]، و﴿يَـا قَـوْمِ﴾ [البقرة:٥٤]، والأصل: (يا قومي) فحذفت الياء، وإنما تحذف في النِّداء؛ لأنَّ باب النِّداء باب التَّغيير والحذف. وأمَّا إدخال تاء التأنيث في (الأب) فقال قوم: إنما دخلت للمبالغة كما تقول: علَّامة ونسَّابة، فاجتمع (ياء المتكلِّم) والتَّاء التي للمبالغة فحذفوا الياء؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها.

وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: إنَّ التَّاء كثرت ولزمت في (الأب) عوضًا عن (ياء الإضافة)؛ فلهذا كسرت التَّاء؛ لأنَّ الكسرة أخت الياء، ومن فتح فله وجهان:

أحدهما: أن يكون أراد (يا أبتا) فأبدل من (ياء الإضافة) ألفًا، ثمَّ حذف الألف كما تحذف الياء وتبقى الفتحة دالَّةً على الألف كما أنَّ الكسرة تدلُّ على الياء.

والوجه الآخر: أنَّه إنما فتح التَّاء؛ لأنَّ هذه التَّاء بدلٌ من (ياء المتكلِّم)، وأصل (ياء المتكلِّم) الفتح فتقول: (يا غلامي)، وإنما قلنا ذلك؛ لأنَّ الياء هو اسم، والاسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة، فتكون الحركة تقويةً للاسم، فلمَّا كان أصل هذه الياء الفتحة كان الواجب أن تفتح؛ لأنَّها بدل من الحرف الذي هو أصله ليدلَّ على المبدل. وقف ابن كثير وابن عامر رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ﴿يا أبـه﴾ على الهاء، وحجَّتُهما أنَّ التَّغييرات تكون في حال الوقف دون الإدراج فتقول: (رأيت زيدًا)، فتقف عليه بالألف، ووقف الباقون

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣/٨٨- ٨٩).



بالتَّاء، وحجتهم أن هذه التاء بدل من الياء فكما أن الياء على صورة واحدة في الوصل والوقف فكذلك البدل يجب أن يكون مثل المبدل منه على صورة واحدة"[١].

٣ – إجمال الإعراب:

و﴿يَـا أَبَـتِ﴾ منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدَّرة على ما قبل (ياء المتكلِّم) المبدلة تاء، ونقلت كسرة المناسبة إلى التَّاء، والتَّاء مضاف إليه[٢].

والحاصل أنَّ ﴿يَـا أَبَـتِ﴾ ممَّا لم يستعملوه إلَّا في النِّداء إدخال تاء التَّأنيث على (الأب) و(الأم)، وهي عوض من (ياء المتكلِّم)؛ ولذلك لا يجوز الجمع بين التَّاء والياء.

جاء: (يا أبتا، يا أمتا) لتغيير لفظ الياء ألفًا، والكسرة التي على التَّاء هي الكسرة التي كانت على الباء في (أبي) فزحلقت[٣]، أي: إلى التَّاء؛ إذ لا يكون ما قبل تاء التَّأنيث إلا مفتوحًا. وقيل: بل كسرت التَّاء لتدلَّ على الياء المحذوفة..

---

(١) حجَّة القراءات، لأبي زرعة (ص:٣٥٣ – ٣٥٤).

(٢) "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَبَتِ﴾ –بكسر التَّاء– على إرادة النَّفس، والأصل (يا أبي) فحذف (ياء النَّفس) اجتزاءً بالكسرة عنها، وجيء بهذه التَّاء عوضًا عنها مكسورة". الفريد (٢٥/٣). وفي (الفريد) كلامٌ مطوَّل في بيان هذه الكسرة فمن ذلك –وهو ما يوافق رأي الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف) (٣٠١/٢)– قال: "إنَّ هذه الكسرة هي التي كانت قبل الياء في قولك (يا أبي) قد زحلقت إلى التَّاء؛ إذ لا يكون ما قبل تاء التأنيث إلا مفتوحًا. وقيل: بل كسرت التَّاء لتدلَّ على الياء المحذوفة. وإنما تكون هذه التَّاء في النِّداء خاصَّة إذا أضيفت إلى نفسك، ولا يجمع بينهما لئلا يجمع بين العوض والمعوَّض منه..". انظر الفريد (٢٥/٣–٢٨)، الكشاف (٣٠١/٢).

(٣) انظر ذلك مفصَّلا في (الدُّر المصون) (١٥١/٤–١٥٢)، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٥٢٤/٣–٥٢٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٨٨/٣–٩٠)، وانظر: الكتاب لسيبويه، (٢٠٩/٢–٢١٢)، أمالي الشَّجري (١٠٤/٢– ١٠٥).

الثالث عشر: ﴿يَا أَبَانَا﴾ [يوسف:١١]:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي (ستَّة)، كلُّها في (سورة يوسف)، وهي في الآيات التَّالية: [١١ – ١٧– ٦٣ – ٦٥ – ٨١ – ٩٧].

٢ – ما يستفاد من النِّداء بهذه الصِّيغة:

ويقال في هذه الصِّيغة من النِّداء ما قيل في النِّداء من حيث معناه العامُّ، وما قيل في سابقتها من أنَّه نداءُ (تحبُّبٍ واستعطاف)..قال أبو السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خاطبوه بذلك؛ تحريكًا لسلسلة النَّسبِ بينه وبينهم وتذكيرًا لرابطة الأخوَّة بينهم وبين يوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ"(١).

"وابتداء الكلام مع أبيهم بقولهم: ﴿يَا أَبَانَا﴾ يقضي أنَّ تلك عادتهم في خطاب الابن أباه"(٢).

والحاصل أنَّهم خاطبوه بهذا اللَّفظ المذكِّر بما بينه وبينهم من آصرةٍ وقرابة.

ثمَّ يختلف الطَّلب، ويعلم بالنَّظر فيما ولي المنادَى.

(١) تفسير أبي السُّعود (٤/ ٢٥٧)، روح المعاني (١٢/ ١٩٣).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (١٢/ ٢٢٧).



الرابع عشر: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة ففي موضعين: [يوسف:٣٩]، [يوسف:٤١].

قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ في موضعين الأوَّل منهما ذكره يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين عدل عن جوابهما إلى دعائهما إلى الإيمان، والثَّاني حين دعياه إلى تعبير الرُّؤيا لهما..[1].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الذى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

٢ – سبب المناداة هنا بعنوان الصُّحبة:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾، "أي: (يا صاحبي فيه) إلَّا أنَّه أضيف إلى الظَّرف توسُّعًا كما في قولهم: (يا سارق اللَّيلة أهلَ الدَّار)[2]، ولعلَّه إنما ناداهما بعنوان الصُّحبة في مدار الأشجان، ودار الأحزان التي تصفو فيها المودَّة وتتمحَّض النَّصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته. ويجوز أن يراد بالصُّحبة السُّكنى كما يقال: (أصحاب النَّار)

---

(١) انظر: أسرار التَّكرار في القرآن الكريم، للكرماني (ص:١١٢).

(٢) والمعنى: (يا سارقي في اللَّيلة)، فأضاف (سَارقًا) إلى (الليلة)، ونصب (أهل الدار)، وكان بعض النَّحويِّين ينصب (اللَّيلة) ويخفض (أهل) فيقول: (يا سَارق الليلة أهلِ الدار) كما في (معاني القرآن الكريم)، للفرَّاء (٨٠/٢). "ولا يجوز (يا سارقَ الليلةَ أهلِ الدار) إلا في شعر كراهة أن يفصلوا بين الجار والمجرور". وانظر: تفسير القرطبي (٣٣٨/١٣)، البحر المديد (٥٩٧/٢)، المحرَّر الوجيز (٧٠/١)، البيضاوي (١٦٤/٣)، النسفي (٣٠/١)، تفسير أبي السُّعود (٢٧٨/٤)، الخازن (٢/ ٥٢٩)، السِّراج المنير (١٠٩/٢)، تفسير النَّيسابوري (٨٩/٤)، وينظر: المفصَّل في صنعة الإعراب (ص:٨٢)، شرح الرَّضي على الكافية (٢١٩/٢ – ٢٢٣)، إبراز المعاني (١١٦/٢)، شرح نهج البلاغة (٢٥٥/٧).



و(أصحاب الجنَّة) لملازمتهم لهما، والإضافة من باب إضافة الشَّيء إلى شبه المفعول عند أبي حيَّان[1]، وإلى المفعول عند غيره[2] ولا اتِّساع في ذلك. وقيل: بل هناك اتِّساع أيضًا، وأنَّه أضافهما إلى السِّجن دونه؛ لكونهما كافرين، وفيه نظر[3]، ولعلَّ في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثًّا لهما على الإقرار بالحقِّ كأنَّه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشَّاق والمحلِّ الضَّنك إني ذاكرٌ لكم أمرًا فقولوا الحقَّ فيه ولا تزيغوا عن ذلك، فأنتم تحت شدَّة، ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغ عن الحقِّ، وإنما حمل الصَّاحب على ما سمعت؛ لأنَّ صاحب السِّجن في الاستعمال المشهور السَّجان أو الملك، والنِّداء بـ (يا) بناءًا على الشَّائع من أنها للبعيد للإشارة إلى غفلتهما وهيمانهما في أودية الضَّلال.

وقد تلطَّف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهما في ردِّهما إلى الحقِّ، وإرشادهما إلى الهدى حيث أبرز لهما ما يدلُّ على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام حتَّى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بإبطال ما ألفاه دهرًا طويلًا، ومضت عليه أسلافهما جيلًا فجيلًا، فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ متعدِّدون متكثرون يستعبدكما منهم هذا وهذا، والكلام على ما صرَّح به أبو حيَّان[4] على حذف مضاف، أي: أعبادة أربابٍ متفرِّقين ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ اللهُ﴾، أي: أم عبادة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الْوَاحِدُ﴾ المنفرد بالألوهيَّة ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد عَزَّوَجَلَّ.."[5].

وفي كلام الزَّمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف) زيادةٌ في التَّحقيق والإيضاح حيث يقول: في قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾: "يريد: (يا صاحبي في السِّجن) فأضافهما إلى

(١) انظر: البحر المحيط (٥/ ٤٢٧)، روح المعاني (١٢/ ٢٤٣).

(٢) سبقت الإشارة إلى ذلك قريبًا.. أقول: والمفعول ما يتعدَّى إليه الفعل بذاته، وشبه المفعول ما يتعدَّى إليه الفعل بحرف الجرِّ. وعلى ذلك يكون التَّقدير: سَكَنَ في السِّجن، والتَّقدير الثَّاني: سَكَنَ السِّجن، فهو مسكون، ويرجع ذلك إلى (سكن) الذي يتعدَّى ولا يتعدَّى.

(٣) أقول: ووجه الاعتراض أنَّه ناداهما بعنوان الصُّحبة في السِّجن، وهو قدرٌ مشتركٌ بينه وبينهم، وإضافة الصُّحبة إلى السِّجن ليس فيها ما يميز بين من كان مؤمنًا أو من كان كافرًا..

(٤) البحر المحيط (٦/٢٧٨)، وانظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٠٤).

(٥) روح المعاني (١٢/٢٤٣).

السِّجن كما تقول: (يا سارق اللَّيلة) فكما أنَّ اللَّيلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السِّجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره، وهو يوسف عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ. ونحوه قولك لصاحبيك: (يا صاحبي الصِّدق) فتضيفهما إلى الصِّدق ولا تريد أنهما صحبا الصِّدق، ولكن كما تقول: (رجلا صدق) [بالتَّثنية] وسميتهما صاحبين؛ لأنهما صحباك"[1].

أقول: ولعلَّ هذا هو الأقرب، والأخفُّ مؤونة، وهو من المعاني المستعملة بكثرة.

٣ – سبب التَّعيين:

وسبب التعيين أنهما استفتياه في بين السَّاكنين. ثمَّ أنكر عليهم عبادة الأصنام..[2].

٤ – حقيقة الصَّاحب:

و(الصَّاحب) "حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفرٍ أو نحوه[3]، وسمِّيت الزَّوجة صاحبة، ويطلق مجازًا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلًا لملازمة الذكِّر منزلةَ ملازمة الذات.."[4].

(١) الكشاف (٢/٣٢١).

(٢) انظر: تفسير النَّيسابوري (غرائب القرآن) (٤/٨٩).

(٣) ولذلك قيل: سمِّي السِّفر سفرًا؛ لأنَّه يسفر عن أخلاق الرِّجال، أي: يكشف. انظر: الزَّاهر (٢/٢٠٦)، تفسير الرَّازي (٧/١٠٠)، ابن عادل (٤/٥٠٦).

(٤) التَّحرير والتَّنوير (٩/١٩٤).



٥ – الدُّروس المستفادة:

لقد هزَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة قوائم الشِّرك، وأتى على قواعده بأسلوبٍ فيه ما فيه من الحكمة وإقامة الحُجَّة..وقد استفاد من صفةِ الصُّحبة المؤنسة واتَّخذها طريقًا ومدخلًا إلى صلب الدَّعوة..فكذلك ينبغي على كلِّ داعية ماهرٍ أن يتحيَّن الفرص ليضع بذور دعوته..وأن يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ بحكمةٍ، وأن يقدِّمَ الهداية والإرشاد والموعظة والنَّصيحة.

كما هو حال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث لم يدعهما مباشرة، وإنَّما عرض دعوته في أسلوبٍ حواريٍّ موضوعيٍّ يخاطبُ فيهما العقلَ والعاطفة، ويهدم الاعتقادَ الفاسد، حيث قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وهو في ظاهره سؤال مستفهمٍ، ولكنَّه في حقيقته هجومٌ على الفطرة الزَّائغة. يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطل، فإنَّ الفطرة التي يولد عليها الإنسان لا تعرف إلَّا إلهًا واحدًا. وقد نفى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلماته القليلة تعدُّدَ الإلهة، وأثبت وحدانيَّة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ كثرة الإلهة توجب الخلل والفساد...

وما شقيت البشريَّة قطُّ شقاءها بتعدُّد الأرباب وتفرُّقهم، وتوزُّع العباد بين أهوائهم وتنازعهم.. فهذه الأرباب الأرضيَّة التي يعطيها سلطانًا تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدِّعاية! هذه الأرباب الأرضيَّة لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها، ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرَّغبة الملحَّة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كلِّ القوى والطَّاقات التي تهدِّد ذلك السُّلطان من قريبٍ أو من بعيد، وفي تسخير تلك القوى والطَّاقات في تمجيدها وخدمتها!

والله عَزَّوَجَلَّ الواحدُ القهَّار غنيٌّ عن العالمين، فهو عَزَّوَجَلَّ لا يريد منهم إلا التَّقوى والصَّلاح والعمل والعمارة وفق منهجه فيعدُّ لهم هذا عبادة.

ومن الدُّروس المستفادة من قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ..﴾.. أنَّه لم "يعيِّن من هو صاحب البُشْرَى،



ومن هو صاحب المصير السَّيئ تلطُّفًا وتحرُّجًا من المواجهة بالشَّر والسُّوء. ولكنَّه أكد لهما الأمر واثقًا من العلم الذي وهبه الله عَزَّوَجَلَّ"[1].

ومن الملاحظ أنَّه قد دعاهما قبل تعبير الرُّؤيا إلى الإيمان بربِّه عَزَّوَجَلَّ..

وقال لهما قبل ذلك: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ أي: في الرُّؤيا. ﴿إلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا﴾، يعنى: التَّأويل ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يوسف:٣٧-٣٨]. فبدأ يذكر ربَّه عَزَّوَجَلَّ فإن هذا ممَّا علَّمه ربُّه عَزَّوَجَلَّ له؛ لأنَّه ترك ملَّة قوم مشركين لا يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا مقرِّين بالصَّانع، ولا يؤمنون بالآخرة، واتَّبع ملَّة آبائه أئمَّة المؤمنين، الذين جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ أئمَّة يدعون بأمره -إبراهيم وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فذكر ربَّه عَزَّوَجَلَّ ثمَّ دعاهما إلى الإيمان بربِّه عَزَّوَجَلَّ.

"وقيل: إنما قدَّم هذا ليعلما ما خصَّه الله عَزَّوَجَلَّ من النُّبوَّة، وليقبلا إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيما بينهم قبل ذلك زمانًا، فلم يحك الله عَزَّوَجَلَّ عنه أنَّه ذكر لهم شيئًا من الدُّعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وكانوا قومًا يعبدون الأوثان؛ وذلك لأنَّه لم يطمع منهم في الاستماع والقبول، فلمَّا رآهم مقبلين إليه، عارفين بإحسانه[2] أمل منهم القبول والاستماع، فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الآية. وهو من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

---

(١) انظر: الظِّلال (١٩٩٢/١٢)، وانظر: (١٩٨٩/١٢-١٩٩١).

(٢) أي: إنَّ ظاهر القرآن الكريم يدلُّ على أنَّه لبث فيهم مدَّة عرفوا فيها إحسانه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عنهما في خطابهما ليوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦] ورأى منهما تجاوبًا وقبولا فعرض عليهما دعوته..

[النحل:١٢٥]، وترقَّب وقت الاستماع والقبول من الدُّعاء إلى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ بالحكمة، وإنما حكى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك لنا لنقتدي به فيه"[١].

الخامس عشر: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]:

١ – ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة فقد وردت في موضع واحد من يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

٢ – بيان المعنى:

أما المعنى فعن الضَّحاك رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ قال: يا حزناه[٢].

وعن مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ قال: (يا جزعا)...

وعن قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ قال: (يا حزناه)[٣].

وقال الزَّجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "الأصل (يا أسفي)، فأبدل من الياء ألف؛ لخفَّة الفتحة"[٤].

---

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، للجصَّاص (٣٨٨/٤).

(٢) انظر: تفسير الضَّحاك (٤٧٦/١)، كتاب الهمِّ والحزن، لابن أبي الدُّنيا (٦٨/١)، تفسير الطَّبري (٢١٦/١٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٢١٨٥/٧).

(٣) تفسير الطَّبري (٢١٦/١٦)، تفسير مجاهد (ص:٤٠٠)، الدُّر المنثور (٥٦٧/٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٢١٨٥/٧)، فتح القدير (٧١/٣)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤٥٢/٣)، القرطبي (٢٨٤/٩)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٢٥/٣)، البغوي (٥٠٩/٢).

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (١٢٥/٣).



و(الأسف): أشدُّ الحزن على ما فات[1]. أضافه إلى نفسه، و(الألف) بدل من (ياء المتكلِّم) للتَّخفيف، والمعنى: (يا أسفى تعال فهذا أوانك). وقيل: الألف ألف النُّدبة، والهاء محذوفة، والمعوَّل عليه الأوَّل.

ولا يرد أنَّ هذا مناف لمنصب النُّبوَّة؛ إذ يقتضي ذلك معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن عرفه سبحانه أحبَّه، ومن أحبَّه لم يتفرَّغْ قلبُه لحبِّ ما سواه لما قيل: إنَّ هذه[2] محبَّة طبيعيَّة، ولا تأبى الاجتماع مع حبِّه عَزَّوَجَلَّ[3].

"إنَّ مثل هذه المحبَّة الشَّديدة تزيل عن القلب الخواطر، ويكون صاحبها كثير الرُّجوع إليه عَزَّوَجَلَّ، كثير الدُّعاء والتَّضرع، فيصير ذلك سببًا لكمال الاستغراق.."[4].

وفي (البحر): "ونادى الأسف على سبيل المجاز على معنى: (هذا زمانك فاحضر). والظَّاهر أنَّه يضاف إلى (ياء المتكلِّم) قلبت ألفًا، كما قالوا: في (يا غلامي): (يا غلاما). وقيل: هو على النُّدبة، وحذف الهاء التي للسَّكت"[5].

وحذف الهاء التي هي في النُّدبة علامة المبالغة في الحزن تجلُّدًا منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إذ كان قد ارتبط إلى الصَّبر الجميل.

وقيل: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى﴾ نداء فيه استغاثة[6].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢١٥)، روح المعاني (٣٩/١٣)، تفسير الرَّازي (١٨/ ٤٩٨)، القرطبي (٢٨٤/٩)، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، للجياني (ص:٢٨٤)، غريب القرآن المسمَّى بنزهة القلوب (ص:٥١١)، البغوي (٢٣٥/٢)، ابن عادل (١٨٨/١١)، تفسير النيسابوري (١١٧/٤)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٢٠٠/٥).

(٢) أي: محبَّة يعقوب ليوسف عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ.

(٣) بقليل من التَّصرُّف عن (روح المعاني) (٣٩/١٣)، تفسير أبي السُّعود (٣٠١/٤)، وانظر: تفسير الرَّازي (٥٠١/١٨)، ابن عادل (١٩٦/١١).

(٤) روح المعاني (٣٩/١٣)، تفسير الرَّازي (٢٠٠/١٨).

(٥) البحر المحيط (٣١٤/٦).

(٦) انظر: المحرَّر الوجيز (٢٧٢/٣).



٣ – تجنيس التَّصريف:

قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتَّجانس[١] بين لفظتي (الأسف) و(يوسف) مما يقع مطبوعًا غير مستعمل فيملح ويبدع، ونحوه: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ [التوبة:٣٨]، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]، ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، ﴿مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ﴾ [النمل:٢٢]"[٢].

وأيضًا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ [فاطر:٤٢]، ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

وفي (البحر): "يسمَّى هذا تجنيس التَّصريف[٣]، وهو أن تنفرد كلُّ كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف. وذكر يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما دهاه من أمر بنيامين، والقائل:

---

(١) الجناس، ويسمَّى أيضًا (التَّجنيس) في اللُّغة: المشاكلة والاتحاد في الجنس، يقال لغة: جانَسهُ، إذا شاكله، وإذا اشترك معه في جِنْسه، وجنس الشَّيء: أصله الذي اشْتُقَّ منه، وتَفَرَّع عنه، واتَّحدَ معَه في صفاته العظمى التي تُقوم ذاته. وفي الاصطلاح: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى. وهو نوعان: تام: وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي: نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها. كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]. وغير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدِّمة. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٣٥٤)، مختصر المعاني (ص:٢٨٨).

(٢) الكشاف (٢/٣٣٨)، البحر المحيط (٦/٣١٤)، ابن عادل (١١/١٨٩)، تفسير النَّسفي (٢/١٢٩)، تفسير النيسابوري (٤/ ١١٧)، تفسير أبي السعود (٤/٣٠١).

(٣) تجنيس التَّصريف كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦]، وهو أن تنفرد كلُّ كلمة عن الأخرى بحرف فـ﴿يَنْهَوْنَ﴾ انفردت بالها، و﴿يَنْأَوْنَ﴾ انفردت بالهمزة. ومنه: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [الكهف:١٠]، ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [النمل:٢٢]، ﴿تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]. البحر المحيط (٤/٤٧٢)، ابن عادل (٨/٨٤)، الدُّر المصون (٣/٣٥)، روح المعاني (١٩/١٨٧)، وانظر: خزانة الأدب (١/٧٣). وفي (التَّعريفات): تجنيس التَّصريف: هو اختلاف الكلمتين في إبدال حرف، إمَّا من مخرجه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾. أو قريب منه كما بين: (المفيح)، و(المبيح). التَّعريفات، للجرجاني (ص:٧٥). وفي (التَّعاريف): تجنيس التصريف: اختلاف الكلمتين بإبدال حرف من حرف إمَّا من مخرجه نحو: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، أو قريب منه كما بين: (المصيخ) و(المسيخ). التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، للمناوي (ص:١٦٢).



﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ [يوسف:٨٠] فقدانه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتأسَّف عليه وحده، ولم يتأسَّفْ عليهما؛ لأنَّه هو الذي لا يعلم أحيٌّ هو أم ميِّت؟ بخلاف أخوته؛ ولأنَّه كان أصل الرَّزايا عنده؛ إذ ترتبت عليه، وكان أحب أولاده إليه، وكان دائمًا يذكره ولا ينساه"[١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى﴾ الألف مبدلة من (ياء المتكلِّم)، والأصل: (أسفي) ففتحت الفاء، وصيِّرت الياء ألفًا ليكون الصَّوت بها أتمُّ، و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ: ﴿أَسَفَى﴾[٢].

و﴿يَا أَسَفَى﴾ منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدَّرة على ما قبل (ياء المتكلِّم) المنقلبة ألفا، والجارُّ متعلِّق بحال من ﴿أَسَفَى﴾[٣].

٤ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: إنَّ الصَّبر الجميل عاقبته حميدة، والفرق بينه وبين الصَّبر العادي أنَّ الصَّبر الجميل الذي لا يبوح فيه صاحبه بالشَّكوى، بل يفوِّض أمره لله عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: حسنُ الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من مقتضياتِ التَّوحيد، وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، يستفاد ذلك من قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال أيضًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف:٨٣].

---

(١) البحر المحيط (٦/٣١٤).

(٢) التِّبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/٥٨)، وانظر: الفريد (٣/٩٢– ٩٣).

(٣) وفي (الفريد): "أضاف (الأسف)، وهو أشدُّ الحزن والحسرة إلى نفسه مناديًا له، مقبلًا عليه: هَلُمَّ فهذا أوانك، فاستثقلت الكسرة على الفاء ففتحت، وأبدلت من الياء الألف، و﴿عَلى﴾ من صلة ﴿أَسَفَى﴾". الفريد (٣/٩٢-٩٣).



الثالثة: أنَّ البكاء لا ينافي الصَّبر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، فمن كثرة البكاء والدَّمع انقلب سوادُ عينيه بياضًا. وهناك فرقٌ بين البكاء وبين النِّياحة. فلا يجوز النَّدب ولا النِّياحة ولا شقُّ الثِّياب، ولا لطمُ الخدود، وكذلك لا يجوز الدُّعاء بالويل والثبور ونحوه.

و(النِّياحة): البكاءُ على الميِّت بصياحٍ وعويل، فهي رفعُ الصَّوت بالبكاء على الميِّت قصدًا، كنوح الحمام.

و(النَّدب): تعداد محاسن الميِّت.

والنِّياحة من أمر الجاهلية. وإنما كانت كذلك؛ لأنَّها لا تزيدُ النَّائح إلَّا شدّةً وحزنًا وعذابًا. وفيها السُّخطُ والاعتراض على قضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره. كما أنها تهيِّج أحزان غيره، والنِّياحة يشمل حكمها الرَّجلَ والمرأة، وفي الغالب وقوعها من النِّساء، ولهذا قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقَامُ يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ من جَرَب**))(١)، أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليها. وظاهر الحديث أنَّ هذا الذَّنب لا تُكفِّرُه إلَّا التَّوبة، وأنَّ الحسنات لا تمحوه؛ لأنَّه من كبائر الذُّنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلَّا التَّوبة.

ومع هذه المفاسد فإنَّ القضاء لا يردُّ، ولا يرفع ما نزل.

أمَّا البكاءُ فمن الممكن أن يكون رحمةً شفقة وغلبة نفس..

والفرق بينها وبين البكاء كبيرٌ ومبسوطٌ...في كتب (الفقه والفتاوى)(٢).

---

(١) أخرجه مسلم [٩٣٤].

(٢) انظر: الشَّرح الكبير، لابن قدامة (٢/٤٣٠)، عمدة الأحكام (٢/١٧٤)، المبدع (٢/ ٢٨٩)، منار السَّبيل (١/١٧٣)، الرَّوض المربع (١/٣٥٨)، الكافي (١/٢٧٣)، كشَّاف القناع (٢/١٦٣)، فتاوى ابن تيمية (٢٤/٣٨٢)، (٢٥/٣٠٧ – ٣٠٨)، (٢٨/١٦١)، المغني (٢/٢١٣)، المهذَّب (١/١٣٩)، الإقناع (١/٢٠٨)، شرح ابن رسلان (١/١٣٦)، فتح الوهاب (١/١٧٧)، مغني المحتاج (١/٣٥٦)، المجموع (٥/٢٧١)، البحر الرَّائق (٢/١٩٥)، حاشية ابن عابدين (٢/٢٣٩)، فتح القدير، للكمال بن الهمام (٢/١٢٨)، (٧/٤١١)، بدائع الصَّنائع (٥/١٢٨)، التَّاج والإكليل (٢/٢٣٥)، مواهب الجليل (٢/٢٣٥)، التَّمهيد (١٧/٢٧٤–٢٨٠–٢٨٢– ٢٨٤)، الثَّمر الدَّاني (١/٢٦٦)، الدَّراري المضيَّة=

ومـا يجـري في مجـالس الـوعظ مـن أمـورٍ يعتقـدُها العـوامُّ والجُهَّـالُ قُرْبَـةً، وهـي في حقيقتها من المنكرات. فمن ذلك أنَّ المقرئ يطربُ، ويخرج الألحان إلى الغناء، والواعظ ينشد أشعار الرِّثاء فيصفِّق هذا، ويقفز هذا، ويتمايل هذا، ويخرق ثوبه هذا، ويعتقدون أنَّ ذلك قربة، ولو أنَّهم أمروا بالصَّبر، وحثُّوا عليه لكان خيرًا لهم.

ومن الوعَّاظ من يتكلَّم على طريق المعرفة والمحبَّة، فترى من لا يعرف فرائض الصَّلاة يمزِّقُ أثوابه بدعوى محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد لا يفقه ما يقال من الأشعار والقصائد، وما فيها المخالفات الشرعية، حتَّى إن كان ممَّا يحوي في طيَّاته: الشِّرك الصَّريح.

السادس عشر: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾:

١ - ورود هذه الصِّيغة:

أما ورود هذه الصِّيغة ففي موضعين: [الكهف:٨٦]، [الكهف:٩٤].

٢ - الوحي إلى ذي القرنين:

وفي (البحر): "وظاهر قوله: ﴿قُلْنَا﴾[١] أنَّه أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه على لسان ملك. وقيل: كلمه كفاحًا من غير رسول كما كلَّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى هذين القولين يكون نبيًّا. ويبعد ما قاله بعض المتأوِّلين: إنَّه إلهامٌ وإلقاء في روعه؛ لأنَّ مثل هذا التَّخيير لا يكون إلا بوحي؛ إذ التَّكاليف وإزهاق النُّفوس لا تتحقق بالإلهام إلا بالإعلام"[٢].

=(١/١٩٣)، السَّيل الجرَّار (١/٣٣٩)، قواعد الأحكام (٢/١٨٧)، معتصر المختصر (٢/٢٨٢)، الزَّاهر (١/١٣٥)، تحفة المحتاج (١/٦١٨)، خلاصة البدر المنير (١/٢٧٨)..وغيرها من الكتب ..

(١) تمام الآية: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦].

(٢) البحر المحيط (٧/٢٢١)، وانظر: روح المعاني (١٦/٣٤)، وذكر الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخلاف مفصَّلًا في (تفسيره): (٢١/٤٩٦).



أقول: لا يمنع أن يكون قد أعلمه بذلك نبيٌّ في زمانه، كما لا يمنع الوحي إليه؛ لأنَّ إرسال الملك أو الوحي إليه أو إلى غيره لا يقتضي النبوة، فليس من محظور في كونه نبيًّا، وهو أمرٌ مسكوتٌ عنه. وقد سبق بيان ذلك في (نداء من اختلف في نبوَّته).

أما القول بأنه كان إلهامًا فهو ضعيف، ويبعد قول من قال: إنه باجتهاده في شريعته الاجتهادَ المصيب -كما سيأتي-.

٣ – ما يستفاد مما ولي المنادَى:

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾، بالقتل على الكفر ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، أي: بالحمل على الإيمان والهدى، إمَّا أن تكفر فتعذبها، وإمَّا أن تؤمن فتحسن إليها، فعبَّر في التَّخيير بالمسبَّب عن السَّبب[١].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، "معنى هذا: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مكَّنه منهم، وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم وخيَّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منَّ أو فدى"[٢].

قال الإمام الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: كيف فَهِمَ ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿لَاْ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾ [الكهف:٩٣]؛ والجواب أن نقول: (كاد) فيه قولان:

الأوَّل: أن إثباته نفي، ونفيه إثبات، فقوله: ﴿لَاْ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾ لا يدلُّ على أنَّهم لا يفهمون شيئًا، بل يدلُّ على أنَّهم قد يفهمون على مشقَّةٍ وصعوبة.

والقول الثَّاني: أنَّ (كاد) معناه المقاربة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿لَاْ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا﴾، أي: لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا. وعلى هذا القول فلا بدَّ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٢٢/٧)، المحرَّر الوجيز (٥٣٩/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٩٣/٥).

من إضمار، وهو أن يقال: لا يكادون يفهمونه إلَّا بعد تقريبٍ ومشقَّةٍ من إشارة ونحوها، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحَّةِ القول الأوَّل في تفسير (كاد)"[١].

وقيل: كلَّم عنهم مترجمٌ، ويدلُّ عليه قراءة ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لاَّ يَكَـادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، (قال الذين من دونهم يا ذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج)[٢].

٤ – التعقيب على ما ذكره البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أقول: ويستبعدُ ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (نظم الدُّرر) من أنَّ الأمر قد يكون باجتهاده في شريعته الاجتهادَ المصيب[٣]، وذلك لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَـا﴾ وهو صريحٌ، ولا حاجة تقتضي العدولَ عنه؛ ولأنَّ مثل هذا التَّخيير لا يكون إلا بوحي؛ إذ التَّكاليف وإزهاق النُّفوس لا تتحقَّق بالاجتهاد من غير نصٍّ صريح.

والحاصل أنَّهم "أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إيَّاه، حتَّى يجعل بينهم وبينهم سدًّا. فقال ذو القرنين بعفَّةٍ وديانةٍ وصلاحٍ وقصدٍ للخير: ﴿مَـا مَكَّـنِّي فِيـهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥][٤]، أي: إنَّ الذي أعطاني الله عَزَّوَجَلَّ من الملك والتَّمكين خيرٌ لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَـالٍ فَمَـا آتَـانِيَ اللَّهُ خَـيْرٌ مِمَّـا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُـونَ﴾ [النمل:٣٦]، وهكذا.. قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني ﴿بِقُـوَّةٍ﴾، أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾"[٥].

---

(١) تفسير الرَّازي (٢١/٤٩٩). وقد فصَّل الرَّازي القول في بيان معنى (يأجوج ومأجوج).

(٢) تفسير البغوي (٣/٢١٤)، تفسير ابن عادل (١٢/٥٦٢). وانظر قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في (الكشف والبيان) (٦/١٩٣)، روح المعاني (١٦/٣٨)، البيضاوي (٣/٢٩٣)، نظم الدُّرر (٤/٥٠٤)، البغوي (٣/٢١٤). ولم يذكر أكثر المفسِّرين هذا القول؛ لاستبعاده.

(٣) انظر: نظم الدُّرر (١٢/١٣١).

(٤) وتمام الآية: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

(٥) تفسير ابن كثير (٥/١٩٦).

٥ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: النِّداء فيه إعلامٌ بقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه لا يفعل إلَّا ما أمره به.

الثانية: ما أمر به صريحٌ، ليس بإلهامٍ ولا باجتهاد منه.

الثالثة: لقد قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا قصص بعض خلقه، وهم يهجرون ويغادرون أوطانهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك قصَّة الفتية -(أصحاب الكهف) و(الرَّقيم)- غادروا قومهم ووطنهم الذي كانت تُعبد فيه الأوثان من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف:٩-١٠].

كما أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قصَّ علينا قصَّة ذي القرنين الذي غادر وطنه الأصلي؛ لإقامة دين الله عَزَّوَجَلَّ، ونشر العدل في الآفاق غربًا وشرقًا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ عن رحلته: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ [الكهف:٨٥- ٨٦]، إلى أن قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾ [٨٩-٩٣]..

وكثُر تناول القرآن العظيم لقضية خروج النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من (مكَّة)، بل وإخراجهم منها كما هو تعبير الكتاب المبين في كثيرٍ من المواطن، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الذينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ..﴾ [التوبة:٤٠]. ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ



تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي..﴾ [الممتحنة:١]. إلى غير ذلك من الآيات المستفيضة في هذا الموضوع.

ولقد تحدَّث القرآنُ المبين عمَّا يقوم به أعداء الدِّين والملَّة من تهديد أولياء الله عَزَّوَجَلَّ بالإخراج عن أوطانهم ونفيهم منها، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

ومن هؤلاء قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين هدَّدوه بذلك، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الْمَلأُ الذينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالذينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]، وقريبٌ من هذا ما أراده قومُ نبيِّ الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ به: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشعراء:١٦٧-١٦٩]، وجُمِع هذا البلاء للنَّبيِّ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرفيه حيثُ هُدِّد بهذا في (مكَّة) على يد وألسنة قريش، وفي (المدينة) على ألسنة المنافقين.

وكذلك أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانت فتنتهم في (مكَّة) فتنة الإيذاء والتَّعذيب وما يلقونه من المشركين من ألوان الهزء والسُّخرية، فلمَّا هاجروا إلى (المدينة) أصبحت فتنتهم في ترك دورهم وأمتعتهم وأموالهم..ولقد كانوا أوفياء ومخلصين لدينهم أمام الفتنة الأولى وأمام الفتنة الثَّانية.

وإن من أغلى حقائق الإنسانية الحرية، وقد آثر الكثير من الدعاة ترك أوطانهم حيث ضيِّق عليهم، ومنعوا من قول الحق، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يخونوا دينهم، وأن يكونوا أبواقًا لسلطانٍ ظالم جائر، ينافقون ويداهنون من أجل عرض زائل، فآثروا الهجرة وترك الأهل والوطن والمال؛ فإن الحرية أغلى، وإن الصَّدع بالحق أولى، يتخير الدعاة الأرض الطيبة ليضعوا بذور دعوتهم، تلك الغراس التي تثمر قيمًا وأخلاقًا ودينًا وصلاحًا وبصيرة وفهمًا..



وقد شبَّه الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتعالى إخراج العبد من وطنه، بإخراج روحه من جسده، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦]، فأتى الله عَزَّوَجَلَّ بأصعب أمرين: إخراج الروح من الجسد، وإخراج الجسد من الوطن.

وإخراج الإنسان من وطنه ليس بالأمر الهيِّن، فهو بمثابة زرعٍ فَقَدَ تُرْبَتَهُ، فهو ذاوٍ[(١)] لا يثمر ولا يَنْضُرُ.

وقد جاء في (الصحيح) في قصة بداية نزول القرآن على رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذهابه إلى ورقة بن نوفل، وقول ورقة للنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا ليتني أكون حيًّا؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: ((**أو مخرجي هم؟!**))، قال: نعم..[(٢)].

فتأمل كيف راجع رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ورقة في إخراجه من بلده، ولم يراجعه في إخباره بعداء قومه وأذيتهم له في جسده؟!

قال السهيلي رَحِمَهُٱللَّهُ: "يؤخذ منه: شدة مفارقة الوطن على النفس؛ فإنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سمع قول ورقة أنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له: الإخراج تحركت نفسه لذلك؛ لحب الوطن وإلفه فقال: ((**أو مخرجي هم؟!**))"[(٣)].

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: كان رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا قدم من سفر، فأبصر درجات المدينة، أوضع ناقته، وإن كانت دابة حركها، قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير، عن حميد: حركها من حبها[(٤)]، أي: حثها على الإسراع لجهة المدينة، والدخول إليها؛ لكثرة حبه لها. وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية:

---

(١) يقال: (ذوى) البقل يذوي بالكسر (ذُوِيًّا) مضموم مشدد فهو (ذاو) أي: ذبل.

(٢) صحيح البخاري [٣]، مسلم [١٦٠].

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٢/٣٥٩).

(٤) صحيح البخاري [١٨٠٢].



حب الوطن والحنين إليه[1]. ويدل على أن الوطن الحقيقي هو الذي ارتضاه الإنسان محلًّا ومسكنًا يقيم فيه، وتنفس فيه الحرية، ولد به أو لم يولد[2].

فموطني حيث كرامتي..موطني هو المكان الذي لا أتجرعُ فيه الظلم والقهر ليل نهار، هو الذي أشعرُ فيه بالأمن والحرية في التدين وإبداء الرأي، هو الذي أساهم في نهوضه، هو الذي أشعر فيه بأني إنسان.

ولا يمنع ذلك من الحنين للموطن الأصلي الذي ولد فيه، وأن يتمنى له الخير، وأن يتحرر من الجهل والظلم والفقر والاستبداد، وأن يرقى إلى مصافِّ الدول المتقدمة..إلى غير ذلك.

الرابعة: يستفادُ من قصَّة ذي القرنين إعداد العدَّة لإعلاء دين الله عَزَّوَجَلَّ، ومواجهة المفسدين، حيث إنَّ بناء السَّدِّ من وسائل الصِّناعة التي ذكرها القرآن الكريم في معرض التَّمكين والنَّجاة والامتناع من عبثِ المفسدين، وكيف حال ذلك السَّد بين المفسدين العابثين وبين الأقوام التي كانت دون السَّدين –وهي سلسلة الجبال– ببناء ذلك الرَّدم العظيم، وهو سدٌّ بناه ذو القرنين لم يكن كغيره من سدود بني الإنسان التي تبنى باللَّبِنِ والحجارة ونحوه، وإنما كان سدًّا مبنيًّا بأرقى طرائق البناء، وأقوى معادن الصِّناعة، وأتقن وسائل التَّصميم، وإليك بيان هذا مجملا: لقد أتى ذو القرنين على أولئك الأقوام المتخلِّفين الذين لا يكادون يفقهون قولا، ولا يعلمون شيئًا من أحوال التَّحضر، فشكوا

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣/٦٢١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (٣/١٣٥)، تحفة الأحوذي (٩/٢٨٣).

(٢) قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المنزل تقيم فيه، وهو موطن الإنسان، ومحله..يقال: أوطن فلان أرض كذا وكذا، أي: اتخذها محلًّا ومسكنًا يقيم فيها". لسان العرب، مادة: (وطن) (١٣/٤٥١)، العين، للخليل الفراهيدي (٧/٤٥٤)، تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري (١٤/٢١). وعرف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوطن بقوله: "الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه". التعريفات (ص:٢٥٣)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٣٣٨). وقيل: "الوطن بالمعنى العام: منزل الاقامة، والوطن الأصلي هو المكان الذي ولد به الإنسان، أو نشأ فيه. والوطن بالمعنى الخاص هو البيئة الروحية التي تتجه اليها عواطف الانسان القومية". المعجم الفلسفي، للدكتور جميل صليبا (٢/٥٨٠).

إليه إفساد يأجوج ومأجوج، وطلبوا منه إقامة سدٍّ ويعطونه أجرًا على ذلك، وطلبهم لإقامة سدٍّ كان وجيهًا؛ لأنَّه كان بينهم وبين يأجوج ومأجوج حواجز من شواهقِ الجبال الصُّمِّ والتي تمتدُّ بينهما على شكل سلسلتين من الجبال، بينهما فجوة هي منفذ يأجوج ومأجوج في هجماتهم على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا، وعند ذلك استعدَّ ذو القرنين ببناء السَّدِّ، وسمَّاه ردمًا، أي: أعظم مما طلبوه، وعمد إلى تلك الفجوة التي بين الصَّدفين -وهما الجبلان العظيمان المتقابلان- فملأ الفجوة بِزُبَر الحديد، أي: قِطَعهُ المقدَّرة مثل اللَّبِن حتَّى ساوى بين رؤوس الجبلين وبين ما في الفجوة من الحديد فجعلهم سواء، ثمَّ أمر فنفخت الحديد بالنَّار حتَّى جعلت من قِطَع الحديد نارًا، فأصبحت حمراء متوهِّجة، فصُبَّ عليها وهي في تلك الحال النُّحاسُ المذاب، وهو القِطْر، فاستحكم البناء أيَّما استحكام، وقوي كلَّ قوَّة، وأصبح غاية في الصَّلابة والملاسة قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧].

ولا أدلَّ على قوَّة صناعة سدِّ ذي القرنين، وعلى ارتقاء علم الصِّناعة والعمران لديه من بقاء ذلك السَّدِّ وعدم تغيُّره رغم تعاقب العصور والدُّهور، والسَّدُّ لا زال قائمًا وحتَّى يومنا هذا، وحتَّى يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بقرب يوم القيامة، وخروج يأجوج ومأجوج، قال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:٩٨]. وقد كان السَّدُّ الذي هو من منتجات الصِّناعة الفائقةِ رحمةً من الله عَزَّوَجَلَّ للنَّاس ليتمكَّنوا من العيش آمنين في عزلةٍ من عبث المفسدين من يأجوج ومأجوج.

السابع عشر: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم:٢٨]:

١ - ورود هذه الصِّيغة:

وقد وردت في موضع واحد: [مريم:٢٨].

٢ – العرض والتَّحليل:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ استئناف لتجديد التَّعيير وتأكيد التَّوبيخ(١). وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: فعن المغيرة بن شعبة، قال: لما قدمتُ نجران(٢) سألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قَبْل عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدمتُ على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سألته عن ذلك فقال: ((**إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائهم والصَّالحين قبلهم**))(٣)، ((**فقالوا**))، أي: أهل نجران: ((**ألستم تقرؤون؟**))، أي: في القرآن في (سورة مريم): ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، وبعده: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، أي: يا شبيهة هارون في العبادة أنت من بيتٍ طيِّبٍ طاهرٍ، معروفٍ بالصَّلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟!(٤).

وقيل: ﴿أُخْتَ هَارُونَ﴾، أي: أخي موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكانت من نسله، كما يقال للتَّمِيمِيِّ: (يا أخا تَمِيم)، والْمُضَرِيِّ: (يا أخا مُضَر).

وقيل: نسبت إلى رجلٍ صالح كان فيهم اسمه (هارون)، فكانت تقاس به في العبادة، والزهادة(٥).

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**وَقَدْ كَانَ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى مَا كَانَ**))، أي: من طول الزَّمان ما لا يمكن أن تكون مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ أختًا لهارون أخي موسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وقوله

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٥/٢٦٣).

(٢) قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((إلى نجران)) قال في (النِّهاية) (٥/٢٠): "هو موضع معروف بين (الحجاز) و(الشام) و(اليمن)". وقال في (القاموس) (١/٦١٧): "(نجران): موضع (باليمن)، فتح سنة (عشر)، سمي بنجران بن زيدان بن سبأ، وموضع (بالبحرين)، وموضع بحوران قرب (دمشق)، وموضع بين (الكوفة) و(واسط)".

(٣) أخرجه مسلم [٢١٣٥].

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٠٠-٢٠١)، تفسير الطبري (١٨/١٨٦)، تفسير الصنعاني (٣/٨)، البغوي (٣/٢٣١)، الخازن (٤/٢٤٤)، السَّمعاني (٣/٢٨٨)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤/٣٢٧)، ابن عادل (١٣/٥٣)،

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٢٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**))، يعني أنَّ هارون المذكور في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ليس هو هارون النَّبي أخا موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، بل المراد بهارون هذا رجل آخر مسمَّى بهارون؛ لأنَّهم كانوا يسمُّون أولادهم بأسماء الأنبياء والصَّالحين قبلهم[1].

قال ابنُ جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال آخرون: بل كان ذلك رجلًا منهم فاسقًا معلن الفسق فنسبوها إليه. ثمَّ قال: والصَّواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يعني حديث المغيرة بن شعبة هذا) وإنها نسبت إلى رجل من قومها"[2].

وما رجحه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، ومال إليه في (التَّحفة)[3] هو الصَّواب؛ لأنَّه يستندُ إلى الدَّليل الصَّحيح.

٣ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: يلاحظ أنَّ المنكرين "عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي السوء والبغاء عن أبويها: المبالغة في توبيخها؛ تنبيهًا على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه: التجرد عن طورهما، والتردي بغير ردائهما، وما كان ينبغي له إلَّا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة، كما أنك تجد أكثر الناشئين في جحور السفلة، أو من أطلقت حبالهم على غواربهم زمن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يلقاها إلَّا ذو حظ عظيم من الحكمة. وقد تعجب العامة لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويحسن التصرف في مباحثها المشكلة، فيفرغها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي (٨/٤٧٧).

(٢) تفسير الطَّبري (١٨/١٨٧).

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٨).



منها خيل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمنًا تجس نبض أخلاقه إلَّا وجدت فيها عوجًا وأمتًا.

أما الفيلسوف الناقد فلا يرى ذلك شيئًا عجابًا؛ للنكتة التي لوحنا إليها، وهي سوء التربية الأولى. والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة، والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لوحها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئًا فشيئًا إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها. يؤيد هذا أنا إذا رأينا من الغرباء من هو لطيف الخطاب، جميل اللقاء، مستقيم الأخلاق، لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله عَزَّوَجَلَّ في البيوت الفاضلة نباتًا حسنًا"[1].

وقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريًا أو تنبيه على أنَّ ارتكاب الفواحش من أولاد الصَّالحين أفحش. وفيه دليل على أنَّ الفروع غالبًا تكون زاكيةً إذا زكت الأصول، وينكر عليها إذا جاءت بضدِّ ذلك[2].

الثانية: اتَّفق العلماء على أنَّه إذا صرَّح بالزِّنا كان قذفًا ورميًا موجبًا للحدِّ، فإن عرَّض ولم يصرِّح، فقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قذف.

وقال الشَّافعي وأبو حنيفة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: لا يكون قذفا حتَّى يقول: أردت به القذف[3].

---

(١) بتصرف عن (السعادة العظمى) (ص:٦٠)، للعلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، جمع وتحقيق: علي الرضا التونسي.

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٦٣/٥)، روح المعاني (٨٨/١٦)، البحر المحيط (٢٥٧/٧)، البحر المديد (٣٣٠/٣)، تفسير البيضاوي (٩/٤).

(٣) تفسير القرطبي (١٧٣/١٢). انظر أقوال العلماء في (أحكام القرآن الكريم)، للجصَّاص (١١١/٥)، (١٢٩/٢)، الفروع، لابن مفلح (١٤١/٦)، (١٦٢/٦)، الإنصاف، للمرداوي (٣٣٤/١٠)، المغني (٨٠/٩-٨١)، الأم (١٣٢/٥)، (٢٩٧/٧)، شرح فتح القدير، للكمال بن الهمام (١٣٧/٥)، حاشية الدُّسوقي (٣٢٧/٤)، شرح الزُّرقاني (٢٤٣/٣)، التَّمهيد (١٨٨/٦-١٨٩)، المدونة الكبرى (٢٢٤/١٦)، القوانين الفقهية، لابن جزي (٢٣٤/١)، مختصر اختلاف العلماء (٣١١/٣)، بداية=

قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية: لا أرى الحدَّ إلا على من صرَّح بالقذف والشَّتيمة..[1]، واختلفت الرِّواية عن أحمد في التَّعريض بالقذف[2].

وقد نصر القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذهب إليه الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "والدَّليل لما قاله مالك هو أنَّ موضوع الحدِّ في القذف إنما هو لإزالة المعرَّة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، فإذا حصلت المعرَّة بالتَّعريض وجب أن يكون قذفًا كالتَّصريح. والمعوَّل على الفهم، وقد قال عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]، أي: السَّفيه الضَّال، فعرَّضوا له بالسَّبِّ بكلامٍ ظاهره المدح في أحد التَّأويلات. وقال عَزَّوَجَلَّ في أبي جهل[3]: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]. وقال حكاية عن مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، فمدحوا أباها، ونفوا عن أمِّها البغاء، أي: الزِّنا، وعرَّضوا لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ بذلك، ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]، وكفرهم معروف، والبهتان العظيم هو التَّعريض لها، أي: ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمُّكِ بغيًّا، أي: أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فهذا اللَّفظ قد

=المجتهد (٢/٣٣٠)، نيل الأوطار (٧/٥٧)، المحلَّى (١١/١٧٦)، سبل السَّلام (٣/١٩٦)، المنثور (١/٣٦١)، إعلام الموقعين (٣/١٠٣)، (٣/١٢٩).

(١) المغني (٩/٨٠)، الشَّرح الكبير، لابن قدامة (١٠/ ٢٢٧)، شرح منتهى الإرادات المسمَّى دقائق أولي النُّهى لشرح المنتهى، للبهوتي (٣/٣٥٨)، مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (٧/٣٢٧٣)، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٦/٢٠٣)، منار السبيل في شرح الدَّليل (٢/٣٧٦).

(٢) المغني (٩/٨١)، وانظر: المصادر السَّابقة.

(٣) أبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشدُّ النَّاس عداوة للنَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. أدرك الإسلام، وكان يقال له: (أبو الحكم)، فدعاه المسلمون: (أبا جهل) مات سنة [٢هـ]. الأعلام (٥/٨٧)، وانظر: الرَّوض الأنف (٣/١٧٥)، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/٢٦٦)، جوامع السِّيرة وخمس رسائل أخرى، لابن حزم (ص:٥٣)، سبل الهدى والرَّشاد (٢/٤٦٩– ٤٧٠)، المنمَّق في أخبار قريش (ص:٤٤١).

فهم منه أنَّ المراد به أنَّ الكفَّار على غير هدى، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الهدى، ففهم من هذا التَّعريض ما يفهم من صريحه"(١).

وعلى أيَّة حالٍ فإنَّ هذه المسألة مبسوطة في مظانِّها من كتب الفقه، وشرح آيات وأحاديث الأحكام، وفيها تفصيل..

الثامن عشر: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ [طه:٩٤]:

١ – ورود هذه الصيغة:

أما ورود هذه الصيغة ففي موضع واحدٍ مصرَّحًا بذكر أداة النِّداء (يا)، وهو في [طه:٩٤]، ومقدَّرًا في [الأعراف:١٥٠]. من هارون لموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

والتَّرتيب المصحفي يقتضي تقديم (سورة الأعراف) على (سورة طه)، ولكنِّي قدَّمت ما جاء مصرَّحًا بذكر أداة النِّداء فيه على ما جاء مقدَّرًا.

٢ – سبب العدول عن الإضافة إلى الأب مع أنَّهما لأبٍ وأمٍّ واحدة:

ولم يقل: (يا ابن أبي)، وهما لأبٍ واحد، وأمٍّ واحدة؛ استعطافًا له على نفسه برحم الأم(٢).

وفي (تفسير ابن كثير): "ترفَّق له بذكر الأمِّ مع أنَّه شقيقه لأبويه؛ لأنَّ ذكر الأمِّ هاهنا أرقُّ وأبلغ، أي: في الحنو والعطف"(٣).

"والإنسان عند ذكر الوالدة أرقُّ منه عند ذكر الوالد"(٤).

---

(١) تفسير القرطبي (١٧٣/١٢). وانظر شروط القذف (التِّسعة) في الموضع نفسه من (تفسير القرطبي).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٣١/١٣)، معاني القرآن، للفرَّاء (٣٩٤/١)، تفسير الثَّعالبي (٦٥/٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣١٢/٥).

(٤) زاد المسير (١٥٧/٢)، وانظر: تفسير أبي السُّعود (٣٨/٦).



٣ – توجيه القراءات:

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا ابْـنَ أُمَّ﴾ قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ نصبًا. وقرأ ابنُ عامر، وحمزةُ، والكسائيُّ، وأبو بكر عن عاصم بكسر الميم، وكذلك في [طه:٩٤](١).

قال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من فتح الميم؛ فلكثرة استعمال هذا الاسم، ومن كسر، أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسمًا واحدًا، ومن العرب من يقول : (يا ابن أمي) بإثبات الياء"(٢).

وقال الإمام الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وأبو بكرٍ عن عاصم: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ -بكسر الميم-. وفي (طه) مثله على تقدير: (أمي)، فحذفت (ياء الإضافة)؛ لأنَّ مبنى النِّداء على الحذف، وبقي الكسر على الميم؛ ليدلَّ على الإضافة، كقوله: ﴿يَـا عِبَادِ﴾ [الزمر:١٠]، والباقون بفتح الميم في السُّورتين، وفيه قولان: أحدهما: أنهما جعلا اسمًا واحدًا وبني لكثرة اصطحاب هذين الحرفين فصار بمنزلة اسم واحد، نحو: (حضرموت) و(خمسة عشر). وثانيهما: أنَّه على حذف الألف المبدلة من (ياء الإضافة)، وأصله: (يا ابن أما)"(٣).

وفي (التَّحرير والتَّنوير): "قوله في الجواب: ﴿يَـــا ابْـــنَ أُمَّ﴾ نداء لقصد التَّرقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين وبَّخه أخذ بِشَعرِ لحية هارون، ويشعر بأنَّه يجذبه إليه ليلطمه، وقد صرَّح به في (الأعراف) بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخَـذَ بِـرَأْسِ أَخِيـهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ -بفتح الميم-. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائيُّ، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم. وأصله: (يا ابن أمِّي)، فحذفت (ياء المتكلِّم)

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/١٥٦)، النَّشر في القراءات العشر (٢/٣٠٧)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣٨٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣/٣٧٣)، زاد المسير (٣/٢٦٤).

(٣) تفسير الرَّازي (١٥/٣٧٢)، وانظر: معاني القرآن، للأخفش (ص:٤٤٨).



تخفيفًا، وهو حذف مخصوص بالنِّداء. والقراءتان وجهان في حذف (ياء المتكلِّم) المضاف إليها لفظ: (أمّ) ولفظ: (عَمّ) في النِّداء. وعطف الرَّأس على اللِّحية؛ لأنَّ أخذه من لحيته أشدُّ ألمًا وأنكى في الإذلال. و(ابنُ الأم): الأخ. وعدل عن (يا أخي) إلى (ابن أم)؛ لأنَّ ذكر الأمِّ تذكير بأقوى أواصر الأخوَّة، وهي آصرة الولادة من بطنٍ واحد، والرَّضاع من لبانٍ واحد"[1].

٤ – إجمال ما يستفاد:

الفائدة الأولى: أنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يغضبون؛ انتصارًا لأنفسهم، وإنما يغضبون لله عَزَّ وَجَلَّ، أن تنتهك حرمةٌ من حرماتِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثانية: حرصُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الدَّعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى أممهم.

الثالثة: يستفاد من موقف هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان حكيمًا في جوابه، فقد حاول أن يهدِّئ من غضب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ باستجاشة عاطفة الرَّحم في نفسه. ثم بين له موقفه فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤]، أي: خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يتفرقوا فتقول لي: إنك فرقت جماعتهم؛ لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة ممن لم يعبد العجل وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم. فتقول: لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، ومراده بوصية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ له قوله هو: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢] قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه ولم تنتظر عهدي وقدومي؛ لأنك أمرتني أن أكون معهم. وقال ابن جريج رَحِمَهُ اللَّهُ: لم تنتظر قولي ما أنا صانع. فاعتذر هارون إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ها هنا بهذا، واعتذر إليه في (الأعراف) بما حكاه الله عَزَّ وَجَلَّ عنه حيث قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:١٥٠].

الرابعة: أنَّ الخطاب بهذه الصِّيغة هو من (خطاب التَّحبب التَّحنن والاستعطاف).

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٦/٢٩٢).



التاسع عشر: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾:

١ – مواضع ورود هذه الصِّيغة:

أما مواضع ورود هذه الصِّيغة فهي ستَّة: [الأنبياء:١٤]، [الأنبياء:٤٦]، [الأنبياء:٩٧]، [يس:٥٢]، [الصَّافات:٢٠]، [القلم:٣١].

٢ – معنى (الويل):

"(الويل): لفظ دالٌّ على الشرِّ أو الهلاك[١]، ولم يسمع له فعل من لفظه؛ فلذلك قيل: هو اسم مصدر، وقيل: هو مصدر امتنع العرب من استعمال فعله؛ لأنَّه لو صُرِّف لوجب اعتلال فائه وعينه، وذلك بأن يجتمع فيه إعلالان، أي: فيكون ثقيلًا. و(الويلة): البليَّة. وهي مؤنَّث (الويل)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ [الكهف:٤٩]"[٢].

ويستعمل (الويل) بدون حرف نداء كما في الآية[٣]، ويستعمل بحرف النِّداء كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:١٤]، كما يقال: (يا حسرتا).

٣ – موقعه من الإعراب:

"فأمَّا موقعه من الإعراب فإنَّه إذا لم يضف أُعْرِب إعرابَ الأسماء المبتدأ بها، وأُخبر عنه بلام الجرِّ، كما في هذه الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١].

---

(١) انظر: لسان العرب، مادَّة: (ويل) (٧٣٧/١١)، تهذيب اللغة، مادَّة: (ويل) (٣٢٦/١٥)، وانظر: روح المعاني (٦٨/٣٠).

(٢) بتصرُّف عن (التَّحرير والتَّنوير) (٥٧٦/١).

(٣) يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

قال الجوهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وينصب فيقال: ويلًا لزيد[1] وجعل سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك قبيحًا[2]، وأوجب إذا ابتدئ به أن يكون مرفوعًا، وأمَّا إذا أضيف فإنَّه يضاف إلى الضَّمير غالبًا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٨٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ [الأحقاف:١٧]، فيكون منصوبًا، وقد يضاف إلى الاسم الظَّاهر فيعرب إعراب غير المضاف كقول النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بصير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]:

((وَيْلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْب))[4].

---

(١) انظر: الصِّحاح، للجوهريِّ، مادَّة: (ويل) (١٨٤٦/٥).

(٢) ونصُّ عبارة سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكتاب): "وأمَّا قوله جَلَّ وَعَلَا: "﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥]، و﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فإنَّه لا ينبغي أن تقول: إنَّه دعاء ههنا؛ لأنَّ الكلام بذلك قبيح، واللَّفظ به قبيح، ولكنَّ العباد إنَّما كلِّموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون، فكأنَّه –والله أعلم– قيل لهم: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم؛ لأنَّ هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة، فقيل: هؤلاء ممَّن دخل في الشَّر والهلكة، ووجب لهم هذا". الكتاب، لسيبويه (٣٣١/١).

(٣) هو أبو بصير الصَّحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واسمه عتبة بن أسيد –بفتح الهمزة وكسر السِّين– بن جارية –بالجيم– بن أسد بن عبد الله ابن أبي سلمة بن عبد الله بن غيرة –بكسر الغين المعجمة وفتح المثنَّاة تحت– بن عوف بن ثقيف الثَّقفي، حليف بني زهرة، وهو مشهور بكنيته. توفِّي في حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت وفاته بسيف البحر –بكسر السِّين– وهي ساحله في الموضع الذي أقام فيه، وجاءه المستضعفون من المؤمنين من (مكَّة)، فأقاموا هناك حتَّى بلغوا (ستِّين) أو (سبعين)، وكان أبو بصير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كبيرهم، وهو أوَّل من أقام هناك، وقصَّته مشهورة في (صحيح البخاري) [كما سيأتي] وغيره. وتوفِّي بعد (صلح الحديبية). وقيل: (فتح مكَّة)، وكان الصُّلح في ذي القعدة، سنة (ستٍّ) من الهجرة، و(فتح مكَّة) في رمضان سنة (ثمان)، وصلَّى عليه أصحابه، أبو جندل والباقون، ودفنوه هناك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. تهذيب الأسماء (١٨٠/٢)، وانظر: الإصابة (٤٣٣/٤)، معرفة الصَّحابة (٢١٣٢/٤).

(٤) صحيح البخاري [٢٧٣١]. قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح): "((وَيْلُ أُمِّه)) وهي كلمة ذمٍّ تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذَّمِّ؛ لأنَّ (الويل) الهلاك فهو كقولهم: (لأمِّه الويل). قال بديع الزمان: والعرب تطلق: (تربت يمينه) في الأمر إذا أهمَّ. ويقولون: (ويل أمِّه)، ولا يقصدون الذَّم. و(الويل) يطلق على العذاب والحرب والزَّجر..". فتح الباري (٣٥٠/٥). وانظر: عون المعبود (٣١٩/٧–٣٢٠)، نيل الأوطار (٢٠٣/٨). والحاصل أنَّ قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وَيْلُ أمِّه مِسْعَرَ حَرْبٍ)) قد ورد (الوَيْل) فيه=



ولما أشبه في إعرابه المصادر الآتية[1] بدلًا من أفعالها نصبًا ورفعًا مثل: (حمدًا للهِ وصبرٌ جميل)، قال أكثر أئمَّة العربيَّة: إنَّه مصدر أُميتَ فعله. ومنهم من زعم أنَّه اسم وجعل نصبَهَ في حالة الإضافة نصبًا على النِّداء بحذف حرف النِّداء؛ لكثرة الاستعمال، فأصل: (وَيلَه): يا ويله، بدليل ظهور حرف النِّداء معه في كلامهم. وربَّما جعلوه كالمندوب فقالوا: (ويْلاه). وقد أعربه الزَّجاج كذلك [في (سورة طه):٦١، كما سيأتي]. ومنهم من زعم أنَّه إذا نصب فعلى تقدير (فعل)"[2].

قال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه:٦١]: يجوز أن يكون التَّقدير: (ألزمكم الله ويلا). ويجوز أنَّ (ويل) كلمةٌ مركَّبةٌ من: (وَيْ) بمعنى الحُزن، ومن مجرورٍ باللام المكسورة، فلمَّا كثر استعمال اللام مع (وَيْ) صيَّروهما حرفًا واحدًا، فاختاروا فتح اللام كما قالوا: (يَالَ ضَبَّةَ)[4] ففتحوا اللام، وهي في

=بمعنى التَّعَجُّب والمدح، و((مِسْعَرَ حَرْبٍ))، أي: موقد حرب، يقال: سعرت النَّار وأسعرتها فهي مسعورة ومسعرة. و(المسعر): الخشب الذي تسعر به النَّار أي: توقد. و(المِسعر) و(المِسْعار): ما تُحرّكُ به النارُ من آلةِ الحديد. يَصِفُه بالمبالغة في الحَرْب والنَّجدة. ويُجْمعان على مَساعر ومَساعير. وفي (الفتح): "قال الخطابي: كأنَّه يصفه بالإقدام في الحرب والتَّسعير لنارها". انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٥٠/٥)، الفائق، للزَّمخشري (٢٨٤/١)، النَّهاية، مادَّة: (سعر) (٩٢٩/٢)، ومادَّة: (ويل) (٥٣٢/٥)، ومادَّة: (هبل) (٥٤٤/٥)، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، للأزدي (ص:١٩١)، شرح سنن ابن ماجه، لمغلطاي (٧٨٦/١)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٢٩/٩-٣٣٢).

(١) أي: أشبهه في (الوزن والإعراب)، فـ: (حمدًا) مصدر ناب عن فعله، أو مفعول مطلق لفعل محذوف..

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٥٧٦/١).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٦٠/٣).

(٤) (ضبة بن أد) بطن من طابخة، من العدنانيَّة، وهم (بنو ضبة) بن أد بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم من جمرات العرب الثَّلاث. منازلهم كانت منازلهم في جوار (بني تميم) إخوتهم، بالنَّاحية الشَّمالية التهامية من (نجد)، ثمَّ انتقلوا في الإسلام إلى (العراق) بجهة (النعمانية). معجم قبائل العرب (٦٦١/٢)، معجم البلدان (٢٧٦/٢). وجاء في (موقعة الجمل) أنَّه لم يبق حول الجمل عامريٌّ مكتهلٌ إلا أصيب، يتسرَّعون إلى الموت، فقال القعقاع: يا بجير بن دلجة، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أمُّ المؤمنين، فقال: (يال ضبة)، يا عمرو بن دلجة، ادع بي إليك، فدعا به، فقال: أنا آمن حتَّى أرجع؟ قال: نعم. قال: فاجتثَّ ساق البعير، فرمى بنفسه على شقِّه وجرجر البعير..والقصة=



الأصل مكسورة. وهو يستعمل دعاء وتعجُّبًا وزجرًا مثل قولهم: (لا أب لك)، و(ثكلتك أمُك). ومعنى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٧٩] دعاءٌ مستعملٌ في إنشاءِ الغضب والزَّجر[١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: "﴿يَا وَيْلَنَا﴾ هو نداءُ مضاف، والمعنى: يقول الكفَّار: (تعال يا ويل فهذا زمانك وأوانُك)، وقيل: هو منصوب على المصدر، والمنادى محذوف كأنَّهم قالوا لبعضهم: (يا هؤلاء ويلا لنا)، فلمَّا أضاف حذف اللام الثَّانية. وقال الكوفيُّون: اللام الأولى هي المحذوفة، وأصله: عندهم: (وي لنا)، وقد أجازوا: (ويلَ زيد) -بفتح اللام-، وهي عندهم (لامُ الجرِّ)، و(لام الجرِّ) لا تفتح مع غير المضمر، وأجازوا الضَّم، وفي ذلك دليل ظاهرٌ بيِّن أنَّ الثَّانية هي المحذوفة"[٢].

وفي (لسان العرب): "(ويل) وَيْلٌ كلمة مثل وَيْحٍ إِلَّا أَنها كلمة عَذاب[٣]، يقال: (وَيْلَهُ) و(وَيْلَكَ) و(وَيْلي)، وفي النُّدْبةِ: (وَيْلاهُ). وقد تدخل عليه الهاء فيقال: (وَيْلة). و(الوَيْل) حُلولُ الشرِّ والوَيْلةُ الفضيحة والبَلِيَّة. وقيل: هو تَفَجُّع، وإذا قال القائل: (واوَيْلَتاه) فإنما يعني: (وافَضِيحَتاه)..."[٤].

٤ – إجمال ما يستفاد:

إنَّ (ما ولي المنادَى) في هذه الصِّيغة من الخطاب معناه متقارب..

=طويلة..انظر: تاريخ الطَّبري (٥١/٣)، الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر الضَّبي الأسدي (ص:١٦٦)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٤٧/٢٠).

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٣٦٠/٣)، التَّحرير والتَّنوير (٥٧٧/١).

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن الكريم، لمكي (٦٠٦/٢)، وانظر: تاج العروس، مادَّة: (ويل) (١٠٦/٣١).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق بين (ويح) و(ويل) مفصَّلًا في (الفروق) (ص:٥٧٩).

(٤) الصِّحاح، للجوهري مادَّة: (ويل) (١٨٤٦/٥)، لسان العرب (٧٣٧/١١)، مختار الصِّحاح (ص:٧٤٠).



وهو يدلُّ على أنَّه لا مفرَّ ولا مهربَ من بأس الله عَزَّوَجَلَّ المحيط. وأنَّه لا ينفعهم ركضٌ، ولا ينقذهم فرارٌ. وهو من تفجع المفجوء الذي تتكشَّفُ له الحقيقة المروِّعة بغتةً، فيدعو بالويلِ والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان!

العشرون: ﴿يَا عِبَادِىَ﴾ [العنكبوت:٥٦]:

وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ)، وقد سبق أيضًا بيان أنَّه من (نداء الإضافة).

الحادي والعشرون: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب:١٣]:

في موضع واحد. وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ).

الثاني والعشرون: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾:

في موضعين، [الأحزاب:٣٠]، [الأحزاب:٣٢].
وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءاتِ العَامَّةِ)، وقد سبق بيان أنَّه من (نداء النِّسبة).



الثالث والعشرون: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾:

١ – ورود هذه الصيغة:

في موضع واحد من [سورة الزُّمر:٥٦].

وقد أفردتُ (خطاب التحسر..) بالبحث في (أساليب الخطاب في القرآن)[1].

٢ – بيان مادَّة: (حسر):

يقال: (حَسَرَ كُمَّه عن ذراعه): كَشَفَه، وبابه: ضرب، و(الانحسار): الانكشاف، و(حَسَر البعير) أعيا، وحَسَره غيرُه، و(اسْتَحْسَر) أيضًا: أعيا، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، و(حَسَرَ بصرُه يَحْسِرُ حُسُورًا)، أي: كَلَّ وانْقَطَعَ نَظَرُهُ مِنْ طُول مَدىً، وما أشبه ذلك، فهو (حَسِيرٌ) و(مَحْسُورٌ) أيضًا. وبابه: (جلس). و(الحَسْرَةُ): أشدُّ التلهُّف على الشيء الفائت. تقول منه: (حَسِرَ على الشيء) بالكسر –من باب طَرِب– يَحْسَرُ حَسَرًا وحَسْرَةً، فهو (حَسِيرٌ). و(حَسَّرْتُ غيري تَحْسِيرًا)، و(التَّحسر) أيضًا: التَّلهف.."[2].

٣ – تفسير الآية:

أي: بادروا واحذروا أن تقول نفس. وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: خوف أن تصيروا إلى حال تقولون هذا القول: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ (يا ندامتا)، والتَّحسر الاغتمام على ما فات،

---

(١) انظر: أساليب الخطاب في القرآن لكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، طبع في وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ] من (١/٥٣١) إلى (١/٥٤٥).

(٢) انظر: مادَّة: (حسر) في (مختار الصِّحاح)، (ص:١٦٧)، لسان العرب (٤/١٨٧)، العين (٣/١٣٣).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/٣٥٨ – ٣٥٩).



وأراد: يا حسرتي، على الإضافة، لكن العرب تحوِّل (ياء الكناية) ألفًا في الاستغاثة، فتقول: (يا حسرتا)، و(يا ندامتا)، وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف ليدلَّ على الإضافة، وكذلك قرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتاى﴾[1].

وقيل: معنى قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾: (يا أيَّتُها الحسرة هذا وقتك)، ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[2]، فيه أقوال.. قيل: في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في أمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: في قرْبِ الله عَزَّوَجَلَّ[3].

ومن قال من المفسِّرين: (الجَنْب): القُرْب، فإنَّ المعنى (في قُرْب الله عَزَّوَجَلَّ وجِواره)، كما يقال: (فلان يعيش في جَنْب فلان)، أي: في قُرْبه وجواره، فعلى هذا يكون المعنى: (على ما فرَّطْتُ في طلب قُرْب الله عَزَّوَجَلَّ). ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ المستهزئين بدين الله عَزَّوَجَلَّ وكتابه ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين. ولم يكفه أن ضيَّع طاعةَ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى جعل يسخرُ بأهل طاعته[4].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعول له بتقديرِ مضافٍ. وقدَّره الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]: كراهة، وهو منصوب بفعلٍ محذوف يدلُّ عليه ما قبل، أي: أنذركم

---

(١) انظر القراءة في (تحبير التَّيسير في القراءات العشر)، لابن الجزري (ص:٥٣٦)، الكشاف (٤٠٤/٣)، التِّبيان في إعراب القرآن (٢١٥/٢)، إملاء ما منَّ به الرَّحمن (ص:٢١٥)، نظم الدُّرر (٤٦٣/٦)، تفسير القرطبي (٢٧١/١٥)، الكشف والبيان (٢٤٦/٨)، زاد المسير (٢٤/٤)، التَّحرير والتَّنوير (٤٥/٢٤)، البحر المديد (٩٥/٥)، الدُّر المصون (١٩/٦–٢٠)، المحرر الوجيز (٤/ ٥٣٨)، البغوي (٩٨/٤).

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٩٨)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٧٠/١٥– ٢٧١)، ابن عادل (٥٣٣/١٦)، السمعاني (٤٧٧/٤)، البغوي (٧/ ١٢٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٢٤/٤)، روح المعاني (١٧/٢٤)، تفسير النَّيسابوري (١١/٦)، ابن عادل (٥٣٣/١٦)، الخازن (٨٢/٦)، الرَّازي (٤٦٦/٢٧)، تفسير القرطبي (٢٧١/١٥)، النسفي (١٨٨/٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣١٥/٢١)، القرطبي (٢٧١/١٥)، البحر المحيط (٢١٤/٩)، تفسير البغوي (٩٨/٤)، الكشف والبيان (٨/ ٢٤٧)، الرازي (٤٦٧/٢٧)، الدر المنثور (٢٤١/٧)، الخازن (٦٢/٤).

(٥) قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكشاف): ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. فإن قلتَ: لم نكِّرت؛ قلتُ: لأنَّ المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميِّزة من الأنفس، إمَّا بلجاجٍ في الكفر شديد. أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التَّكثير. وقرىء: ﴿يَا حَسرتى﴾ على الأصل. و﴿يَا حَسرتَاى﴾،=

وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول، ومن لا يشترط للنَّصب اتحاد الفاعل يجوِّزُ كون النَّاصب ﴿وَأَنِيبُوا﴾ [الزمر: ٥٤]، أو ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ [الزمر:٥٥]، وأيًّا ما كان فهذه الكراهة مقابل الرِّضا دون الإرادة، فلا اعتزال في تقديرها[1].

وهو أولى من تقدير (مخافة) -كما فعل الحوفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]- حيث قال:..

=على الجمع بين العوض والمعوَّض منه. و(الجنب): الجانب، يقال: (أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته)، و(فلان ليِّن الجنب والجانب)، ثمَّ قالوا: (فرَّط في جنبه وفي جانبه)، يريدون في حقِّه، وهذا من باب الكناية؛ لأنَّك إذا أثبت الأمر في مكان الرَّجل وحيِّزه، فقد أثبته فيه. ومنه قول النَّاس: (لمكانك فعلت كذا)، يريدون: لأجلك. وقيل: ﴿فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾ على معنى: فرَّطتُ في ذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ. فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أنَّ ذكر (الجنب) كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنَّه قيل: فرَّطت في الله عَزَّوَجَلَّ. فما معنى فرَّطت في الله عَزَّوَجَلَّ؛ قلت: لا بدَّ من تقدير مضافٍ محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرَّطت في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وما أشبه ذلك. بتصرف عن (الكشاف) (٣/٤٠٤).

(١) والحاصل أنَّ مذهب المعتزلة أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يشاء المعاصي والكفر، ومعلومٌ أنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمانُ بأنَّ ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه ما في السَّموات والأرض من حركةٍ ولا سكونٍ إلا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وهو خالقٌ لأفعال العباد. وقد فرَّقوا -أي: أهل السنَّة والجماعة- بين الإرادة الكونيَّة والإرادة الشَّرعيَّة فقالوا: الفرق بين الإرادتين: ١- الإرادة الكونيَّة قد يحبُّها الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاها، وقد لا يحبُّها ولا يرضاها والإرادة الشَّرعيَّة لا بدَّ أنَّه يحبُّها ويرضاها. فالله عَزَّوَجَلَّ أراد المعصية كونًا ولا يرضاها شرعًا. ٢ - والإرادة الكونيَّة مقصودة لغيرها، كخلق إبليس وسائر الشُّرور لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتَّوبة والاستغفار وغير ذلك من المحابِّ. والإرادة الشَّرعيَّة مقصودة لذاتها، فالله عَزَّوَجَلَّ أراد الطَّاعة كونًا وشرعًا وأحبَّها ورضيها. ٣ - الإرادة الكونيَّة لا بدَّ من وقوعها، والإرادة الشَّرعيَّة لا يلزم وقوعها فقد تقع وقد لا تقع..الخ. انظر: روح المعاني (٨/٥٠)، تفسير القاسمي (٣/٤٥١)، تفسير ابن جزي (٣/١٩٢)، التَّحرير والتَّنوير (٢/٢٧٠)، إيثار الحقِّ (ص:٢٣٢)، لوامع الأنوار البهيَّة (١/٣٣٨)، الاستقامة (١/٢١٥)، الزُّهد والورع والعبادة (ص:١٤٧).

(٢) هو علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الحوفيُّ ثمَّ المصريُّ النَّحوي الأوحد، وله التَّفسير المسمى بـ: (البرهان في تفسير القرآن) كتب في بعض المواضع هكذا، وهو تفسير جيِّدٌ في أربعة أسفار ضخام، وأعرب فيه ما يحتاج إلى إعراب، وكتاب: (إعراب القرآن) في (عشر) مجلَّدات أخر، أخذ عن الأدفوي وأخذ عنه خلق كثير من المصريين، وكانت وفاته سنة (ثلاثين وأربعمائة). طبقات المفسِّرين، لأحمد بن محمَّد الأدنروي (١/١١٠)، طبقات المفسِّرين، للسُّيوطيِّ (ص:٨٣)، طبقات المفسِّرين، للدَّاوديِّ (١/٣٨٨).

أي: أنذرناكم مخافة أن تقول[1]. وابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل العامل ﴿أَنِيبُوا﴾، ولم يقدِّر شيئًا من الكراهة والمخافة حيث قال: أي: أنيبوا من أجل أن تقول[2].

أقول: ولكنَّ الزَّمخشريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا لم يتعرَّض لهذه المسألة العقديَّة، وإنما أراد بالكراهة ما يقابل الرِّضا دون الإرادة، حيث كره الكافر ما قدَّمت يداه في الدُّنيا وتحسَّر على ذلك..وهو أولى من تقدير: (مخافة)؛ لأنَّه أدلُّ على التَّحسر، فيكون الاحتراز عن قول المعتزلة من كون الإنذار لأجل كراهية وقوع ما لا يشاؤه الله عَزَّوَجَلَّ من كفركم وتحسُّركم..وذلك لا يفهم من تقدير الزَّمخشري هنا.

وذهب بعض النُّحاة إلى أنَّ التَّقدير: (لئلَّا تقول)، وكذلك تنكير: ﴿تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ [هود:١٠٥] للتَّكثير بقرينة المقام. وجوَّز أن يكون للتَّبعيض؛ لأنَّ القائل بعض الأنفس، واستظهره أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]. قيل: ويكفي ذلك في الوعيد؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ يحتمل أن تكون ذلك. وجوِّز أيضًا أن يكون للتَّعظيم، أي: نفس متميِّزة من الأنفس، إمَّا بلجاجٍ في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم، وليس بذاك[4].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا حَـسْرَتَا﴾ بالألف بدل (ياء الإضافة)، والمعنى: (يا حسرتي احضري) فهذا وقتك. وقرأ ابن كثير في الوقف ﴿يا حسرتاه﴾ بهاء السَّكت[5].

وقرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتى﴾ بياء الإضافة[6]،..

---

(١) وهو قول أبي البقاء العكبري. انظر: التِّبيان (٢/٢١٥)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، ابن عادل (١٦/٥٣١).

(٢) المحرَّر الوجيز (٤/٥٣٨).

(٣) انظر: البحر المحيط (٥/٢٦٢).

(٤) أي: لأنَّ التَّحسُّر يقع على كلِّ نفسٍ كافرة..

(٥) روح المعاني (٢٤/١٧)، وانظر: الكشاف (٣/٤٠٤)، تفسير أبي السُّعود (٧/٢٦٠)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، فتح القدير (٤/٥٤٠).

(٦) روح المعاني (٢٤/١٧)، الكشاف (٣/٤٠٤)، البحر المحيط (٩/٢١٣)، ابن عادل (١٦/٥٣٢)، المحرَّر الوجيز (٤/٥٣٨)، النَّسفي (٤/٩٢)، الكشف والبيان (٨/٢٤٦)، إتحاف فضلاء البشر (ص:٤٨٢).



..وعنه: ﴿يا حسرتاى﴾ -كما سبق-، بالألف والياء التَّحتية مفتوحة أو ساكنة جمعًا بين العوض والمعوض كذا قيل[1]. ولا يخفى أنَّ مثل هذا غير جائز اللَّهمَّ إلا شاذًّا استعمالًا وقياسًا، فالأوجه أن يكون ثنَّى الحسرة مبالغة على نحو: (لبيك وسعديك)، وأقام بين ظهريهم وظهرانيهم على لغة: (بلحرث بن كعب)[2] من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلِّها، واختار ذلك صاحب (الكشف)[3].

ومنهم من جوَّز أن تكون التَّثنية على ظاهرها على تلك اللُّغة، والمراد حسرة فوت الجنَّة وحسرة دخول النَّار، واعتبار التَّكثير أولى لكثرة حسراتهم يوم القيامة ﴿نَفْسٌ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ أي: بسبب تفريطي فـ﴿على﴾ تعليلية، و﴿ما﴾ مصدرية كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥]، والتَّفريط التَّقصير[4]. ﴿أَن تَقُولَ﴾ تعليل للأوامر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤]، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ﴾ [الزمر:٥٥]، على حذف (لام التَّعليل) مع (أَنْ) وهو كثير.

(١) انظر: الكشاف (٣/٤٠٤)، تفسير أبي السُّعود (٧/٢٦٠)، البحر المديد (٦/٢٧٥)، الكشف والبيان (٨/٢٤٦)، المحرَّر الوجيز (٤/٥٣٨)، الرازي (٢٧/٤٦٧)، التَّحرير والتَّنوير (٢٤/٤٥)، وكذلك قرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يا حسرتاى﴾، ومعنى الجمع بين العوض والمعوض هنا أنَّه جمع بين (الألف) التي هي عوض عن (الياء)، وبين (الياء) وكلاهما موجود.

(٢) (بلحرث) قبيلة صغيرة العدد تسكن بقرب (ديرة المسارحة) بين (جيزان) و(ميدي). معجم قبائل العرب (١/١٠٢)، وانظر: تاريخ الطَّبري (١١/٢٣).

(٣) الكشف والبيان، للثَّعلبي (١١/٤٤٨). و(صاحب الكشف) هو أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي، أبو إسحاق، مفسِّرٌ، من أهل (نيسابور) له اشتغال بالتَّاريخ. كان إمامًا كبيرًا، حافظًا للُّغة، بارعًا في العربيَّة، روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأبي محمد المخلدي. أخذ عنه الواحديُّ. من كتبه (عرائسُ المجالس) في قصص الأنبياء، و(الكشف والبيان في تفسير القرآن) يعرف (بتفسير الثَّعلبي). توفي سنة [٤٢٧هـ]. انظر: الأعلام (١/٢١٢)، بغية الوعاة (١/٣٥٦)، وانظر: تذكرة الحفَّاظ، للذَّهبي (٣/١٩٣)، طبقات الشَّافعية، لابن قاضى شهبة (١/٢٠٣)، طبقات الشَّافعية الكبرى، للسُّبكي (٤/٥٨)، طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:١٠٦)، طبقات المفسِّرين، للسُّيوطي (ص:١٧)، معجم المؤلِّفين (٢/٦٠)، وفيات الأعيان (١/٧٩)، الوافي بالوفيات (٢/٤٨٤)، تاريخ ابن الوردي (١/٣٣٢)، تاريخ الإسلام (٢٩/١٨٥).

(٤) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (روح المعاني) (٢٤/ ١٦-١٧).



وفيه حذف (لا النَّافية) بعد (أن)، وهو شائع أيضًا كقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام:١٥٥– ١٥٧]، وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥][(١)].

"وتنكير ﴿نَفْسٌ﴾ للنَّوعيَّة، أي: أن يَقول صنف من النُّفوس، وهي نفوس المشركين، فهو كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤].

وحرف (يا) في قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ استعارة مكنيَّة بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادَى ليقبل، أي: (هذا وقتك فاحضري)، والنِّداء من روادف المشبَّه به المحذوف، أي: (يا حسرتي احضري فأنا محتاجٌ إليك)، أي: إلى التَّحسر، وشاع ذلك في كلامهم حتَّى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدَّةِ التَّحسر. و(الحسرة): النَّدامة الشَّديدة. والألفُ عوض عن (ياء المتكلِّم).

وقرأ أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحده: ﴿يا حسرتاى﴾[(٢)] بالجمع بين (ياء المتكلِّم)، و(الألف) التي جُعلت عوضا عن (الياء) في قولهم: (يا حسرتي). والأشهر عن أبي جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الياء التي بعد الألف مفتوحة. وتعدية الحسرة بحرف الاستعلاء كما هو غالبها للدِّلالة على تمكُّنِ التَّحسر من مدخول ﴿عَلَى﴾.

و﴿مَا﴾ في: ﴿مَا فَرَّطْتُ﴾ مصدريَّة، أي: على تفريطي في جنب الله عَزَّوَجَلَّ.

وحرف ﴿فِي﴾ هنا يجوز أن يكون لتعدية فعل ﴿فَرَّطتُ﴾ فلا يكون للفعل مفعول، ويكون المفرَّطُ فيه هو جنب الله عَزَّوَجَلَّ، أي: جهته، ويكون (الجنب) مستعارًا للشَّأن والحقِّ، أي: شأن الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته ووصاياه تشبيهًا لها بمكان السيِّد وحِماه إذا أُهمل

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢٤/ ٤٥).

(٢) سبق بيان هذه القراءة.



حتَّى اعتُدي عليه أو أَقْفَرَ[1]، أو تكون جملة: ﴿فَرَّطت فى جَنب الله﴾ تمثيلًا لحال النَّفس التي أُوقفت للحساب والعقاب بحال العبد الذي عهد إليه سيِّده حراسةَ حماهُ ورعايةَ ماشيته فأهملها حتى رُعي الحِمى وهَلكت المواشي..فيقول: (يا حسرتا على ما فرطت في جنْب سيِّدي). وعلى هذا الوجه يجوز إبقاء (الجنب) على حقيقته؛ لأنَّ التَّمثيل يعتمد تشبيه الهيئة بالهيئة. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة، وفعل ﴿فَرَّطتُ﴾ متعدِّيًا بنفسه على أحد الاستعمالين، ويكون المفعول محذوفًا، وهو الضَّمير المحذوف العائد إلى الموصول، وحذفه في مثله كثير، ويكون المجرور بـ ﴿فِي﴾ حالًا من ذلك الضَّمير، أي: كائنًا ما فرطتُه في جانب الله عَزَّوَجَلَّ. وجملةُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] خبرٌ مستعملٌ في إنشاء النَّدامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهُدى فكانت تسخر منه، والجملة حال من فاعل ﴿فَرَّطتُ﴾، أي: فرطت في جنب الله عَزَّوَجَلَّ تفريطَ السَّاخر لا تفريط الغافل، وهذا إقرار بصورة التَّفريط. و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة من (إنَّ) المشدَّدة، واللام في ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ فارقة بين (إنْ) المخفَّفة و(إنْ) النَّافية. و﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أشدُّ مبالغةً في الدِّلالة على اتِّصافهم بالسُّخرية من أن يقال: وإن كنتُ لَساخرة"[2].

و(النَّفس): تطلق على الذَّات كلِّها كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]. وتطلق على الرُّوح التي بها حياة الجسد كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

---

(١) يقال: أقفر المكان وأقفر الرجل من أهله: خلا، وأقفر: ذهب طعامه وجاع، وقفِرَ مالُه قَفَرًا: قلَّ، و(أَقْفَرَ الرجل إقْفَارًا): صار إلى القَفْر، و(القَفْر): المفازة لا ماء بها و لا نبات. انظر مادة: (قفر) في (لسان العرب) (١١٠/٥)، المصباح المنير، (٥١١/٢)، المعجم الوسيط، (٧٥٠/٢)، مختار الصحاح (ص:٥٦٠)، ومقاييس اللغة (١١٤/٥).

(٢) بقليل من التَّصرف عن (التَّحرير والتَّنوير) (٤٧/٢٤).



٤ – إجمال ما يستفاد:

يستفاد من الآية: التَّحذير من الاستمرار في الغفلة التي تؤدي إلى النَّدم حيث لا ينفع.

وإنَّ الإنسان ما دام يأمِّل الحياة فإنَّه لا يقطع أمله في الدُّنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذَّاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجِّيه الشَّيطان بالتَّوبة في آخر عمره، فإذا تيقَّن الموت، وآيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدُّنيا، فندم حينئذٍ على تفريطه ندامةً يكاد يقتل نفسه، وطلب الرَّجعة إلى الدُّنيا؛ ليتوب ويعمل صالحًا، فلا يجاب إلى شيءٍ من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت. وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه عباده من ذلك؛ ليستعدُّوا للموت قبل نزوله بالتَّوبة والعمل الصَّالح.

وفي (إعجاز القرآن للباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ): قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، "وهذا نهاية في التَّحذير من التَّفريط"[١].

وقد ذكر السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] ما جاء في القرآن الكريم من عتاب المرء نفسه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾ [الفرقان:٢٧]...الآيات[٣]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ الآيات"[٤].

وقد جاء التَّحذير من (يوم الحسرة) حيث يتحسر المفرط على ما مضى.

والتَّحسر كما يكون على النفس وتفريطها كذلك على الغير بسبب ما حاق به من سوء العاقبة حيث لم ينفعهم النُّصح.

---

(١) إعجاز القرآن (١/٢٨٢)، البرهان في علوم القرآن الكريم (٣/٢٢٩).

(٢) الإتقان (٢/٢٤٨).

(٣) انظر: الآيات في (سورة الفرقان) من (٢٧) إلى (٢٩).

(٤) انظر: الآيات في (سورة الزُّمر) من (٥٦) إلى (٥٨).



الرابع والعشرون: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾:

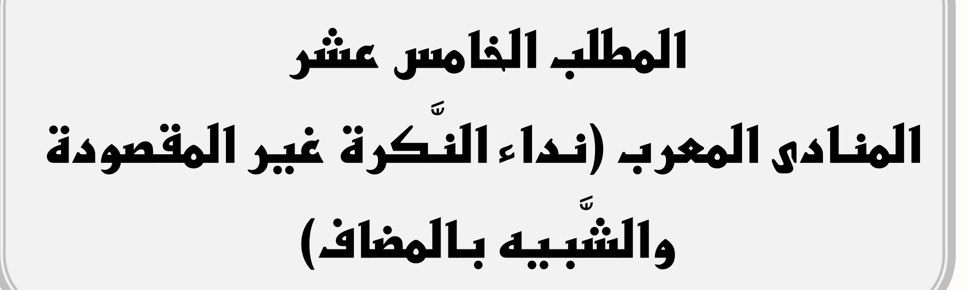
في موضعين كلاهما من الجنِّ، وهما: [الأحقاف:٣٠]، [الأحقاف:٣١][1].
وقد سبقَ مَا يتعلَّقُ بمعنى هذه الصِّيغة، ومواضعها في (النِّداءات العامَّة).



(١) وينظر في بيان كونه من المنادَى المضاف: المقتضب للمبرّد (٤/٢٠٤).







١ – ورود هذه الصيغة:

جاء ذلك في آية واحدة محتملة لهما ولغيرهما:

وهي من (سورة يس) [الآية: ٣٠].

٢ – معنى: (التحسر) وما يتعلق بالإعراب:

أما معنى التَّحسر في هذه الآية فهو واضح، وما له صلة بالتَّحسر قد سبق بيانه.

وأمَّا يتعلَّق بها من الإعراب فيما له صلة هنا بالنَّكرة غير المقصودة والشَّبيه بالمضاف واحتمالها لغيرهما فبيانه على النَّحو التَّالي:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس:٣٠]. قال الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه: "فيا لها حسرة"[١].

(١) معاني القرآن، للفرَّاء (٣٧٥/٢). وذلك لأنَّ الحسرة لا تنادى، وإنما ينادى الأشخاص؛ لأنَّ فائدته التَّنبيه، ولكن المعنى على التَّعجب. انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٢٨٤/٤). وانظر ما أورده كلٌّ من السُّيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإتقان) (١٠٧/٢)، والزَّركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان) (٣٥٣/٣)، وابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (لسان العرب)، مادَّة: (حسر)، والقرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) (٢٢/١٥– ٢٣). وقد فصَّل ما يتعلَّق بهذا المعنى الأزهريُّ في (تهذيب اللُّغة)، مادَّة: (حسر) (١٦٨/٢–١٦٩).



وقال أبو إسحق الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ هذا أصعب مسألة في القرآن، إذا قال القائل: ما الفائدة في مناداة الحسرة، والحسرة ممَّا لا يجيب؟ قال: والفائدة في مناداتها كالفائدة في مناداة ما يعقل؛ لأنَّ النِّداء باب تنبيه، إذا قلت: يا زيد، فإن لم تكن دعوته لتخاطبه بغير النِّداء فلا معنى للكلام، وإنما تقول: (يا زيد) لتنبهه بالنِّداء، ثمَّ تقول: فعلت كذا، ألا ترى أنَّك إذا قلت لمن هو مقبل عليك: (يا زيد ما أحسن ما صنعت؟!) فهو أوكد من أن تقول له: (ما أحسن ما صنعت؟!) بغيرِ نداءٍ، وكذلك إذا قلت للمخاطَب: (أنا أعجب ممَّا فعلت) فقد أفدته أنَّك متعجِّب، ولو قلت: (واعجباه ممَّا فعلت!) و(يا عجباه أن تفعل كذا !) كان دعاؤك العجب أبلغ في الفائدة. والمعنى: (يا عجبًا أقبل فإنَّه من أوقاتك)، وإنما النِّداء تنبيه للمتعجَّب منه لا للعجب، والحسرة أشدُّ النَّدم حتَّى يبقى النَّادم كالحسير من الدَّواب الذي لا منفعة فيه. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]، حسرات، أي: حسرةً وتحسُّرًا..."(١).

وفي (الفريد): "الجمهور على تنوين ﴿حَسْرَةً﴾، وفيه وجهان:

أحدُهما: منادى مشابه للمضاف من أجل طوله، و﴿عَلَى﴾ من صلته(٢)، كقولك: (يا خيرًا من زيد)، والمعنى: (يا حسرة إن كنت ممَّن ينادى فهذا وقتك الذي حقُّك أن تحضري فيه)، وهو وقت استهزائهم بالرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بشهادة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

والثَّاني: المنادى محذوف، أي: يا قوم أو يا هؤلاء، و﴿حَسْرَةً﴾ مصدر، أي: أتحسَّرُ حسرة، وعلى هذا ﴿عَلَى﴾ صلة هذا الفعل، ويجوز أن تكون صفة للحسرة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٨٤/٤)، وانظر مادَّة: (حسر) في (لسان العرب) (١٨٧/٤). وقد فصَّل ما يتعلَّق بهذا المعنى الأزهريُّ في (تهذيب اللغة)، مادَّة: (حسر) (١٦٨/٢- ٦٩) وانظر: البرهان في علوم القرآن (٣٥٣/٣- ٣٥٤).

(٢) أي: تتعلَّق بحسرة؛ فلذلك نصبت.



فتكون من صلة محذوف، واختلف في تأويل هذا القول، فقيل: هو الله عَزَّوَجَلَّ. وقيل: هو حبيب النَّجار[1].

وقيل: الملائكة، وقيل: الهالكون.."[2].

ويقرأ في الشَّاذِّ: (يا حَسْرَةَ العِبَاد)، أي: يا تحسيرهم، فالمصدرُ مضافٌ إلى الفاعل، ويجوز أن يكون مضافًا إلى المفعول، أي: أتحسَّرُ على العباد[3].

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، المنادى هنا ﴿أَسَفَى﴾ مضاف إلى (ياء المتكلِّم) المنقلبة ألفًا، وليس نكرة مقصودة، إذ لو كان كذلك لنون (أسفًا).

والحاصلُ أنَّ في هذا النِّداء وجهان:

---

(١) قال في (مروج الذَّهب) (٥٦/١): "حبيب النَّجار كان يسكن (أنطاكية) من أرض (الشَّام)، وكان بها ملك متجبِّرٌ يعبد التَّماثيل والصُّوَر، فسار إليه اثنان من تلامذة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعواه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فحبسهما وضربهما، فعززهما الله عَزَّوَجَلَّ بثالث، وقد تنوزع فيه، فذهب كثيرٌ من النَّاس إلى أنَّه (بطرس)، وهذا اسمه بالرُّوميَّة، واسمه بالعربيَّة (سمعان)، وبالسِّريانيَّة (شمعون)، وهو شمعون الصَّفاء، وذكر كثيرٌ من النَّاس وإليه ذهب سائرُ فرق النَّصرانيَّة أنَّ الثَّالث المعزَّزَ به هو (بولس)، وأنَّ الاثنين المتقَدِّمين اللَّذين أودعا الحبس (توما) و(بطرس)، فكان لهم مع ذلك الملك خطبٌ عظيمٌ طويل فيما أظهروا من الإعجاز والأعاجيب والبراهين، من إبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الميِّت، وحيلة (بولس) عليه بمداخلته إيَّاه وتلطُّفه له، واستنفاذ صاحبيه من الحبس، فجاء حبيب النَّجار فصدَّقهم، لما رأى من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك في كتابه بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [يس:١٤]، إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس:٢٠]، وقتل (بولس) و(بطرس) بمدينة (روميَّة)، وصُلِبا منكَّسين، وكان لهما فيها خبرٌ طويل مع الملك، ومع (سيما) السَّاحر، ثمَّ جعلا بعد ذلك في خزانةٍ من البلور، وذلك بعد ظهور دين النَّصرانيَّة، وحرمهما في كنيسة هناك..".

(٢) الفريد (١٠٦/٤)، وكذا في (التِّبيان) (٢٠٢/٢).

(٣) التِّبيان (٢٠٢/٢)، وهي قراءة أبي وابن عباس وعلي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. انظر: تفسير الطَّبري (٢/٢٣)، تفسير القرطبي (٢٣/١٥)، البرهان (٣٥٣/٣)، الدُّر المنثور (٥٤/٧)، معاني القرآن الكريم، للنَّحاس (٤٨٩/٥)، المحرر الوجيز (٤٥٢/٤)، روح المعاني (٣/٢٣)، البحر المحيط (٣٣٢/٧)، الفريد (١٠٦/٤)، المحتسب (٢٠٨/٢)، كتاب المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود السِّجستاني (ص:١٩٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٨٤/٤)، السمعاني (٣٧٥/٤)، البيضاوي (٤/ ٢٦٧)، فتح القدير (٤٢٢/٤).



أوَّلهما: أنَّه منادى شبيه بالمضاف؛ ولذلك نصب، وإنما كان شبيهًا بالمضاف؛ لأنَّه اتَّصل به شيءٌ من تمام معناه، وهو ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾. أو يقال: إنَّه منادى نكرة مقصودة كأنما المنادَى حسرة معيَّنة، وإنما نصبت؛ لأنها وصفت بالجارِّ والمجرور، والمنادَى النَّكرة المقصودة إذا وصفت نصبت.

والوجه الثَّاني: أنَّ المنادى محذوف و(حسرة) مصدر، أي: أتحسَّرُ حسرةً. وقد اختلف المفسِّرون في المتحسِّر، ولا داعي للاختلاف فالحسرة جديرة بهم، والمستهزئون بالرُّسل أحرياء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون، أو يتحسَّروا على أنفسهم. والنِّداء هنا مجازيٌّ، أي: (يا حسرة احضري فهذا أوانك).



المطلب السادس عشر
دخول (يا) على (ليت)

١ - (ليت) حرف تمنٍّ:

إنَّ (ليت) حرف تمنٍّ يتعلَّق بالمستحيل[١] غالبًا[٢]. والإنسان قد يتمنَّى شيئًا مع علمه بتعذُّره[٣] كقول القائل:

(فيا ليتَ الشَّبابَ يعودُ يومًا ***فأُخبِرَهُ بما فَعَلَ المشيبُ)[٤].

وبالممكن قليلًا نحو: (ليتَ المسافرَ حاضرٌ)...

وحكمه: أن ينصب الاسم، ويرفع الخبر[٥].

قال الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبعض أصحابه[٦]: وقد ينصبهما كقوله:

---

(١) أو يقال:هو طلبُ ما لا طمعَ فيه، أو فيه عسر كـ (ليت لي مالًا فأتصدَّق منه). انظر: حاشية الآجروميَّة، لابن قاسم (ص:٧٦).

(٢) مغني اللَّبيب (ص:٣٧٥).

(٣) وفي (الإيضاح): "ولا يشترط في التَّمني الإمكان. تقول:(ليت زيدًا يجيء)، و(ليت الشَّباب يعود)". الإيضاح في علوم البلاغة (ص:١٣٠)، وانظر: شروح تلخيص المفتاح (٢/٢٣٩).

(٤) قاله أبو العتاهية. انظر: ديوان أبي العتاهية (ص:٥٠)، شرح الشَّواهد للبغداديِّ (٥/١٦٣)، مجالس ثعلب (ص:٢٤٦)، انظر:البيان والتَّبيين (ص:٤٢٩)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٢/٣٢). و(الشَّبابَ): اسمُ (ليت) منصوب، والشَّاهد أنَّه قد جاء استعمال (ليت) في تمني المستحيل، وطلبِ ما لا يُطمَع فيه، فما ينقضي من العمر لا يرجع!!

(٥) مغني اللَّبيب (ص:٣٧٥-٣٧٦)، هو الرَّاجح.. انظر: الإتقان (١/٥١٢)، الجنى الدَّاني (ص:٤٩١-٤٩٣)، موصل الطُّلاب إلى قواعد الإعراب، للأزهريِّ (ص:١٦٥).

(٦) انظر:معاني القرآن، للفرَّاء (١/٤١٠)، (٢/٣٥٢).

(يا ليتَ أيَّام الصِّبا رواجعا***)[1]

٢ – مواضع (ليت) في القرآن الكريم:

أمَّا مواضع (ليت) في القرآن الكريم فهي على النَّحو التَّالي:

أ. ﴿يَا لَيْتَ﴾ [القصص:٧٩] في (ثلاثة) مواضع:

[القصص:٧٩]، [يس: ٢٦]، [الزُّخرف:٣٨].

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ..﴾.

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

ب. ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ [النساء:٧٣] في (سبعة) مواضع:

[النِّساء:٧٣]، [الكهف:٤٢]، [مريم:٢٣]، [الفرقان:٢٧]، [الحاقَّة:٢٥]، [النَّبأ:٤٠]، [الفجر:٢٤].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾.

---

(١) هذا شطر من (الرَّجز) للشَّاعر العجاج بن رؤبة، وهو من الشَّواهد المشهورة عند النَّحويين، وهو من شواهد سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر الكتاب (١٤٢/٢)، وانظر:طبقات فحول الشُّعراء، لابن سلام الجمحي (٧٨/١)، وملحقات ديوان العجاج بن رؤبة (ص:٨٢)، خزانة الأدب (٢٥٣/١٠–٢٥٤)، أسرار العربيَّة (ص:٢٥٩)، الجُمَل في النَّحو (ص:٢٣٤)، المفصَّل في صنعة الإعراب، للزَّمخشريِّ (ص:٤٠٠)، المفصَّل، لابن يعيش (١٣٠/١)، شرح الرَّضي على الكافية (٣٣٤/٤)، مغني اللَّبيب (ص:٣٧٦)، الأصول في النَّحو (٢٤٨/١)، همع الهوامع (٤٩١/١)، الجنى الدَّاني (ص:٤٩٢)، الدُّرر (١٧٠/٢). والشَّاهد فيه: (أيامَ الصِّبا رواجعا) فقد نصبت (ليت) الاسم والخبر. انظر: الدُّر المصون (٣٨٥/٣)، ابن عادل (٤٢٦/٩)، البحر المحيط (٢٥١/٥)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:١٣٠)، دلائل الإعجاز (ص:٢٤٧).

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾[1].

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾.

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.

ج. ﴿يَا لَيْتَنَا﴾ في موضعين:

[الأنعام:٢٧]، [الأحزاب:٦٦].

﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾.

٣ – الإعراب:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ﴾ المنادى محذوف، أي: يا قوم، و﴿مِثْلَ﴾ اسم (ليت)، والخبر ﴿لَنَا﴾..ويقاس عليه غيره، وهذا وجه، ولم يذكر الوجه الآخر، ولعلَّه قد استغنى عن ذلك بسبب ذكره في مواضع أخرى..[2].

"وحرف النِّداء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ مستعمل في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداء يقتضي بُعْد المنادى، فاستعمل في التَّحسُّر؛ لأنَّ المتمنَّى صار بعيدًا عنهم، أي: غير مفيد لهم، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦].

---

(١) و"﴿يَا لَيْتَنِي﴾ نداءٌ للكلام الدَّالِّ على التَّمني بتنزيل الكلمة منزلة العاقل الذي يطلب حضوره؛ لأنَّ الحاجة تدعو إليه في حالة النَّدامة، كأنَّه يقول:(هذا مقامُك فاحضري)، على نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]. وهذا النِّداء يزيد المتمني استبعادًا للحصول. وكذلك قوله: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ [الفرقان:٢٨] هو تحسُّر بطريق نداء (الويل). و(الويل):سوء الحال، والألف عوض عن ياء المتكلِّم، وهو تعويض مشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلِّم". التَّحرير والتَّنوير (١٣/١٩).

(٢) انظر: الفريد (٧٦٠/١)، (٧٢٥/٣).



ومعنى: ﴿نُـرَدُّ﴾ نرجع إلى الدُّنيا، وعطف عليه: ﴿وَلا نُكَـذِّبَ بِآيَـاتِ رَبِّنَـا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾"[1].

"وحرف النِّـداء مستعمل في التَّلهف. و﴿لَيْتَـــنِي﴾ تمنٍ مراد به التَّندُّم. وأصل قولهم: (يا لَيْتَنِي) أنَّه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل، كأنَّه يخاطب كلمة (ليت) يقول: (احضُري فهذا أوانك)، ومثله قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْـتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾. وهذا ندمٌ على الإشراك فيما مضى، وهو يؤذن بأنَّه آمن بالله عَزَّوَجَلَّ وحده حينئذٍ"[2]. "برفع الفعلين بعد (لا) النَّافية في قراءة الجمهور عطفًا على ﴿نُـردّ﴾، فيكون من جملة ما تمنَّوه؛ ولذلك لم ينصب في جواب التمنِّي؛ إذ ليس المقصود الجزاء؛ ولأنَّ اعتبار الجزاء مع الواو غير مشهور، بخلافه مع الفاء؛ لأنَّ الفاء متأصِّلة في السَّببية. والردُّ غير مقصود لذاته، وإنّما تمنَّوه لما يقع معه من الإيمان وترك التَّكذيب. وإنَّما قدِّم في الذِّكر ترك التَّكذيب على الإيمان؛ لأنَّه الأصل في تحصيل المتمنَّى على اعتبار الواو للمعيَّة واقعة موقع فاء السَّببيّة في جواب التَّمني. وقرأه حمزة والكسائيُّ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: ﴿نُكَـــذِّبَ﴾.. ﴿وَنَكُونَ﴾ -بنصب الفعلين-[3]، على أنَّهما منصوبان في جواب التمنِّي..

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٨٤/٧).

(٢) المصدر السابق (٣٢٧/١٥).

(٣) "وقرأ حمزة إلا العجليَّ، وحفص عن عاصم ويعقوب بنصب الباء من ﴿نُكَذِّبَ﴾، والنُّون من ﴿وَنَكُـونَ﴾. قال مكيُّ بن أبي طالب- [مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢٥٠/١)]-:وهذا النَّصب على جواب التَّمني وذلك بإضمار (أن) حملا على مصدر ﴿نُـرَدُّ﴾، فأضمرت (أن) لتكون مع الفعل مصدرًا، فعطف بالواو مصدرًا على مصدر، وتقديره: (يا ليت لنا ردًّا وانتفاءًا من التَّكذيب، وكونًا من المؤمنين). وقرأ ابنُ عامر برفع الباء من ﴿نُكَـذِّبُ﴾، ونصب النُّون من ﴿وَنَكُـونَ﴾. فالرفع قد بينا علَّته، والنَّصب على جواب التَّمـني. زاد المسـير (٢٠/٢)، انظـر: الطـبري (٣٢٠/١١)، المحـرر الـوجيز (٢٨١/٢)، البحـر المحيط (٤٧٤/٤)، ابن عادل (٩٣/٨)، تفسير البغوي (١١٩/٢)، تفسير القرطبي (٤٠٩/٦)، تفسير النَّسفي (٤٩٨/١)، تفسـير النَّيسـابوري (٦٦/٣)، الـرازي (٥٠٩/١٢)، تفسـير السَّـمرقندي (٤٨٠/١)، المنـار (٢٩٣/٧)، التَّيسير في القراءات السَّبع، للدَّاني (ص:٧٦)، كتاب السَّبعة في القراءات (ص:٢٥٥)، تحبير التَّيسير في القراءات العشر (ص:٣٥٤)، حجَّة القراءات (ص:٢٤٥)، إتحاف فضلاء البشر (ص:٣٦٨)، النشر في القراءات العشر (٢٩٠/٢).



وقرأ ابن عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ولا نُكَذِّبُ﴾ بالرَّفع كالجمهور،على معنى أنَّ انتفاء التَّكذيب حاصل في حين كلامهم، فليس بمستقبل حتى يكون بتقدير (أن) المفيدة للاستقبال. وقرأ: ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب على جواب التمنِّي، أي: نكون من القوم الذين يعرفون بالمؤمنين"[1].

والحاصل أنَّ (يا) إذا دخلت على حرف أو فعل تكون حرف تنبيه، وإذا عددناها حرف نداء نقدر المنادَى محذوفًا؛ لأنَّ المنادَى لا يكون إلا اسمًا..

وأنَّ (ليت) حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، ومعناه التَّمني، وأنها تفيد تأكيده.

وفي (البحر): "الأصح أنَّ (يا) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا﴾ حرف تنبيه لا حرف نداء"[2]. وليس في الكلام منادَى محذوف، وعلَّل ذلك بأنَّ كونها للنِّداء والمنادَى محذوف فيه إجحاف كبير؛ لأنَّ في ذلك حذف جملة النِّداء، وحذف متعلَّقه[3]. وكذلك سيبويه في (الكتاب) جعلها للتَّنبيه[4].

وفي (التَّسهيل) لابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن وليها (ليت) أو (ربَّ) أو (حبَّذا) فهي للتَّنبيه لا للنِّداء"[5].



(١) التَّحرير والتَّنوير (١٨٥/٧).

(٢) البحر المحيط (٤٧٦/٤).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٣٠/٨)، وانظر: روح المعاني (٨١/٥).

(٤) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣٠٧/٢).

(٥) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٦١١/٣)، التَّسهيل، لابن مالك (٣٥٨/٣).


أساليب النداء في القرآن الكريم





المطلب السابع عشر
استخدام أداة النداء في الدعاء

أولًا: تعريف الدُّعاء:

الدُّعاء: الرَّغبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ[١]. وقد دعا يدعو دُعاءً ودَعْوَى، والدُّعاءُ كالنِّداءِ لكن النِّداءُ قد يقال إذا قيل: (يَا) و(أَيَا) ونحو ذلك من غير أَن يُضمَّ إليه الاسم، والدُّعاءُ لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو: يا فلان، وقد يستعمل كلُّ واحد منهما موضع الآخر[٢].

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة:١٧١]، وهو من الإنشاء الطَّلبيِّ. قال صاحب (الكليَّات) رَحِمَهُ اللَّهُ: "والطَّلب إن كان بطريق العلو سواء كان عاليًا حقيقة أو لا فهو أمر[٣]، وإن كان على طريق السُّفل سواء كان سافلًا

---

(١) انظر: الكليَّات (ص:٤٤٧)، بصائر ذوي التَّمييز (٣٨٨/٢)، لسان العرب، مادَّة: (دعا) (٢٥٧/١٤)، المحكم والمحيط الأعظم، مادَّة: (دعو) (٣٢٥/٢)، وكذلك في (تاج العروس) (٤٦/٣٨)، القاموس المحيط (ص:١٦٥٥).

(٢) بصائر ذوي التَّمييز (٣٨٨/٢)، المفردات، للرَّاغب (٣٤٧/١).

(٣) (ما كان عاليًا حقيقة) كقول السَّيد لعبده: افعل كذا. (أو لا) كقول العبد لسيِّده: افعل كذا –حال كونه طالبًا للعلو– فخرج الدُّعاء والالتماس؛ لأنَّ الأوَّل من الأدنى، والثَّاني من المساوي، بخلاف الأمر؛ فإنَّه يشترط فيه طلب الآمر العلوَّ. والمراد بطلبه العلوَّ أن يعدَّ نفسه عاليًا بإظهار حاله العالي، وذلك بأن يكون كلامه على جهة الغلظة والقوَّة لا على جهة التَّواضع والانخفاض، فسمِّي ميله في كلامه إلى العلوِّ طلبًا له سواء كان عاليًا في نفسه أو لا. انظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٠٩/٢–٣١٠). وفي (الكتاب): "إنَّ أصل الدُّعاء أن يكون على لفظ (الأمر)، وإنما استعظم أن يقال: أمرٌ، والأمر لمن دونك، والدُّعاء لمن فوقك، وإذا قلت: (اللهمَّ اغفر لي) فهو كلفظك إذا أمرت فقلت: (يا زيدُ أكرم عمرًا)، وكذلك إذا=

في الواقعِ أم لا فدعاء"(1). وقيل: من الأعلى أمرٌ، ومن الأدنى دعاءٌ(2). قال ابنُ عرفة في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]: "الطَّلب من الأدنى للأعلى سؤال عند المنطقيين ودعاء عند النَّحويين. ومنهم من قال: إن كان لله عَزَّوَجَلَّ فهو دعاء، وإن كان لغيره فهو أمر"(3).

وقد حقَّق صاحبُ (الكليَّات) أنَّ الطَّلب مع الخضوع مطلقًا ليس بدعاء، بل الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ في العرف وفي جميع الاصطلاحات(4)، كما

=عرضت فقلت: (انزل) فهو على لفظ: (اضربْ). وقد يجيء الأمر والنَّهي والدُّعاء على لفظ الخبر إذا لم يلبس، تقول: (أطالَ الله بقاءهُ) فاللَّفظُ لفظ الخبر، والمعنى دعاءٌ، ولم يلبسْ؛ لأنَّك لا تعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أطالَ بقاءهُ لا محالة، فمتى أُلبسَ شيءٌ مِنْ ذَا بالخبر لم يجز حتَّى يبينَ، فتقول على ذا: (لا يغفر الله لَهُ ولا يرحمُهُ)، فإن قلتَ: (لا يغفرُ الله لَهُ ويقطعُ يده) لم يجز أن تجزم (يقطع)؛ لأنَّهُ لا يشاكل الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّل دعاءٌ عليه. وإذا جزمتَ (يقطعُ) فقد أردت: (ولا يقطعُ) الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا دعاء له فلا يتَّفق المعنى، وإذا لم يتَّفق لم يجز النَّسق. واعلم أنَّ الدُّعاء بمنزلة الأمر والنَّهي، وإنما قيل: (دعاء)؛ لأنَّه استعظم أن يقال: أمر أو نهي. وذلك قولك: اللهمَّ زيدًا فاغفر ذنبه، وزيدًا فأصلح شأنه، وعمرًا ليجزه الله خيرًا. وتقول: زيدا قطع الله يده، وزيدًا أمر الله عليه العيش؛ لأنَّ معناه معنى: (زيدًا ليقطع الله يده)". الكتاب، لسيبويه (2/130)، وانظر: الأصول في النَّحو، لابن السَّراج، فصل من مسائل الدُّعاء والأمر والنَّهي (2/170-171).

(1) الكليَّات (ص:582).

(2) انظر: حاشية الجرجانيِّ على الكشاف (1/67)، ابن عادل (1/203)، البهجة في شرح التُّحفة (1/26)، الجنى الدَّاني (ص:110)، والتَّصريح (2/246). قال الأخضريُّ:

(أَمْرٌ مَعَ اسْتِعْلا وَعَكْسُهُ دُعا***وَفي التَّساوِي فَالْتِماسٌ وَقَعا)

فالأمرُ ما دلَّ على الفعل بذاته كاضرب، وقوله: (مَعَ اسْتِعْلا)، أي: مع إظهار الطَّالب العلوَّ على المطلوب منه. (وَعَكْسُهُ)، أي: طلبُ الفعلِ لا مع استعلاء، بل مع خضوع وإظهار الطَّالب الانخفاض عن المطلوب منه دعاء، وفي التَّساوي التماس، كقول بعض الخدمة لبعض: أعطني عمامتي. السلَّم بشرح الشَّيخ درويش القويسني (ص:17).

(3) تفسير ابن عرفة (1/102).

(4) يعنى أنَّ الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ في (الاصطلاح الشَّرعي)، وكذلك في (الاصطلاح العرفيِّ)، وكذلك في (الاصطلاح اللُّغوي). وقد نبَّه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في (مجموع الفتاوى): أنَّ "استعمال الدُّعاء في العبادة والمسألة من استعمال اللَّفظ في حقيقته الواحدة، ليس من المشترك، ولا المتواطئ، ولا=

حقَّـق أنَّ الالتمـاس لا يسـتعمل إلا في مقـام التَّواضـع[1]، وأمَّـا السُّـؤال فهـو أعـمُّ منه..والمطلوب به إن كان ممَّا لا يمكن فهو التَّمني، وإن كان ممكنًا، فإن كان حصول أمر في ذهن الطَّالب فهو الاستفهام، وإن كان حصول أمرٍ في الخارج، فإن كان ذلك الأمرُ انتفاء فعل فهو النَّهي، وإن كان ثبوته فإن كان بأحد حروف النِّداء فهو النِّداء، وإلا فهو الأمر. والطَّلبُ فعلٌ اختياريٌّ لا يتأتَّى إلا بإرادةٍ متعلِّقةٍ بخصوصيَّة المطلوب موقوفة على امتيازه عمَّا عداه.

والطَّلـب مـن الله عَزَّوَجَلَّ يجـوزُ بلفـظ الماضـي والمضـارع، وبصـيغة الأمـر علـى اصطلاح الأدباء، وكذا الثَّناء مثل: (صلى الله عليه وسلم) و(حمدت الله)، و(أحمده)، بخلاف: (أضرب)، و(أبيع)، والفرق إمكان الوعد فيه، وعدم إمكان الوعد في الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ والطَّلب منه إلا إذا قام دليل مثل: سأستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ حرف التَّنفيس دليل الوعد"[2].

=المجاز" مجموع الفتاوى (١١/١٥). وسيأتي بيانُ قول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والدُّعاء لَوْنٌ من الطَّلب، إلا أنَّ الطَّلب يختلف باختلاف الطَّالب والمطلوب منه، فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر. بل يقال له: دعاء. وينبغي أن نلحظ ذلك أثناءَ الإعراب فإنْ كان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعلى فلا يقال: فِعْل أمر، بل فعلُ دعاء.

(١) (الالتماس) الطَّلب مع التَّساوي بين الآمر والمأمور في الرُّتبة. وقال العلامة التَّفتازانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في العرف إنما يطلق على ما يكون مع تواضع ما لا مع التَّساوي. وقيل: الالتماس هو اللَّفظُ الدَّالُّ على طلب الشَّيء دلالة وضعيَّة مع التَّساوي. دستور العلماء (١/١١٢)، انظر: مختصر العلامة سعد الدِّين التَّفتازاني على تلخيص المفتاح (٢/٣٠٩)، شروح تلخيص المفتاح (٢/٣٠٩–٣١٠)، التَّعريفات (ص:٥١)، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف (ص:٨٧). والفرق بين الالتماس والطَّلب أنَّ الالتماس طلبٌ باللَّمس ثمَّ سُمِّي كلُّ طلبٍ التماسًا مجازًا. الفروق اللُّغويَّة (ص:٦٥). أقول: ومع التَّساوي في الرَّتبة فقد نبَّه العلاَّمة السَّعد وكذلك صاحب (الكليَّات) إلى أنَّ ثمَّة فرقًا بين الالتماس والسُّؤال، فالالتماسُ يستعملُ في مقام التَّواضع، والسُّؤال أعمُّ. أقول: وعلى ذلك فكلُّ التماس سؤال، وليس كلُّ سؤال التماسًا فبينهما عموم وخصوص مطلق.

(٢) الكليَّات (ص:٥٨٢).



والحاصل أنَّهم فرَّقوا بين (الأمر) و(الدُّعاء) و(الالتماس) في الصِّيغة الواحدة، وذلك بالنَّظر إلى المخاطِب –بكسر الطاء المهملة– والمخاطَب –بفتح الطاء المهملة–.

ولكن ينبغي أن نلحظ أنَّ الطَّلب من غير الله عَزَّوَجَلَّ وإن كان معه خضوعٌ وانكسارٌ وذلٌّ فليس بدعاءٍ، وإنَّما هو سؤالٌ والتماسٌ ورجاءٌ –كما تقرَّر–.

وما سبق يصدق أيضًا على (لا النَّاهية). فما كان الأعلى إلى الأدنى يسمَّى نهيًا، وبالعكس يسمَّى دعاءً، ومن المساوي يسمَّى التماسًا، وذلك مع ملاحظة الاعتبارات السَّابقة.

فقوله عَزَّوَجَلَّ مثلًا على لسان لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣] نهيٌ حقيقيٌّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ على لسان المخاطَبين:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦] ليس نهيا حقيقيًّا، وإنَّما هو دعاءٌ. وإسقاط حرف النداء يشير إلى قرب المنادَى، وأنه حاضر مع المنادِي غير غافل عنه. قال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضي للقيام بأمور العباد وإصلاحها؛ فكان العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق والإحسان، قائلا: يا من هو المصلح لشؤوننا على الإطلاق أتم لنا ذلك بكذا، وهو مقتضى ما يدعو به، وإنما أتى (اللهم) في مواضع قليلة، ولمعان اقتضتها الأحوال"[1].

أمَّا (الالتماسُ) فكقولكَ لصاحبكَ أو زميلكَ أو أخيكَ أو مَن يساويكَ في الرُّتبة: (لا تقلقْ يا أخي فالامتحانُ سهلٌ)، أو ما إلى ذلك من الأفعال التي تتحدَّث بها مع ندِّك؛ فإنَّها حينئذٍ تسمَّى التماسًا.

ولكن يجري ذلك الخلاف الذي لوَّحتُ إليه غير مرَّة من حيثُ كونُ الالتماس يستعملُ في مقام التَّواضع، فلا يقال عن المثال الآنف الذِّكر: إنَّه التماس.

---

(١) الموافقات (٢٠٣/٤).



وينبغي أن نميِّز بين الدُّعاء في اصطلاحه الشَّرعي، وبين الاصطلاح اللُّغوي، يقال: "دعا المؤمن ربَّه عَزَّوَجَلَّ، إذا ناداه وطلبَ منه تحقيقَ نفعٍ أو دفع ضرٍّ من أمور الدُّنيا، أو أمور الآخرة. ودعا الوثنيُّ معْبُوده، إذا ناداه، وطلب أمرًا من أمور الدُّنيا. واشتهر الدُّعاء بأحد معانيه اللُّغويَّة، وهو المعنى الدِّيني له، مع توسُّع شملَ كلَّ ذكرٍ لله عَزَّوَجَلَّ، وثناءٍ عليه بصفاته وأسمائه الحسنى؛ لأنَّ ذِكْرَ الله عَزَّوَجَلَّ يُرجَى منه رضوان الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه، فهو ذو دلالةٍ طلبيَّةٍ، ويتضمَّن غالبًا نداء اللهِ عَزَّوَجَلَّ بحمده والثَّناء عليه.

فمن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ ما هو مُطْلَقُ ذِكْرٍ له، ومن دعاء اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما هو نداءٌ له بطلب يتضمَّن اسْتِجْداءَ تحقيقِ مرغوبٍ فيه من خيرات الدُّنيا، أو خيراتِ الآخرة، أو دفعِ مكروهٍ من أُمور الدُّنيا أو أمور الآخرة.

ويكون الدُّعاء بصِيغٍ كثيرةٍ تشملُ صيغَ الأمرِ والنَّهي، وصيغَ الجُمَل الخبريَّة، والأصل فيه النِّداء مع طلبٍ بصِيَغ الأَمْرِ أو النَّهْي، وكثيرًا ما يُحْذَفُ حَرْفُ النِّداء.

وكثيرًا ما يُدْعَى بصيغَةٍ خَبَرِيَّة، مثل: (رَحِمَ الله فلانًا وغَفَرَ له)، أو (يَرْحَمُ الله فُلانًا ويَغْفِر له).

والدُّعاءُ الموجَّه لله عَزَّوَجَلَّ من أجَلِّ العبادات، والدُّعاءُ وفْقَ المعنى الدِّيني الموجَّه لغير الله عَزَّوَجَلَّ شرْكٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يغفرُ أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:١٤].

ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٣- ١٤].



وقد يتأدَّب الدَّاعي مع ربِّه في طلب بعض حاجاته الدُّنيويَّة، كما فعل موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو عند (ماءِ مَدْين)، إذْ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

وتأدُّب رسولُ الله محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ربِّه، وفي نفسه أن يُحَوِّل الله عَزَّوَجَلَّ القبلة إلى (الكعبة المشرَّفة)، فجعل يقلِّب وجْهَهُ في السَّماء، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:١٤٤]"[١].

وحيث إنَّ الدُّعاء قد اشتهر بمعناه الشَّرعي، والذي هو أحد معاني الدُّعاء اللُّغويَّة فإنَّ العناية والاهتمام هنا بما قد اشتهر..-وسيأتي في الفصل الذي يتناول (النِّداء) كلُّ ما يتعلَّق به-.

وقد نبَّه ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ استعمالَ الدُّعاء في العبادة والمسألة من استعمال اللَّفظ في حقيقته الواحدة، ليس من المشترك[٢]، ولا المتواطئ، ولا المجاز حيث

(١) بتصرُّفٍ عن (البلاغة العربيَّة أسسها وعلومها وفنونها) (١/٢٥٥- ٢٥٧).

(٢) (المشترك) هو اللَّفظة الموضوعة لحقيقتين مختلفتين أو أكثر، وضعا أوَّلًا من حيث هما كذلك). فخرج بـ: (الوضع): ما يدلُّ على الشَّيء بالحقيقة، وعلى غيره بالمجاز، وخرج بقيد: (أوَّلًا) المنقول، وخرج بقيد (الحيثيَّة): المتواطئ فإنَّه يتناول الماهيَّات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنَّها مشتركة في معنى واحد. إرشاد الفحول (١/٥٧)، المحصول (١/٣٥٩-٣٦١)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (١/٦٠). قال الأخضري رَحِمَهُ اللَّهُ في (السُّلَّم):

(ونسبة الألفاظ للمعاني***خمسة أقسام بلا نقصان)

(تواطؤ تشاكك تخالف***والاشتراك عكسه الترادف)

قوله: (تَواطُؤٌ)..وهو القسم الأوَّل من الخمسة كالإنسان؛ فإنَّ معناه لا يختلفُ في أفراده، ويسمَّى ذلك المعنى متواطئا لتواطئ أفراده، أي: توافقها فيه؛ فإنَّ أفراد الإنسان كلَّها متوافقةٌ في معناه من الحيوانيّة والنَّاطقيّة، وإنَّما الاختلافُ بينهما بعوارضٍ خارجةٍ كالبياض والسَّواد والطُّول والقصر. فإن كان معناه مختلفًا في أفراده كالنُّور؛ فإنَّ معناه في الشَّمس أقوى منه في القمر. وكالبياض؛ فإنَّ معناه في العاج أقوى منه في الثَّوب، فالنِّسبة بينه وبين أفراده تشاكُكٌ. ويقال للمعنى مشكك؛ لأنَّ النَّاظر إذا نظر في الأفراد باعتبار أصل المعنى ظنَّه متواطئًا، وإذا نظر باعتبار التَّفاوت ظنَّه مشتركًا فحصل له التَّشكك. ويسمَّى اللَّفظ متواطئا كمعناه، وفي الثَّاني مشككًا كمعناه. وإذا نظر بين معنى اللَّفظ وبين لفظ آخر فإن لم يصدق أحدهما على شيءٍ مما يصدقُ عليه الآخر، فالنِّسبة بينهما تخالف، أي: تباين، كالإنسان والفرس=



قال: كلُّ دعاءٍ مسألة متضمِّن لدعاء العبادة. وعلى هذا فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] يتناولُ نوعي الدُّعاء. وبكلٍّ منهما فُسِّرتْ الآية. قيل: أعطيه إذا سألني. وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان. وليس هذا من استعمال اللَّفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمِّنةِ للأمرين جميعًا. فتأمَّلْه فإنَّه موضوعٌ عظيمُ النفع، وقلَّ ما يفطن له[1].

وهو يعني أنَّ العبارة الواحدة تطلق إطلاقًا حقيقيًّا على جميع الحقائق فتكون حقيقة (شرعيَّة) و(لغويَّة) و(عرفيَّة)[2]، ولا يكون ذلك الإطلاقُ من المشترك ولا من المتواطئ ولا من المجاز.

وقد فُسِّر قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

=..واللَّفظ إن تعدد معناه كعين الباصرة والجارية فالنِّسبة بينه وبين ما له من المعاني الاشتراك؛ لاشتراك المعنيين في اللَّفظ الواحد. وإن تعدَّد المعنى كالإنسان والبشر فالنِّسبة بين اللَّفظين التَّرادف..انظر: (شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم المنورق) (ص:١٧).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/١٥)، بدائع الفوائد (٣/٥١٤).

(٢) (الحقيقة اللُّغويَّة) وهو ما وضعها واضع اللُّغة، كالدابَّة لكلِّ ما دبَّ على وجه الأرض، والصَّلاة للدُّعاء..، والحقيقة الشَّرعيَّة وهي ما وصفها الشَّارع، كالصَّلاة نقلها الشَّارع من الدُّعاء للعبادة المخصوصة، وهي الأقوال والأفعال المعلومة المفتتحة بالتَّكبير المختتمة بالتَّسليم، فتحمل في كلام أهل الشَّرع على ذلك. والعرفيَّة الخاصَّة، وهي ما وضعها أهل عرف خاصٍّ، وهم طائفة مخصوصة منسوبون لحرفة كالنَّحويين نقلوا الفعل مثلًا من الأمر والشَّأن للفظ الدَّالِّ على معنى في نفسه مقترنٍ بأحدِ الأزمنة الثَّلاثة لاشتمال اللَّفظ المذكور على الأمر والشَّأن. والعرفيَّة العامَّة وهي ما وضعها أهل العرفِ العامِّ، أي: ما كان النَّاقل لها من جميع الطَّوائف ككونه داخلًا في جملة أهل البلد بحيث لا يتوقَّف على أمر يضبط أهلها، كالدَّابَّةِ نقلها العرف العامِّ من كلِّ ما يدبُّ على الأرض وخصَّها بذات الحوافر..الفرس والحمار والبغل، وأهل (العراق) بالفرس، وأهل (مصر) بالحمار. ولا يشترط العلم بشخص النَّاقل في هذه الثَّلاثة الأخيرة. انظر: الفروق (١/٣١٣)، الأشباه والنَّظائر، لابن نجيم (ص:٩٣)، نهاية السُّول (١/٢٤٦)، الأصول من علم الأصول (ص:٢٠)، المعتمد في أصول الفقه (٢/٤٠٥)...الخ.



﴿٥٦﴾ [الأعراف:٥٥-٥٦]، بدعاء المسألة، ودعاء العبادة. "فهاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدُّعاء، دعاء العبادة، ودعاء المسألة؛ فإن الدُّعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان؛ فإنَّ دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الدَّاعي، وطلب كشف ما يضرُّه أو دفعه، وكلُّ من يملك الضُّر والنَّفع فإنَّه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بدَّ أن يكون مالكًا للنَّفع والضَّرر"(١).

"وذلك كثيرٌ في القرآن كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان:٥٥]، فنفى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن هؤلاء المعبودين من دونه النَّفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بيد أنَّ المعبود لا بدَّ أن يكون مالكًا للنَّفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعي خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أنَّ النَّوعين متلازمان، فكلُّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكلُّ دعاء مسألة متضمِّن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، يتناول نوعي الدُّعاء"(٢) -كما سبق-.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٠)، وكذلك في (بدائع الفوائد) (٣/٥١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١١)، بدائع الفوائد (٣/٥١٣).



ثانيًا: تنوع أساليب الدعاء:

وقد تناولتُ الدُّعاء من حيث معناه الاصطلاحي من محاور:

الأوَّل: ما صُرِّح فيه بمادَّة الدُّعاء.

الثَّاني: ما صُرِّح فيه بمادَّة النِّداء والمراد منها الدُّعاء من حيث معناه الدِّيني.

وأمَّا الثَّالث فهو ما كان دعاءً من المخاطَب باستخدام أداة الخطاب -ظاهرة أو مقدَّرة- لأجلِ تحقيقِ مرغوبٍ فيه، أو دفع مكروهٍ من أُمور الدُّنيا أو أمور الآخرة.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

المحور الأول: ما صُرِّح فيه بمادَّة الدُّعاء:

أمَّا صُرِّح فيه بمادة الدُّعاء[1] فقد ذكر أهل التَّفسير أنَّه يأتي في القرآن على أوجه:

أحدها: القول: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:٥][2]، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس:١٠]، ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء:١٥].

والثَّاني: العبادة: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام:٧١][3]، ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾

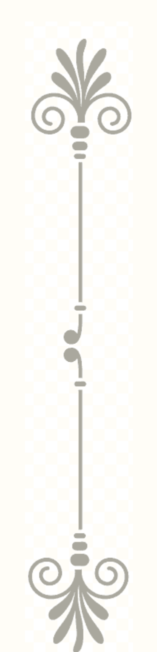
(١) انظر: مادَّة: (دعا) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمَّد فؤاد عبد الباقي من (ص:٣١٦) إلى (٣٢٠).

(٢) وفي (الكشاف): "ويجوز : فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا يستغاثُ من الله عَزَّوَجَلَّ بغيره ، من قولهم: (دعواهم يا لكعب) ". الكشاف (٦٧/٢)، تفسير ابن عادل (١٨/٩)، البحر المحيط (١٣/٥). وفي (مجاز القرآن): "لها موضعان، أحدهما: قولهم ودعواهم، والآخر ادِّعاؤهم". مجاز القرآن (٢١٠/١)، وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وللدَّعوى في كلام العرب وجهان: أحدهما: الدُّعاء، والآخر: الادِّعاء للحقِّ. ومن الدَّعوى التي معناها الدُّعاء قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾..". تفسير الطَّبري (٣٠٣/١٢).

(٣) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾، أي: أنعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.



[يونس:١٠٦](١)، ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿وَالذينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨](٢)، ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُـمْ﴾ [الفرقان:٧٧](٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [العنكبوت:٤٢](٤).



---

(١) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَدْعُ﴾، أي: ولا تعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ ما لا ينفعك إن أطعته، ولا يضرُّك إن عصيته.

(٢) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا يَدْعُونَ﴾، أي: لا يعبدون.

(٣) قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾، أي: عبادتكم له وحده عَزَّوَجَلَّ، وعلى هذا القول فالخطاب عامٌّ للكافرين والمؤمنين، ثمَّ أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.الخ. وقد أجمل ابن جزي في (تفسيره) خلاصة ما قيل من معنى الدُّعاء في الآية حيث قال: "وفي معنى (الدُّعاء) هنا ثلاثة أقوال: الأوَّل: أنَّ المعنى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يبالي بكم لولا عبادتكم له، فالدُّعاء بمعنى العبادة. وهذا قريب من معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات:٥٦]. الثَّاني: أنَّ الدُّعاء بمعنى الاستغاثة والسُّؤال، والمعنى لا يبالي الله عَزَّوَجَلَّ بكم، ولكن يرحمكم إذا استغثتم به ودعوتموه، ويكون على هذين القولين خطابًا لجميع النَّاس من المؤمنين والكافرين؛ لأنَّ فيهم من يعبد الله عَزَّوَجَلَّ ويدعوه، أو خطابًا للمؤمنين خاصّة؛ لأنهم هم الذين يدعون الله عَزَّوَجَلَّ ويعبدونه، ولكن يضعف هذا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. الثَّالث: أنَّه خطاب للكفَّار خاصّة، والمعنى على هذا: ما يعبأ بكم لولا أن يدعوكم إلى دينه، والدُّعاء على هذا بمعنى الأمر بالدُّخول في الدِّين، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، وأمَّا على القول الأوَّل والثَّاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل". تفسير ابن جزي (٨٢/٣).

(٤) وقيل أيضًا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾، أي: يعبد المشركون، ﴿مِنْ دُونِـهِ﴾، أي: غير الله عَزَّوَجَلَّ. وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِـنْ دُونِـهِ هُـوَ الْبَاطِـلُ﴾ [الحج:٦٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان:٣٠]، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الثَّابت، ﴿وَأَنَّ مَا يَـدْعُونَ﴾ -بالياء والتَّاء- يعبدون. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَـقْضِي بِـالْحَقِّ وَالذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالذينَ يَدْعُونَ﴾، أي: يعبدون. وما كان من هذا القبيل، فقد قيل فيه ذلك، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَـدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النّساء:١١٧]، ﴿وَلا تَسُبُّوا الذينَ يَدْعُونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٠٨]، ﴿وَمَـا يَتَّبِـعُ الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس:٦٦]، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ﴾ [هود:١٠١]، ﴿وَالذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِـشَيْءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ﴿وَلا يَمْلِكُ الذيـنَ يَـدْعُونَ مِـنْ دُونِـهِ الشَّـفَاعَةَ﴾ [الزُّخرف:٨٦].



والثَّالث: النِّداء: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٥٢][1]، ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ [الأنبياء:٤٥][2]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦][3]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

والرَّابع: الاستعانة: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٣][4]،

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس:٣٨][5]، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر:٢٦][6].

والخامس: السُّؤال: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ[7] بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف:١٣٤]، ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿وَقَالَ الذينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [غافر:٤٩]، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الزخرف:٤٩].

---

(١) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾، أي: يناديكم من قبوركم على لسان إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) يعني: الكفَّار الذين هم بمنزلة الصمِّ، ولا يسمعون النِّداء إذا أعرضوا. ونحوه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠]، ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم:٥٢].

(٣) أي: يوم ينادي المناد، يفسِّره قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١].

(٤) انظر: الإتقان (٤١٦/١).

(٥) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾، أي: استعينوا بمن شئتم. أو استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، والمعنى: إن كان الأمر -كما تقولون- أنها تستحقُّ العبادة فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلا فاعلموا أنَّكم مبطلون في دعواكم أنها إلهة. أو استعينوا بأعوانكم وأربابكم من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

(٦) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: وليسألْ ربَّه؛ فإنَّه لا يجاب. الثَّاني: وليستعنْ به؛ فإنَّه لا يعان. النُّكت والعيون (١٥١/٥)، وكذلك في (تفسير العز بن عبد السَّلام) (١٠٢٦/١).

(٧) أي: سله.

والسَّادس: الاستفهام والاستعلام: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي: استفهم[1]. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢]، أي: استفهموهم أأنتم آلهة؟!.

والسَّابع: العذاب: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾﴾ [المعارج:١٦– ١٧]، أي: تُعَذِّبُ[2]"[3].

الثَّامن: التَّسمية: ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور:٦٣][4].

التَّاسع: العَرْض: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:٤١]. قيل: أي: أَعرضها عليكم، ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر:٤١]. قيل: أي: تعرضونها عليَّ..[5].

المحور الثاني: ما صُرِّح فيه بمادة النِّداء والمراد منها الدُّعاء من حيث معناه الاصطلاحي:

فمن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء:٧٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:٨٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء:٨٩]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ

---

(١) يعني: هل هي كبيرة أو صغيرة أو متوسِّطة؟

(٢) انظر: تفسير البغوي (٥/١٥٣)، تفسير السَّمعاني (٦/٤٧)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (دعا) (١٤/٢٦٠).

(٣) بتصرُّف عن (نزهة الأعين النَّواظر) (ص:٢٩٣ –٢٩٥)، وبصائر ذوي التَّمييز (٢/٦٠٠).

(٤) "ويستعمل أيضًا استعمال التَّسمية نحو: دعوت ابني زيدًا، أي: سمَّيته. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النُّور:٦٣]، حثًّا على تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك مخاطبة لمن يقول: (يا محمَّد)". المفردات، للرَّاغب، مادَّة: (دعا) (ص:٣١٥)، بصائر ذوي التَّمييز (٢/٦٠٠)، وانظر: الإتقان (١/٤١٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١/ ٩٤).

(٥) انظر: بصائر ذوى التَّمييز (٢/ ٣٨٩).



نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨]. فمن الواضح أنَّ (نادى) هنا بمعنى: (دعا)، وهي من دعاء المخلوق للخالق عَزَّوَجَلَّ.

المحور الثالث: استخدام أداة الخطاب ظاهرة أو مقدَّرة:

وأداة الخطاب المستخدمة في الدُّعاء هي أداة النِّداء (يا) ظاهرة أو مقدَّرة..

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

أ. ما كانت فيه أداة النِّداء ظاهرة:

وأتناول هنا صيغة: (يا ربِّ)، وقد ورد في (موضعين):

﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨].

ب. ما كانت فيه أداة النِّداء مقدَّرة:

وأتناول هنا تصدير الدعاء بالصيغ التالية: (ربِّ)، (ربَّنا)، (اللهمَّ)..

التصدير الأول: (رب):

إنَّ تصدير الدُّعاء بـ (رب) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى؛ ولذا كثر تصدير الدُّعاء به.

وإنَّ الدُّعاء بتكرير النِّداء ينبئ عن كمال الضَّراعة والابتهال، واستدعاء الإجابة، وفي ذلك إشارة إلى كمال التَّوجُّه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم الغفلة عنه، مع إظهار كمال الضَّراعة والابتهال إلى معود الإحسان والإفضال.

وأمَّا الآيات فهي على النَّحو التَّالي: [البقرة:١٢٦]، [البقرة:٢٦٠]، [آل عمران:٣٥]، [آل عمران:٣٨]، [آل عمران:٤١]، [آل عمران:٤٧]، [المائدة:٢٥]، [الأعراف:١٥١]، [هود:٤٧]، [يوسف:٣٣]، [يوسف:١٠١]، [إبراهيم:٣٥]، [إبراهيم:٤٠]،

[الحجر:٣٦]، [الإسراء:٢٤]، [الإسراء:٨٠]، [مريم:٦]، [مريم:١٠]، [طه:٢٥]، [طه:١١٤]، [الأنبياء:٨٩]، [الأنبياء:١١٢]، [المؤمنون:٢٦]، [المؤمنون:٢٩]، [المؤمنون:٣٩]، [المؤمنون:٩٤]، [المؤمنون:٩٧]، [المؤمنون:٩٨]، [المؤمنون:٩٩]، [المؤمنون:١١٨]، [الشعراء:٨٣]، [الشعراء:١١٧-١١٨]، [الشعراء: ١٦٩]، [النمل:١٩]، [القصص:١٦]، [القصص:٢١]، [القصص:٢٤]، [العنكبوت:٣٠]، [الصافات:١٠٠]، [ص:٣٥]، [ص:٧٩]، [الأحقاف:١٥]، [المنافقون:١٠]، [التحريم:١١]، [نوح:٢٦]، [نوح:٢٨].

التصدير الثاني: (ربَّنا):

إنَّ تصدير الدُّعاء بـ (ربنا) من الاستعطاف ما لا يخفى -كسابقه-؛ ولذا كثر تصدير الدُّعاء به، والنِّداء المكرر للمبالغة في الجؤار واستدعاء الإجابة[1].

وأمَّا الآيات فهي على النَّحو التَّالي: [البقرة:١٢٧]، [البقرة:١٢٨]، [البقرة:١٢٩]، [البقرة:٢٠٠]، [البقرة:٢٠١]، [البقرة:٢٥٠]، [البقرة:٢٨٥]، [البقرة:٢٨٦]، [آل عمران:٨] [آل عمران:١٦]، [آل عمران:٥٣]، [آل عمران:١٤٧]، [آل عمران:١٩١]، [آل عمران:١٩٢] [آل عمران:١٩٣]، [آل عمران:١٩٤]، [النساء:٧٥]، [النساء:٧٧]، [المائدة:٨٣]، [المائدة:١١٤]، [الأعراف:٢٣]، [الأعراف:٣٨]، [الأعراف:٤٧]، [الأعراف: ٨٩]، [الأعراف:١٢٦]، [يونس:٨٥]، [يونس:٨٨]، [إبراهيم:٣٧]، [إبراهيم:٤٠]، [إبراهيم:٤١]، [إبراهيم:٤٤]، [الكهف:١٠]، [طه:١٣٤]، [المؤمنون:١٠٦]، [المؤمنون:١٠٧]، [المؤمنون:١٠٩]، [الفرقان:٦٥]، [الفرقان:٧٤]، [القصص:٤٧]، [السجدة:١٢]، [الأحزاب:٦٧]، [الأحزاب:٦٨]، [سبأ:١٩]، [فاطر:٣٧]، [ص:١٦]، [ص:٦١]، [غافر:٧]، [غافر:٨]، [غافر:١١]، [فصلت:٢٩]، [الدخان: ١٢]، [الحشر:١٠]، [الممتحنة:٥]، [التحريم:٨].

وقد تقدم أن كثرة مجيء النداء باسم الرب؛ لأن الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو القائم بأمور العباد وإصلاحها؛ فكان العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق والإحسان.

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٤/ ٤٧).



وقد يقدم العبد في مناجاته للرب عَزَّوَجَلَّ الوسيلة بين يدي الطلب[1] كما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران:١٦]، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ [آل عمران:٥٣]، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:١٩١]..إلى غير ذلك.

التصدير الثالث: (اللهمَّ):

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦].

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ [المائدة:١١٤].

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ [الأنفال:٣٢][2].

ومن الملاحظ أنَّ عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قد جمع في دعاءه بين وصف الله عَزَّوَجَلَّ بالألوهيَّة، ووصفه بالرُّبوبيَّة، حيث ناداه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مرَّتين، مرّةً بوصف الألوهيَّة الجامعةِ لجميع الكمالات، ومرّةً بوصف الرُّبوبية المُنْبئةِ عن التَّربية، وإظهارا لغاية التَّضرُّع، ومبالغةً في الاستدعاء[3].

ثالثًا: الأهداف والمقاصد:

١ - الدُّعاءُ وسيلةٌ من وسائل الاتِّصال بين المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- والمخاطَب -بفتح الطاء المهملة-.

٢ - إنَّ التَّعرُّف على صيغ الدُّعاء في الخطاب القرآني هو من التَّعرف على أسمى صيغه، وأكثرها بلاغة، وأجمعها للمعاني.

٣ - إنَّ صيغ الدُّعاء من جملة صيغ الإنشاء الطَّلبيِّ.

---

(١) انظر: الموافقات، للشاطبي (٢٠٣/٤).

(٢) أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [يونس:١٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر:٤٦] فهي تدلُّ على الدُّعاء من حيث مفهومه العامِّ كما تقدم.

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (١٣٧/٢).

٤ - إنَّ الدُّعاء بمعناه الشَّرعي هو أخصُّ من الدُّعاء من حيث معناه اللُّغوي العام.

٥ - إنَّ إخلاص الدُّعاء لله عَزَّوَجَلَّ فيه الخير العظيم للمخاطَب -بفتح الطاء المهملة-، حيث يشعر بلذَّة القرب والمناجاة، وهي وسيلة من وسائل الظَّفر بالمرغوب، ودفع المكروه..

٦ - قال الإمام الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: فإن قيل: فما فائدة الدُّعَاء مع أنَّ القضاء لا مَرَدَّ لهُ؟ فاعْلَمْ أنَّ من جُمْلَة القضاء: رَدُّ الْبَلاء بالدُّعَاء، فإنَّ الدُّعَاء سَبَب رَدِّ الْبَلاء وَوُجُود الرَّحْمَة، كما أَنَّ الْبَذْر سبب لِخُرُوجِ النَّبَات من الأَرْض، وكما أنَّ التُّرسَ يَدْفَع السَّهْم كذلك الدُّعَاء يَرُدُّ البلاء..[1].

ولا تتوقَّف فائدة الدُّعاء على ما ذكره الغزاليُّ رَحِمَهُٱللَّهُ بل يضاف إليه ما ذكرته هنا من المقاصد، وكونه عبادة وطاعة، وقد أمر به العبدُ.

٧ - لا بدَّ أن يكون الدُّعاء مقرونًا بالتَّضرع والإخفاء، بعيدًا عن الرِّياء كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الأعراف:٥٥-٥٦].

وذلكَ أنَّ من فائدة الدُّعاء:

١ - الخوف من العقاب..وهو محفِّز إلى فعل المأمور، واجتناب المحظور.

٢ - الطَّمع في الثَّواب، وهو كذلك محفِّزٌ...

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: ادعوه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ خائفين من عقابه، طامعين في ثوابه. ثمَّ إنَّه بيَّن فائدة الدُّعاء، وعلَّل سبب طلبه، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ الله قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنَّ رحمته قريبةٌ من كلِّ محسِنٍ، وهي أكيدةٌ محقَّقة.

---

(١) انظر ما قاله الغزاليُّ رَحِمَهُٱللَّهُ مفصَّلًا في (إحياء علوم الدِّين) (١/٣٢٨- ٣٢٩)، وانظر: تفسير الثَّعالبي (١/١٤٣)، (٢/٢١٢)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/٣٤٠).



والجزاء من جنس العلم، فمن أحسن في عبادته نال حُسن الثَّواب، ومن أحسن في الدُّعاء نال خيرًا مما طَلَب.

"إن قلت: قال في أوَّل الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وقال هنا: ﴿وَادْعُوهُ﴾، وهذا هو عطف الشَّيء على نفسه، فما فائدة ذلك؟ قلتُ: الفائدة فيه أنَّ المراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: ليكن الدُّعاء مقرونًا بالتَّضرع والإخبات، وقوله: ﴿وادْعُوهُ خَوْفًا وطَمعًا﴾ أنَّ فائدة الدُّعاء أحدُ هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحَّة الدُّعاء، والآية الثَّانية في بيان فائدة الدُّعاء. وقيل: معناه: كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرَّجاء في أعمالكم كلِّها، ولا تطمعوا أنكم وفيتم حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدُّعاء، وإن اجتهدتم فيهما.

الثَّانية: في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ الآية، ترجيحٌ للطَّمع على الخوف؛ لأنَّ المؤمن بين الرَّجاء والخوف، ولكنَّه إذا رأى سعة رحمته وسبقها، غلب الرَّجاء عليه"[1].

وليست حالة في الطَّاعات أشرف من حال الدُّعاء؛ لأنَّ الإنسان ربما يُشغل قلبه في جميع العبادات، في الصَّلاة والصَّوم وغيرها، فأمَّا في حالة الدُّعاء فيلزم جوارحه ويضطر إليه، فأيُّ حالة أحسن من هذا؟[2].



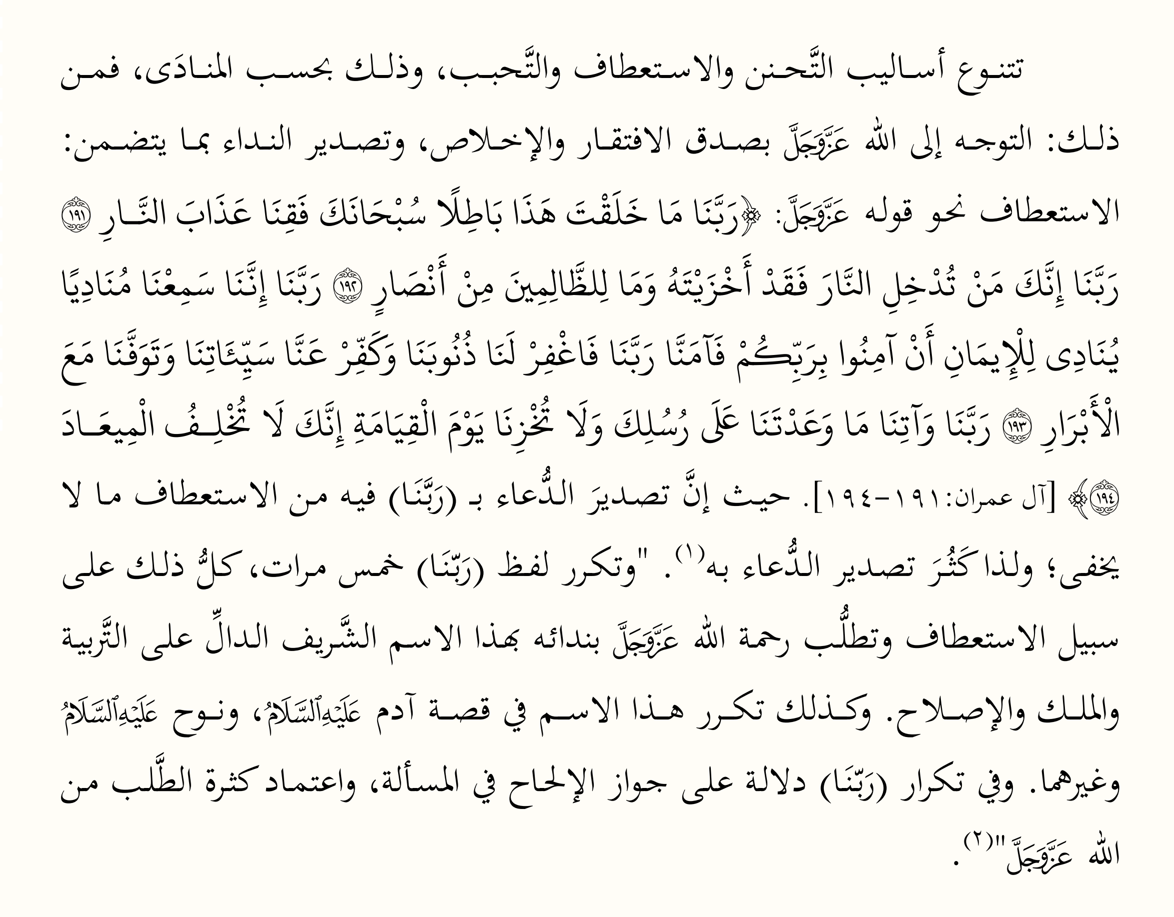
(١) تفسير الرَّازي (١٤/٢٨٤)، الخازن (٢/٢١١)، النَّيسابوري (٣/٢٥٨)، البيضاوي (٣/١٦).

(٢) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، للكلاباذي (ص:٢٢٦).





المطلب الثامن عشر
نداء التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب



تتنوع أساليب التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب، وذلك بحسب المنادَى، فمن ذلك: التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق الافتقار والإخلاص، وتصدير النداء بما يتضمن: الاستعطاف نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤]. حيث إنَّ تصديرَ الدُّعاء بـ (رَبَّنَا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى؛ ولذا كَثُرَ تصدير الدُّعاء به[(١)]. "وتكرر لفظ (رَبّنَا) خمس مرات، كلُّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بندائه بهذا الاسم الشَّريف الدالِّ على التَّربية والملك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيرهما. وفي تكرار (رَبّنَا) دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ"[(٢)].

---

(١) انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

(٢) البحر المحيط (٤٧٦/٣)، وانظر: روح المعاني (٤٧/٢٤). ونحوه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٧-٨]. إلى قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١]. انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

قال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خَصّ الأمَّ بالإضافة استعظاماً لحقها وترقيقاً لقلبه لا لما قيلَ من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهورَ على أنهما كانا شقيقين"(١).

وفي (الكشاف): "قيل: كان أخاه لأبيه وأمه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم؛ إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب؛ ولأنها كانت مؤمنة فاعتدَّ بنسبها؛ ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها"(٢).

وكذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]؛ فإن ذكر وصف الأُخوة فيه زيادة في الاستعطاف؛ عسى الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكرم رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمغفرة لأخيه، كقول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥](٣).

وكذلك النِّداء بنحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]. قال البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان المقصودُ من ذكر القَصص -ولاسيَّما قصصُ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ- الاعتبار بها، فكان بيان ما وقع بين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين الشَّيطان من شديد العداوة

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/٣٨).

(٢) الكشاف (٢/١٦١)، وانظر: تفسير النسفي (١/٦٠٧)، تفسير ابن جزي (١/٦٠٧)، تفسير النيسابوري (٣/٣٢٢).

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/١١٨)، المنار (٩/١٨٠).



مقتضيًا للتَّحذير من الشَّيطان، وكان المقام خطرًا، والتَّخلص عسرًا، أشار إلى ذلك بالتَّأكيد، وبيان ما سلط الشَّيطان به من المكايد الخفيَّة، والأسباب الدَّقيقة، ليعلم النَّاجي أنَّه إنَّما نجا بمحض التَّوفيق، ومجرَّد اللُّطف، فيُقبل على الشُّكر متبرِّئًا من الحول والقوَّة، فقال مناديًا لهم بما يُفْهم الاستعطاف والتَّراؤف والتَّحنن والتَّرفق والاستضعاف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، أي: الَّذي خلقته بيدي وأسكنته جنَّتي..."[1].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢]. ومعلوم أنَّ نداء الوالد ولده من باب التَّحنن والرَّأفة[2]. يقطر منه الاستعطاف[3].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]. فهذا النِّداء منه عَلَيْهِ السَّلَامُ يقطر منه الاستعطاف، وجميل التَّوسل إلى من عهده منعمًا مفضلًا في شأنه أوَّلًا وآخرًا، وهو على طريقة دعاء أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣][4]. وقد سبق أنَّ ذكرَ وصف الأخوَّة هناك فيه زيادة في الاستعطاف عسى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكرم رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمغفرة، فكذلك ذكر البنوَّة هنا في قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾.

ومن ذلك نداء لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣]، وقد تكرر ذلك النداء بعد ذلك: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَا بُنَيَّ أَقِمِ

---

(١) نظم الدُّرر (٧/٣٨٠).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢/٥٩).

(٣) انظر: المصدر نفسه (١٢/٧٠).

(٤) انظر: روح المعاني (١٢/٦٨)، وانظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/١١٨)، المنار (٩/١٨٠). ونحوه قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٦-١٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٢-٩٣]. خاطبهم خطاب الاستعطاف والتَّلطف[(١)].

ومن ذلك نداء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤١-٤٥][(٢)].

ومن ذلك تلطُّفِ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقومه، ورفقه بهم في الخطاب حيث قال مناديًا لهم على جهة التَّحنن عليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦]، أي: بوقوع ما يسوؤكم قبل الحالة الحسنة، وهي رحمة الله عَزَّوَجَلَّ[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر: ٧-٨]. وقد سبق أنَّ تصدير الدُّعاء بـ (ربنا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى.

وقد يستخدم الاستعطاف كمنهج من مناهج الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

(١) انظر: البحر المحيط (٥/٢٥٦).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٥٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٧/٩٧)، السِّراج المنير (٣/١٠٩)، نظم الدُّرر (٥/٤٣١).





مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف:٦]. فإن فيه من الاستعطاف ما فيه. قيل: إنَّ الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التَّعظيم، وقد كانوا يفتخرونَ بنسبتهم إلى إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].



(١) انظر: روح المعاني (٢٨/٨٥-٨٦).


أساليب النداء في القرآن الكريم



المطلب التاسع عشر
بيان ما ولي المنادَى

توطئة:

يعقب النِّداء غالبًا الأمرُ والنَّهي والاستفهام، وكأنَّه يُعِدُّ النَّفس ويهيِّئها لتلقِّي تلك الأساليب، وما تتضمَّنه من المعاني؛ لأنَّ النَّداء يوقظُ النَّفس، ويلفت الذِّهن، وينبِّه المشاعرَ، فإذا جاء بعده الأمرُ أو النَّهيُ أو الاستفهامُ صادف نفسًا مهيَّأةً يقظةً مستعدّةً للقبول والامتثال، كما أنَّه دليلٌ على اهتمام المتكلِّم وعنايته بهذا الطَّلب وحرصه الأكيد على تنفيذه وأدائه.

أمَّا (ما ولي المنادَى) فقد حكى الأنباريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإنصاف) عن (الكوفيين) قولهم: النِّداء لا ينفكُّ عن الأمر والنَّهي أو ما جرى مجراه من الطَّلب والنَّهي، ولذلك لا يكاد يوجد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ نداءٌ ينفكُّ عن أمرٍ أو نهي، ولهذا جاء بعده الخبر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [الحج:٧٣] شفعه الأمر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[١].

وقد ردَّ الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على (الكوفيين) حيث قال: "وأمَّا قولهم: إنَّ النِّداء لا يكاد ينفكُّ عن الأمر أو ما جرى مجراه؛ ولذلك لا يكاد يوجد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ نداءٌ

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف (١٠٣/١).

ينفكُّ عن أمرٍ أو نهى، قلنا: لا نسلِّم، بل يكثرُ مجيءُ الخبرِ والاستفهامِ مع النِّداء كثرةَ الأمرِ والنَّهي[1].

أمَّا (الخبر) فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨][2]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم:٤٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤]. وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥] إلى غير ذلك من المواضع.

وأمَّا (الاستفهام) فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ [مريم:٤٢]. وقال عَزَّوَجَلَّ في موضع آخر: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر:٤١]، إلى غير ذلك من المواضع. فإذا كثُرَ مجيءُ (الخبر) و(الاستفهام) كثرةَ (الأمر) و(النَّهي) فقد تكافآ في الكثرة فلا مزيَّة لأحدهما عن الآخر"[3].

ويأتي هذا المطلب استكمالًا لجوانب هذا الفصل المتعلِّق بالنِّداء في الخطاب القرآني. أمَّا بيان المواضع (لما ولي المنادَى) فيأتي على النَّحو التَّالي:

(١) وقد أحصيت (ما ولي المنادى) في القرآن الكريم، فيمكن النَّظر فيما وليه من الأمر أو النَّهي أو غيرهما عقب هذه المقدِّمة..

(٢) أقول: ولكن قد يرد على هذا الموضع ما جاء عقب بيان حالهم من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزُّخرف:٧٠].

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف (١/١٢٠- ١٢١).



أولًا: فعل الأمر:

البقرة: ٢١ ﴿.. اعْبُدُوا﴾ بعد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ٣٥ ﴿اسْكُنْ﴾ بعد: ﴿يا آدَمُ﴾، ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا﴾ ٤٠ — ٤٧ — ١٢٢ - ٢٧٨ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا﴾. آل عمران: ٤٣ ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي﴾، ٦٤ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾، ١٠٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾. النِّساء: ٧١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾. المائدة: ٢٠ ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا﴾، ٢١ ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا﴾، ٣٥ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ١١٠ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ﴾، الأنعام: ١٣٥ ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾، الأعراف: ٣١ ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾، ٥٩ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ - ٦٥- ٦٧ - ٧٣ - ٧٧ — ٨٥. الأعراف: ١٣٨ ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا﴾. التَّوبة: ٧٣ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ﴾، ١١٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، هود: ٤٢ ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ﴾، ٥٠ — ٦١ - ٨٤ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾، ٥٢ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا﴾، ٩٣ ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾، المؤمنون: ٢٣ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾، القصص: ٢٦ ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، ٣١ ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾، العنكبوت: ٣٦ ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾، الأحزاب: ٧٠ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، سبأ: ١٠ ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾، يس: ٢٠ ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا﴾، الصَّافات: ١٠٢ ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ﴾، الزُّمر: ١٠ ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، ١٦ ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾، ٣٩ ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾، غافر: ٣٨ ﴿وَقَالَ الذى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾، الأحقاف: ٣١ ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا﴾، محمَّد: ٣٣، الحجرات: ١٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا﴾، الحديد: ٢٨ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، الحشر: ١٨ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، الصَّف: ١٤ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾، التَّحريم: ٦ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾، ٨ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا تُوبُوا﴾، ٩ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ﴾، المزَّمل: ٢ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، المدَّثر: ٢ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾، الفجر: ٢٨ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾.



ثانيًا: مضارع مجزوم بلام الأمر:

[الزُّخرف:٧٧] ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ثالثًا: مضارع مجزوم بلا النَّاهية:

البقرة: ١٠٤ ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، وهي من الآيات التي جمع ما ولي المنادَى فيها بين النَّهي والأمر، ٢٦٤ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾. آل عمران: ١١٨ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، ١٣٠ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا﴾، ١٥٦ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالذينَ كَفَرُوا﴾. النِّساء: ٢٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، ٤٣ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾، ١٤٤ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، ١٧١﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا﴾. المائدة: ٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، ٤١ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الذينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، ٥١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾، ٥٧ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، ٧٧ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا﴾، ٨٧ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾، ويلاحظ أن في هذه الآية نهيين، ٩٥ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، ١٠١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. الأعراف: ٢٧ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾. الأنفال: ٢٧ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. التَّوبة: ٢٣ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾. يوسف: ٥ ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ﴾، ٦٧ ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا﴾، مريم: ٤٤ ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ﴾. طه: ٩٤ ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا



بِرَأْسِي﴾. النُّور: ٢١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، ٢٧ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾. النَّمل: ١٠ ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ﴾. لقمان: ١٣ ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾. الأحزاب: ٥٣ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾، ٦٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالذينَ آذَوْا مُوسَى﴾. يس: ٦٠ ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾. الزُّمر: ٥٣ ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. الحجرات: ١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، ١١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾. الممتحنة: ١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، ١٣ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. المنافقون: ٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. التَّحريم: ٧ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رابعًا: (لا) النَّافية:

النِّساء: ١٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

هود: ٥١ ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

الأحزاب: ١٣ ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾.

الزُّخرف: ٦٨ ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

الكافرون: ٢ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾.

(لا) النَّافية التي تعمل عمل (ليس) الأحزاب: ١٣.



خامسًا: (ما) النَّافية:

هود: ٥٣ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾. هود: ٩١ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾.

سادسًا: اسم الفعل:

المائدة: ١٠٥ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.
الأنفال: ٦٤ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾.

سابعًا: الاستفهام بـ (هل):

المائدة: ٥٩ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ١١٢ ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾.
طه: ١٢٠ ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾.
الصَّف: ١٠ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثامنًا: الاستفهام بالهمزة:

المائدة: ١١٦ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾.



هود: ٢٨ ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ ٨٧ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ٩٢ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾.

يوسف: ٣٩ ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

القصص: ١٩ ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

تاسعًا: الاستفهام بـ: (ألم):

الأنعام: ١٣٠ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾.

طه: ٨٦ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾.

عاشرًا: الاستفهام بـ: (أليس):

الزُّخرف: ٥١ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾.

الحادي عشر: الاستفهام بـ: (ما):

التَّوبة: ٣٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

يوسف: ١١ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾.

الحجر: ٣٢ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

ص: ٧٥ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾.

غافر: ٤١ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

الثاني عشر: (مَن) الاستفهامية:

هود: ٣٠ ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.

الثالث عشر: (أنَّى) الاستفهاميَّة:

آل عمران: ٣٧ ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

الرابع عشر: الاستفهام بـ: (لِمَ):

آل عمران: ٦٥ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ٧٠ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ٧١ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ ٩٨ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ٩٩ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

مريم: ٤٢ ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾.

النَّمل: ٤٦ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾.

الصَّف: ٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ ٦ ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

التَّحريم: ١ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾.

الخامس عشر: الفعل الماضى المثبت:

١ – فعل ماض مثبت غير مقرون بقد:

يوسف: ٦٣ ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾.

الحج: ٧٣ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾.

٢ – ماض مقترن بقد:

النِّساء: ١٧٠ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ١٧٤ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

المائدة: ١٥ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ١٩ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ﴾.

الأنعام: ١٢٨ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ﴾.

الأعراف: ٢٦ ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾.

يونس: ٥٧ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ ١٠٨ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

هود: ٣٢ ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ ٦٢ ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾.

طه: ٣٦ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ٨٠ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾.

٣ – ماض مقترن بـ (لقد):

الأعراف: ٧٩ ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ ٩٣ ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾.

مريم: ٢٧ ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

٤ – (ليس):

المائدة: ٦٨ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾.

الأحزاب: ٣٢ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

٥ – ماض بعد (إنما):

طه: ٩٠ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾.

٦ – ماض منفي بما:

هود: ٥٣ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

مريم: ٢٨ ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾.

السادس عشر: مضارع منفي بـ (لن):

١ – ما أتى عقب المنادَى من غير فاصل:

البقرة: ٥٥ ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. البقرة: ٦١ ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾.

٢ – ما أتى النَّفي فيه بعد فاصل مؤكِّدٍ للنَّفي:

المائدة: ٢٤ ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

السابع عشر: مضارعٌ منفيٌّ بـ (لا):

هود: ٢٩ ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا﴾.

هود: ٥١ ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

الثامن عشر: مضارع منفي بـ (ما):

هود: ٥٣ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

هود: ٩١ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾.

يوسف: ٦٥ ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾.



التاسع عشر: بعده (إمَّا) العاطفة:

الأعراف: ١١٥ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

الكهف: ٦٨ ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

طه: ٦٥ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

العشرون: بعده (أمَّا) التَّفصيليَّة:

يوسف: ٤١ ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾.

الحادي والعشرون: بعده (إمَّا) الشَّرطيَّة:

الأعراف: ٣٥ ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾.

الثاني والعشرون: بعده (إن) الشَّرطيَّة:

آل عمران: ١٤٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقا﴾.

يونس: ٧١ ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾. يونس: ٨٤ ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾.

لقمان: ١٦ ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾.

الحجرات: ٦ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.



الرَّحمن: ٣٣ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا..﴾.

الجمعة: ٦ ﴿يَا أَيُّهَا الذين هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾.

الثالث والعشرون: بعده (مَن) الشَّرطية:

الأحزاب: ٣٠ ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ﴾.

الرابع والعشرون: الجملة الاسميَّة مؤكَّدة بـ (إن):

البقرة: ٥٤ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ١٣٢ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾.

آل عمران: ٤٢ ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ ٤٥ ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ ٥٥ ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

المائدة: ٢٢ ﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا﴾ ٢٤ ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾.

الأنعام: ٧٨ ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الأعراف: ١٠٤ ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ ١٤٤ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾.

١٥٨ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾.

هود: ٤٦ ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ٨١ ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾.

يوسف: ٤ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ ١٧ ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ ٨١ ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾.

الكهف: ٩٤ ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾.

مريم: ٧ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ٤٥ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾.

طه: ١١- ١٢ ﴿يَا مُوسَى﴾، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ..﴾ ١١٧ ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.



النَّمل: ٩ ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾.

القصص: ٢٠ ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ ٣٠ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾.

العنكبوت: ٥٦ ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾.

الصَّافات: ١٠٢ ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾.

غافر: ٣٠ ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ ٣٢ ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

الزُّخرف: ٨٨ ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأحقاف: ٣٠ ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

الحجرات: ١٣ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

الصَّف: ٦ ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ﴾.

التَّغابن: ١٤ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾.

نوح: ٢ ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

الخامس والعشرون: الجملة الاسميَّة من غير مؤكِّد:

غافر: ٢٩ ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾.

هود: ٦٤ ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ٧٨ ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

الزُّخرف: ٦٨ ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

يوسف: ١٠٠ ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾.

السادس والعشرون: لا النَّافية للجنس:

الأحزاب ١٣ ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾.



السابع والعشرون: بعده (إذا):

البقرة: ٢٨٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾.

النِّساء: ٩٤ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

المائدة: ٦ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾.

الأنفال: ١٥ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الذينَ كَفَرُوا﴾ ٤٥ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾.

الأحزاب: ٤٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

المجادلة: ٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ ١١ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾ ١٢ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾.

الممتحنة: ١٠ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ ١٢ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾.

الجمعة: ٩ ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾.

الطَّلاق: ١ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾[١].



(١) وفي الختام أشير إلى ما كتبه الأستاذ الدُّكتور محمَّد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: (دراسات لأسلوب القرآن) (٣/٥٣٢-٥٣٤) فيما يتعلَّق بهذا المبحث. وقد رأيت بعض ما ذكره فيه الخطأ والنَّقص، فاستدركت عليه، وزدت، ولا أبرّئ نفسي من النَّقص والخطأ، فيقاس ما لم أذكره على ما ذكرته، وليصلح الخطأ ويتدارك..

المطلب العشرون
خروج صيغة النِّداء عن معناها الأصلي

وقد يستعمل النِّداء في عير معناه مجازًا في مواضع، فمن ذلك:

١ – تنزيلُ البعيدِ منزلةَ القريب:

إنَّ أصل النِّداء بـ (يا) أن تكون للبعيد المتوسِّط البعد حقيقة أو حكمًا –كما سبق بيان ذلك–، وقد ينادى بها القريب لنكت منها:

أ. إظهارُ الحرص في وقوعه على إقبال المدعوِّ:

نحو: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ [القصص:٣١].

ب. كون الخطاب المتلوِّ معتنىً به:

نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

ج. قصد تعظيم شأن المدعوِّ:

نحو: ﴿يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠].

د. قصد انحطاطه:

كقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢][1].

(١) بتصرُّف عن (الإتقان) (٢/٢٢٣).



٢ – خروج ألفاظ النِّداء عن معناها الأصليِّ إلى معانٍ أخرى تفهمُ من السِّياق بمعونة القرائن:

فمن ذلك:

أ. التَّحسر والتَّوجع:

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٣].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢]. إنَّ تقليب الكفَّين وعضُّ اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنَّها من روادفهما، فتذكر الرَّادفة، ويدلُّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السَّامع عنده في نفسه من الرَّوعة ما لا يجده عند لفظ المكنَّى عنه. وتقليب الكفَّين حركةٌ يفعلها المتحسِّر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثمَّ إلى قبالته تحسُّرًا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنَّة. فهو كنايةٌ عن التَّحسر[1].

ومن ذلك الآيات التالية:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:٢٣].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨][2].

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥][3].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠][4].

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣٢٧/١٥)..، وانظر: (٨/٢٣).

(٢) انظر في بيان ذلك: المصدر السابق (٢١٠/٢٢).

(٣) انظر في بيان ذلك: المصدر السابق (١٣٥/٢٩).

(٤) انظر: المصدر السابق (١٣٦/٢٩)، وانظر: روح المعاني (٢٢/٣٠)، البرهان في علوم القرآن (٣٢٥/٢)، الإتقان (٢٢٢/٢ –٢٢٣)، وانظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسُّيوطي (٣٢/٢).

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤].

وكذلك يقال في (نداء الحسرة) وقد سبق في غير موضع..

وذلك كما في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿قَدْ خَسِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]. فقولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: "نداءٌ مقصودٌ به التَّعجُّب والتَّندُّم، وهو في أصل الوضع نداءٌ للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع ويُنادي ليحضُر. كأنّه يقول: (يا حسرة احضري فهذا أوان حضورك). ومنه قولهم: (يا ليتني فعلت كذا)، و(يا أسفي أو يا أسفًا)، [وقد سبق بيان ذلك أيضا في ثنايا البحث]. وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم؛ ليكون تحسُّرهم لأجل أنفسهم، فهم المتحسِّرون والمتحسَّر عليهم، بخلاف قول القائل: (يا حسرة)، فإنَّه في الغالب تحسُّر لأجل غيره، فهو يتحسَّر لحال غيره؛ ولذلك تجيء معه (على) التي تدخل على الشَّيء المتحسَّر من أجله داخلة على ما يدلُّ على غير التَّحسُّر، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠]. فأمَّا مع (يا حسرتي) أو (يا حسرتا) فإنما تجيء (على) داخلة على الأمر الذي كان سببا في التَّحسُّر كما هنا: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. ومثل ذلك قولهم: (يا ويلي)، و(يا ويلتِي)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ [الكهف:٤٩]"[(١)].

ب. الاختصاص[(٢)]:

وهو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير؛ لبيانه، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]. والحاصل أنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ في نصبه وجهان:

أحدُهما: أنَّه مُنَادَى.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٩٠/٧).

(٢) بيان ذلك أنَّ النِّداء تخصيص المنادى بطلب الإقبال. فجرِّد عن طلب الإقبال، واستعمل في تخصيص مدلوله من بين أمثاله بما نسب إليه.



والثَّاني: أنَّه منصوبٌ على المدح[1]. وقيل: على الاختصاص[2].

قال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: وبينهما فرقٌ، ولذلك جعلها (سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في بابين[4]، وهو أنَّ المنصوب على المدح لفظٌ يتضمَّنُ بوضعه المدح، كما أنَّ المنصوب على الذَّمِّ يتضمَّن

بوضعه الذَّمَّ، والمنصوب على الاختصاص يقصدُ به المدح أو الذَّمُّ لكنَّ لفظه لا يتضمَّنُ بوضعه ذلك، كقوله:

(بِنَا تَمِيمًا يُكْشَفُ الضَّبَابُ)[5].

وفي (المحرَّر..) "كأنَّه ميَّزَ النَّصب على المدح بأن يكون المنتصب لفظًا يتضمَّن بنفسه مدحًا، كما تقول: (هذا زيد عاقلَ قومه)[6]. وجعل الاختصاص إذا لم تتضمَّن اللَّفظة ذلك كقوله ﷺ: ((**إنَّا معاشرَ الأنبياء**)). قال القاضي أبو محمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يكون الاختصاص إلا بمدحٍ أو ذمٍّ لكن ليس في نفس اللَّفظة المنصوبة"[7].

---

(١) فيقدَّر: أمدح أو أعني.

(٢) فيقدَّر: أخص.

(٣) البحر المحيط (٦/١٨٤).

(٤) انظر: الكتاب، لسيبويه (٢/٢٣١ – ٢٣٣)..

(٥) عزاه في الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الجُمَل) إلى رؤبة ابن العجّاج، وهو من بني تميم، انظر: الجُمَل في النَّحو، للخليل (١/٩٤)، وهو أيضا من شواهد سيبويه في (الكتاب) (٢/٢٣٤)، خزانة الأدب (٢/٣٦٦)، وانظر: ديوان رؤبة (ص:١٦٩)، همع الهوامع (٢/٣١)، الرَّضي على الكافية (١/٤٣٢)، توضيح المقاصد (٣/١١٥٠)، ابن يعيش (٢/١٨)، الأشموني (٣/١٨٣)، ابن عادل (٢/٢٤٨)، (١٠/٥٢٨)، (١٠/٥٢٩)، البحر المحيط (١/٤٥٩)، (٥/٢٤٥)، روح المعاني (١٢/١٠١). والشَّاهد أنَّه نصب (تَمِيمًا) على الاختصاص. فقوله: (تميمًا): اسم منصوب على الاختصاص، أي: أخصُّ تميمًا، وقد أُتِيَ به بعد ضمير المتكلمين: (نا)، فأزال غموضه، وبيَّن المراد منه.

(٦) أي: وفي الاختصاص لا يقتضي اللَّفظ ذلك، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فيمن نصب ﴿أَهْلَ﴾.

(٧) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المحرَّر الوجيز) (٣/١٩١).



ج. **التَّعجب:**

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْـلِي شَـيْخًا إِنَّ هَـذَا لَـشَيْءٌ عَجِيـبٌ﴾ [هود:٧٢]. وقد سبق بيان ذلك.

وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠][(١)].

د. **التَّمني:**

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص:٧٩].

هـ. **التَّنبيه:**

ومثَّلَ له الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـذَا﴾ [مريم:٢٣]؛ لأنَّ حرف النِّداء يختصُّ بالأسماء[(٢)].

ومثَّلَ له الطَّاهرُ بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه [(٣)] بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَـسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠].

فإنَّ "حرف النِّداء هنا لمجرَّد التَّنبيه على خطر ما بعده ليصغي إليه السَّامع، وكثر دخوله في الجمل المقصود منها إنشاءُ معنىً في نفسِ المتكلِّم دون الإخبار، فيكون اقتران

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣٥٣)، الإتقان (٢/١٠٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٥)، وقد ذكر ذلك أبو السُّعود في (تفسيره) (٦/٢١٤)، وذكر هذا المعنى أيضًا ابن عجيبة في تفسيره (البحر المديد)، حيث قال: "الياء [هنا] لمجرد التَّنبيه، من غير تعيين المنبَّه، أو المنبَّه محذوف، أي: يا هؤلاء". البحر المديد (٤/٩٣).

(٣) قال أبو البقاء العكبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التَّقدير: (يا حسرة احضري هذا أوانك)، وهو نداءٌ مجازيٌّ، ومعناه: تنبيه أنفسهم لتذكير أسباب الحسرة؛ لأنَّ الحسرة نفسها لا تطلب ولا يتأتَّى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتَّى كأنَّهم ذهلوا فنادوها، ومثل ذلك: (نداء الويل) ونحوه، ولا يخفى حسنه. التِّبيان في إعراب القرآن (١/٤٩٠)، روح المعاني (٤/١٢٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٤/٤٧)، وقد سبق بسط هذه المسألة.



ذلك الإنشاء بحرف التَّنبيه إعلانًا بما في نفس المتكلِّم من مدلول الإنشاء كقولهم: (يا خيبة)، و(يا لعنة)، و(يا ويلي)، و(يا فرحي)، و(يا ليتني)، ونحو ذلك"[1].

وقال في موضع آخر: "أصلُ هذا النِّداء أنَّه على تنزيلِ المعنى المثيرِ للإنشاء منزلةَ العاقل فيقصد اسمه بالنِّداء لطلب حضوره. فكأنَّ المتكلِّم يقول: (هذا مقامك فأحضر)[2]، كما ينادي من يقصد في أمر عظيم، وينتقل من ذلك[3] إلى الكناية عمَّا لحق المتكلِّم من حاجة إلى ذلك المنادَى، ثمَّ كَثُرَ ذلك وشاع حتَّى تنوسي ما فيه من الاستعمال والكناية، وصار لمجرد التَّنبيه على ما يجيء بعده، والاهتمام حاصل في الحالين[4]"[5].

ورجَّح أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البحر) كونها للتَّنبيه، قال: "والأصحُّ أنَّ (يا) في قوله: ﴿يَا لَيْتَ﴾ حرفُ تنبيهٍ لا حرف نداء والمنادى محذوف؛ لأنَّ في هذا حذف جملة النِّداء وحذف متعلَّقة رأسًا[6]، وذلك إجحاف كثير"[7].

أقول: ومن العلماء من جوَّز أحد الأمرين، قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧]: "(يا) للتَّنبيه أو للنِّداء، والمنادى محذوف، أي: (يا قومنا) مثلا"[8].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٣/٢٨). فهذه الأقوال إنشاءات؛ لأنَّه لا نسبةَ لمدلولها في الخارج.

(٢) أي: إنَّ وجود المكان اللائق بالمنادَى هو الذي أثار الإنشاء في نفس المتكلِّم..وما يثير الإنشاء في نفس المتكلِّم أمورٌ كثيرة، ومن أوضحها مثلا إذا دهم المنادَى خطرٌ فيقال له تنبَّه أو احذر...

(٣) أي: من حقيقة النِّداء.

(٤) أي: في كلٍّ من الكناية والتَّنبيه..

(٥) التَّحرير والتَّنوير (٨/٢٣).

(٦) حيثُ حذف المنادَى، وتقديره مثلا: (يا قومنا ليت..)، وكذلك حذف ما يريد منهم..

(٧) البحر المحيط (٤/٤٧٦). ورجحَّ الشَّيخ الغلاييني هذا الرَّأي، وهو كونها (حرف تنبيه)، وذكر أنَّه المعتمد عند المحقِّقين. الدُّروس العربيَّة (٢/١١٩). وينظر في ذلك: روح المعاني (١٩/١٩١). وانظر: تفسير أبي السُّعود (٦/٢٨١)، تفسير القرطبي (١٣/١٨٦).

(٨) روح المعاني (٧/١٢٨)، وانظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/٦١٨).

ولعلَّ ما يترجَّح هو أنَّ الأمرَ فيه شيءٌ من التَّفصيل، وهو أنَّ تقدير المنادى محذوفًا في كلِّ ما وقع فيه حرف النِّداء قبل فعل الأمر أو جملة الدُّعاء بسبب وقوع النِّداء قبلهما في فصيح الكلام، وذلك نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف:٩٧][١]، ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ﴾ [القصص:٣١][٢].

فإذا وجدنا (حرف نداء) قد وليه (فعلُ أمر) أو (جملة دعائيَّة) علمنا أنَّ المنادى بحرف النِّداء محذوفٌ لكثرة ما رأينا مثله مذكورًا في الكلام، فأمَّا إذا وجدنا حرف النِّداء قد وقع بعده: (ليت) أو (رُبَّ) فالرَّاجح أن نجعل هذا الحرف دالا على التَّنبيه؛ لأنَّه لم يكثر وقوع المنادى مذكورا قبله.

ومنهم من مثَّل للتَّنبيه[٣] بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَا اسْجُدُوا﴾ [النمل:٢٥]. فـ (يا) في هذه المواضع (حرف تنبيه)، لا (حرف نداء). هذا مذهب قوم من النَّحويين. قال بعضهم: وهو الصَّحيح. وذهب آخرون إلى أنَّها في ذلك (حرف نداء)، والمنادى محذوف. والتَّقدير: (ألا يا هؤلاء اسجدوا)، و(ألا يا هذان اسقياني). وكذلك تقدَّر في سائرها. وضُعِّفَ بوجهين:

أحدُهما: أنَّ (يا) نابت مناب الفعل المحذوف، فلو حذف المنادى لزم حذف الجملة، بأسرها. وذلك إخلال.

والثَّاني: أنَّ المنادى معتمد المقصد، فإذا حذف تناقض المراد.

---

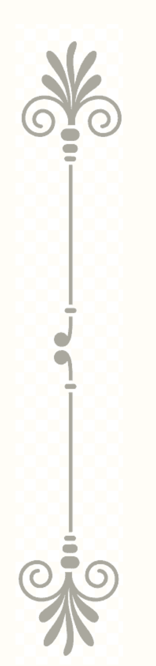
(١) وقد وقع هنا قبل جملة الدُّعاء من حيث معناه الشَّرعي.

(٢) وقد وقع هنا قبل جملة الدُّعاء من حيث معناه اللُّغوي.

(٣) وقد سبق بيان ذلك مفصَّلًا..



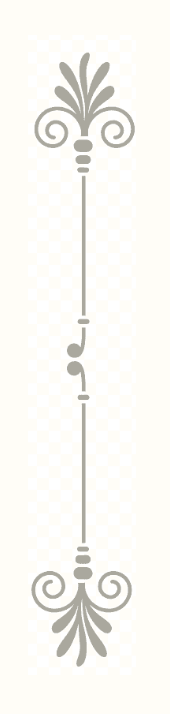
وذهب ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّسهيل)[1] إلى تفصيل في ذلك. وهو أن (يا) إن وليها أمر أو دعاء فهي حرف نداء، والمنادى محذوف. وإن وليها (ليت) أو (رب) أو (حبذا) فهي لمجرَّد التَّنبيه[2].



(١) التَّسهيل، لابن مالك (٣/٣٨٩ – ٣٩٠).

(٢) انظر: الجنى الدَّاني في حروف المعاني (ص:٣٥٧ – ٣٥٨)، وانظر: الكليَّات (ص:٩٧٩)، ومغني اللَّبيب (ص:٤٨٩)، التَّسهيل، لابن مالك (٣/٣٨٩ – ٣٩٠).





خاتمة
في بيان الأهداف والمقاصد العامة من النِّداء

سبقَ بيانُ أهميَّة النِّداءِ في الخطاب القرآني، والتَّعريف به، وسآتي هنا على بيان مقاصد النِّداء العامَّة في الخطاب القرآني..

وقد سبق بيان أنَّه يصحب الأمر والنَّهي، والاستفهام والخبر..

وفي ذلك ما فيه من الأهميَّة ولفت المخاطَب إلى ما يعقب النِّداء من الأمر أو النَّهي، أو التَّوجيه أو الإرشاد، أو التَّحذير والإغراء، أو التَّرغيب أو التَّرهيب، وكذلك الإجابة عمَّا يرد على ذهنه من التَّساؤلات. وذلك يدلُّ على أنَّ الاتِّصال مع المخاطِب عَزَّوَجَلَّ -بكسر الطاء المهملة- ليس مجرَّد ادِّعاءٍ يدَّعيه المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-، وإنَّما هو مجموعةٌ من الأوامر والنَّواهي والصِّفات التي تدلُّ على تحقُّقِ معنى الإيمان في المخاطَب، وإذعانه وامتثاله لما تضمَّنه الخطاب، والوفاء لنِعَم المخاطِب عَزَّوَجَلَّ عليه...الخ.

"وربَّما تقدَّمت (جملةُ الأمر) (جملةَ النِّداء) كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وإذا جاءت (جملةُ الخبر) بعد النِّداء تتبعها (جملة الأمر) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]. وقد تجيءُ معه الجملُ الاستفهاميَّةُ والخبريَّةُ كقوله عَزَّوَجَلَّ في الخبر: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف:٦٨].

وفي الاستفهام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ [مريم:٤٢]، ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ [غافر:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].



وهنا فائدتان:

إحداهما: كلُّ نداءٍ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يعقبه فهمٌ في الدِّين إمَّا من ناحية الأوامر والنَّواهي التي عقدت بها سعادة الدَّارين، وإمَّا مواعظ وزواجر وقصص لهذا المعنى، كلُّ ذلك راجعٌ إلى الدِّين الذي خلق الخلقُ لأجله، وقامتْ السَّموات والأرضُ به، فكان حق هذه أن تدرك بهذه الصِّيغة البليغة.

الثَّانية: النِّداء إنَّما يكون للبعيد حقيقةً أو حكمًا. وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] لطيفةٌ، فإنَّه عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّه كما ناداه ناجاه أيضًا، والنِّداء مخاطبة الأبعد، والمناجاةُ مخاطبةُ الأقرب، ولأجلِ هذه اللَّطيفة أخبرَ عَزَّوَجَلَّ عن مخاطبته لآدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥].

وفي موضع: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [الأعراف:١٩]. ثمَّ لما حكى عنهما ملابسة المخالفة قال في وصف خطابه لهما: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]، فأشعر هذا اللَّفظ بالبعد لأجل المخالفة كما أشعر اللَّفظ الأوَّل بالقرب عند السَّلامة منها"[1].

ومما سبق يتبيَّن:

١ – أنَّ النِّداءَ وسيلةٌ من وسائلِ الاتِّصال بين البشر.

٢ – فيه ما يدلُّ على اجتماعيَّة اللُّغة العربيَّة.

٣ – كثرةُ استخدامه في القرآن الكريم، وكثرةُ استخدامه بين البشر تدلُّ على أهميَّته.

٤ – إنَّ النِّداء هو من أنواع الخطاب القرآني المباشر، وإنَّ التَّعرف على أساليب الخطاب القرآني المباشر تعرُّفٌ على أرقى أنواع الخطاب مع الآخر، وفيه التَّنوع والتَّلوين والتَّعليم والتَّوجيه والإرشاد والتَّحذير والتَّرغيب والتَّرهيب للمكلَّف، وأيضًا فيه ما فيه من الإعجاز والتَّناسق، والتَّوافق التَّامُّ مع المقام ومقتضى الحال.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٣– ٣٢٥)، وانظر: الكشاف (١/٢٢٦).



٥ - تتنوع أساليب النداء بما يتلاءم مع مكانة كل من المنادى والمنادِي، كما يكون مدحًا أو ذمًّا أو تنبيهًا أو إضافة أو نسبة أو غير ذلك.



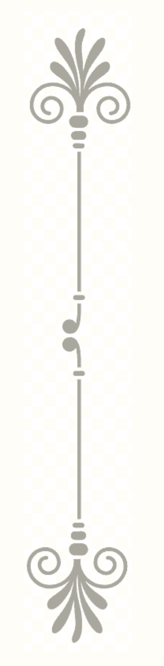


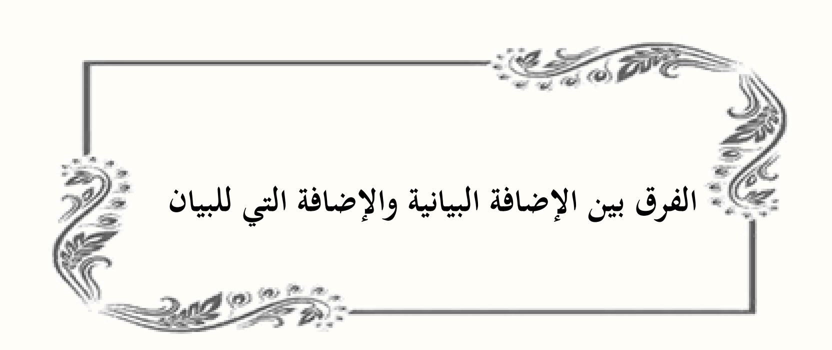


متفرقات
يحتاجها طالب العلم



وهذه فوائد متفرقة من بعض المحاضرات في كلية أصول الدين، القاهرة أرجو أن يُنتفع بها.





الفرق بين الإضافة البيانية والإضافة التي للبيان

أولًا: الإضافة البيانية: ما كان من قبيل إضافة العام إلى الخاص أو المطلق إلى المقيد، نحو: سورة البقرة، يوم الخميس، أو السورة البقرة، اليوم الخميس.

ضابطها: أن يكون المضاف إليه محمولا، والمضاف موضوعًا.

ثانيًا: الإضافة التي للبيان: أن تقع الإضافة بين مضاف ومضاف إليه بينهما عموم وخصوص من وجه[1]، كقولك: باب خشب، خاتم فضة.

لأن الخاتم قد يكون من يكون من فضة وقد يكون من غير فضة كالذهب..الخ.

والفضة قد تكون خاتمًا وقد لا تكون.

ضابطها: أن يصلح وضع (مِنْ) بين المضاف والمضاف إليه.

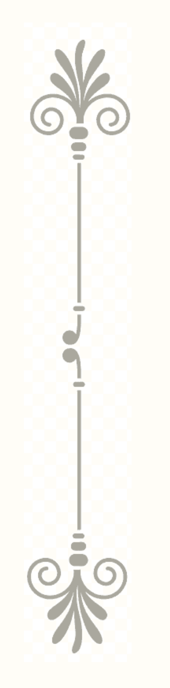
---

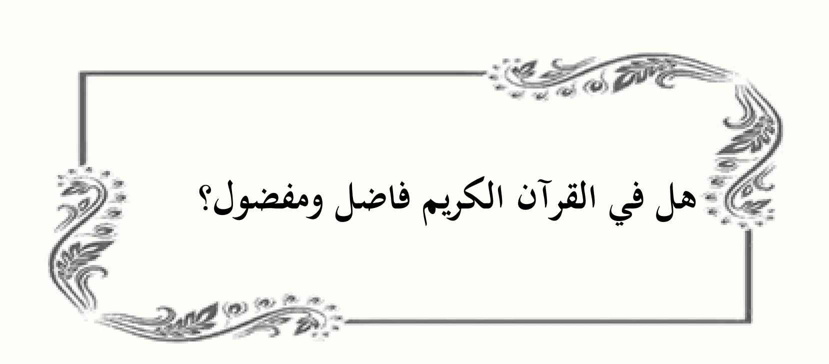
(١) العموم والخصوص المطلق: أن يصدقا على شيء، وينفرد الأعم منهما، مثل: حيوان وإنسان، فيصدقان على الإنسان فإنه حيوان ناطق، وينفرد الأعم في الحمار والفرس.. الخ. العموم والخصوص الوجهي: أن يجتمعا في شيء وينفرد كل منهما في شيء مثل النسبة بين الحيوان والأبيض.



ومن أنواع الإضافة التي بمعنى اللام، كقولك: قلم خالد.

من محاضرة ١٥/١١/١٩٩٧م كلية أصول الدين القاهرة. أ.د إبراهيم خليفة.





هل في القرآن الكريم فاضل ومفضول؟

الخلاف في هذه القضية يكاد يكون لفظيًّا؛ لأنا لو حرَّرنا محل النزاع لوجدنا أنهم متفقون لا مختلفون.

١ – لأن الذي ينفيه ينظر إلى أن الكل كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومن حيث كونه كلام الله عَزَّوَجَلَّ فلا فاضل ولا مفضول.

٢ – ينظر إليه أيضًا حيثية بلوغ الكل أقصى درجات البلاغة والفصاحة.

وكل القرآن على مستوى واحد من حيث البلاغة والفصاحة، وقد بلغ قمة الذروة.

فمثلًا: سورة الإخلاص أبلغ وأفضل ما يكون في التوحيد.

وسورة المسد أبلغ وأفضل ما يكون في بابها (في ذم أبي لهب..).

فلا نقارن بين سورتين في موضعين مختلفين.

فالنافي يتكلم من حيثيات لا نجد محلًا للنزاع فيها.

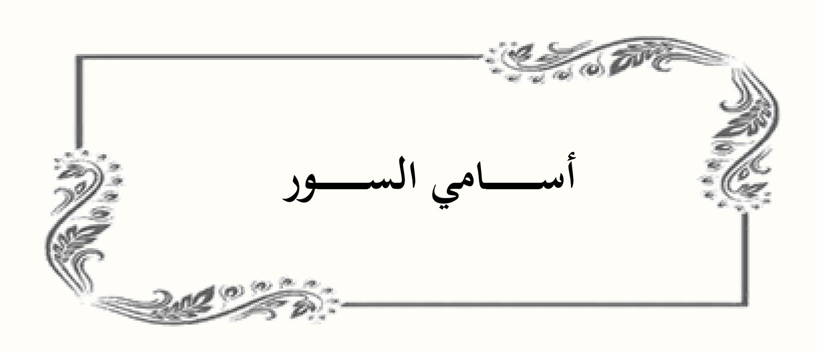
والمثبت يثبت أن للسورة الفلانية أجرًا أكثر من سورة كذا.

وهذا لا خلاف فيه لثبوت النص.

أو موضوع السورة الفلانية أعظم من موضوع سورة أخرى.

فموضوع سورة الإخلاص –مثلا– أعظم من موضوع سورة المسد...وهكذا.

ويصح أن نقول –مثلا–: فضل سورة النساء على سورة البقرة من حيث اشتمال النساء على كذا وكذا. من محاضرة ٢٤/١١/١٩٩٧م كلية أصول الدين القاهرة. أ.د إبراهيم خليفة



أســـامي الســـور

الشارع الحكيم لم يضع اسم السورة إلا على تمام مسماها عندما تتكامل نجومها.

فإن منع مانع فعلى الأقل على معظم المسمى.

فلو جاء واحد وأخذ من المنضدة شيئًا فإني أستطيع أن أقول إنها بدونه منضدة، ولكني لا أقول على القطعة المقطوعة إنها منضدة.

ولكن يقال للجاسوس: عين؛ لأن العين هي الجزء الأهم في الجاسوس؛ ولذلك صح الإطلاق.

والرقبة تطلق على العبد؛ لأن الرقبة هي الجزء الذي فصل من صاحبه زال صاحبه؛ ولذلك صح الإطلاق.

ولكن عندما أقول: هذا إصبع، وأقصد الأنملة، فلا يصح إلا مع وجود نكتة، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة:١٩].

فاسم الشيء موضوع لتمام معناه، فإن لم نقل على تمامه فلا أقل من أن يقال على المعظم.

سلَّمنا أن النجم اليسير يصحح إعطاء السورة عنوانها العام

من محاضرة ١٥/١٢/١٩٩٧م كلية أصول الدين القاهرة. أ.د إبراهيم خليفة

وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:١٥-٢٢).



وفي (التفسير التحليلي لسورة النساء): "أن البحث عن سر التسمية يجب أن ينحصر في دائرتين اثنين لا ثالث لهما:

أولهما: أن يكون سر التسمية هو بيان موقع السورة من القرآن الكريم، وذلك منحصر في سورة واحدة هي: الفاتحة، أو فاتحة الكتاب؛ فإن تسمية هذه السورة بذلك إنما هي لبيان محلِّها من القرآن، وأنها أوله وافتتاحه، وإن لم يمنع كون ذلك هو المقصود في الأصالة أن يكون مقصودًا إلى جانبه بالتبع له كون السورة بوصفها فاتحة القرآن قد اشتملت على أكمل ما تعارف عليه البلغاء من براعة الاستهلال المعروفة والمستحسنة في فاتحة كل كلام بليغ.

وأما **الدائرة الثانية** فهي أن يكون سر التسمية هو بيان أبرز الموضوعات، أو قل: الموضوع الأبرز في السورة، وبحيث تعد هذا الموضوع بمثابة نقطة الارتكاز التي تدور من حولها حلقة موضوعات السورة بأسرها أو بعبارة أخرى بمثابة المركز للدائرة –كما يقول المهندسون–.

أو بعبارة ثالثة بمثابة المحور للفلك –كما يقول الجغرافيون والفلكيون–.

وهذه الدائرة يتسع نطاقها حتى تشمل جميع سور القرآن باستثناء التسمية بالفاتحة –حسبما سبق لك–.

يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البرهان) إذ يقول في آخر النوع الرابع عشر الذي عقده في كتابه البرهان للحديث عن معرفة تقسيم القرآن بحسب سوره، وترتيب السور والآيات وعددها، إذ يقول: خاتمة أخرى: في اختصاص كل سورة بما سميت

ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى.

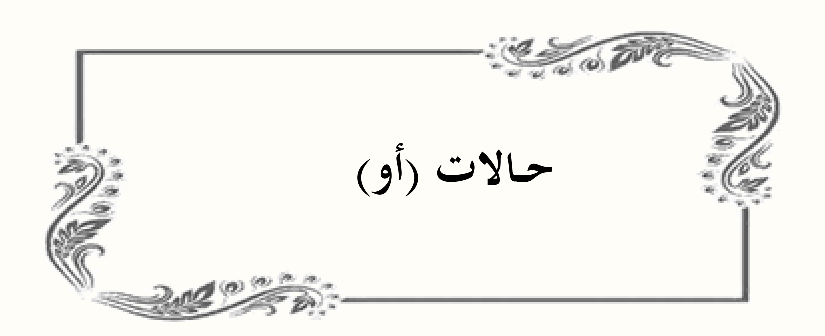
ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم؛ لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها.

وسميت سورة النساء بهذا الاسم؛ لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء.

وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام:١٤٢]، إلى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ [الأنعام:١٤٤]، لم يرد في غيرها كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها، فسميت بما يخصها"[1].

وإن كان هذا العلامة لم يتقن التركيز على خصوص النطاق الذي وصفنا لك في هذه الدائرة —كما تراه-.

وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:١٥-٢٢).



كلمة (أو) قد ترد لمنع الخلو ومنع الجمع كما لو وقعت أو بين نقيضيين أو ضدين المساويين للنقيضين، كما تقول: إما أن يكون ليل أو نهار

فهل يجوز الخلو من الليل والنهار جميعًا؟ لا

هل يجمع بينهما؟ لا

فلا يجوز الجمع بين النقيضين ولا ارتفاع النقيضين.

فإن كان الضدان ليسا مساويين للنقيضين، كما في قولنا: هذا الثوب إما أسود وإما أبيض، فمن الممكن أن يكون ليس أسودًا أبيض، فهي هنا مانعة للجمع فقط.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/٢٧٠- ٢٧١)، وانظر: الإتقان، للسيوطي (١/١٩٧).



فلا يمكن اجتماع السواد والبياض، ولكن يمكن الخلو عن السواد والبياض.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، منعت الخلو دون الجمع. فمن الممكن اجتماع الفتنة والعذاب معًا، ولكن لا يخلو الأمر من أحدهما.

و(أو) قد لا تمنع الجمع ولا تمنع الخلو، كما في الإباحة، نحو قولك: كُلْ سمكًا أو لحمًا يجوز الجمع بينهما، ويجوز أن لا يأكل منهما.

فالإباحة تجوز الجمع والخلو.

والتخيير يجوز الخلو، ولا يجوز الجمع، كما في قولك: تزوج هندًا أو أختها.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الألفية):

خَيِّرْ أَبِحْ قَسِّـــمْ وَأَبْهِــمِ   واشْكُكْ وإضراب بها أيضا نُمِي[1].

من محاضرة..أ.د إبراهيم خليفة

(١) وقد فصلت القول في ذلك في كتابي: (وسائل الإقناع في القرآن الكريم)، في مبحث: توظيف جزئيات المنطق في فهم واستخراج مدلولات النص. وفي (التفسير): "(أو) مانعة الجمع، نحو: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]. قال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أو) مانعة الجمع فقط، وليست مانعة الجمع والخلو. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٦]. قال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه القضية ليست مانعة الخلو المنع الاصطلاحي، وإنما هي مانعة الجمع، وأما الخلو من الأمرين فلا" درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة (١/٣٠٩- ٣١٠). و(أو) مانعة الخلو، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. فإن (أو) هنا مانعة الخلو، لا مانعة الجمع؛ فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: حاضر الفهم، أو حاضر القلب؛ لأن من لا يفهم في حكم الغائب، وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧]. قال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه شرطية منفصلة مانعة الخلو من عين مقدمها ونقيض تاليها، أي: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ قبل وفاتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فننتقم منهم على كل حال" درر المعرفة (١/٣١٢- ٣١٣).



المناسبة

بعض العلماء يقول: لا يصح أن يطلب التناسب بين بعض سور القرآن وبعض، بل حتى لا يحسن أن يطلب التناسب بين بعض نجوم القرآن وبعض، وإنما يطلب التناسب بين أجزاء النجم الواحد سواء كان بعض سورة أو سورة كاملة، فلو نزلت سورة كاملة يمكن أن تطلب التناسب بين أجزائها، ولكن لو نزلت نجومًا فلا تُعقد المناسبة بين النجوم؛ لأن النجوم فضلًا عن السور نزلت على حسب الدواعي والمقتضيات، وكما لا يحسن أن تتطلب مناسبة بين الأحداث والدواعي فكذلك النجوم المعالجة للأحداث، فمثلًا عندما نقول: النجم الفلاني نزل يعالج سرقة، والنجم الفلاني نزل في غزوة، والثالث في قضية نفاق -مثلًا- فلا نستطيع أن نقول: هناك صلة بين سرقة وبين غزوة -مثلًا-....الخ.

هذا كلام الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن لفَّ لفه، وحاول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينصر هذا القول في (فتح القدير) بأقصى ما استطاع في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠][(١)].

فمن يقول هذا الكلام كلامه في وادٍ وتطلب المناسبة في وادٍ آخر.

فكلامكم يصح لو كنا نتطلب المناسبة بين النجوم المترتبة ترتيبًا نزوليًّا، فنحن عندما نطلب المناسبة بين سور القرآن، أو نجوم السورة الواحدة نطلبها على حسب الترتيب المصحفي. قال الشيخ ولي الدين الملوي: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع

(١) انظر: فتح القدير (١/ ٨٥- ٨٦).



تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها، وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقًا، بل كما أنزل جملة[1].

وهذا الذي ندعي أنه يسهم في إعجاز القرآن الكريم، فبدلًا من ان تجعلوا هذا شيئًا بديعًا وفق إليه العلماء تعارضون ذلك.

من محاضرة ٢٢/١٢/١٩٩٧م كلية أصول الدين القاهرة. من محاضرة..أ.د إبراهيم خليفة وأصل الكلام وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:٨٦-٨٨).

وقد بين الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ السبيل المثلى إلى تحصيل المناسبة، حيث قال: " إن لك في تطلب المناسبة بين السور سبيلين:

إحداهما: ما أسميه: (**المسلك العام**)، وأعني به: أن نعقد المناسبة بين موضوع السورة السابقة، وموضوع السورة التي أنت بصدد القول في تفسيرها، أو قل: بين الروح العامة السارية في كيان السورة السابقة كله، وبين الروح العامة السارية في كيان السورة التي ستفسرها كله كذلك.

والسبيل الأخرى ما أسميه: (**المسلك الخاص**)، وأعني به: أن تطلب المناسبة بين آية في سورتك التي أنت بصدد تفسيرها، وأخرى في السورة السابقة عليها، وغالبًا ما يكون ذلك بين خاتمة السابقة، وفاتحة اللاحقة، وإن لم يمنع ذلك من تطلب المناسبة بين غير الفاتحة والخاتمة، كفاتحتي السورتين أو خاتمتيهما أو آية في وسط هذه وأخرى في وسط تلك –وهلم جرًّا-.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/٣٧٠)، معترك الأقران (١/٤٤)، البرهان في علوم القرآن (١/٣٧)، مناهل العرفان (١/٨٠).



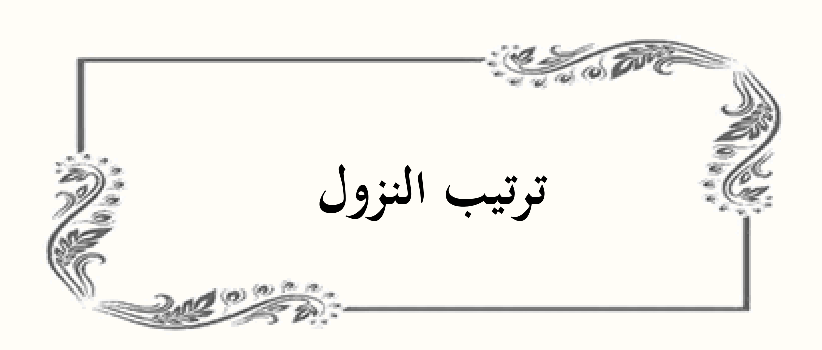
فأما السبيل الأول أو المسلك الأول فقد ذهل عنه أغلب المفسرين، بل كافتهم في أغلب السور القرآن فيما أعلم.

بحيث لم يعن الكاتبون منهم في بيان المناسبات، وهم قلة على أية حال بالنسبة للتاركين لها بالكلية. أقول: لم يعن هؤلاء إلا بالمسلك الثاني فحسب، وبحيث عدوا هذا المسلك كافيًا، بل بالغًا أقصى درجات الكفاية في بيان ارتباط بعض القرآن ببعض، مع أن هذا المسلك عندي بل عندي كل من تأمله بنصفة وتبصر ضعيف لا يكفي مثله في تجلية حكمة القرآن الكريم البالغة، وعظمته السابغة في روعة ارتباطه، وإعجاز هذا الارتباط؛ إذ غايته الربط بين مجرد آية وآية أخرى –كما قلنا–. فأما أن يربط بين كافة السورة السابقة وأختها اللاحقة فهو بمعزل عن هذه الطلبة الشريفة بالكليةبخلاف ما ذهلوا عنه مما نسميه: (المسلك العام)؛ فإنك تعقد المناسبة في هذا المسلك بين موضوعي السورتين، أو بين روحيهما العامين، تكون قد ربطت بأوثق رباط بين كافة جزئيات هذه، وكافة جزئيات تلك، وهو ما يبرز حقًّا روعة القرآن، وسمو إعجازه في هذا المجال"[1].

وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء) (ص:٨٩-٩٥).

(١) التفسير التحليلي لسورة النساء (ص:٨٩-٩٠).





ترتيب النزول

مسألة نزول السور كما هي مجافية لمنطق المنقول فهي مجافية لمنطق المعقول.

واستندنا في أمر المعقول إلى واقع أمر القرآن الكريم، وأنه كان يتنزل على أثر أسباب نزول، يعني: وقائع تحدث فتعالجها نجوم الذكر الحكيم، وأن هذه النجوم لم يكن يراعى فيها إطلاقًا، فقضية الترتيب النزولي؛ لأن الترتيب على حسب الوقائع غير ممكن.

يعني: أنتَ مثلًا عندما تحب أن ترتب تقول: (سرقة –لعان- قتل- زنا- غزوة...الخ).

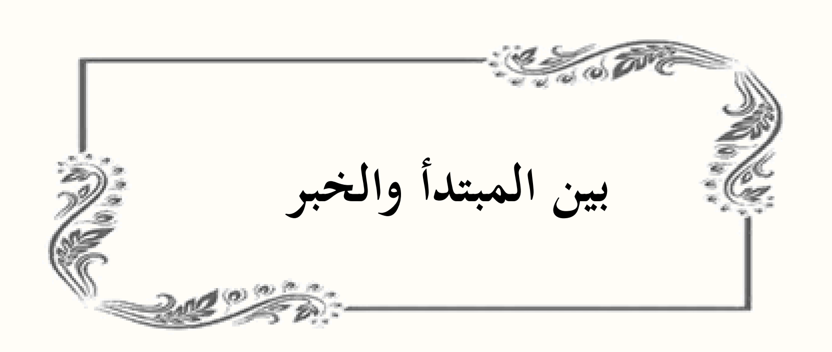
فما وجه الصلة مثلًا بين الزنا وبين غزوة كذا –مثلًا-؟

فالسور نرتبها ترتيبًا موافقًا للمعقول عندما نقول: نزلت سورة كذا جملة واحدة أو نجومًا متفرقة غير متفاصلة بنجم آخر غيرها، ثم نزلت بعدها سورة على الوضع نفسه، وإما نجومًا لا يفصل بينهما بنجم آخر.

من محاضرة..أ.د العلامة إبراهيم خليفة.

وأصل الكلام وتفصيل القول فيه في (التفسير التحليلي لسورة النساء)، فقد حقق الأستاذ الدكتور ذلك بما لم يسبق إليه في كلام مطول من (ص:٤٧)إلى (ص:٨٦).





بين المبتدأ والخبر

الشَّأن في المبتدأ أن يكون معلومًا؛ لأن الحكم على المجهول غير مُتَصور فضلا عن أن يفيد، فإذا كنت لا تعرف المجهول كيف تعرف الحكم عليه؟

فعندما تقول لشخص: محمد في الدار، وهو لا يعرف محمدًا، فإنه يقول: من محمد؟

فينبغي الاستفسار عنه ثم الحكم عليه.

المحكوم يجب أن يكون مجهولًا لكي يكون الخبر مفيدًا.

وفي (محمد قائم) هذه الجملة الخبرية يجب أن يتحقق فيها أمران:

١ – أن يكون المبتدأ (المحكوم) معلومًا.

٢ – أن يكون الخبر (المحكوم به) مجهولًا.

فلو كان معلومًا لكانت الجملة غير مفيدة.

فعندما تقول لشخص: أبوك فلان، أو السماء فوقنا، أو الأرض تحتنا، أو الكل أعظم من الجزء...فإن كلامك لا يفيد.

فالمحكوم به عندما يكون معلومًا فإن كلامك يكون غير مفيد.

فعند إخبارك بأمر من الأمور يجب أن يتحقق أمران:

١– فائدة الخبر، يعني: إعلام المخاطب بحكم يجهله، فإن كان المخاطب عالما بالحكم فلم يبق إلا لازم الفائدة.

٢ – لازم الفائدة بأن تعرفه أنك أيها المتكلم عالم بالحكم.



فعندما نفترض أن إنسانًا لا تريد أن تقول له اسم صديقك، فقال لك: اسم صديقك فلان، فهو لا يعرفك اسم صديقك، ففائدة الخبر هنا لم تتحقق؛ لأن المخاطب عالم بالحكم.

وإنما الغرض لازم الفائدة، وهي إعلام المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم.

فعندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور:١] فهل يريد إعلام المخاطبين بالحكم؟ لا؛ لأن المخاطَبين لمجرد أن يعلموا أن هذه سورة فهم يعلمون أن القرآن الكريم لا بدَّ أن يكون وحيًا؛ فإنه من المعلوم بالدين بالضرورة بالنسبة للمسلمين جميعًا فضلًا عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين يحضرون الوحي، ويشهدون وقائع التنزيل.

فإذا لم يصلح ذلك فهل يصلح لازم الفائدة وهو إعلام المخاطبين أن المتكلم عالم بالحكم؟ بالتأكيد لا يصلح؛ لأن المخاطبين قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يخبر بشيء أو يحكم به ولا يكون عالما به، فهم قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: إن سورة لا يصح أن تكون مبتدأ؛ لأن المبتدأ يجب أن يكون معلومًا، وسورة بالنسبة لهم أمر مجهول.

والأمر المجهول المفروض أنه الخبر، ولكنه هنا معلوم، فلا يصح إعلامهم بعلم الله عَزَّوَجَلَّ به فهم قاطعون بذلك[(١)].

وقد أجاب العلماء عن هذا وقالوا: نحن مسلمون أن هذا التركيب الخبري لا ينفع فيه الفائدة، ولا لازم الفائدة، لكن الغرض ليس منحصرًا في هذا.

---

(١) نص ما قاله أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: "﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذه سورة وإنما أشير إليها مع عدم سبق ذكرها لأنها باعتبار كونها في شرف الذكر في حكم الحاضر المشاهد. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى المقام بيان شأن السورة الكريمة لا أن في جملة ما أوحي إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سورة شأنها كذا وكذا..". تفسير أبي السعود (٦/١٥٥)، وانظر: فتح القدير، للشوكاني (٤/٥).



فأنت تتكلم عن الغرضين الأصليين، لكن هناك أغراض أخرى فرعية كثيرة، منها: المدح، والتحسر، والامتنان......الخ.

فعندما تقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران:٣٦]. فهي لا تريد أن تفيد الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الَّتي وضعتها أنثى، كما أنَّها لا تريد أن تعلم الله عَزَّوَجَلَّ أنَّها عالمة بكون الموضوعة أنثى، وهذا أمر بديهيٌّ. وإنَّما غرضها من الخبر إنشاءُ (التَّحسر)، فهي كانت تريد المولود ذَكَرًا لكي تهبه (لبيت المقدس)، وقد كانوا لا يحرِّرون (لبيت المقدس) إلا الذُّكور، فخاطبت ربَّها عَزَّوَجَلَّ على سبيل التَّحسر على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدَّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذَكَرًا يصلح للخدمة[1].

فكذلك عندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: فيما أوحينا إليك سورة، أو مما يتلى عليكم سورة، فليس المقصود هنا فائدة الخبر، ولا لازم الفائدة، وإنما المراد: مدح السورة، أو الامتنان عليهم بهذه السورة.

فأنت إذا أعطيت إنسانًا عطية ولم يشكر عطيتك أو قابلك بالجحود، فأنت تقول له: إني أعطيتك كذا وكذا، تمتن عليه بما فعلت، فأنت لا تقصد إخباره بفائدة الخبر ولا بلازم الفائدة، وإنما المقصود الامتنان، فالله عَزَّوَجَلَّ يمتن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بأنه أنزل السورة العظيمة البالغة من العظم كذا وكذا، فالمقام مقام مدح، وهو مصحح لكون السورة مبتدأ[2].

من محاضرة السبت ١٩٩٨/٣/٢١م من محاضرة..أ.د إبراهيم خليفة

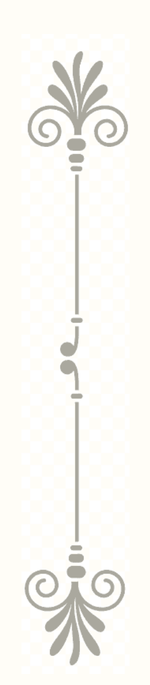
---

(١) انظر: روح المعاني (٣/١٣٤–١٣٦)، الكشاف (١/٤٢٥)، البحر المحيط (٢/٤٥٦–٤٥٧)، والتَّحرير والتَّنوير (٣/٢٣٣)، (٢٣/٢٥٦)، ونظم الدُّرر (٢/٧١)، والمحرَّر الوجيز (١/٤٢٤–٤٢٥)، تفسير الثَّعالبي (١/٢٦٠)، (٤/٦).

(٢) انظر أوجه الإعراب بالتفصيل في (تفسير سورة النور)، للعلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:٢٣–٢٥)، من مطبوعات كلية أصول الدين، القاهرة، الطبعة القديمة.



إذا قصد من الجملة الخبرية غرض آخر غير فائدة الخبر وغير لازم الفائدة بأن قصد الامتنان والمدح أو التحسر فهل تبقى الجملة معه على خبريتها أم تتحول إلى الإنشائية بحيث تكون خبرًا في اللفظ، وإنشاء في المعنى؟



من المعلوم أنه كي تبقى الجملة على خبريتها لفظًا ومعنى إذا كانت تحتمل الصدق والكذب لذاتها، أو بعبارة أخرى لها نسبة في الخارج، فعندما تقول: قام زيد، أو مات عمرو.

فقولنا: مات عمرو، هذه الجملة إن كان لها نسبة وأنت تقصد حقيقة الموت، أي: قام الموت بعمرو، مثلًا: إن كان المقصود من هذه الأخبار –فعلًا- بوقوع الموت على عمرو صار لها نسبة في الخارج.

لكن لنفرض أن مقصودك ليس الإخبار بموت عمرو، وإنما قصدك التحسر على موته. فكونك تتحسر أو لا تتحسر نفسي لا يطلع عليه إلا علام الغيوب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا قيام لمدلوله في الخارج.

فالنسبة التي لا مدلول لها في الخارج، والتي لا تحمل الصدق والكذب هي الإنشائية.

والإنشاء نوعان[1]:

الأوَّل: (الإنشاء الطَّلبي): وهو ما أفاد طلبًا بالوضع، فيطلب به تحصيل غير حاصل في الخارج[2]. فإن كان المطلوب ذكر الماهيَّة فهو الاستفهام. وإن كان المطلوب إيجادُ الماهيَّة فهو أمر، أو الكفُّ عنها فهو نهي. وهكذا[3].

---

(١) الفرق بين الخبر والإنشاء من ثلاثة أوجه: ١ - أن الخبر قول يحتمل الصدق والكذب لذاته. ٢ – والخبر لا يتوقف حصول مدلوله على النطق به. ٣ - والخبر حكاية أمر حاصل في الواقع. كقولنا: الشمس طالعة، فهو خبر يحتمل، ولا يتوقف حصوله على النطق به.

(٢) لأنَّه إذا كان طلبًا استدعى مطلوبًا غير حاصل وقت الطَّلب؛ لامتناع طلب الحاصل. انظر: المطوَّل شرح تلخيص المفتاح (ص:٢٢٤).

(٣) ينظر تعريف (الإنشاء الطَّلبي) في شروح تلخيص المفتاح (٢/٢٣٤) فما بعد. وانظر: المطوَّل شرح تلخيص المفتاح، مع حاشية المير سيد شريف (ص:٢٢٤–٢٢٥). ولتوضيح ذلك يقال: عندما تقول لشخص:=



الثَّاني: (الإنشاء غير الطَّلبي)[1]. ويذهب بعض الأصوليين إلى أن قسمة الكلام ثلاثيّة، فهو إمَّا خبرٌ، أو طلبٌ، أو إنشاءٌ. خص أصحاب هذا القول الطَّلب بما سمَّاه غيرهم (الإنشاء الطَّلبي)، والإنشاء لما عداه، كـ: (ألفاظ العقود) نحو: (بعت) و(اشتريت).

ويدخل في (الإنشاء الطَّلبي) الأمرُ والنَّهي والاستفهامُ والتَّمني والنِّداء[2]. ويدخل في الإنشاء غير الطَّلبي أفعال المدح والذَّم، وفعلا التَّعجب، والقَسَم[3].

=(قم)، فقد قام بنفسك طلب القيام منه، وعندما تقول لشخص: (لا تقم)، فقد قام بنفسك عدم القيام، وعندما تقول لشخص: (ليته يقوم)، فقد قام بنفسك تمني القيام، وعندما تقول لشخص: (لعلَّه يقوم)، فقد قام بنفسك ترجِّي القيام، وعندما تقول لشخص: (هلا يقوم)، فقد قام بنفسك الحثُّ والإزعاج، وعندما تقول لشخص: (هل تقوم؟)، فقد قام بنفسك الاستخبار والسُّؤال..

(١) وفي (المطوَّل) "وغير طلبٍ كأفعال المقاربة وأفعالِ المدح والذَّم وصيغِ العقود والقَسَم ولعلَّ ورُبَّ و(كم) الخبريَّة ونحو ذلك". المطوَّل شرح تلخيص المفتاح (ص:٢٢٤).

(٢) وقد يقال: إنَّ النِّداء منه ما هو خبر لا إنشاء، وهو النِّداء بصفة نحو: (يا فاسق) و(يا فاضل)؛ لاحتمال الصِّدق والكذب في تلك الصِّفة.

(٣) أمَّا (الإنشاء غير الطَّلبي) فهو كالقَسَم، فإذا قلت: (والله لأفعلنَّ)، فهو إنشاءٌ، وليس فيه طلب، فكونك تقسم يعني أن يكون في نفسك القَسَمُ، فإنَّ صيغةَ القَسَم واضحة، لكن هل تُقْسِمُ حقيقةً أو لا؟ هل قَصْدُكَ في نفسك القَسَمُ أو لا؟ هذا شيءٌ لا نعرفه. والحاصلُ أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة إنَّما تؤخذُ من الإنشاء، أو ما كان في معناه، وذلك أنَّ الجملةَ الخبريَّة إذا خرجت عن الغرضين الأصليين – (فائدة الخبر)، و(لازم الفائدة) – فقد تحوَّلتْ الجملةُ إلى الإنشاء. ومن ذلك قول الحارث بن وعْلَة من (البحر الكامل): (قومي هم قتلوا أميم أخي***فإذا رميت أصابني سهمي). [انظر: دلائل الإعجاز (ص:١٩٥–١٩٦)، وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٤٨)، المزهر (٣١٣/١)، ديوان الحماسة (ص:٦٤)]. والدِّلالة على هذا المعنى الإنشائيِّ هل يكون بالحقيقة أم بالمجاز؟ إنَّ الأغراض الَّتي تخرج إليها الجملة الخبريَّة هي معانٍ نفسيَّة لا نسبةَ لمدلولها في الخارج، فمن يقول مثلًا: (ما أجملَ السَّماء) يتعجَّب، فكلُّ ما في الخارج كون السَّماء جميلة أو غير جميلة، أمَّا كون التَّعجب قائمًا بنفسه، أو ليس كذلك –فقد يتظاهر بذلك أو يمثِّل علينا مثلًا– فهذه معانٍ نفسيَّة لا نسبةَ لمدلولها في الخارج، بخلاف قولنا: (محمَّد قائمٌ)، فإنَّ كان قائمًا بالفعل فهو صِدق، وإن كان ليس قائمًا فهو كذبٌ، فلهذا القول نسبةٌ في الخارج. أمَّا إذا كانت المسألة نفسيَّة، فلا اطِّلاع لنا على دخيلةِ الأنفس، فلا نسبةَ لمدلولها في الخارج. أمَّا عندما تقول للمخاطَب: (قم) فهل طلب القيام قائمٌ في نفسك، أو ليس قائمًا؟..لا نعرف، وكذلك خروج الخبر من=



فإذا قصد من الجملة الخبرية غرض آخر غير فائدة الخبر وغير لازم الفائدة بأن قصد الامتنان والمدح أو التحسر فهل تبقى الجملة معه على خبريتها أم تتحول إلى الإنشائية؟ نزاع بين العلماء.

والذي نختاره أننا إذا خرجنا عن الغرضين الأصليين للجملة الخبرية وأردنا -مثلًا- المدح والامتنان فقد خرجت الجملة عن الخبرية إلى الإنشائية.

والذي اخترناه هو ما اختاره المحققون من البلغاء في أمثال هذه المقامات، وهو الذي مال إليه العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه لتلخيص المفتاح)[1]، أعني: الشرحَ المعروف بالمطوَّل.

أن الجملة الخبرية إذا خرجت عن الغرضين الأصليين المعروفين (فائدة الخبر ولازم الفائدة) إلى غرض آخر خرجت عن الخبرية إلى الإنشائية فقال بقول العلامة المرزوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما ساق البيت الشعري المعروف:

قومي هم قتلوا أميم أخي　　　فإذا رميت أصابني سهمي[2]

=الخبريَّة إلى إرادة (المدح) مثلا، أو (الذَّمّ) أو الامتنان، أو التَّحسر، أو التَّعجب، أو الرثاء...لا نسبةَ لمدلول ذلك في الخارج؛ لأنَّها معانٍ نفسيَّة. وإذا كانت قد صارت إنشائيَّة، فهل دلَّت على الإنشائيَّة على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز أو الكناية؟ إنَّ الجملة الخبريَّة في أساس وضعها للإخبار الَّذي يحتمل الصِّدق والكذب، فإذا خرجت عمَّا يحتمل الصِّدق والكذب إلى ما لا يحتمل الصِّدق والكذب تكون بذلك قد خرجت عن الإخبار إلى الإنشاء، واستعملت في غير ما وضعت له على سبيل المجاز أو الكناية. أمَّا الإنشاء لفظًا فلا يتصوَّر إلا في الطَّلب.

(١) تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني عليه جملة من الشروح من بينها: شرحان للسعد التفتازاني، شرح مطول، وشرح مختصر، والذي عليه الحواشي الكثيرة المعروفة بشروح التلخيص هو المختصر، كحاشية الدسوقي، وشرح اليعقوبي، لابن يعقوب المغربي سماه: مواهب الفتاح، وشرح للسبكي، سماه: عرائس الأفراح، والهامش فيه كتابان: الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، للقزويني نفسه -مؤلف التلخيص-، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد، وله شرح آخر عمله قبل هذا المختصر، اسمه: المطول، وعليه حواشي لعبد الحكيم السيلكوتي، والسيد الشريف الجرجاني.

(٢) (أميم) فهو نداء مرخَّم لـ: (أُمَيْمَة)، وليس أميم أخاه -كما توهم البعض-، وكانت أميمة تحرضه على أخذ الثأر، وتلومه على تركه، فاعتذر في ذلك بما قاله. يقول: قومي يا أُمَيْمَة هم الذين فجعوني بأخي ووتروني=



فقال: إن المقصود: التحسر، وعلى هذا صار الخبر من قبيل الإنشاء، فأميمة تعلم من الذي قُتِل أخوه، وتعلم أن القاتل هم قومه. فهو باعتذاره لا يريد أن يعلمها هذا الأمر الذي تعلمه، ولا يريد أن يعلمها أنه عالم بهذا الأمر، وإنما يتحسر[(١)].

الشيخ المرزوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: تحولت إلى الإنشاء، والسعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه المطول مال إليه، ونحن نقول: الذي نختاره أن الجملة خبر لفظًا، وإنشاء معنى.

والإنشاء لفظًا لا يُتصور إلا في الطلب.

ثم ذكر الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أورده القائلون ببقاء الجملة على خبريتها لفظًا ومعنى، ومنهم: عبد الحكيم السيلكوتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على المطول)، حيث قال: إن الجملة باقية على خبريتها لفظًا ومعنى، لكن لا لتساق هذه الجملة في إفادة فائدة الخبر، ولا لازم الفائدة، بل تساق ليتوصل بها إلى هذه المعاني.

فقول مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَا أُنثَىٰ﴾ هذه الجملة باقية –عند هؤلاء- على خبريتها لفظًا ومعنى، لكن لا ليقصد منها فائدة الخبر ولا لازم الفائدة، وإنما ليتوصل بها إلى التحسر.

ونحن نقول: هذا الكلام الذي يقولوه لا مُحَصِّل له في معيار التحقيق، فما معنى أن الجملة لا يقصد منها المعنى الذي وضع له الخبر، وإنما التوصل إلى معنى آخر لم يوضع له الخبر.

يقول: ليتوصل بها إلى هذه المعاني لاستلزامه إياها، ونحن نقول له: هل تقصد أن الجملة ستكون ملزومًا، والمعاني لازمة؟

=فيه، فإذا انتقمت منهم عاد ضرر ذلك عليَّ؛ لأن عِزّ الرجل بعشيرته. وهذا الكلام فيه إبداء الحزن والفجيعة، وليس مجرد إخبار.

ثم قال: فلئن عَفَوْت لأعفون جللا ... ولئن سطوتُ لأوهنن عظمي

والمعنى: إن تركت الانتقام منهم صفحت عن أمر عظيم، وإن انتقمت منهم أَوهنت عظمي وهددت ركني.

انظر: حماسة أبي تمام، شرح التبريزي (٧٢/١).

(١) ومن هذا القبيل قول لبيد: (ذهب الذين يعاش في أكنافهم***وبقيت في خَلْف كجلدِ الأجربِ). ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:٢٤). فهو يتحسر على زمان مضى بسبب ما يرى من فساد في زمانه.

إن كان هذا هو القصد فإنكم لم تسلكوا إلا سبيل الكناية؛ لأن الكناية ليست أكثر من ذلك (إطلاق ملزوم يلزم من وجوده وجود لازمه)، كما في قولك: (كثير الرماد) لزم منه الكرم، و(طويل النجاد) لزم منه طول صاحبه.

وإن أردتم بهذا التوصل إلى أنه لا تستفاد هذه المعاني إلا عندما تبقى هذه الجمل على خبريتها الحقيقية لفظًا ومعنى، فهو غير مسلَّم؛ لأنه عين الدعوى المتنازع فيها؛ لأن نزاعنا في الأصل: (هل هذه الجملة باقية على خبريتها لفظًا ومعنى أم زال عنها معنى الخبرية؟).

فعندما تقولون: الدليل على بقائها على المعنى الخبري أنه يتوصل بها إلى المعاني الأخرى، بمعنى أنها باقية على معناها الخبري، فهو بمثابة قولكم: (الدليل على بقائها على المعنى الخبري بقائها على المعنى الخبري) وهو عين الدعوى المتنازع فيها. فعندما تأخذ من الدعوى المتنازع فيها جزءًا من البرهان فهو ما يسمونه في علم (آداب البحث والمناظرة): (مصادرة على المطلوب)، بمعنى أنك تأخذ من الدعوى نفسها وتجعل ذلك جزءًا من البرهان، ولو غيرت الألفاظ.

كقولنا: محمد إنسان بدليل أنه إنسان

أو محمد إنسان بدليل أنه بشر.

وقولنا: (مصادرة على المطلوب) يعني أنك أتيت بدور باطل، جعلت الدعوى متوقفة على عين الدعوى. والدعوى يتوقف إثباتها على الدليل، فإن كان الدليل سيكون عين الدعوى، فكأن الدعوى توقفت على عين الدعوى، فمن حيث هي دعوى توقفت على دليلها، ومن حيث هي عين الدليل توقف الدليل عليها.

فتكون قد صادرت يعني أنك نازعت ولم تأت إلا بعين المتنازع فيه.

ثم إن هؤلاء لا ينكرون أن الامتنان وأشباهه من المعاني القائمة بالنفس، فهل يقول قائل: إن الامتنان والتحسر أمور ليست نفسية، ولا يخفى أن هذه المقولة غير محققة.

ثم إن هؤلاء اختلفوا على فريقين:

الأول: أنها باقية على خبريتها لفظًا ومعنى تدل على معانيها دلالة حقيقية.



وآخرون يقولون: دلت عليها على سبيل المجاز أو الكناية -كما تقدم-

وعلى أية حال يدفع قول هؤلاء وأولئك بأن المعاني التي خرجت إليها هذه الجمل الخبرية جمل نفسية لا نسبة لمدلولها في الخارج أصلًا، وما لا نسبة لمدلوله في الخارج فهو إنشاء لا خبر؛ لأن الخبر لا بد أن يكون له نسبة خارجية تحتمل الصدق والكذب، كقولنا: محمد قائم؛ لأنه إن كان قائمًا بالفعل فهو صدق وإلا كذب.

إنما إنسان يتحسر فسواء ساق كلامًا يفيد التحسر، أو قال: أتحسر على كذا، فهل هو في نفسه متحسر؟ لا ندري؛ لأنه لا اطلاع لنا على ما في النفوس.

المعاني التي يدل عليها المركب الخبري إذا خرج عن الفائدة ولازم الفائدة إلى غرض آخر فلا تستطيعون أنها معان قائمة بالنفس، فما دامت كذلك فهي إنشاءات، فكونك تقول: إنها باقية على خبريتها مع هذا فهو أشبه بالجمع بين النقيضين.

من محاضرة ١٩٩٨/٣/٣٨م بتصرف.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١].

سورة بالرفع يحتمل وجهين من الإعراب:

١ - سورة خبر لمبتدأ محذوف، وأنزلناها وما عطف عليه صفات.

٢ - أن تكون سورة مبتدأ وأن خبر هذا المبتدأ يحتمل أوجهًا ثلاثة:

إحداها: أن تكون سورة مبتدأ والخبر محذوف، وأنزلناها وما عطف عليه صفات.

الثاني: سورة مبتدأ وأنزلناها وما عطف عليه خبر، [وأنزلناها لم تعد هنا صفة].

الثالث: الخبر الزانية والزاني..إلى آخر السورة. قاله ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. قال: والمعنى السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدء وختم[1].

(١) ولكنه عقب على ذلك بقوله: "ولكن يلحق هذا القول: أن كون الابتداء هو الخبر ليس بالبين إلا أن نقدر الخبر في السورة بأسرها، وهذا بعيد في القياس" المحرر الوجيز (١٦٠/٤)، وانظر: الدر المصون (٣٧٧/٨)، البحر المحيط في التفسير (٦/٨).



وقد أورد شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ إعتراضًا آخر على الاحتمال الثاني في الخبر[1]، فقال: إن حمل تلك الصفات عليها، أي: على السورة، أي: جعل السورة موضوعًا، أي: مبتدأ، وأنزلناها وما عطف عليه محمولًا، أي: خبرًا يوهم بمعونة المقام أن غيرها من السور ليس على تلك الصفات.

فعندما أقول: هذه السورة منزلة مفروضة مشتملة على الآيات البينات، والمقام مقام مدح للسورة يوهم أن غيرها من السور ليس كذلك، يعني أنه ليس منزلًا ولا مفروضًا، وليس فيه آيات بينات، وهذا لا يصلح.

والإجابة عن ذلك من وجهين:

أحدهما: إنما يتصور ذلك لو كان معنا أسلوب من أساليب القصر، سواء القصر الاصطلاحي أو غير الاصطلاحي.

والقصر الاصطلاحي: كأن يقول الله عَزَّوَجَلَّ ما أنزلنا إلا هذه السورة، وما فرضنا إلا هذه السورة، وما أنزلنا آيات بينات إلا في هذه السورة.

أو يقول: إنما المنزل والمفروض والمنزل فيه آيات بينات: هذه السورة.

وللقصر الاصطلاحي طرق منها: النفي والاستثناء وتقديم ما حقه التأخير...الخ[2].

---

(١) وينظر ذلك مفصلًا في (تفسير سورة النور)، للأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة، كما ينظر تعقيبه على فهم الشهاب الخفاجي لأبي السعود في كلام مطول ومحقق (ص:٣٠-٣٢).

(٢) للقصر طُرُق كثيرة، وأشهرها في الاستعمال أربعة: وهي: أولًا: يكون القصر (بالنفي والاستثناء)، نحو: ما شوقي إلا شاعر أو: ما شاعر إلا شوقي. ثانيًا: يكون القصر (بإنَّما)، نحو: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. وكقوله: إنما يشتري المحامدَ حُرٌّ طاب نفسًا لهُنّ بالأثمانِ. ثالثًا: يكون القصر (بالعطف بلا – وبل – ولكن)، نحو: الأرض متحركة لا ثابتة، وكقول الشاعر: (عُمرُ الفتى ذكرُه لا طولُ مدته***وموتُهُ خزيه لا يومُهُ الدَّاني). وكقوله: (ما نال في دُنياهُ وان بُغيةً***لكن أخو حزم يَجِدّ ويَعمَل). رابعًا: يكون القصر (بتقديم ما حقّه التأخير)، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي: نخصك بالعبادة والاستعانة. فالمقصور عليه في النفي والاستثناء هو المذكور بعد أداة الاستثناء، نحو: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود:٨٨]. جواهر البلاغة (ص:١٦٧- ١٦٨).



فقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] قصر اصطلاحي.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وقولنا: لا إله إلا الله فهو من القصر الاصطلاحي.

أما إذا قلنا: الألوهية الواحدة مقصورة على الله عَزَّوَجَلَّ فهو قصر لغوي.

فالقصر غير الاصطلاحي، أعني: اللغوي يفيد ما أفاده القصر الاصطلاحي، كأن يقال: هذه السورة محصور فيها الإنزال أو مقصور عليها الإنزال والفرضية وإنزال آيات بينات. فهنا لا يوجد أي أسلوب من أساليب القصر الاصطلاحي أو غير الاصطلاحي، فأنا لو قلت: محمد قائم فهل يفهم من كلامي أن غير محمد ليس قائمًا؟ لا يفهم ذلك؛ لأني لم آتي بأي من طرق القصر.

سلمنا جدلًا بأن هذا الإيهام موجود، ولكن من أين يؤخذ أن غير هذه السورة ليس على تلك الصفات؟ هل يؤخذ من المنطوق أم من المفهوم؟

فعندما أقول: في الإبل السائمة زكاة، فإن مفهوم الصفة يفيد أن غير السائمة ليس فيه زكاة.

وعندما أقول: الطالب المجد سينجح، مفهومه: أن غير المتحقق بالصفة ليس له الحكم.

فعندما أقول: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [النور:١]، فالذي يستفاد من منطوقها أنها منزلة ومفروضة ومنزل فيها آيات بينات، والذي يستفاد من المفهوم أن غيرها ليس منزلًا ولا مفروضًا..الخ.

ويتقرر من قاعدة: (**المفهوم إذا عارض منطوقًا أقوى منه أخذ بالمنطوق وطرح المفهوم**) أنه لا يؤخذ بالمفهوم إلا عندما لا يتعارض مع المنطوق؛ لأن المنطوق أقوى منه.

وقد اختلف العلماء في دلالة المفهوم، هل يؤخذ بالمفهوم أصلًا أو لا يؤخذ؟



فالحنفية -مثلًا- لا يأخذون بالمفهوم، والذي يأخذ منهم بالمفهوم يسميه تسمية أخرى، وغيرهم يأخذ به عندما لا يتعارض مع المنطوق.

فإذا قلتُ لك:

أعط الفقير، فأنت أعطيت الغني مثلًا هل أحاسبك أو لا أحاسبك بالمفهوم؟

فيها خلاف.

وعندما أقول: أعط الرجل الفقير وأعط الرجل الغني، فإن مفهوم أي واحدة من الاثنين يتعارض مع منطوق الآخر، ففي هذه الحالة يجب أن تعطي الاثنين؛ لأنك لو حرمت الغني تكون قد أخذت بمفهوم الفقير وألغيت منطوق الغني.

ولو حرمت الفقير تكون قد أخذت بمفهوم الغني وألغيت منطوق الفقير.

فلا يصلح تعارض المنطوق مع المفهوم، وفي هذه الحالة يلغى المفهوم بالكلية

فعندما يأخذ بالمفهوم فيقول: غير هذه السورة ليس منزلًا ولا مفروضًا..الخ يكون قد ترك المنطوق المصرح بأن القرآن كله منزل، وبأن القرآن كله وحي، وقد قام من القرائن المقالية والحالية ما يدل قطعًا على أن القرآن كله وحي منزل، فإذا أخذت بالمفهوم هنا تكون قد ألغيت المنطوق هناك.

فعندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١]، و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣]، ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٠]، ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:٣١]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، إلى غير ذلك مما يفيد أن القرآن وحي منزل من الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك السنة.

وقوله: (بمعونة المقام) فمن أي مقام يرد هذا الإيهام، والله عَزَّوَجَلَّ يمتنُّ على عباده بشيء له من المدح كذا وكذا، فهل يفيد ذلك أن غيره ليس له تلك المدائح!

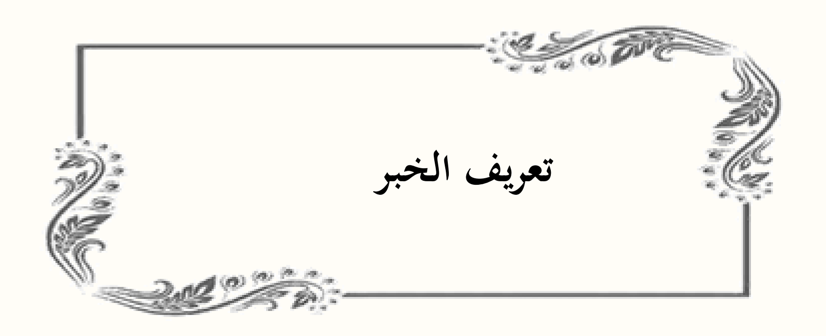
ولنفرض أنك فعلتَ فعلًا جليلًا فمدحتك لهذا الفعل، فهل يتنافى هذا مع كونك عندما تفعل فعلًا جليلًا آخر أن أمدحك بهذا الفعل الجليل الآخر؟

وصحيح أننا قد أجبنا على الإشكالين، ولكن هذا الإعراب يبقى ذا مؤونة ثقيلة، ويحتاج إلى دفع إشكالات متعددة، فيبقى أضعف من سابقة (سورة خبر لمبتدأ محذوف الذي لا إشكال فيه).

أما الاحتمال الأخير أن تقول: هذا اللفظ المجمل تفصيله: آية كذا وآية كذا إلى أن تنتهي السورة، فلا تتم الفائدة إلا مع مجيء آخر كلمة في السورة، وهذا في غاية البعد.

ولو قلتَ: سورة –بالنصب– فستكون فضلة متممة للمسند (مفعول به أو حال مقدم على ضميرها).

إنما لو جعلتَ سورة مرفوعة تكون قد فخَّمت أمرها؛ لأنك جعلتها أحد ركني الجملة سواء جعلتها مبتدأ أو خبرًا.



تعريف الخبر

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والخبر: الجزء المتم الفائدة   كالله بر والأيادي شاهده

وقد تعقب ابنُ عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى [٧٦٩هـ] ابنَ مالك بأن التعريف يجب أن يكون جامعًا مانعًا، أي: جامعًا وشاملًا لكل أفراد المعرَّف، ومانعًا من أن يدخل أي فرد غريب وخارج عن أفراد المعرَّف في التعريف مبينًا أن التعريف بالأعم لا يكون مانعًا، كتعريف الإنسان بأنَّه: حيوان يمشي على رجلين، فإن عددًا كبيرًا من الحيوانات يمشي على رجلين.

وأما التعريف بالأخص فلا يكون جامعًا، كتعريف الإنسان بأنه حيوان يقرأ ويكتب، فإنه غير جامع لجميع أفراد المعرَّف، وهو الإنسان؛ إذ من الإنسان ما لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشمله التعريف.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عرف المصنف الخبر بأنه: (الجزء المكمل للفائدة)، ويرد عليه: الفاعل، نحو: قام زيد؛ فإنه يصدق على زيد أنه الجزء المتم للفائدة.

وقيل في تعريفه: إنه الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة. ولا يرد الفاعل على هذا التعريف؛ لأنه لا ينتظم منه مع المبتدأ جملة، بل ينتظم منه مع الفعل جملة.

وخلاصة هذا: أنه عرَّف الخبر بما يوجد فيه وفي غيره، والتعريف ينبغي أن يكون مختصًا بالمعرف دون غيره" انتهى(1).

وإنما يرد هذا إن كان هو قصد ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن المرادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٧٤٩هـ] قد تعقب ابنَ عقيل فقال: "ليس مراده بالجزء: جزء الكلام مطلقًا فيلزمه ما ذكرت، وإنما المراد: جزء الجملة الاسمية.

ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: أن الباب موضوع لها.

والثاني: تمثيله بقوله:

كالله بر والأيادي شاهده.

فلم يدخل تحت كلامه: الفعل والفاعل، ولا الحرف أيضًا؛ لأنه لا يكون أحد جزءي الجملة الاسمية.

فإن قلت: إخراج المبتدأ بقوله: (المتم الفائدة) غير واضح؛ لأن المبتدأ أيضا يتم الفائدة، فإن الفائدة بهما حصلت.

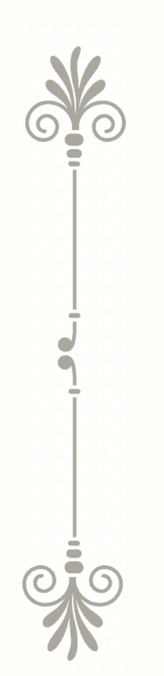
قلت: الخبر هو ثاني الجزءين، ولا إشكال في أن ثانيهما هو الذي به تتم الفائدة.

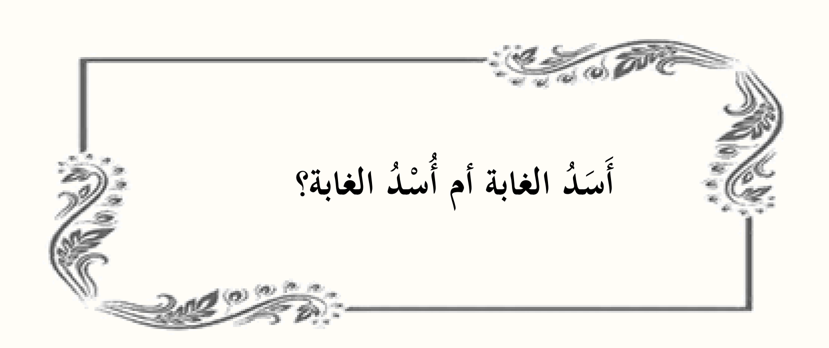
---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/٢٠١- ٢٠٢).



وأيضًا: فإن الخبر هو المستفاد من الجملة؛ ولذلك كان أصله: أن يكون نكرة، ولهذا قال أبو موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: المبتدأ معتمد البيان، والخبر معتمد الفائدة"[2].





أَسَدُ الغابة أم أُسْدُ الغابة؟

أيهما أبلغ أَسَدُ الغابة –بالإفراد– أم أُسْدُ الغابة –بالجمع–؟

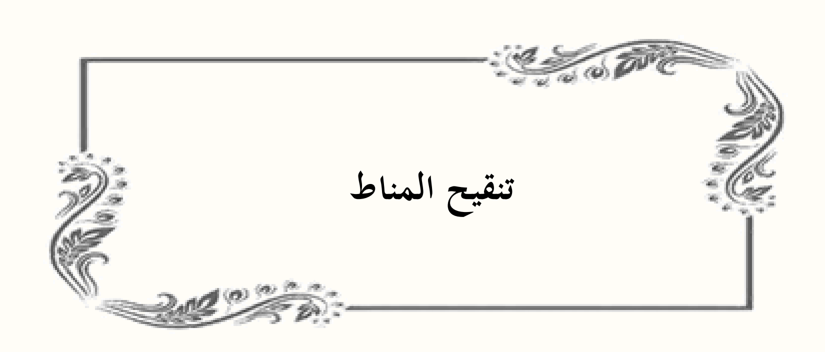
لا يخفى أن أَسد –بالإفراد– أبلغ؛ لأن التشبيه إنما يقع على الكتاب، فكأنه يقول: كتابي هو الملك، والكتب الأخرى بالنسبة له كالحيوانات الأخرى بالنسبة للأسد.

من محاضرة ١٤/٣/١٩٩٨م من محاضرة..أ.د إبراهيم خليفة

---

(١) انظر ذلك في: المقدمة الجزولية في النحو، للإمام أبي موسى عيسى بن يللبخت الجزولي المراكشي المتوفى سنة [٦٠٧هـ] (ص:٣٨)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت. وانظر: شرح التسهيل، لابن مالك (٢/٥١)، وانظر الفرق بين البيان والفائدة في (معجم الفروق اللغوية)، لأبي هلال العسكري (ص:٦٢)، ط: دار العلم والثقافة، القاهرة.

(٢) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي المصري المالكي (١/٤٧٤).



المناط: هو العلة التي نيط –أي: علق– بها الحكم.

وتنقيحه: أن تحذف من أوصاف الشيء ما لا دخل له في علية الحكم بحيث يستبين ويتعين الوصف الذي هو علة الحكم.

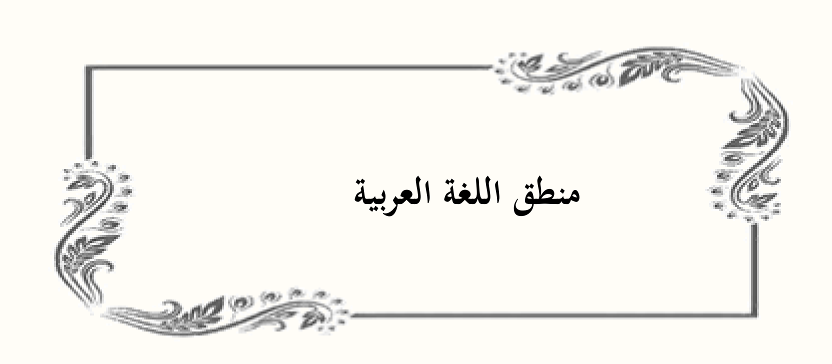
كأن تقول مثلًا: لا يصلح أن يكون أن تكون على تنصيف الجلد على الأمة الزانية: كونها أنثى، وإلا وجب التنصيف على كل متصف بالأنوثة،..وهكذا.

حتى يتعين كون وصف الرق هو العلة، فحينئذ تقول: العبد مثلها في ذلك الوصف، فيجب له ما وجب لها من الحكم.

من محاضرة..أ.د إبراهيم خليفة

وقد قالوا: أن يبين المستدل إلغاء الفارق بين الأصل والفرع وعدم تأثيره في الحكم؛ ليتعين المشترك للعلية[1].

(١) انظر: الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرنشاوي، محمد فرج سليم، محمد شوكت العدوي، الحسيني يوسف الشيخ (ص:٢٤٧-٢٥٠)، مطبعة الإخوة الأشقاء، ط١، القاهرة [١٣٨٤هـ، ١٩٦٥م]، نهاية السول شرح منهاج الوصول (ص:٣٣٥).



منطق اللغة العربية

اللغة العربية لها منطق يحكمها هو منطق الحياة والحركة، وأساليب دقيقة تتنوع على حسب المقصود؛ لتدلل عليه، فالفاعل –مثلًا- يجب أن يكون مرفوعًا، وهذا منطق الحضارة الإنسانية، فالأمة التي تصنع مقومات حياتها، كالدواء وتصنع سيارتها وطيارتها...، والذي يترقب حتى يقع عليه الفعل فهو مفعول به منصوب. والنصب له معنيان: عدم الحركة؛ ولذلك يقال: النصب التذكاري، وهو ما رفع من حجارة أو تماثيل تخليدًا للذكرى، أو العبادة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠]. والنُّصُبُ: بضم الصاد وسكونها: حجر كانوا ينصبونه في الجاهلية، ويتخذونه صنمًا فيعبدونه، والجمع: أنصاب.

وقيل: هو حجر كانوا ينصبونه، ويذبحون عليه فيحمر بالدم.

والنَّصَبُ: التعب والإعياء. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح:٧]. فهذا شأن النصب.

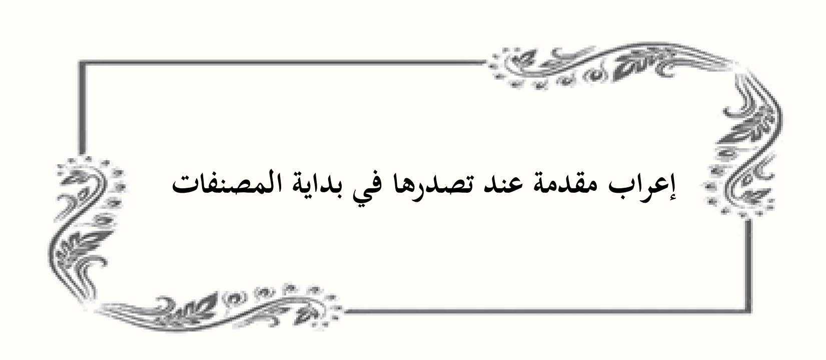
والمبتدأ إذا تقدم يجب أن يكون معرفة؛ لأن المبتدأ يقتضي خبرًا، وكل خبر هو حكم، ولا حكم على نكرة، فلا تحكم على النكرات وما لا تعرفه.

وتقول: جاء طفل يضحك، فجملة يضحك: نعت؛ لأن (طفل) نكرة، ولو قلت: جاء الطفل يضحك تصبح جملة: يضحك حالًا؛ لأن إذا التقيت بشخص تعرفه إنما تسأل عن حاله، ولكن إذا أردت أن تتعامل مع شخص لا تعرفه في نحو: تجارة، أو زواج..الخ فإنما تسأل عن صفاته من نحو كونه: ثقة وصالحًا..الخ.



ولذلك قولوا: الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال.

وفي قولنا: أنا أكتبُ الفعل هنا يرفع؛ لأنه يُنجز، وعندما أقول: أنا لم أكتبْ، فإنني أسكن الفعل؛ لأنني لم أفعل الكتابة، فالساكن: من السكون، وهو القرار وعدم الحركة...إلى غير ذلك.



إعراب مقدمة عند تصدرها في بداية المصنفات

في إعراب مقدمة عند تصدرها في بداية المصنفات والأبحاث أربعة أوجه:

١ – خبر مبتدأ محذوف: التقدير: هذه مقدمة.

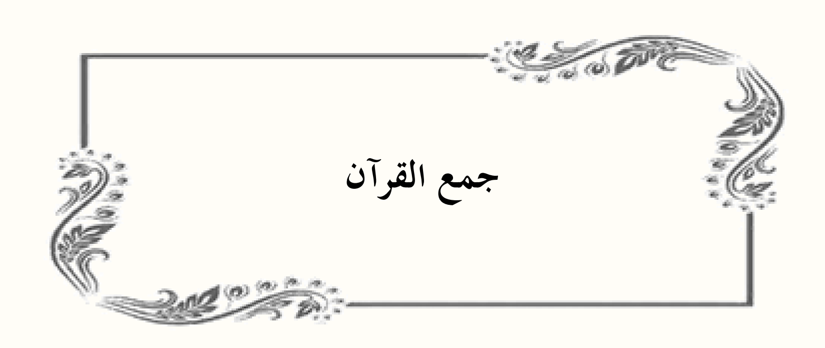
٢ – مبتدأ والخبر محذوف: التقدير: مقدمة أذكرها لكم، وقد بدأ بالنكرة، للتنوين الذي يدل على التنويع، كقولك: مقدمة لعلم المعاني، مقدمة لعلم البيان...الخ

٣ – مفعول به لفعل محذوف: التقدير: أذكر مقدمة.

٤ – الرابع، وهو ضعيف أنها منصوبة على نزع الخافض؛ لأن النصب على نزع الخافض سماعي، وليس قياسيًّا.

من محاضرة أ.د محمد سالم أبو عاصي





جمع القرآن

القرآن الكريم جمع على مراحل.

بعض الناس يظن أن جمع أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هو أول جمع للقرآن.

أول من جمع القرآن الكريم هو الله عَزَّ وَجَلَّ كما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧].

فالذي جمع القرآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كانت تنزل الآيات مفرقة فتوضع في أماكنها، وتحفظ في الصدور، وتكتب في الصدور.

وقبل وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وجمع القرآن، وقرأه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من مرة في السنوات الأخيرة من حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأول جمع هو جمع إلهي معصوم.

أ.د محمد عمارة

الفرق علم النحو وعلم البلاغة

علم النحو أصل في فهم المعنى، وعلم البلاغة أصل في مطابقة اللفظ للمعنى.

الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال

هذا في الاحتمالات المتكافئة التي لا معين لأحدها.

أنواع النسبة

١ – **النسبة الكلامية**: تعلق أحد الطرفين بالآخر في اللفظ، كقولنا: محمد عالم، فقد تعلق لفظ: (محمد) بالعالم في الكلام.

٢ – **النسبة الذهنية**: تعلق أحد الطرفين بالآخر بالذهن.

فعندنا نسبة ذهنية قائمة بالذهن أو العقل، وهي إسناد العلم إلى محمد.

ولذلك يقولون: الفكر يسبق اللغة. يعني: أنت تفكر ثم تتكلم، لا العكس.

٣ – **النسبة الخارجية**: هذه النسبة الكلامية هل طابقت ما في الخارج؟

فإن طابق ما في الخارج كان صدقا، وأن لم يطابق كان كذبًا.

والنسبة في علم البلاغة إذا كانت نسبة فعل إلى فاعل، أو مبتدأ إلى خبر فهي (**النسبة الإسنادية**)، لكن لو كانت فعل إلى مفعول فهي (**النسبة الإيقاعية**).

قال العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مختصر المعاني): "وينبغى أن يعلم أن المجاز العقلي يجرى في النسبة الغير الإسنادية أيضًا من الإيقاعية نحو: أعجبني إنبات الربيع البقل،

وجري الأنهار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء:٣٥]، و﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، ونومت الليل، وأجريت النهر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء:١٥١]"[(١)].

فالمجاز العقلي كما يأتي في النسبة الإسنادية يأتي في النسبة الإيقاعية.

الاستئناف البياني والاستئناف النحوي

الاستئناف في عمومه ابتداءُ جملةٍ في أثناء الكلامِ منفصلةٍ إعرابًا عمَّا قبلها، فإن اتصلت معنًى بما قبلها بتقدير جوابٍ لسؤال مقدر كانت استئنافًا بيانيًّا، وإن انفصلت عمَّا قبلها معنًى وإعرابًا كانت استئنافًا نحويًّا، مع التنبيه على أن الاستئناف البياني أقرب إلى مباحث البلاغيين في علم المعاني.

مجمع اللغة العربية ، الفتوى [١٠٣٦].

في

ومن معانيها: الظرفية.

وهي لغة: الوعاء.

واصطلاحًا: ما ذكره في (الخلاصة) بقوله: الظرف: وقت أو مكان ضمنًا في نحو قولك: صمت يومًا؛ فإنه ظرف مضمن معنى: (في)، أي: صمت في يوم كذا.

والظرفية إما حقيقية أو مجازية.

---

(١) مختصر المعاني (مختصر لشرح تلخيص المفتاح) (ص:٣٩). انظر: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٤١٥/١-٤١٦)، وانظر: حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون (ص:١٩٤)، دار الكتب العلمية، و(ص:٤٨) من طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، وانظر: حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي (٤٧٥/٢).

فالحقيقية: أن يكون للظرف احتواء، وللمظروف تحيز، كقولك: الماء في الكوز.

فإن انتفى الشرطان أو أحدهما فهي مجازية.

فمثال انتفاء الشرطين: الخير في العلم؛ فهي ظرفية مجازية.

ومثال انتفاء أحدهما، وهو إذا كان للظرف احتواء وليس للمظروف تحيز قولك: العلم في الصدور.

ومثال ما إذا كان للمظروف تحيز وليس للظرف احتواء قولك: زيد في البرية.

وتأتي للسببية كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**دخلت امراة النار في هرة** -أي: بسبب هرة-..)) الحديث.

شرح متن الآجرومية، للشيخ عبد الله ابن الفاضل الشيخ العشماوي (ص:٢٨-٢٩)، وانظر: الكليات، لأبي البقاء الكفوي (ص:٥٩١).

اسم جنس الجمعي واسم جنس الإفرادي

اسم الجنس على نوعين: أحدهما يقال له: (اسم جنس جمعي)، والثاني يقال له: (اسم جنس إفرادي)، فأما (اسم الجنس الجمعي) فهو ما يدل على أكثر من اثنين. ويفرق بينه وبين واحده بالتاء، والتاء غالبًا تكون في المفرد، كبقرة وبقر، وشجرة وشجر، ومنه: كلم وكلمة.

وربما كانت زيادة التاء في الدال على الجمع مثل: كمء للواحد وكمأة للكثير، وهو نادر.

وقد يكون الفرق بين الواحد والكثير بالياء، كزنج وزنجي، وروم ورومي.

فأما (اسم الجنس الافرادي) فهو ما يصدق على الكثير والقليل واللفظ واحد، كماء وذهب وخل وزيت.



فإن قلت: **فإني أجد كثيرًا من جموع التكسير يفرق بينها وبين مفردها بالتاء، كما يفرق بين اسم الجنس الجمعي وواحده، نحو: قرى وواحده: قرية، ومدى وواحده: مدية، فبماذا أفرق بين اسم الجنس الجمعي وما كان على هذا الوجه من الجموع؟**

فالجواب على ذلك أن تعلم أن بين النوعين اختلافًا من وجهين:

الوجه الاول: أن الجمع لا بد أن يكون على زنة معينة من زنات الجموع المحفوظة المعروفة، فأما اسم الجنس الجمعي فلا يلزم فيه ذلك، أفلا ترى أن بقرًا وشجرًا وثمرًا لا يوافق زنة من زنات الجمع!

والوجه الثاني: أن الاستعمال العربي جرى على أن الضمير وما أشبهه يرجع إلى اسم الجنس الجمعي مذكرًا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٧٠]، وقوله جل شأنه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

فأما الجمع فإن الاستعمال العربي جرى على أن يعود الضمير إليه مؤنثًا، كما تجد في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر:٢٠]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [العنكبوت:٥٨].

منحة الجليل، محمد محيي الدين عبد الحميد (١/١٥-١٦).

الفرق بين الجنس واسم الجنس

قال الجرجاني رَحِمَهُٱللَّهُ: اسم الجنس: ما وضع لأن يقع على شيء، وعلى ما أشبهه، كالرجل؛ فإنه موضوع لكل فرد خارجي على سبيل البدل من غير اعتبار تعينه.



والفرق بين الجنس واسم الجنس: أن الجنس يطلق على القليل والكثير، كالماء؛ فإنه يطلق على القطرة والبحر، واسم الجنس لا يطلق على الكثير، بل يطلق على واحد على سبيل البدل؛ كرجل، فعلى هذا كان كل جنس اسم جنس، بخلاف العكس.

التعريفات، للجرجاني (ص:٢٥).

الفرق قرينة المشترك وقرينة المجاز

قرينة المشترك مُعَيِّنة للمراد، وقرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

والاشتراك عكس الترادف، فالاشتراك: لفظ واحد يدل على معاني مختلفة، والترادف: ألفاظ متعددة على معنى واحد.

المشترك قسمان: لفظي ومعنوي. **فاللفظي**: لا توجد علاقة بين أفراده، مثل العين: للباصرة، وللجارية، وللجاسوس، فلا علاقة بين هذه المعاني.

والمشترك المعنوي: توجد علاقة بين أفراده في أصل المعنى دون فرعه مثل القلم فجميع الأقلام مشتركة في أصل المعنى ومختلفة في بعض القيود.





فهرس الموضوعات











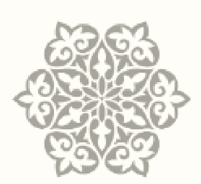



أساليب النداء في القرآن الكريم

****


أساليب النداء في القرآن الكريم







فهرس المصادر والمراجع

١. إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السَّبع، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، القاهرة.

٢. الإبهاج، للسبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى [١٤٠٤].

٣. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار الكتب العلمية، لبنان [١٤١٩هـ].

٤. إجابة السائل شرح بغية الآمل، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٨٦].

٥. الاجتهاد، للجويني، دار القلم، دارة العلوم الثقافية، دمشق ، بيروت، [١٤٠٨].

٦. الأحرف السَّبعة للقرآن، لأبي عمرو الداني، مكتبة المنارة، مكة المكرمة [١٤٠٨هـ].

٧. أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، [١٤٠٥].

٨. أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٩. أحكام القرآن، للجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠٥هـ].

١٠. أحكام القرآن، محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، [١٤٠٠].

١١. الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، بيروت [١٤٠٤].

١٢. الإحكام، لابن حزم الأندلسي، دار الحديث، القاهرة [١٤٠٤].

١٣. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

١٤. الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد النحوي الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، ومن منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق [١٩٧١م].

١٥. الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة [١٣٩٩هـ].

١٦. أسرار العربية، لأبي البركات الأنباري، دار الجيل، بيروت [١٩٩٥م].

١٧. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، للعز بن عبد السلام، وقد اعتمت على النسخة الأصلية طبع المكتبة العامرة، القاهرة، ودار المعرفة، بيروت لبنان [١٣١٣هـ].

١٨. الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، طبع مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الثَّالثة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

١٩. أصول البزدوي (كنز الوصول إلى معرفة الأصول)، علي بن محمد البزدوي الحنفي، مطبعة جاويد بريس، كراتشي.

٢٠. أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، [١٣٧٢].



٢١. أصول الشاشي، أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي أبو علي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٢].

٢٢. أصول الفقه الإسلامي، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا [١٤١٧هـ].

٢٣. الأصول في النحو، لابن السراج النحوي البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٨٨].

٢٤. الأصول من علم الأصول، محمد بن صالح العثيمين، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، الرياض [١٤٠٤هـ].

٢٥. أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].

٢٦. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش ، طبع دار اليمامة، ودار ابن كثير، دمشق، وبيروت، ودار الإرشاد في حمص، الطبعة الخامسة [١٤١٧هـ].

٢٧. إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، طبع عالم الكتب، بيروت [١٤٠٩هـ].

٢٨. الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت [١٩٩٢م].

٢٩. الإكسير في علم التفسير، للطوفي، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، الحلمية الجديدة، القاهرة [١٣٩٧هـ].

٣٠. إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، للحافظ أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، طبع دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].

٣١. ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محمد بن عبد الله بن مالك، طبع دار القلم، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

٣٢. الأمالي الشجرية، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني المعروف بابن الشجري، طبع دار المعرفة، بيروت، وطبعة أخرى بتحقيق: د. محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، مصر [١٩٩٢م].

٣٣. الأمالي في لغة العرب، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٨هـ].

٣٤. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات عبد الرحمن الأنباري، دار الفكر، دمشق.

٣٥. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت [١٩٧٩].

٣٦. الإيضاح شرح المفصل، لابن الحاجب، طبع وزارة الأوقاف العراقية [١٩٨٢م].

٣٧. الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤١٩هـ].

٣٨. الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، للصاحب محيي الدين يوسف بن عبد الرحمن بن الجوزي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤٥١هـ].

٣٩. البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤١٣هـ].

٤٠. بديع القرآن، ابن أبي الإصبع، تحقيق: محمَّد حنفي شرف، طبع دار نهضة مصر، القاهرة.

٤١. بديع القرآن، دراسة تاريخيَّة نقديَّة، د. محمَّد إقبال عروي، إدارة الثقافة الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٣٠هـ].

٤٢. البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٨].



٤٣. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار المعرفة، بيروت [١٣٩١].

٤٤. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، طبع مكتبة الآداب [١٤٢٦هـ].

٤٥. البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، طبع دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت [١٤١٦هـ].

٤٦. البيان والتبيين، للجاحظ، دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى [١٩٦٨م].

٤٧. تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان [١٤٠١هـ].

٤٨. التبصرة في أصول الفقه، لأبي إسحاق الشيرازي، دار الفكر، دمشق، [١٤٠٣].

٤٩. التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، طبع إحياء الكتب العربية.

٥٠. التبيان في تفسير غريب القرآن، لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا [١٩٩٢].

٥١. تحبير التيسير في القراءات العشر، شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري، تحقيق: د.أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، الأردن، عمان [١٤٢١هـ].

٥٢. التحبير شرح التحرير، للمرداوي الحنبلي، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢١هـ].

٥٣. التحصيل من المحصول، لسراج الدين الأرموي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٨هـ].

٥٤. التذكرة في القراءات الثمان، طاهر بن عبد المنعم بن غلبون، نشر الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة [١٩٩١م].

٥٥. التَّذهيب على تهذيب المنطق والكلام للتَّفتازاني مع الحواشي، طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٥٥].

٥٦. التسهيل، محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي، دار هجر [١٩٩٠م].

٥٧. التصريح بمضمون التوضيح، خالد الأزهري، طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

٥٨. تعجيل الندى بشرح قطر الندى، عبد الله بن صالح الفوزان، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى [١٤٢٧هـ].

٥٩. التعريفات، للجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٥].

٦٠. تفسير ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض [١٤١٩هـ].

٦١. تفسير ابن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].

٦٢. تفسير ابن جزي، دار الأرقم، بيروت [١٤١٦هـ].

٦٣. تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت [١٤١٩هـ].

٦٤. تفسير ابن عجيبة (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة [١٤١٩هـ].

٦٥. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].

٦٦. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.



٦٧. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].

٦٨. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٠هـ].

٦٩. تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٧٠. تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت [١٤١٦].

٧١. التفسير التحليلي لسورة النساء، الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر بالقاهرة ، مطبعة الفجر الجديد [٤٤] شارع الكبارى منشية ناصر بالدراسة ، القاهرة [١٤١٤هـ].

٧٢. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٧٣. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].

٧٤. تفسير السمعاني، دار الوطن، الرياض [١٤١٨هـ].

٧٥. تفسير السيوطي (الدر المنثور)، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].

٧٦. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].

٧٧. تفسير العز بن عبد السلام (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٦هـ].

٧٨. تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٨هـ].

٧٩. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].

٨٠. تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، لأبي محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرش، دار الغرب الإسلامي [٢٠٠٣م].

٨١. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].

٨٢. تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

٨٣. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٠هـ].

٨٤. تفسير الماوردي (النكت والعيون)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٥. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب [١٩٩٠م].

٨٦. تفسير النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].

٨٧. تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٦هـ]

٨٨. تفسير مجاهد، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر [١٤١٠هـ].

٨٩. التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، لابن حزم، دار مكتبة الحياة، بيروت [١٩٠٠].

٩٠. التلخيص في أصول الفقه، للجويني، دار البشائر الإسلامية [١٤١٧هـ].

٩١. التلويح على التوضيح، لسعد الدين بن عمر التفتازاني، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية، للخشاب بمصر [١٣٢٢هـ]، وطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة [١٣٧٧هـ].

٩٢. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت [١٩٨٧].

٩٣. التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠].

٩٤. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام، دار الفكر، بيروت [١٩٩٦].

٩٥. تهذيب اللغة، للأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢١هـ].

٩٦. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لأبي محمد المرادي المصري المالكي، دار الفكر العربي [١٤٢٨هـ].

٩٧. توضيح المنطق القديم، للأستاذ الدكتور محيي الدين الصافي أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر بالقاهرة...من مطبوعات الكلية.

٩٨. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].

٩٩. تيسير التحرير، محمد أمين المعروف بأمير بادشاه، دار الفكر.

١٠٠. تيسير الوصول إلى منهاج الأصول من المنقول والمعقول، لابن إمام الكاملية، دار الفاروق، مصر [١٤٢٣هـ].

١٠١. التيسير في القراءات السبع، للداني، طبع دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٤هـ].

١٠٢. ثلاث رسائل في النحو، لابن هشام، الرسالة الأولى: المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية، والرسالة الثانية: إعراب عشرة ألفاظ، والرسالة الثالثة: مسائل في النحو وأجوبتها، تحقيق: نصر الدين فارس، وعبد الجليل زكريا، طبع دار المعارف، حمص، سوريا، الطبعة الأولى، نيسان [١٩٨٧م].

١٠٣. الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبد الرحيم صافي، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، دمشق [١٤١٨هـ].

١٠٤. الجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي، الطبعة الخامسة، تحقيق: د.فخر الدين قباوة.

١٠٥. جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، [١٩٨٨]، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش.

١٠٦. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].

١٠٧. حاشية الآجرومية، عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الرابعة [١٤٠٨هـ].

١٠٨. حاشية البناني على شرح الجلال شمس الدين محمد بن أحمد المحلي، على متن جمع الجوامع لتاج الدين عبد الوهاب السبكي، للعلامة عبد الرحمن بن جاد الله البناني، طبع دار إحياء الكتب العربية، لعيسى البابي الحلبي، بالقاهرة.

١٠٩. حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ..

١١٠. حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، مصطفى محمد عرفة الدسوقي، طبع مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة [١٣٨٦هـ].

١١١. حاشية الشهاب الخفاجي المسماة: (عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي، طبع دار صادر، بيروت.

١١٢. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، الشيخ أحمد بن محمد الصاوي المصري الخلوتي المالكي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٣. حاشية العطار على جمع الجوامع، حسن العطار، دار الكتب العلمية، [١٤٢٠هـ]، بيروت.

١١٤. حاشية العلامة سعد الدين التفتازاني، وحاشية السيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدين لمختصر المنتهى، الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق، مصر [١٣١٦هـ]، الطبعة الثانية [١٤٠٣هـ]، وقد أعادت طباعتها كما هي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١٥. حاشية على شرح الخبيصي لتهذيب المنطق، المطبعة الحميدية المصرية [١٣٣١هـ]، الطبعة الأولى.

١١٦. حاشية محمد الأمير على مغني اللبيب، طبع المكتبة التجارية، القاهرة [١٣٧٢هـ].

١١٧. حاشية نسمات الأسحار، لابن عابدين على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار، طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة خلف الجامع الأزهر.

١١٨. الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

١١٩. حجة القراءات، لابن زنجلة، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٢هـ].

١٢٠. الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، دار الشروق، بيروت [١٤٠١هـ].

١٢١. الحدود الأنيقة، لزكريا الأنصاري، دار الفكر المعاصر، بيروت.

١٢٢. حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، للشاطبي، دار الكتاب النفيس، بيروت [١٤٠٧].

١٢٣. حروف المعاني، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٨٤].

١٢٤. خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين علي بن عبد الله الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [١٩٨٧].

١٢٥. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، إميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية [١٩٩٨م].

١٢٦. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، دار الكتب العلمية [١٩٩٨م].

١٢٧. الخصائص، لابن جني، عالم الكتب، بيروت.

١٢٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، جاد مخلوف جاد، زكريا عبد المجيد النوتي، الدكتور أحمد محمد صيرة، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤١٤هـ].

١٢٩. الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد ، لابن الحفيد، طبع دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٠هـ].

١٣٠. الدروس العربية، مصطفى غلاييني، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان [١٤١٧هـ].

١٣١. دستور العلماء، للقاضي عبد رب النبي نكري، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت [١٤٢١هـ].

١٣٢. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، طبع مكتبة سعد الدين، دمشق.

١٣٣. الذخيرة، للقرافي، دار الغرب، [١٩٩٤م].

١٣٤. رسالة التوحيد، محمد عبده، مطابع دار الكتاب العربي [١٩٦٦].

١٣٥. رسالتان في اللغة، لأبي الحسن الرماني، دار الفكر، عمان [١٩٨٤].

١٣٦. رسائل الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨٤هـ].

١٣٧. رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق [١٣٩٤].

١٣٨. رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، تاج الدين السبكي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].

١٣٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠٥هـ].

١٤٠. روضة الناظر وجنة المناظر، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الثانية [١٣٩٩].

١٤١. الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لأبي منصور الهروي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٣٩٩].

١٤٢. الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].

١٤٣. السبعة في القراءات، لابن مجاهد التميمي البغدادي، دار المعارف، القاهرة [١٤٠٠هـ].

١٤٤. سر صناعة الإعراب، لابن جني، دار القلم، دمشق [١٩٨٥].

١٤٥. السراج المنير، للخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة [١٢٨٥هـ].

١٤٦. سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٣هـ].

١٤٧. شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذانين، دار الفكر، دمشق [١٩٨٥].

١٤٨. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، ومعه حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، ومعه شرح الشواهد للعيني ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

١٤٩. شرح البدخشي (مناهج العقول) للإمام محمد بن الحسن البدخشي، ومعه شرح الإسنوي (نهاية السول) للإمام جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، وكلاهما على منهاج الوصول في علم الأصول، للقاضي البيضاوي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى [١٤٠٥هـ].

١٥٠. شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري، طبع مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بلا تاريخ...

١٥١. شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].

١٥٢. شرح الدماميني على مغني اللبيب، منشور مع حاشية الشمني، نشر المطبعة البهية بمصر.

١٥٣. شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي جميع حقوق الطبع محفوظة [١٣٩٨هـ]، جامعة قاريونس طبعة جديدة مصححة ومذيلة بتعليقات مفيدة الجزء الأول تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر الأستاذ بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية.

١٥٤. شرح السلم مع شرحه (إيضاح المبهم) للأخضري عبد الرحمن بن محمد النيطوسي المغربي المالكي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٦٧هـ].

١٥٥. شرح الشيخ درويش القويسني على متن السلم في علم المنطق، للعلامة الشيخ عبد الرحمن الأخضري، وعليها بعض تقارير لحضرة الشيخ عمر الدوري الشافعي، النسخة الأصلية، وقد بيع الكتاب في مكتبة دار الأمان، [٤] زنقة المامونية، الرباط، المغرب.

١٥٦. شرح الكافية الشافية، لابن مالك، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، طبع جامعة أم القرى، مكة المكرّمة، الطبعة الأولى [١٩٨٢].

١٥٧. شرح الكوكب المنير، محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، مكتبة العبيكان، الرياض [١٤١٣هـ].

١٥٨. شرح المحلي على جمع الجوامع، لجلال الدين المحلي، دار إحياء الكتب العربية، لعيسى البابي الحلبي بالقاهرة، مطبوع بهامش حاشية البناني.

١٥٩. شرح المعلقات السبع، تأليف: الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى [١٤٢٣هـ].

١٦٠. شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، طبع إدارة الطباعة المنيرية، مصر، وعليه تعليقات لبعض علماء الأزهر.

١٦١. شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢].

١٦٢. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، طبع عالم الكتب، بيروت مصوّرة عن طبعة بولاق.

١٦٣. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، [١٩٨٤]، الطبعة الأولى، تحقيق: عبدالغني الدقر، وقد اعتمدت أيضاً على نسخة أخرى طبع المكتبة العصرية، صيدا، [١٤١٦هـ].

١٦٤. شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار الحياة، بيروت، بلا تاريخ..

١٦٥. شرح مغني اللبيب، الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، طبع المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب [١٤٢١هـ].

١٦٦. شرح ملحة الأعراب في صناعة الإعراب ، نظمها وشرحها الحريري صاحب المقامات، طبع بولاق، القاهرة.

١٦٧. شرح منتهى الإرادات المسمى دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، عالم الكتب، بيروت [١٩٩٦م].

١٦٨. شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ..

١٦٩. الشواهد على القواعد، عبد الله أحمد الخضيري، منشورات مركز الإدارة الحديثة ، الكويت [١٩٩٧م].

١٧٠. الصاحبي، أحمد بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

١٧١. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي، دار الفكر، دمشق [١٩٨٧].

١٧٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، دار العلم للملايين، بيروت [١٤٠٧هـ].

١٧٣. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٠٦هـ].

١٧٤. طرق الاستدلال ومقدماتها عند المناطقة والأصوليين، للدكتور يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين، مكتبة الرشد بالرياض [١٤٢٢هـ].

١٧٥. عجائب علوم القرآن الكريم، لابن الجوزي، حققه: الدكتور عبد الفتاح عاشور، الزهراء للإعلام العربي، مدينة نصر، القاهرة [١٤٠٧هـ].

١٧٦. العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى، محمد بن الحسين الفراء، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].

١٧٧. علل النحو، لأبي الحسن محمد بن عبد الله الوراق، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٠هـ].

١٧٨. علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم.

١٧٩. عمدة الأحكام، تقي الدين أبي الفتح ابن دقيق العيد، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨١. العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي.

١٨٢. غاية المرام في علم الكلام، للآمدي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة [١٣٩١].

١٨٣. غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، محمد بن عزير السجستاني، دار قتيبة، سوريا [١٤١٦هـ].

١٨٤. غمز عيون البصائر شرح كتاب (الأشباه والنظائر)، لابن نجيم المصري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

١٨٥. الفائق في أصول الفقه، لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي، دار الاتحاد الأخوي للطباعة، القاهرة [١٩٩٠م].

١٨٦. الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، دار المعرفة، لبنان.

١٨٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].

١٨٨. الفروق، للقرافي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

١٨٩. الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمداني، تحقيق: د.محمد حسن النمر ، فؤاد علي مخيمر، طبع دار الثقافة، الدوحة، قطر [١٤١١هـ].

١٩٠. الفصول في الأصول، للجصاص، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة الكويت [١٤١٤هـ].

١٩١. فقه اللغة، لابن فارس، طبع المكتبة السلفية، [١٣٢٨].

١٩٢. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الملقب بصلاح الدين، دار صادر، بيروت [١٩٧٤].

١٩٣. فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، لمحب الدين عبد الشكور، لعبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري، المطبعة الأميرية ببولاق مصر، مطبوع بهامش المستصفى [١٣٢٢هـ].

١٩٤. الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة، لابن عابدين الدمشقي الحنفي، دار الرائد العربي، بيروت [١٤١٠هـ].

١٩٥. الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٣هـ].

١٩٦. في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة [١٤٠٦هـ].

١٩٧. القرآن من المتكلم؟ نبيل عبد السلام هارون، للجامعات للنشر والتوزيع، مصر [٢٠٠٠].

١٩٨. قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر السمعاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٩٩٧م].

١٩٩. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠٠. قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الصدف بلشرز، كراتشي [١٤٠٧].

٢٠١. القواعد والفوائد الأصولية، علي بن عباس البعلي الحنبلي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة [١٣٧٥].

٢٠٢. الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، دار الفكر العربي، القاهرة [١٤١٧هـ].

٢٠٣. الكتاب، لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، جمهورية مصر العربية، القاهرة [١٤١٦هـ].

٢٠٤. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجتها، لمكي بن أبي طالب، مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢٠٥. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الحنفي الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٠٦. الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، للإسنوي، دار عمار، عمان، الأردن [١٤٠٥هـ].

٢٠٧. اللامات، لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق، دار الفكر، دمشق، [١٩٨٥].

٢٠٨. لباب المحصول في علم الأصول، لابن رشيق المالكي، طبع دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، حكومة دبي [١٤٢٢هـ].

٢٠٩. اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين، دار الفكر، دمشق [١٩٩٥].

٢١٠. اللمحة في شرح الملحة، محمد بن الحسن الصايغ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٢٤هـ].

٢١١. اللمع في أصول الفقه، لأبي إسحاق الشيرازي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٢١٢. اللمع في العربية، لابن جني، دار الكتب الثقافية، الكويت [١٩٧٢م].

٢١٣. متن القصيدة النونية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية: [١٤١٧هـ].

٢١٤. المثل السائر، لأبي الفتح ضياء الدين الموصلي، المكتبة العصرية، بيروت [١٩٩٥].

٢١٥. مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، جمهورية مصر العربية، القاهرة، بلا تاريخ.

٢١٦. مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، تحقيق: عبد السلام هارون، طبع دار المعارف، القاهرة [١٩٦٩م].



٢١٧. مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

٢١٨. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء [١٤٢٦هـ].

٢١٩. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية [١٤١٦].

٢٢٠. مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن، دار الثريا، السعودية [١٤١٣هـ].

٢٢١. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، لابن جني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة [١٣٨٦هـ].

٢٢٢. المحصول في أصول الفقه، لأبي بكر بن العربي المعافري المالكي، دار البيارق، الأردن [١٤٢٠هـ].

٢٢٣. المحصول في علم الأصول، للرازي، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض [١٤٠٠].

٢٢٤. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، دار الكتب العلمية بيروت [٢٠٠٠م].

٢٢٥. المحلى، لابن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٢٦. مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، الطبعة الأولى [١٤١١هـ].

٢٢٧. المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة.

٢٢٨. المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].

٢٢٩. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن بدران الدمشقي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠١].

٢٣٠. مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طبع دار القلم، بيروت [١٣٩١هـ].

٢٣١. مراقي السعود، سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي، دار المنارة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى [١٤١٦هـ].

٢٣٢. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت [١٤٠٨هـ].

٢٣٣. المستصفى في علم الأصول، للغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣].

٢٣٤. المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٩٨٦].

٢٣٥. المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٩٨٧].

٢٣٦. المسودة في أصول الفقه، عبد السلام عبد الحليم أحمد بن عبد الحليم آل تيمية، المدني، القاهرة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢٣٧. مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد، مؤسسة الرسالة بيروت [١٤٠٥].

٢٣٨. مصابيح المعاني في حروف المعاني، محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم الخطيب الموزعي، دار زاهد القدسي، عابدين، القاهرة [١٤١٥هـ].



٢٣٩. المصاحف، لأبي بكر بن أبي داود السجستاني عبد الله بن سليمان بن الأشعث، القاهرة [١٤٢٣هـ].

٢٤٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٤١. المطلع على أبواب الفقه، محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠١].

٢٤٢. المطول شرح تلخيص المفتاح، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، سعد الدين التفتازاني، طبع الآستانة [١٣٣٠هـ]، وقد أعيد نسخ الكتاب في مكتبة الكليات الأزهرية للتراث، درب الأتراك خلف الجامع الأزهر.

٢٤٣. معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، محمَّد بنْ حسَيْن بن حسن الجيزاني، دار ابن الجوزي [١٤٢٧هـ].

٢٤٤. معاني الحروف، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي، حققه عبد الفتاح إسماعيل شلبي، طبع دار نهضة مصر، القاهرة [١٩٧٣م].

٢٤٥. معاني القرآن الكريم، لأبي جعفر النحاس، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٩].

٢٤٦. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].

٢٤٧. معاني القرآن، للأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي، دراسة وتحقيق: د. عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى [١٤٢٤هـ].

٢٤٨. معاني القرآن، للفراء، الدار المصرية للتأليف والترجمة، وتصوير دار السرور، القاهرة.

٢٤٩. المعتمد في أصول الفقه، محمد بن علي بن الطيب البصري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣].

٢٥٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار الحديث، القاهرة [١٤١٧هـ].

٢٥١. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت [١٩٥٧م].

٢٥٢. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٢٥٣. المغرب في ترتيب المعرب، لأبي الفتح ناصر الدين المطرزي الحنفي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب [١٩٧٩].

٢٥٤. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، [١٩٨٥]، تحقيق: د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله.

٢٥٥. المغني في أصول الفقه، جلال الدين الخبَّازي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٣هـ].

٢٥٦. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت [١٤١٢هـ].

٢٥٧. المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري، مكتبة الهلال، بيروت [١٩٩٣م].

٢٥٨. مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، الطبعة [١٣٩٩هـ].

٢٥٩. المقتضب، للمبرد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٤١٥هـ].

٢٦٠. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، [١٩٩٦].

٢٦١. منة المنان في علوم القرآن، للعلامة إبراهيم خليفة، مطبعة الفجر الجديد، [٤٤] شارع الكباري بمنشية ناصر، الدراسة، القاهرة، الطبعة الأولى [١٤١٥هـ].



٢٦٢. منع الموانع عن جمع الجوامع في أصول الفقه، للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٢٠هـ].

٢٦٣. الموافقات، للشاطبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى [١٤١٧هـ].

٢٦٤. المواقف، عضد الدين الإيجي، دار الجيل، بيروت [١٩٩٧م].

٢٦٥. الموجز في أصول الفقه، عبد الجليل القرنشاوي، ومحمد فرج سليم، ومحمود شوكت العدوي، والحسيني يوسف الشيخ، مطبعة الأخوة الأشقاء، القاهرة، الطبعة الثانية [١٣٨٤هـ].

٢٦٦. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].

٢٦٧. موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، خالد بن عبدالله الأزهري، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٩٦].

٢٦٨. موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، خالد بن عبدالله الأزهري، مؤسسة الرسالة، بيروت، [١٩٩٦].

٢٦٩. موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد، أبو ظبي [١٤٢٥هـ]

٢٧٠. النبأ العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم ، الكويت [١٩٨٤م].

٢٧١. نثر الورود على مراقي السعود، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار المنارة، جدة [١٤١٥هـ].

٢٧٢. النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة.

٢٧٣. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٤هـ].

٢٧٤. نشر البنود على مراقي السعود، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملة المغربية، وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة. بلا تاريخ.

٢٧٥. النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، المكتبة التجارية، القاهرة، مصر. ودار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧٦. نفائس الأصول في شرح المحصول، للقرافي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مصر [١٤١٦هـ].

٢٧٧. نهاية السول شرح منهاج الوصول، جمال الدين الإسنوي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٠هـ].

٢٧٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].

٢٧٩. نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].

٢٨٠. الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة [١٤٢٩هـ].

٢٨١. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، بلا تاريخ.

٢٨٢. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، دار إحياء التراث، بيروت [١٤٢٠هـ].

٢٨٣. وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت.

اصطلاحات: [ ] للإدراج والأرقام، و( ) للجزء والصفحة.

وقد اعتمدت في بعض المصادر على أكثر من طبعة.



المؤلف في سطور

الاسم : عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد : من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة : الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات :

١ – حاصل على شهادة المعهد العلمي الشَّرعي التابع لجمعيَّة العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثَّانوية الأزهريَّة (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ – حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جدًّا، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ – حاصل على درجة دبلوم الدِّراسات العليا (الماجستير) في التَّفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ – حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٣٠/٧/٢٠١١)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرِّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُوَجِّهًا فنيًّا في المراقبة الثَّقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانيَّة)، ثمَّ باحثًا شرعيًّا متفرغًا للبحث



والدراسة والتحقيق [١٤] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانيَّة) [١٥] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت - العارضية).

الكتب والمؤلفات:

١ - الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢ - وسائل الإقناع في القرآن الكريم، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٣ - أساليب الخطاب في القرآن الكريم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٤ - أخطار تهدد الأسرة، وزارة الأوقاف، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الكويت [١٤٣٥هـ].

٥ - المحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٦ - عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٧ - دروس وعبر من رحلة سيد البشر صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].



٨ - نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار. والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٩ - سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٠ – الإرشاد إلى أسباب النجاة، لم يطبع.

١١ - آيات النداء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١٢ - تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربّه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٣ – مذكرة في علوم القرآن. مقرر الفصل الثاني للعام الجامعي [٢٠١٧ – ٢٠١٦م] في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية الأساسية، (الكويت - العارضية).

١٤ - آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٥ – كتب عليكم الصيام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٦ - ثلاث رسائل في الفقه، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. دُرُّ الكُنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز. وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. سعادة الماجد بعمارة المساجد.

ج. إتحاف ذوي الإتقان بحكم الرهان. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].



١٧ – عنوان الأصول، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ – أحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٩ – إتحاف المهتدين بمناقب أئمَّة الدِّين مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمَّة المجتهدين) للعلاَّمة الشيخ مرعي الحنبلي، للعلامة الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢٠ – تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء (أ. داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا، للإمام أحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي. وشرح منظومة الشهداء، للإمام علي بن محمَّد الأجهوري)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢١ – تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥ هـ]. (أ. رسالة في جواز النسخ. ب. الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٢ – دراسة وتحقيق (سورة الفاتحة) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧هـ]، لم يطبع.

٢٣ – تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (إتمام الدراية شرح نقاية العلوم)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٤ – الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٥ – الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٦ – تذكرة وبيان من علوم القرآن، لم يطبع بعد.

الأبحاث:

١ – مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف، (محكم)، جامعة النيلين، السودان.



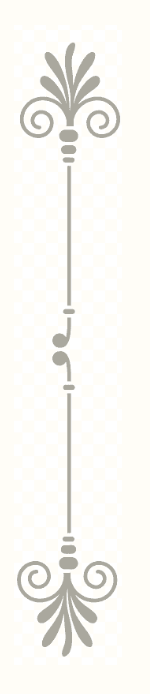
٢ – ضوابط التفسير العلمي فيما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة والمفسِّرَ والنَّص.

٣ – الحوار والمناظرة والجدل من خلال نصوص القرآن الكريم.

٤ – فقه التمثيل بين الإقناع والإمتاع.

٥ – الأقْسَام بين تحقيق الخبر وتوجيه النظر.

٦ — التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري.



الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الإيميل: Abdkader199@yahoo.com



@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979









@DarElollaa @DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

